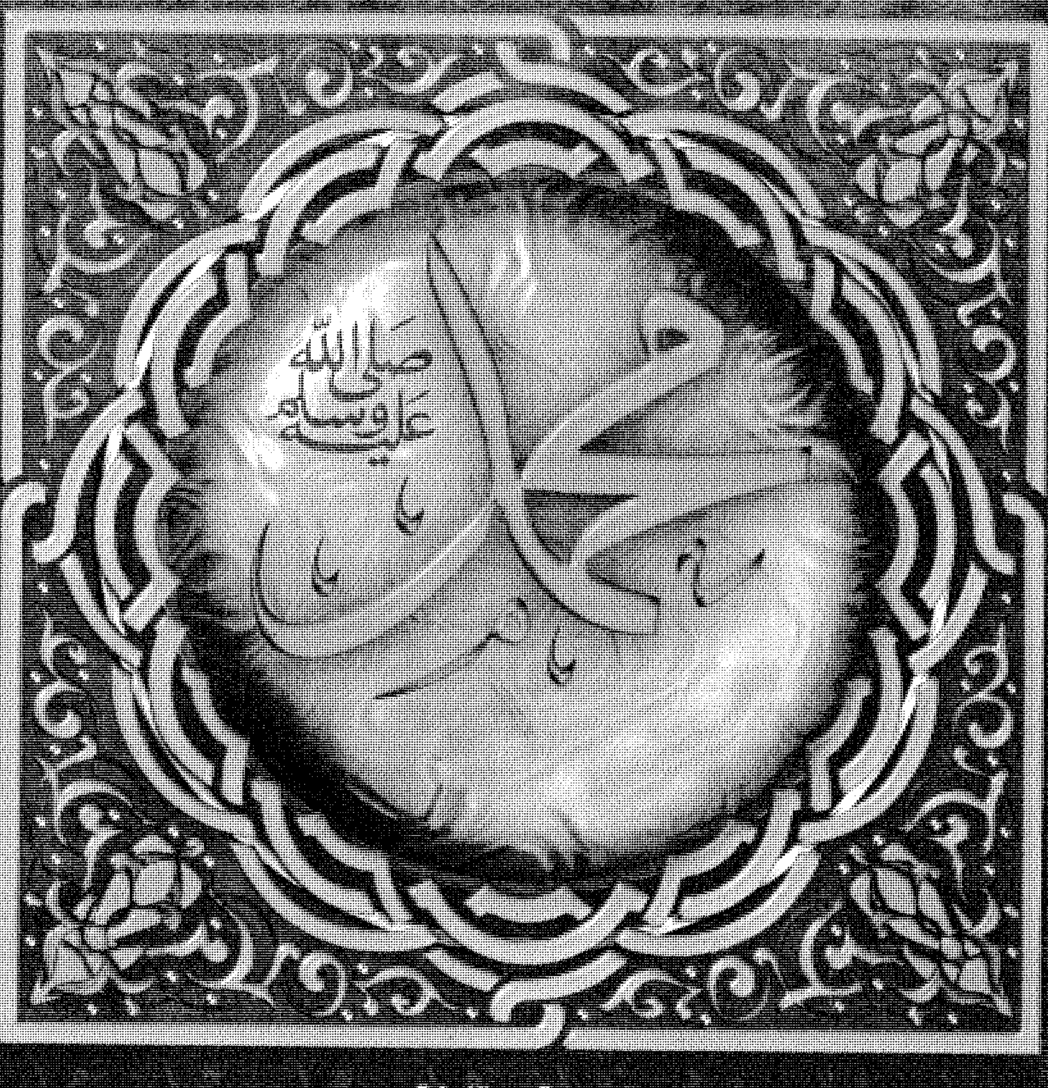
واشنطن إيرفنغ



ترجمة ومقارنة

د. هاني يحيى نصري

هوامش ومقارنات بين إيرفنغ وابن كثير وهيكل

المركز الثقافي العربي

Mohomet and his Successors
Washington Irving
Hudson Edition
G.P. Putnam and son
1868 N.Y.

محمد ﷺ وخلفاؤه
واشنطن إيرڤينغ
نسخة الهدسون
ج. ب. بوتنام وابنه
عام 1868م نيويورك

* محمد وخلفاؤه (سيرة مقارنة)

* ترجمة ومقارنة: د. هاني يحيى نصري

* الطبعة الأولى، 1999

* الناشر: المركز الثقافي العربي

العنوان:

□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ بيروت/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/00961-1-343701/.

واشنطن إيرفينغ

محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه

ترجمة ومقارنة:

د. هاني يحيى نصري

هوامش ومقارنات بين إيرفينغ وابن كثير وهيكل

المركز الثقافي العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

[سورة المائدة: 82]

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على المصطفى سيدنا محمد ﷺ قاهر الطغاة والجبابرة والمتألهين والمتكبرين

والمتعصبين والمستبدين

خصوم كل حق في الدنيا والدين.

وعلى آله الأطهار وعترته وصحابته أجمعين، ومن والاهم من أولي الحجى المحتسبين الصادقين إلى يوم الدين.

من العهد القديم

إشعياء «21/ 13»

[وحيٌ من جهة بلاد العرب... فإنهم من أمام السيوف قد هربوا].

إرميا «28/ 5 ـ 9»

والنبي المُرْسَلُ من قبل الحق هو نبي التسليم: [فكلم إرميا النبي حننيا النبي أمام الكهنة... ولكنِ اسمَعْ هذه الكلمةَ التي أتكلم بها في أُذُنَيْك وفي آذان كل الشعب... النبي الذي تنبأ «بشالوم» ـ التسليم ـ عرف ذلك النبي أن الرب قد أرسله حقاً][1].

من إنجيل متى «5/ 9»

[طوبى لصانعي السلام ـ التسليم «شالوم» ـ. لأنهم أبناء الله يَدْعَوْن].

من إنجيل يوحنا «14/ 15 ـ 17»

[إنْ كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم «Paraklytos»[*] آخر ليمكث معكم إلى الأبد].

من إنجيل يوحنا «14/ 26»

[وأما «Paraklytos» الروح القُدُس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم].

من إنجيل لوقا «3/ 16»

[أجاب يوحنا الجميع قائلاً: أنا أعمدكم بماء، ولكِنْ يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار].

(*) Paraklytos كلمة إغريقية تلفظ بالانكليزية Paraclete، وهي: ليست Parakalon التي تعني «المعزي» أو «الداعي»، فكلمة Paraklytos أو Paraklete الباراقليط: لا تعني إلا المستحق للمديح، أي باللغة العربية: أحمد.

ومن إنجيل متى «6/7 ـ 3»

[وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم].

ومن إنجيل متى «10/24»

[لا تظنوا أني جئت لألقيَ سلاماً على الأرض. ما جئت لألقيَ سلاماً بل سيفاً].

ومن إنجيل متى «24/1»

[خرج يسوع ومضى من الهيكل. فتقدم تلاميذه لكي يروه أبنية الهيكل. فقال لهم يسوع: أما تنظرون جميع هذه الحق أقول لكم إنه لا يترك منها حجر على حجر لا ينقض](*).

(*) وتحققت النبوءة بعد أربعين سنة تقريباً.

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى روح جدي خليل إبراهيم نصري التي أعطتنا درة آل نصري المرحوم المغفور له الحاج: الدكتور يحيى نصري.

وإلى أوَّل من ذكر لنا التاريخ الإسلامي اسمه مقترناً بعائلتنا: مالك بن عوف النَّصري الصحابي قائد «هوازن» الفاتح في القادسيَّة ودمشق.

وصف رسول الله ﷺ

عن «ابن هشام» عن علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»

لم يكن بالطويل الممغط ـ الممتد المضطرب الخلق ـ ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط ـ الشديد جعودة الشعر ـ ولا السبط، كان جعداً رجلاً ـ منسرحَ الشعر ـ ولم يكن بالمطهم ـ العظيم الجسم ـ ولا المكلثم ـ المستدير الوجه في صغر، وكان أبيض مشرباً، أدعج العينين ـ الأسود العينين ـ أهدب الأشفار ـ طويلها ـ جليل المشاش ـ عظام رؤوس المفاصل ـ والكتد ـ ما بين الكتفين ـ دقيق المسربة ـ الشعر الذي يمتد من الصدر إلى السرة ـ أجرد ـ القليل شعر الجسم ـ ششن الكفين والقدمين ـ ضخمهما ـ إذا مشى تقلع ـ لم يثبت قدميه ـ كأنما يمشي في الصبب ـ ما انحدر من الأرض ـ وإذا التفت التفت معاً. . . من رآه بديهة ـ لأول مرة ـ هابه ومن خالطه أحبه ﷺ[2].

عن أم معبد الخزاعية

قالت:

ظاهر الوضاءة أبلج الوجه حسن الخُلُق، لم تعبه نجلة ولم تزر به صلعة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطح، أحور أكحل أزج أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإذا تكلّم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر. . . ربعة لا تقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول[3].

وصفه ﷺ عن صحيح مسلم[4]

ـ كان رسول الله ﷺ ضليع الفم (عظيم الفم) أشكل العين (طويل شق العين) منهوس العقبين (قليل لحم العقبين).

ـ لم يختضب رسول الله ﷺ، وقد اختضب أبو بكر بالحناء والكتم، واختضب

عمر بالحناء بحتاً «رضي الله عنهما».

ـ إنما كان البياض في عنفقته وفي الصدغين وفي الرأس نبذ.

ـ إذا دهن رأسه ﷺ لم يُرَ منه شيء وإذا لم يدهن رؤي منه.

ـ قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وأبو بكر ابن ثلاث وستين، وعمر وهو ابن ثلاث وستين.

ـ أن النبي ﷺ قال: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي».

وصفه ﷺ من الأوصاف السابقة ومن المصادر التي جمعها إيرڤينغ أيضاً

وصف معاصرو الرسول ﷺ شكله وصفاً دقيقاً، فقد كان ﷺ:

ـ قوياً شديدَ البنية، مربوع القامة يميل إلى الطول لا القصر، ضخم الأكتاف شديد العصب، ذا أطراف ـ يدين وقدمين ـ ضخمة، لكن عظام الجسم ليست غليظة بل رشيقة إلى الرفع أميل في الذراعين والساقين.

ـ رأسه واسع بشكل متناسق جميل، وموضوع بدقة على رقبته الطويلة نسبياً، والمنسجمة في موضعها مع الصدر والرأس، وله جبهة عالية متسعة بين الأصداغ يمر فيها عرق حتى الحواجب، وينتفخ هذا العرق إذا غضب ﷺ أو أثير.

ـ أما وجهه فكان بيضوياً بشكل متناسق تحدده علامات واضحة، به أنف أقنى بعض الشيء بشكل جميل، وعينان واسعتان دعجاوتان، وفوقهما حاجبان قوسيان يكادان ينقفلان معاً، وفم واسع ليس فيه انثناء يدل على الرشاقة والبلاغة، وأسنان بيضاء منتظمة بها بعض التباعد بين القواطع الأمامية.

ـ أما شعره ﷺ فكان أسود ينسرح على رأسه بدون تجعد ولحيته كثة مليئة ـ وإن كان قليل شعر الجسم كافة ـ فشعر صدره ﷺ ينسرب ولا ينتشر.

ـ وله ابتسامة عذبة أخاذة، خجولاً يحمر وجهه الأبيض حين التأثر فيشرق كأن به نور متألق.

ـ أما بياضه وحمرة وجناته فغير شائعين في وجوه العرب، وكل هذه الصفات في مجموعها بشكله ﷺ يزينها هدوء متوازن ووقار، ونظافة متناهية فيفوح دوماً جسده وثيابه ﷺ بالطيب، ذو لفظ أنيق وواضح دونَ افتعال أي تأنق أو تشدق، يدعمه تأثيراً

بنفس سامعه صوت عذب عميق قريب من البحة ـ صحل ـ التي تظهر بصوته جلية حين المرض.

وجماع كل هذه التفاصيل التي تشكل شكل الرسول الأعظم ﷺ يعطيه ما هو أكثر من كمال الجمال الرجولي الكامل، أي يعطيه الهيبة ﷺ، وهذا الجمال المهيب: رائع لمن يراه لأول مرة، محبوب لمن خالطه، يبرز صفاته النفسية خلف هذا الشكل الرائع المهاب، من فهم سريع وثاقب، وذاكرة نادرة، وتصور حي، ومعرفة تامة إلى أبعد الحدود بكل الواقع، وقدرة عالية على ضبط الذات والتعفف، وعدل لا يضاهى، وإنكار للذات إلى أبعد الحدود، لدرجة عدم الاهتمام إلا بالضروري من المظهر الخارجي، وعدم التميز باللباس عن عامة الناس، ولا بالمسكن والمأكل والمشرب أو المطايا.

ولم يميز ﷺ نفسه بلون عباءة أو عمامة محدد، فقد اعتم بكل ألوان العمائم المستعملة في عصره مهما كانت، مسدلاً طرفها على كتفيه ﷺ كأفضل وأسرع طريقة للتعمم، نقلها عما رآه ﷺ في وحيه من تيجان الملائكة، فهي لحماية الرأس من الحر والبرد، ولتعزيز وتثبيت البيضة ـ الخوذة ـ على الرأس في الحرب، ولإعطاء الهيبة والوقار في المظهر المتضمن بمعتمها.

وقد صدق علي «رضي الله عنه» حين قال: «من رآه بديهة هابه ومن خالطه أحبه».

لقد كان «محمد ﷺ» حبيباً حتى في قلوب مبغضيه حين يعودون إلى أنفسهم فينصفونه فهو حبيب الله تعالى، وحبيب الناس، وشفيع محبيه بإذن ربه على الحوض يومَ القيامة، ـ صلى الله عليه وعلى آله وعترته وصحابته أجمعين ومن والاهم من أولي الحجى المحتسبين الصادقين الصابرين إلى يوم الدين ـ.

مقدمة المترجم

أمـة محمـد ﷺ:

إن أهمية الرسول ﷺ للأمة العربية بكل أديانها وطوائفها وفرقها وعشائرها، ودولها، وشعوبها، هي في كونه الرمزَ الوحيدَ لهذه الأمة، فقد صدق وعده بأن لا نبي بعده رغم قريش التي كذبت نبوته، ورغم بعض أهل اليمن واليمامة ممن أراد أن ينازعه النبوة على ظن أنها اسم منصب دنيوي جديد، فادعوا النبوة، «كالأسود العنسي» و«سجاح» و«مسيلمة الكذاب»، أقول: صدق وعده للعرب بأن لا نبي من بعده، وللأمم قاطبة كذلك باستحالة النبوة من بعده، حتى إن بني إسرائيل أنفسهم لم يعودوا يسمون مشرعيهم أنبياء، وإلى هذه الألف والأربعمئة سنة ونيف على هجرته ﷺ لم يظهر ولا نبي واحد قادر على صناعة دين جديد ممتد من بعده، رغم كل شطط من أراد أن يجعل النبوة بمنزلة أقل من الإمامة، أو حتى بادعاء الدعاة وداعيهم أحياناً من بعض الفرق منزلة تفوق الاثنين، أو ترتفع بالإمامة إلى الألوهة، وبِدُعاتِها إلى بدع النبوة الخجولة التي ستروها بما قدروا عليه من التمويه والضلال.

إن أحداً لم يَتَسَمَّ علناً نبياً بعده وإن تسمّى لم تنشر دعوته، فهذه شهادته التي تحدى بها التاريخ بأنه خاتم الرُسُل والأنبياء، تَصْدقُ عياناً واضحاً أمامنا اليوم وإذ تَصْدُق نبوءته ﷺ بأن لا نبي من بعده، تصدق نبوءته ﷺ أيضاً بحفظ القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر: 9]. فظل هذا الذكر محفوظاً بلغة العرب، ولغة العرب محفوظة بهذا الذكر بتناوب أخاذ كل هذه الألف والأربعمئة سنة، لم تشهد مثله لغة من لغات العالم. إلى حد أن اللغة العربية التي امتدت عبر هذا الذّكر إلى معظم العالم القديم المعروف منذ ما قبل القرون الوسطى المسيحية، حققت سيادة عالمية على الألسنيات البشرية، وقد ظلت راسخةً إلى اليوم، ولم ينافسها إلا تركة الاستعمار أي اللغة الانكليزية، إلا منافسة دنيوية تبتعد باستعمال مصطلحاتها الشائعة عن كل تصور يمكن أن يصل الإنسان بالمطلق بقدر زخم العربية، وهي رغم تأثرها البسيط باللغة

العربية ستعود مضطرة إلى المصطلحات العربية المفارقة، حين تواجه معطيات علم الفضاء شبه السحريّة بالنسبة لمكتشفاتها المفارقة الخارقة، كذلك ستواجه المصطلحات الانكليزية في ركيزتيها الإغريقية القديمة واللاتينية، هذا الإشكال نفسه، حين يظهر عياناً ما تموهه اليوم دراسات الهندسة الوراثية من تركيب «جيني» محتمل لإنسان متفوق، حتماً سيفاجأ العلم بقدراته المفارقة، وسيحاول أن يجد تعبيراً للدلالات عليها.

وإن كان هذا لم يظهر عياناً لكلّ الناس بعد فكل الدلائل تشير إلى احتمال حدوثه، فوليد التركيب «الجيني» لن يكون إنساناً متفوّقاً في كل المجالات وضعيفاً في قدراته الباراسيكولوجية «Parapsycology»، آن ذاك سيحتاج إلى مصطلحات تعبير لن يجدها إلاّ في اللغة العربية.

وإذ نراهن على هذا الاستقراء في المستقبل القريب لا يسعنا إلاّ أن نعود لنؤكّد أنّ: صدق دعوة محمد ﷺ هي عيان واضح اليوم بنبوءته ﷺ كخاتم للأنبياء والمرسلين، ويحفظ الذكر الذي جاء به أي القرآن الكريم، عبر كلّ تقلبات الزمن وادعاءات بني الإنسان اللاّنهائية الباطلة.

فعلى المتنادين اليوم لحفظ اللُّغة العربية من الأدباء الذين يريدون أن يحفظ التاريخ غثهم وثمينهم فيها، أن يعرفوا أنّ القرآن حافظها لا هم، بكلّ تعصبهم المقيت ضدّ أي استعمال اصطلاحي من سواها!!

وعلى الكلّ أن يعرف أن لكل أمة رمزاً يحفظه أبطالها بشاراتها وأعلامها في السلم والحرب، وأكبر إهانة لأي أمّة هي في إهانة وحرق علمها، ومثالنا: أن أكبر المؤسسات الديمقراطية المؤسساتية في العالم اليوم، «أمريكا» إذ تغفر كلّ جنحة وحتى جريمة، لا تغفر لأي من مواطنيها، أو حتى خصومهم، حرق علمها. كذلك تفعل كلّ الأمم القوية اليوم، فلو نظر أحدنا إلى خارطة «أوروبا» وتقسيمات الدّول بأعلامها عليها، لوجد الصُّلبان مقدّسة في معظم شارات هذه الأعلام، التي تعامل معاملة «التّابوه» الذي لا يجوز مسه!!

فبأي حق يسمح «عضاريط» العرب بمس رمز هذه الأمة: محمد ﷺ وهو رمز كل ناطق بالعربية من العجم والعرب على اختلاف أديانهم.

وهؤلاء «العضاريط» الذين يخرجون علينا من وراء الحدود أو من داخلها، بكل تمويهات الظنون حول حياة الرسول ﷺ الشخصية، ودعوته الدينية لم يستطيعوا أن يضيفوا حرفاً واحداً على أقوال وتخرُّصات قريش الفاشلة بحقّه ﷺ، ولا أن يقدّموا لنا

أي بدائل عن تأكيدات الدّهريّين من منافقي الإسلام في عصره ممّن سُمُّوا بدُهاة العرب؛ وهم دهريُوهم.

وإذ أقدم اليوم السِّيرة النبوية الشريفة من المصادر الغربية التي جمعها «واشنطن إيرفينغ» بأسلوبه الأدبيّ القصصيّ الشيّق، وعقله الموضوعيّ المسيحيّ المستنير، أريد أن أَخرقَ عادتنا بتعظيم رمزنا الكبير محمّد ﷺ من ما نكتبه نحن عنه، لأظهرَ للقارئ عظمة هذا الرّمز حتى في عيون الآخرين، والذي لا يمكن أن يكون لنا كأمة رمز سواه، من أي دعيّ أو صعلوك بيده يحرّك المنافقين إذا تسلّط.

ولأننا أمة الفكر المجرَّد والمشخص بكل تجريد، بسبب دروس الرّسول الأعظم ﷺ لنا، يظل اسمه ﷺ سواء وضع على أعلامنا أم لم يوضع، موضوعاً في صدورنا رمزاً خالداً لذكرٍ خالد هو: القرآن الكريم، أعظم ما جاء من قول على لسان بشر.

ولإيضاح وتأكيد هذا الأمر لمن في بصائرهم أي زيغ، وفي قلوبهم أي مرض، أسمح لنفسي بأن أسأل هذا السؤال:

ماذا لو كان هذا العالم من غير محمد ﷺ؟

في عصره ﷺ 622 م:

ففي عصره كان الصراع على أشده على خريطة الأرض القديمة بين طغاة من الشرق، جرّوا كل شعوبه لخدمة أمة «الفرس»، وطغاة من الغرب جرّوا كل شعوبه لخدمة مدينة اسمها «روما».

أما هدف هذا الصراع بكل بربريته ووحشيته فغير معلن، سوى ما فيه من مكاسب ومناهب من هنا، ومكاسب ومناهب من هناك.

وأعظم ما تمخض عنه الفكر البشري بين أرجل المتصارعين آن ذاك هو تقديس الطغيان الشرقي وترسيخه لصالح الأكاسرة من جهة، وصناعة التشريع القانوني عند الرومان؟!

أما الحضارات السابقة من مصرية قديمة نسيت حتى أبجدية كتابتها، وإغريقية قديمة حرفت لغتها باللسان اللاتيني الذي ظل ينطق بها كيونانية حديثة، لغة روما الشرقية الأضعف من أن تعبر عن أي فهم صحيح، حتى للمسيحية الآرامية التي قتلتها بترجمتها إلى هذا اللسان الركيك.

أما قلاع الفكر الإنساني الفلسفية الصلبة فقد ظلت في شرنقتها القديمة التي ما وضعت بلسانها الإغريقي القديم حتى تقرأها برابرة الشعوب الأخرى أصلاً.

ففي «آثينا» بقايا شرانق الفكر الإغريقي القديم، وفي الاسكندرية التي دمرت مكتباتها، وفي عزلة «الرها» و«قنسرين» «دهاقنه» متفرقون، هم أعجز من أن يعلنوا أي رأي يتبناه الجميع، ولا حاجة إلا للجانب العملي من كل معارفهم، إذا أصاب طاغية مرض، أو حلت بذهنيته البدائية أي طيرة.

هكذا كان العالم القديم عشية الهجرة النبوية الشريفة غارقاً بجهالاته، وجاهليته العربية التي لن نستطرد فيها لأنها معروفة من الجميع، وغارقاً بدمائه يتخبطه الشيطان بالقسوة والقسوة المضادة.

وكل ما بقي من فهم المخلص الآرامي اللسان «عليه السلام» جمل أغريقية أساءت لكل تعابيره في بيانها الأصلي عن المحبة والحق ومعنى أبوته للبشر، الذي فهمته كل فرقة بصراع شكلي مرير حول الطبيعة أو الطبيعتين فيه «عليه السلام»، وهو أمر خارج عن كل موضوع كان يمسهم بشكل حياتي مباشر.

فخرج العموديون منهم بسبب هذه الطوباوية ليعيشوا على رؤوس الأعمدة القديمة في «حوران» وشمالي سورية، والأقل قدرة على ذلك أغلقوا أبواب الأديرة على خلافاتهم وصراعاتهم التي يحلها أتباعهم من الشباب الأقوياء بالخارج، بالسيف الذي من عاش به سيموت به بدون هدف كما علم المعلم المخلص «عليه السلام».

أما اليهود المنتظرون للمخلص المكذبون لمن جاء، فقد شعروا بقوة شرنقة العصبية، فلعبوها دوراً هداماً بين الأمم التي حلوا بينها، شأنهم في كل عصر يلعبون لعبة «بدو المدن» غير مرتحلين بينها فقط بل نافثين سموم العصبية في كل مكان يحلون فيه، وبقلبهم غل أمل مخلصهم الجبار الذي سيبطش بكل أمم الأرض من أجل أنوفهم المعقوفة وذوائبهم المتدلية كالخراف الضالة.

عالم غارق بطواعين ضلالاته الشرقية والرومية والعصبية الجاهلية، بين بدو الصحراء وبدو المدن، بدون أي مثل أعلى يقبل التطبيق إذا وصل إلى أذن أي وليد حائر يلد من هؤلاء، عن معنى وجوده، وماذا يقصدون إذا قالوا له: إن له إلهاً خالقاً؟!

وفي عصرنا:

لو لم يكن محمد ﷺ هل كان سيصلنا كل هذا؟!

إن أحداً منا لا يستطيع أن يقول إنه ومع محمد ﷺ نحن في هذا العصر خلو من عماء القوميات والأنانيات المتصارعة دنيوياً، أو أننا خلو من سوء فهم حتى رسالة محمد ﷺ بمعنى الألوهة الواحد، وكل تفاصيل صلة الإنسان به تعالى.

حتى ومع محمد ﷺ لم نستطع أن نهجر العصبية من جاهليتنا العربية، وبدو المدن أكثر تمسكاً وطغياناً علينا وعلى أنفسهم بها، وجاهليتنا لا زالت بهم تقتدي بالعصبية غير المعلنة.

حتى ومع محمد ﷺ لا زال الطغاة في كل مجال: طبي وسياسي واقتصادي ودينيّ، يلعبون علينا لعبة الآلهة الجاهلية المتعددة، ونحن ننحني لأماكن تواجدهم وكأنها هياكل وثنية مقدسة.

حتى ومع محمد ﷺ لا زال معاصرنا عبد الدرهم والدينار، يبيع كل قيمه بهما، ولا زال معاصرونا من الرجال عبيد المرأة، ومعاصراتنا من النساء عبيد الرجل، كل بقدر ما يجد عند الآخر معبوده، ثم يدعون شكلية المساواة المستحيلة.

لا زال وثن الجنس هو الحاكم.

ولا زال وثن السلطة هو الحاكم.

ولا زال وثن المال هو الحاكم.

ولا زال الدهري مسموع الصوت، دعي الموضوعية العلمية؟!

لا زلنا تحت اسم الحب نرتكب كل الموبقات، وتحت شعار الحرية نمارس كل أصناف البغاء، وتحت ستار التزلف ننال كل الامتيازات؟! فلكلٍ ثالوثه الإلهي الخاص من جنس وعهر ومال، أو سلطة ودهرية ولا أخلاق، ولك أنْ تعكس وتقلب بهذه الثواليث كما تشاء؟!

لكن محمداً ﷺ كان، ولأنه كان نحن نعرف معنى الشرك وخطره، لأنه كان نحن نعرف الباطل ولا نقدسه، ولأننا نخجل من إعلان أي شرك ورثناه نؤول.

فلنسجل لرسولنا الأعظم ﷺ نبوءة ثالثة قد تحققت الآن عياناً ظاهراً وهي: يأس الشيطان من أن يعبد بعد محمد ﷺ ورضاه بكل ما هو دون ذلك: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [سورة الحجر: 42].

هكذا قضى الرسول ﷺ على عبادة الأوثان فخضعت شياطين الأنس لعدم وسخف التصريح بعبادة الأوثان، لكنها فعلت ما هو دون ذلك باطناً، لذلك يخجلها كل من يكشفها بعد محمد ﷺ.

فلم تعد الوثنية دليل عقل ولا موضوع افتخار، حتى إنه صار بإمكان كل مصلح بعد محمد ﷺ أن يوبخ وثن المال بِعُبّادِهِ دون أن يجرؤوا على أي اعتراض.

ويوبخ وثن الجنس والسلطة، ووثن العصبية أمام أصحابها، ولا يملكون إلا الإذعان، وبعبارة أخرى صار للحق بمحمد ﷺ عنوان.

عنوان إيجابي لا ينتظر اعترافات الخطاة بآخر أعمارهم، بل يذهب إليهم بسيف الجهاد عقب سيف الكلمة إلى مخادعهم يقض عليهم تلك المضاجع، لذلك لا يخشى جبابرة هذا العصر أكثر مما يخشون من الإسلام إلا جهاده، فيتصايحون بالإرهاب.

عن أي إرهاب يتحدث عابد وثن اللواط، وهو الرهيب عدو الطبيعة وفطرة الحياة فيها؟

وعن أي إرهاب يتحدث عابد وثن الجنس، وهو يشيع رجس «الإيدز» بين طهارة المواليد البريئة إلا من خساساته؟

وعن أي إرهاب يتحدث عابد وثن المال وهو يسرقه من أفواه الجياع ليضعه بالعملة التي ترفع وتخفض كل عملات العالم في دول البنوك أو بنوك الدول وأي إرهاب أشد من أن تفقد مالك وهو بجيبك بسبب وثن عُباده من أبناء بجدتك؟

أي إرهاب أشد من إرهاب عبدة العصبية أعداء كل إمكانية وإبداع لا يخرج من عشائرهم ليعود فائدة شخصية لهم، فتجعل منهم أوثاناً إذا لم تعبدها هذه العشائر تُهَددُ بسواها؟!

أي إرهاب أشد من إرهاب الأساطيل التي تجوب البحار لتبطش بمن لا يعبد هذه الأوثان؟!

الجهاد إرهاب لهؤلاء، ولهؤلاء لا ينجع إلا برهبته.

لولا محمد ﷺ لما كان ثمة ردّ على هذا الإرهاب!!

التاريخ الاجتماعي:

لولا محمد ﷺ في التاريخ الاجتماعي لما فتحت مغالق الفكر المنطقي الإنساني بالحوار بين العقائد والأديان، ولما ظهر عِلْم الكلام الذي احتاج إلى إعادة بعث المنطق

الإغريقي الخالد من سباته وحصاره بلغته المندثرة، وما أعقب ذلك من ولاداتٍ للعلوم والفلسفات والفنون العربية.

لولا محمد ﷺ لما بنيت «بغداد» و«القاهرة» و«الرباط» أو لظلت هامشيةً على فرض لو بنيت، ومع «دمشق» مجرد مستعمراتٍ للفرس والروم والبربر، لا مراكز إشعاع حضاري، وُلِدَتْ منها غرناطة وطليطلة وإشبيليا، وأستنبول، وسيرايفوا وسمرقند وفرغانة وسواها.

لولا محمد ﷺ لما عرف الغرب ما عندنا وعند أجدادهم اليونان القدامى من علوم ومعارف، ولظلوا يتخبطون بأوثانِ التشريع الروماني المدعم بسيف «روما» المصلحي من غير أي هدف.

لولا محمد ﷺ لما استنفرت المجتمعات الإنسانية لتبحث عن الحق، رغم كل جهالات وتعصبات الأساليب التي اتبعت، وبسبب حلم من أحلام القضاء على أتباع محمد ﷺ لف رواد محاكم التفتيش على الأرض، بعد أن عجزوا ضد الأتراك في البحر المتوسط، مع «فردناند وإيزابيلا» فصدموا بالقارة الأمريكية.

لذلك قال «نيتشه»: (إن السلوك الانفعالي تُجَاه القوة التي تسمى الله حصرته ـ المسيحية ـ حياً بالصلاة... واحتقرت الجسدَ... إلى حد أن الكنيسة قدر رفضتِ النظافة، فكان أول ما فعلته بعد طرد «المور» هو إغلاق الحمامات العامة التي بقيت في قرطبة وحدها 270 سنة)[5].

(فالأساطير هي وحدها التي تحفظنا من التأمل مباشرة في الفكر المكون الخارق للوجود)[6]، لهذا يرى «نيتشه» أن مرض التاريخ الاجتماعي هو في طلب المساواة المستحيلة[7]، لا مطلب التكافؤ الإسلامي (لأن الإسلام يفترض الإنسان قبل أيّ رأي مسبق)[8]. ولذلك يدين «نيتشه» المسيحية علناً بقوله:

(إن المسيحية قد حرمَتْنا من حصاد الثقافات القديمة، وآخر سرقة لها كانت سرقتنا من حصاد الثقافة الإسلامية، الرائعة في عالم المور ـ العرب ـ في إسبانيا)[9].

لولا محمد ﷺ لغرق التاريخ الاجتماعي الإنساني بالمشخصات، ومطلب التجريد النقلي الذي قدمه لنا الإسلام، هو أول مساعدٍ لأي فعل عقلي يتجه نحو فهم الوجود، إنه المطلب الأساسي لكل علم وفلسفة.

وموجز هذا الأمر من الناحية الاجتماعية، أن سعة هذا المطلب الإسلامي إزاء

محدودية متلقيه، وهي وإن ساعدت على ظهور كل الفلسفة المشرقية الإسلامية وحتى الملحدة، برزت فعالة بالتصوف.

وبغض النظر مؤقتاً عن الأسباب التي جعلتِ السيادة للتصوف في الفكر العربي الإسلامي، يمكننا القول: إن التصوّف بحد ذاته هو نتاج فاعلية مزدوجة بين الدين والفلسفة.

فلولا الإسلام لما تفتحتِ الفاعلية الفلسفية في الإنسان الشرقي، وبالتالي لما سمح تفتحها للتصوف بالبروز كل هذا البروز، ومع كل تحفظاتنا على الفكر الصوفي يهمنا أن نؤكد أنه فاعلية من فاعليات الفلسفات المشرقية الإسلامية، التي ما كانت لتكون لولا الإسلام.

فلولا محمد ﷺ لما كان لنا تاريخ اجتماعي فكري ولضاق على التاريخ حصره بالسياسة والمواقع الحربية، وإن كان لنا تاريخ اجتماعي فهو لن يكون بأكثر مما نجده للتاريخ الاجتماعي في أواسط أفريقيا مثلاً.

لذلك يمكننا أن نقول من الناحية الاجتماعية وبكل جدارة إننا نحن:

أمة محمد ﷺ.

هذه العظمة علينا أن لا نخطئ فهمها بشكل أسطوري، فواقعيتها ودلالاتها العيانية، أسطع من كل أسطورية خارقة يمكن أن تُنسبَ إليها، فهو مجرد إنسان خارق يَوْحَى إليه، وهو ابن امرأة كانت تأكلُ القديدَ.

فالرسول الأعظم ﷺ أعظم بالواقع، لا بأي وهم صوفي يريد أن يشوهَ صورته بأسطورية الكلمة المحمدية التي خلق الكونُ من أجلها مثلاً.

عظمته هي في تلك الذاتية الخالدة له التي استطاعت أن تنقل لنا لتصير موضوعية بنا، وبأقلامنا وبما نضعه للآخرين من جوانب عظمتها.

هذه هي معجزة الرسول الأعظم ﷺ في اختراقها لكل خوارق الفكر الذاتي والواقع الإنساني، حتى لا يظل هذا الفكر بمنأى عن صِلتِهِ المُبَاشِرَةِ بمبدع كل عقل يعبر عنه بقانون في هذا الوجود.

فماذا نعني بالذاتية وكيفَ تصير موضوعية؟!

ماذا نعني بالخوارق والمعجزات؟!

لنر أين تقف خارقة محمد ﷺ في معجزة الإسلام، قبل أن نقرأ صدى هذه الخارقة موضوعياً بقلم واحد من أعظم تعبيرات الضمير الأمريكي عن فهم صلة تلك القارة الأمريكية بجذور عالمها القديم، أعني «واشنطن إيرڤينغ» شكسبير القارة الأمريكية، واللغة الانكليزية فيها.

والذي يحاول بأسلوب الأديب الراقي والفيلسوف المنصف، أن ينقلنا من القناعات الذاتية في الأفكار التي ثبتها الواقع والوحي عند الرسول ﷺ، إلى خارقة انتقال هذه الأفكار لتغدو حقائق أمام الآخرين من أتباع رسالته ﷺ.

لذلك يجب أن تكون لنا وقفة نناقش فيها كيف تصير الذاتية موضوعية، والخوارق التي تنتج عن مثل هذه الصيرورة.

فلنتحدث عن صلة الذاتية بالموضوعية أولاً، ثم لنعقب بتحديد معنى الخوارق والمعجزات، أمام الذات والآخرين، قبل أن نعرف القارئ «بواشنطن إيرڤينغ» نفسه، لنشرح بعد ذلك ما بين يدينا من القسم الأول من السيرة، سيرة الرسول ﷺ ثم ببحث آخر إن شاء الله سنتابع ترجمة القسم الثاني قسم خلفاء الرسول «رضي الله عنهم»، فيكمل بين يدي القارئ العربي هذا العمل الهام لواشنطن إيرڤينغ:

محمد ﷺ وخلفاؤه.

الذاتية والموضوعية:

إن كل ما يوضع أمامك هو موضوع، لذلك قالت العرب: (أواضعك الرأي أي أطلعك على رأيي ـ أضعه أمامك ـ وتطلعني على رأيك ـ تضعه أمامي ـ، لكي نبحث في عوارضه الذاتية)[10].

وإذا كان المعنى الموضوعي لكل كلمة يحدده القصد من استخدامها، لا ما تشير إليه المعاجم فقط، فالقصد من «الموضوعية» نقل الذاتية إلى الآخر، خبراً حصل معك، أو فكرة لديك، أو نتاج خبرة خاصة، لذلك تستدعي عبارة الموضوعية فوراً مفهوم الذاتية.

فإذا كانت الحدوس تحكم كل فكر إبداعي ذاتي، فالمنطق هو الذي يحكم كيفية نقلها إلى الآخرين منهجياً، حسب ما يسميه الفكرُ الإنساني بالمنهج العلمي، وهو المنهج الذي يستخدمه العلم والقائم على الطرق المنطقية لجعل كل ذاتية أو حدسية ذاتية، في متناول فهم الآخرين، وخاصة في مجال كشف الحقائق.

سواء كانت هذه الحقائق، فلسفية أم علمية. أما الحقائق الدينية والفنية، فلا يمكن نقلها للآخرين لوضعها أمامهم واطلاعهم عليها، إلا بالمناهج المنطقية التي تحكم وتستقي من المعرفة ركائز منطلقاتها الأساسية، والذي يحدد المنطلقات الأساسية لكل معرفة هي الفلسفة والذي يخصب تحديدات الفلسفة الحقائق اليقينية العيانية بالمادة ـ علم ـ وبالتجربة الفكرية معرفة.

وهكذا تتحرك الموضوعية بحركة إهليليجية فيخصب الفكر الإنساني، في كل مرة ينطلق فيها الرصيد المعرفي للإنسان ليثمن إذا صح التعبير إمكانات الحدوس لديه، فإذا عبر عن حدوسه واستطاع منطقياً أن يضعها كحقائق أمامي وأمامك، صار الحَدْسُ موضوعياً، أي صار رصيداً معرفياً عليه يمكن أن تبنى وتخصب عليه معارف جديدة. . . وهكذا.

هكذا يتحرك الفكر الإنساني بين الذاتية والموضوعية حركة إهليليجية، تُخصب بها المعارف الإنسانية بالمنطق، لكن له حركية أخرى وأهم فما هي؟!

فأي الحقائق التي نتلقاها من الآخرين موضوعية حقاً، وأيها موضوع وأيها متواضع عليه، وكيف نكشف الوضيع منها من الجيد، ومتى تفشل الذات بوضع ما بها أمام الآخرين، أي متى تفشل بأن تصير موضوعية؟! عدا عن الفشل بنقص المعطيات، وماذا نعني بنقص المعطيات!

منطلقات يقبلها الجميع:

كل الناس تقبل الطوباوية الإنسانية، فهي الباب أو المدخل الذي ينفذ منه هذا الرأي أو ذاك ليفرض على كل الناس، أو بعضهم.

وإذا أخذت هذه المثالية بحدها الأقصى دون أي تطبيق به سوء نية استخدام، أدت حتماً إلى الريبية «Skepticism» فمشكلة أن (حتى المختصين بأي حقل معرفي واحد يتبنون آراء مختلفةً بل ومتعارضة ومتضاربة حول اختصاصهم، ويشمل هذا الأمر العلوم كلها التي نتوقع منها الموضوعية، وعدم الخضوع للمصالح الذاتية)[11].

فهل المخرج من هذا الشك بكل حكم موضوعي هو في أنه ذاتي بالنتيجة، مما يؤدي إلى تعليق كل الأحكام وسلبية الفهم، أو «اللاأدرية» على أقل تقدير.

وكيف لهذه السلبيات أن تعيدنا إلى السفسطة القديمة عند الإغريق، فتصبح المعرفة حِرْفة تكسب ليس إلا؟!

لا مخرج من هذا الإشكال بالريبية السلبية كمذهب فلسفي، وإن كان العقل الإنساني لا يملك إلا الارتياب من أي حقيقة تقدم له، أما الشك بكل الحقائق وبإمكان الحقيقة بذاتها فهو الفلسفة الريبية، فلسفة سلبية لا يمكنها أن تقدم أي شيء!!

والمخرج ليس بطوباوية طرح الإنسانية التي يمكن أن يساء بها الظن؟!

إن مشكلة الذاتية وصلتها بالموضوعية ليست حواراً شكلياً يحكمه المنطق الصوري حول هذه الأمور.

ولا هي بالحقائق الاستقرائية التي نستخرجها من رصد جانب واحد من جوانب الوجود، أقصد جانب الظواهر «Phenomena» فيه فقط، ولا بالتقريرية التجريبية «Empiricist» بأن الحواس وحدها هي التي تنقل معارفنا عن العالم الخارجي، وبمجرد دراسة كيفية عملها نفهم هذا الوجود ونُحكِمُ علاقاتنا به.

بل بكل هذا معاً، إضافة إلى فتح ذهننا كموضوع لما يتلقاه من كل ذات نابهة كحدس ذاتي لاستيعابه بالحب الذي يحرك كل حقيقة، لا نقده وعدم قبوله إلا إذا خضع للمنطق الإنساني الذي يدعي أنه: وسيلة كل الناس للفهم فبه خلاص كل الناس، شرط أن لا يعمل إلا من أجل الإنسان كفكرة مجردة، وهناك ملايين السفلة الذين يسعون لاستغلال ذلك لصالحهم.

لقد تواضع الفكر الإنساني على أن أُسُسَهُ لم تَقُمْ على قياسات منطقية، بل على حدوس ذاتية، كحدس أن الماء أساس العناصر الأربعة عند الإغريق القدامى وهو جوهر الحياة... وما حدس غاليلية بأن الأرض تدور إلا حقيقة تنقلها لنا كل الأقمار الصناعية اليوم... وسوى ذلك من الحدوس الذاتية.

المواضعات الحدسية أوصلت إذاً إلى الموضوعية اليقينية، شرط أنها لم تكن سلبية ضد أو مع فكرة معينة، وإلا صارت وضيعة، فهل يعيدنا هذا إلى الطوباوية الإنسانية؟!

نعم منطقياً!

ولا إذا كان هدفنا كل إيجابية من عدم الضدية، تحكمها ذاتية تحب الحكمة للإنسان لا في المطلق، بل لمن يحب مثلنا هذه الحكمة.

إن الذاتية بغير هذا أي كضدية لفلان أو علان هي داء الحكمة ـ الفلسفة ـ القصير النظر، فالذين يقضون حياتهم من الأكاديميين بنقد هذا الرأي أو ذاك، لا يسمحون لحدوسهم أن تقدم أي فكر إيجابي، وهنا تفشل الذاتية قبل فشل أي موضوعية هزيلة تقدّمها.

للذاتية كي تصير موضوعية معطيات إذاً، وعلى رأسها حب محبي الحكمة لا كل الناس، بل هذا الصنف الإيجابي التفكير منهم، وبفضل ذاتيات هؤلاء تكشف القوانين الموضوعية، وأكثر من ذلك تظهر كل أنواع الخوارق، والمعجزات، وعيان خوارقهم ومعجزاتهم الساطع يدفع إلى إضفاء كل أصناف التصنيفات الخرافية عليهم، ونعتهم بالمتصوفة أو متوهمي النبوة، أو حتى بالسَّحَرَة والمُشَعْوِذِين، وبهذه التهم الأخيرة أدين غاليلية وكوبرنيكوس والآلاف مثلهم، وقبلهم كل من ادعى صلة بالعقل الكلي الذي يحكم كل هذا الوجود ويتجلى بكل قانون فيه.

فهل يمكن للمعجزات والخوارق أن تدخل في حساباتنا حول الموضوعية والذاتية، في مدى الصلة بينهما؟!

صِلَةُ القانون بالموضوعية ثم الذاتية:

تكشف القوانين بالحدوس الذاتية، لكنها لا تكون قابلة للفهم العام والتداول، إلا إذا تحولت إلى مفاهيم استقرائية يمكنها أن تتوضح بمعادلات فكرية منطقية، وبالاستقراءات الناقصة، ثم لتتحول إلى معادلات رمزية رياضية في الاستقراءات التامة.

ولئن كانت العلوم الإنسانية شأنها شأن المعرفة الفنية والدينية، تقف مفاهيمها، أو المفاهيم حولها عند حدود الاستقراءات الناقصة، التي ليست انتقاصاً منها، بل لطبيعتها الخاصة غير القابلة أن تتعدى إلى حدود المعادلات الرقمية، مهما استعارت من الرياضيات إحصائياتها. فإن هذه الخصوصية هي أهم تعبيرات الذاتية، بفرادتها التي تفرض نفسها على هذه المعارف.

ففي هذه الفرادة كل إمكانات الذاتيات التي تخصب هذه المعارف ولولاها، بل حين تراجعها ـ أي تراجع الفرادة والتفرد ـ في الحيوانات الدنيا يمكننا أن نشهد اختلاف سرب من النحل أو النمل عن جماعة بشرية واعية.

إذ كلما قلت الفرادة والفردية قلت الخصوصية وبالتالي الذاتية في الأحياء، فالتماثل يجب أن لا يكون هدفاً اجتماعياً، وإلا لصارَ القطيع غاية كل تجمع إنساني وهدفه.

ونحن نلحظ أنه كلما زاد مطلب التماثل وفرض على مجتمع ما، تراجعت الفرادة، فتراجعت الحرية، وأعقبهما تراجع بكل إبداع معرفي.

فإذا كانت قوانين اجتماع سرب من النحل هي من أجل بقاء هذه البنية الكلية ككل، لذلك يسعى كل أفراده للصالح العام فقط، فإن القوانين التي تحكم المجتمعات

الإنسانية تحتم الحرية الفردية والصالح الخاص، ولئن رأت بعض النظريات الاجتماعية في هذه الفردية أشد تعبيرات المجتمعات الإنسانية عن الأنانية، فالغيرية الحقيقية من مثل هذه الأنانيات لا تفهم إلا بفهم معنى الحرية الميتافيزيائية المطلقة بكل إنسان، في بؤرة تحققها عبر كل القوانين الوجودية المفروضة عليه فيزيائياً ونفسياً واجتماعياً، والتي تسمح له ـ أي هذه البؤرة ـ بهامش إبراز فرادته، التي منها يستطيع أن يتصل عبر وعيه بمطلقات العقل الكلي، فينهل منها تفاسير وفهماً وإبرازاً لمعاني القوانين المفروضة عليه، والتي يرزح تحتها ليل نهار.

ولأن أحداً منا لا يستطيع إلا أن يخضع لقوانين الفكر، فيضطر أن يتعامل مع فكره بأفكار تأتيه ليل نهار، وهو إذا لم يحسن هذا التعامل عبر مَنْهَجَةِ فكره بقواعد الفكر الموضوعي المنهجية، سيصير فكره مشتتاً يقفز من موضوع لآخر بشكل مضجر، سيحاول إخماده بالتسلية أو حتى بالعقار، فينزل بهذه الهبة ـ الفكر ـ من مستوى رفعها إلى مطلقات الوعي إلى حضيض تحركها بأهداف البقاء فقط، بل أسوأ من هذا يحاول إيقافها ودفعها إلى مزيد من التشتت عبر سخف كل تسلية حتى ولو بعقار أو مخدر. آن ذاك ينحط بها إلى ما دون منزلة البهيمة.

هؤلاء العوام إذا راعتهم الطوباويات الإنسانية، فهم لا يراعون صفة الإنسان فيهم، ولن يرجعهم ويردعهم إلى صفاتهم الإنسانية إلا الوعد والوعيد الديني.

لذلك نستطيع أن نقول: إن الإنسان يجب أن لا يكون بمعناه المطلق مثلاً أعلى في الفلسفة، كما تميل إلى ذلك الكثير من الفلسفات الغربية الحديثة، وخاصة في كل حديث مبهم عن معنى حقوق الإنسان، بل الوعي الإنساني هو المثل الحقيقي الأعلى لمعنى الإنسان الحقيقي، فبالفكر لا نتميز إلا بدرجة تعقيده عن باقي الحيوانات، لكننا نتميز بالوعي.

تلك الظاهرة الكونية الفريدة المحصورة حصراً بالإنسان وحده ـ الوعي ـ من بين كل الكائنات المعروفة لا في الأرض وحدها بل نجرؤ إلى القول: «في كل الكون».

الإنسان ليس ثميناً بحد ذاته، بل بمدى وعيه[12]!!

ولكي نفتح له إمكانات تحقيق هذا الوعي من القوة الكامنة فيه إلى حيز الفعل، لا بد من إرشاده إلى المطلق، لأن تعريف الوعي ببساطة هو: «القدرة الفكرية على إدراك المطلقات والتعامل معها».

وإرشاد الناس كلهم إلى كشف التعامل مع المطلقات في أنفسهم وفي الوجود

حولهم ومع الآخرين عبر الفلسفة، أمر شاق لا يمكنه أن يتوفر لكل بني البشر.

لذلك لا بد حتماً لتحقيق ذلك بدرجات متفاوتة بين الناس، من الدين، والعجائبيات العجيبة التي تشد الناس إلى المطلق من الدين، غير مستعصٍ شرحها ولا فهمها فلسفياً، وهذا ما سنأتي على شرحه وفهمه فكرياً.

أما الآن فنسأل:

ماذا لو لم توجدِ الفرادة الذاتية التي تقدر على إفراز الحدوس، وكان الناس كما تريد النظريات العلمانية خاضعين للتحليل الظاهرياتي - هوسرل مثلاً - فقط؟!

الجواب وببساطة ستكون المجتمعات البشرية، قطعاناً أرقى من غيرها من القطعان الحيوانية بالقدرة على الإلتفاف، أي بالذكاء العملي فقط.

والأنثروبولوجيا مهما حاولت أن ترفع من شأن المجتمعات البدائية لا تستطيع أن تصورهم لنا بأرقى من ذلك.

والخط الواهي بين العرقية التي تنظر بدونية إلى هذه المجتمعات، هو في مدى افتقار هذه المجتمعات البدائية إلى فهم المطلقات دينياً وفلسفياً، لكن بمجرد إيصالها لهم، يرتقي بعضهم إلى ما قد يكون أرفع من كل الأعراق التي أوصلت هذه المطلقات لهم.

المسألة إذاً مسألة معرفة نقلية بالمطلق سواء عن طريق الدين أو الفلسفة، متى أُتيحَتْ لها الفرصة، تحرك الفكر الإنساني في معارج الفكر الكلي ومنه أنزل متعاليات المجهولات من كل قانون وعلم إلى حيز المعلوم، عبر مزيد من حدوس كل فرادة وفردية فيه.

الدين والوعي:

لا حق لأي إنسان غير واع بحقوق الإنسانية التي يطبلون ويزمرون لها اليوم، فليس هدف الإنسان الإنسانية بجهلها وتضارب أخطائها الفكرية، بل هدفه الوعي، والإنسان غير الواعي لن يشعر لا بالتكريم ولا بالإهانة، لأنهما متصلان بالمطلق.

فمن حق الإنسان على أخيه الإنسان إيصال أسس قواعد الوعي له حتى يتمكن من الأحكام، لا قبول أحكامه على غير هذه الأسس فيما يسمى بالتقاليد التي تصلح للكرنفالات، والحفلات التنكرية، لا لأي تقديس «فلوكلوري» لها.

ولا طريق لإيصال الوعي إلى الآخرين إلا عبر مستويي المعرفة الدينية التوحيدية والفلسفية.

فبهما ومنهما فقط نعرّض الفكر الإنساني للإرتقاء من الذكاء أي القدرة على الالتفاف والمراوغة فقط، إلى مستوى تشكيل أفكاره الخاصة حول كل المجردات، والمطلقات، والعملي منها شعوره بالتكريم الحق أو الإهانة، أي شعوره بحقه كإنسان.

هذا هو حق الإنسان الأساسي الذي بدونه لا قيمة لأي إنسان إلا كقيمة أي قدرة كامنة غير متفتحة، وهي في كمونها لن تشعر بحق ولن تطالب بأي حق.

على الإنسان أن يطلب ويسعى مع أخيه الإنسان إلى تفتيح مزيد من الذاتيات، لا أن يفرض عليه ما وصلت إليه ذاتيته من موضوعيات ومواضعات كضرورة الديموقراطيات المؤسساتية الاستهلاكية لتشيع برغماتيتها على كلّ أمم الأرض بدعوى حقوق الإنسان، وكأن هذه الحقوق لا تتحقق إلا باتباع هذا المنهج الفكري أو ذاك.

بينما حقوق الإنسان الحقيقية لا تتحقق إلا باتباع سبل أقصى تحققات الوعي الفلسفي والديني لتفرزهما فرادة الفرديات، بالذاتية التي منها تخرج كل موضوعية وإليها تنحل.

لذلك يجب أن نترك هراء المثاليات الطوباوية جانباً ونقول: إنه من حق كل إنسان أن يفهم أولاً معنى المطلقات الفلسفية والرياضية ثم الدينية، ليفسر هذه بتلك أو تلك بهذه فيشكل فهمه الخاص لها، ليتحرك بها وبهذا الفهم عبر هامش حريته للاختيار البسيط واقعياً، وعبر حريته المطلقة ميتافيزيائياً في المطلق.

أقول هامش حريته البسيط المحصور بالاختيار في الواقع، بسبب أن الإنسان جزء من هذا التواجد المحكوم بكل قوانين الوجود كلها دفعة واحدة، وهذه الحتمية القانونية الكلية في سقوطها وانبثاقها من كل بؤرة فرادة كل فردية هي الإنسان، لتظهر بهامش حريته التي تحددها خياراته.

وهذه الخيارات لا قيمة لها إلا بين مطلقات يطلع عليها فلسفياً ودينياً أو العكس، فإن فعل شكل فهمه الخاص منهما، وبهذا الفهم ومدى تطابقه مع هذه المعطيات تتحدد مسؤوليته.

مسؤوليته أمام الآخرين وأمام الله أيضاً، فمن حق الإنسان أن تتاح له فرصة هذا التحديد، وليس من حقه أن يعطي آراءً قبل هذا ولا أن يفرضَ آراءَه بعد ذلك، مهما

بدت صحيحة له، فبمجرد فرض أي رأي نشتم رائحة الموضوعية الفجة، التي ترفضها كل ذاتية حرة، قبل أن تسعى إليها كل دكتاتورية قاهرة، تحت ظلال السلاح أو الايديولوجيا.

لكن هذا لا يعني عدم استخدام القوة في سبيل ايصال الإنسان لحقوقه الحقيقية التي هي وعي المطلقات، وللإسلام في هذا منهج تتوقف فيه القوة واستخدامها العملي الضروري، قبل حدود الطغيان اسمه: الجهاد.

وسيمر القارئ بالمنهج هذا حين حديثنا عن سيرة الرسول ﷺ وله اختياره، أو رفضه، ولكن ليس له أن يتنكر لضرورة إيصال المطلق إلى أخيه الإنسان الذي قد يقاومه بعنف غريزي طغياني وطاغٍ، فحق الإنسان الذي هو أساس كل حقوقه هو: الوعي.

إلا أن بعض الناس وخاصة ذوي العقلية الفجة من المكتفين المعجبين بالفكر وقدراته الالتفافية المرتبطة بالبقاء فقط، أقول لبعض هؤلاء ـ البدائيي الفكر سواء كانوا بأرقى المدن أو بأقصى الصحاري والغابات ـ مقاومة لتغيير ما ألفوه، قد تكون على درجة عالية من العنف والإرهاب، فهم لا يتعلمون إلا بالطريقة الصعبة.

لذلك تدرج الجهاد الإسلامي من أبسط مستويات الجهد في ترقيتهم إلى حدود إدراك المطلق إلى جهادهم بالقوة.

وقد كان بإمكان هذا الدين تركهم كما فعلت الحضارة الإغريقية، مع برابرة أوروبا في وقتها، إلى جهالاتهم وجاهليتهم، فلم يكتب لهم الفكر الإغريقي كلمة واحدة.

وهذا موقف سلبي من حقوق الإنسان الحقيقية، يرفضه الإسلام شأن كل مواقفه في التعامل مع المطلقات، ولم يقبل بتركه للتربية فقط قبل أو بعد استرقاقهم أو إهمالهم بحصونهم البربرية.

بل شق هذا الحصون من الطغيان البشري الاجتماعي على الأفراد، المعتم عليهم حقهم الإنساني الأساسي بفهم المطلق لوعيه، وبالتالي لتحلي الإنسان بحقه الأساسي حق حلية الوعي.

هذه هي صورة المعجزة الإسلامية التي نجحت بأقل من خمسين سنة من بعثة الرسول ﷺ بالوصول إلى كل العالم القديم آن ذاك، والتي كان من لوازمها الأساسية بعد أن رسخت في العصر العباسي، التعامل مع الترجمات الإغريقية لإنقاذ الحكمة الإنسانية القديمة من التبدد في إطارها اليوناني القديم المغلق، والمهجور من الدولة الرومانية

الطاغية، عبر هدفها الأساسي بوعي المطلقات التي قالها الفكر الإنساني لترسيخ الوعي وعي الإسلام.

وهذا الأمر لا يُفْهَمُ إلا بفهم معنى المعجزة في الإسلام، والطريقة الصعبة التي لا يريد الفكر الإنساني أن يفهم هذا الدين إلا بها، بسبب تعارضه مع مفهوم المطلق المشوش في الأديان السابقة التي قاومته ولا زالت بكل الوسائل.

إلى حد أنها اليوم بعبارة: «حقوق الإنسان»، لا تُهاجِم أكثر ما تهاجم إلا الجهادُ الإسلامي بدعوى أنه فرض ذاتية «محمدية» بصيغ قسرية تدعي الموضوعية، والمسألة على العكس، فرض المطلق على الذاتية لتحقق من ثمارها «الوعي» كل الموضوعيات.

فكيف نفهم معنى المعجزة قبل أن نقرأ أخبار السيرة النبوية من المصادر الغربية المقاومة للإسلام، لا من مصادرنا نحن!!

منطق الإسلام «علم الكلام والحرية»:

لا علم ولا فلسفة إلا بالفهم، ولا دين إلا بالمجاز والبلاغة، وشروط وقواعد الفهم هي المنطق الذي لا يخرج عن المألوف، إلا بتثبيت مألوف جديد يصبح من الصعب ثانية الخروج عنه، فتأكيدات المنطق عيانية وعقلية يزحزحها الاحتمال والنسبية وهما من قواعد المنطق نحو التجريد بالمجاز، الذي ما يلبث أن يذهب بها إلى الخيال العلمي أو الأسطوري سواء، لِيُشدَّه التصور نحو الامكان، فإن أمكن صار مألوفاً جديداً.

والمجاز أداة هامة من أدوات اللاهوت للبحث عن المعاني الباطنة في النصوص المقدسة، تجتازه البلاغة في الإسلام لا نحو الاحتمال التجريدي بل نحو يقين المجردات ما وراء المنطقية، فلا يذهب بالخيال ليشد التصور نحو الامكان، بل يضعك مباشرة أمام التصورات، وكل واحد منها لا كإمكان بل كواقع غير مألوف، لكنه واقع حتمي، ومثالنا على ذلك الاعجاز الحتمي بعبارة التسليم الإسلامي كمسلم إن شئت أم أبيت، التي سننهي فيها حديثنا عن الخوارق والمعجزات.

وعبر هذا ـ أي عبر البلاغة ـ يضع المنطق الإسلامي، ـ وإن شئت علم الكلام ـ المطلع عليه، بالخيار البلاغي القرآني لا الاحتمالي المفتوح بالمجاز بل بالبلاغة بإما أو!!

وقد استعمل هذا النهج الفلاسفة المسلمون الأوائل كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وسواهم.

أقول: «استعملوه تطبيقياً ولم يقدروا على استعماله بلاغياً كما في القرآن الكريم»، فجاءت بحوثهم منطقية عقلانية غير مفارقة في شتى حوامل الوجود المعطى فيزيقياً، أي جاءت ما ورائية ـ ميتافيزياء ـ عيانية محددة لعين العقل، لا مفارقة تصعب رؤية عيانيتها إلا بالبلاغة فقط، التي ظلت تمد الفكر الإسلامي بكل مجرداته إلى اليوم.

ولأن البلاغة غرض من أغراض الأدب العربي فإن هذا الأدب لم يقر وإلى اليوم، أي منذ «النضر بن الحارث» الذي ادعى أنه يستطيع أن ينزل مثل ما أنزل الله(13)؟! إلى «سعيد عقل» الذي راح في أواخر خطرفات شيخوخته يدخل الكلمات بين سورة الفاتحة مدعياً أنه جاء ببلاغة كالقرآن، أقول: «ظل الأدبُ العربي يحمل بذرة عدم الإقرار بالبلاغة القرآنية، فخسر ما ربحته الفلسفة من ثمار البلاغة القرآنية في منهج خيارها الذي أشرنا إليه، ونال مقابل ذلك كل صفات السفسطة التي كانت للأدب الإغريقي قبل «سقراط».

هذه السفسطة التي لا زالت تدفع بالأدب إلى ادعاء أنه قادر على صنع ضمير هذه الأمة كما صنع القرآن مثلاً، بينما هو أي الأدب ليس بأكثر من تعبير من تعبيرات هذا الضمير، وأكثر من ذلك إلى ادعاء أنه هو الفكر؟!

لماذا؟!

لأن الفكر يستعمل اللغة بالكتابة مثله، ويختلف عنه بأنه لا يتطرق إلى أي إبهار أو جمال، وهذا الاختلاف يراه الأدباء عيباً وهو فضيلة الابتعاد عن تحوير الكلم عن مواضعه، ثم ادعاء أن هذا التحوير بلاغة، وبه تتم صورة السفسطائي بالأديب العربي، الذي له وللأسف قد خلا منبر الكلمة منذ عصر الانحطاط عصر السجع المدعي البلاغة إلى عصر الشعر المنثور اليوم؟!

وبسبب هذا الفراغ لا يزال الفكر العربي المعاصر يتراجع!!

فإذا استطاع القارئ معي أن يَلْمُسَ هذا الخيط الدقيق بين المجاز بصورة عامة والمجاز الديني بصورة خاصة، وبين البلاغة بصورة عامة أيضاً، والبلاغة القرآنية بضمير الغائب بصورة خاصة، وبينهم جميعاً، استطاع أن يضع يده على أسس قواعد المنطق الإسلامي أي علم الكلام، وصار بإمكانه أن يرى صلة هذه القواعد مع قواعد المنطق الإنساني بصورة عامة، وكيف تتحرك اليوم بضبط غير المألوفات من خوارق العلوم إلى حيز الفهم الإنساني لا احتمالية الامكانية الخيالية في الخيال العلميّ فقط.

لقد زحزح علم الكلام الفكر العربي عبر نهج البلاغة القرآنية، للبحث بأمور لم

تكن حتى بمضمرات هذا الفكر، وأوكد هنا أن نهج البلاغة أي منهاجها هو عكس ما قصده «الشريف الرضي» من تسمية خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «رضي الله عنهم» التي جمعها «الرضي» وسماها بهذا الاسم الذي اعتبره «محمد عبده» أليق الأسماء بهذه الخطب حين قال: (ولا أعلم اسماً أليق بالدلالة على معناه منه)[14]، بمعنى أن هذه الخطب تنهج بالأدب منهج القرآن، وهذا ما لم يدعيه «كرم الله وجهه وقوله» عن ذلك.

نهج البلاغة القرآنية الذي استخدمته الفلسفة العربية، هو منهج استقصاء وتثبيت المألوفات اللامألوفة التي يلتفت إليها الفكر بسبب البلاغة القرآنية، لجعلها مألوفة منطقياً.

أكثر من ذلك لتضيف إلى المنطق قواعد جديدة كقاعدة «الحيدة» التي استنبطها من هذا النهج «عبد العزيز بن مسلم الكناني» بكتابه «الحِيَدة»[15] مثلاً والقائم على تفسير النصّ القرآني بالنصّ القرآني ذاته، وبالتالي الفكرة بنفس الأفكار التي تشرحها دون «حيدة» تعتمد وتتعمد سلبية سوء الفهم للإفحام.

لهذا يمكننا القول: إن علم الكلام الإسلامي، هو: ليس علم استخدام المنطق للدفاع عن الدين، بقدر ما هو علم استخدام المنطق في عمل الذهن إزاء اللامألوفات التي جاءت بها البلاغة القرآنية، وصارت أو هي بطورها لتصير دوماً مألوفات أساسية وعيانية إزاءَ العقل والواقع الإنساني. إنه منطق اللامألوف الذي صار عياناً مألوفاً، وأساس من صيره: البلاغة القرآنية التي قادت فلاسفة وفرسان العقلِ المسلمين على نهجها لهذا العلم، علم الكلام.

تاليف اللامألوف:

إنه ومنذ العقد الثالث للهجرة، يمكننا أن نرصد علم فهم اللامألوفات التي جاءت بها البلاغة القرآنية، بكل تعدد أوجه فهم كل موضوع منها بالفرق الأوائل فمنذ الحسن البصري الرائد الذي أفرز ما سمي بالاعتزال بزمانه المولود عام «31هـ» إلى القاضي «عبد الجبار الأسدبادي 320هـ» حوالى ثلاثمئة سنة تحرك فيها الإعتزال في محاولة للإجابة على أسئلة لم تكن مألوفة في الفكر العربي.

وأهم هذه اللامألوفات قوانين الجبر التي إلْتَفَتَ إليها الفكر العربي بسبب دخول البلاغة القرآنية فيها وهي تؤكد المسؤولية الفردية عبر كل قانون، تماماً كما التَفَتَ عصر «التنوير» الغربي مع «كانط» لدراسة حدود صلة القوانين التي تحكم كل هذا الوجود من

أبسط إلى أعقد ما فيه، مع الإنسان من منطلق الفكر الغربي الذي هو الجبر بسبب قوانين الوجود، بينما منطلق الفكر العربي الجبر بسبب الإرادة الإلهية.

فإذا كان الجبر بسبب قوانين الوجود النازلة ـ الحالة ـ بهذا التواجد على كل واحد منا تقتضي كي ينطق أو يمشي مثلاً أن يتعلم مجموعة معقدة متداخلة من القوانين الفيزيائية والفيزيولوجية والاجتماعية والعقلية والنفسية، ليقوم بهذا العمل البسيط الذي هو المشي أو الحديث، فإن قوانين الجبر الإلهي تتصل بمسؤوليته بعد هذا المشي أو ذاك القول أمام الله تعالى.

ومن أبسط أشكال الشكلية المنطقية بالمنطق الصوري الاعتراض على الله تعالى بقدره، فلأنه هو الذي قدّر لي أن أكون بهذا المكان وهذا الزمان ووضعني بكل الشروط التي توجب فعلي هذا، فلماذا سأحاسب منه تعالى على هذا الفعل أو ذاك؟!

وعبر هذه الصورية المنطقية يمكن أن تبرر كل الفواحش التي يرتكبها الإنسان بحق نفسه والآخرين؟!

والبلاغة القرآنية بالآيات الدالة على الجبر، مقابل تلك الدالة على المسؤولية وبالتالي الحرية، هي التي فتحت أول ما فتحت أمام العقل العربي هذا الإشكال غير القابل للتأليف للوهلة الأولى، وأعقب هذا الإشكال النظري استخدامه لأول مرة كتبرير سياسي لتسلط الدولة الأموية، بدعوى أن الله تعالى لو لم يكن يريد هذه الدولة كخليفة للرسول ﷺ لما نَصَرَ القائمين عليها. وقد رشح هذا القول بالجبر من ألسن بناتها الأوائل، فلما دخلت («زينب» بنت علي «كرم الله وجهه» وحفيدة الرسول ﷺ من بنته «فاطمة» «رضي الله عنها» إلى قصر الكوفة ذليلة أسيرة بيد «عبيد الله بن زياد بن أبيه» ابن ابن زانية الطائف «سمية» والذي ادعى والد الخليفة أنه أخ له بعد فاحشة ارتكبها جده بجدته مع عشرات من أهل الطائف والأمصار، ورأت «عبيد الله» جالساً حيث تعود أبوها أن يجلس... أسيرة يتيمة ثكلى، قد فقدت أباها وشقيقها، وبقية أهلها ـ بعد كربلاء... فسألها من تكون؟!... وأجابت إحدى إمائها:

هذه زينب ابنة فاطمة الزهراء.

قال لها «ابن زياد»... الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم، وأكذب أحدوثتكم... كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟!

أجابت وما يزايلها ترفعها:

كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم... قال ساخراً في غيظ:

هذه سجاعة، لقد كان أبوها سجّاعاً شاعراً؟!)[16].

ولأنها احتجت عليه بمثل ما احتج عليها بقدر الله، نعتها الطاغية وآل بيتها بالسجع.

ومع ذلك ظل بُناة الدولة الأموية يتمسكون بالجبر إلى حد قتل كل من يقول بالخيار وبالإرادة، وحين هم «الحسن البصري» بإيضاح هذا الأمر مع بداية «الاعتزال» وجد أن أول خصم معارض له «عبد الملك بن مروان» الذي ما إن سمع بمجرد طرح إمكان تفنيد معنى الجبر دينياً وفلسفياً حتى طار صوابه من رجل لو بطش به لفضح[17]، فكتب له يقول:

من عبد الملك أمير المؤمنين إلى الحسنِ ابن أبي الحسنِ.

سلام عليك.

أما بعد... فقد بلغ أمير المؤمنين عنك قول في وصف القدر لم يبلغه مثله عن أحد ممن مضى... فحصِّلْ رأيك لأمير المؤمنين وأوضحه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[18].

ورد الحسن البصري بالديباجة المعهودة ثم (أما بعد... أصلح الله أمير المؤمنين... ـ إن الله ـ أمرهم بعبادته، ولم يكن يخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه... ليهلك من هلك على بيّنة... و... كل نفسٍ بما كسبَتْ رهينة... وابتلاهم لينظر كيف يعملون... إن الله لم يجعل الأمور حتماً على العباد ولكن قال: إن فعلتم كذا فعلت بكم كذا.. فمن أطاع... شرح الله صدره للإيمان... ولم يذكر لهم ذلك ليقطع رجاءهم... من رحمته. ثم بعث له نسخة من كتابه حول الجبر مرفقه. وهي ملخصه تحت عنوان في القدر[19]، وتدور حول فكرة أن الله تعالى لم يخلق الناس لأمر ثم يحول بينهم وبينه، لأنه تعالى ليس «بظلام للعبيد»)[20].

على أن هناك تمييزاً دقيقاً يجب أن لا يغيبَ عن الذهنِ، وهو الفرق بين الجبر نتيجة القدر، والقسر نتيجة القانون، فجبر القدر موضوع حوار كلامي منطقي للخروج بمواقف سلوكية سياسياً واجتماعياً ودينياً لا تتعارض مع الإيمان، بينما قسر القوانين ظاهرة رصدتها فلسفة التنوير الغربية لبحث مدى حدود الحرية الإنسانية حتى لو لم يكن

صاحبها ملتزماً بأي دين، فدراسة مدى قسر القوانين الوجودية على الإنسان، دراسة ميتافيزيائية تبحث عن الرابط أو الصلة المشتركة بين حريتنا الذاتية، ومدى قدرتها على التحقق عبر كل قوانين هذا التواجد الذي نرزح تحتها، فلولا تقدم العلوم باستخراجاتها لمختلف القوانين في عصر التنوير لما طُرِحَتْ هذه المشكلة، ولولا الإسلام لما طُرِحت مشكلة الجبر.

لذلك بإمكاننا أن نفيد من كلا الطرحين لنحدد موقفنا من الوجود ومدى مسؤوليتنا فيه.

فهم السيرة:

قلنا لما تحدثنا عن صلة القانون بين الموضوعية والذاتية: إن سلطة القوانين الواقعة كلها دفعة واحدة على كل منا منذ أن يأخذ نَفَسَهُ الأول في هذا التواجد، والتي لا زال العلم يكشفها بالعلوم تباعاً، سلطة تجعل من احتراقها البؤري في الإنسان ـ إذا صح التعبير ـ أساس شعوره الميتافيزيائي بالحرية المطلقة، هامشياً إلى أبعد الحدود في الواقع.

والإنسان حين يحرك نفسه بهذه البؤرة الهامشية، يجد أنه سيواجه أول ما سيواجه الاختيارات، ومن ضمنها الاختيارات الدينية، لكنه مع الإسلام حتى ولو اختاره سيجد أن هذا الدين قد سبقه ليؤكد له أنه مسلِّم قبل هذا الاختيار، جبراً بجبر قوانين تواجده الفيزيقية والمتيافيزيائية كلها معاً. وبعبارة أخرى إن الإسلام ينتزع هامش بؤرة الحرية هذه ليقوننه بفرائضه ويوجهه نحو تشريعاته الأخلاقية والدينية الخاصة؟!

فمن يختارُ الإسلامَ رغم أنه مجبر على التسليم سلفاً لقوانين الوجود، يعلن عن التخلي عن هامش بؤرة حريته، وهذا هو ما يقرضه لله قرضاً حسناً. كما أن عليه أنْ يوسع فهمه للمألوفات من منطلقاتها هي لا من منطلقات أي عيان إعجازي نقلي، لأن الإسلام قبل كل شيء وبعد كل شيء معجزته الوحيدة هي القرآن الكريم.

فمن المألوف عليه أن ينطلق إلى اللامألوف، كما عليه أن يقرض الله هامش بؤرة حريته، فإذا لم يكن الإنسان عبداً لطغيانات بشرية أشد من هذا كله، يصعب عليه النطق بالشهادة، وما يعقبها من تشريعات هي قوانين ـ بعد كل شيء ـ يفرضها على نفسه.

الإسلام صعب إذاً فردياً، ولا ينتشر اجتماعياً إلا بين مقهورين، لذلك عندما صلينا على الرسول ﷺ في بداية هذا الكتاب قلنا: «قاهرُ الطغاة والجبابرة والمتألهين

والمتكبرين والمتعصّبين والمستبدين».

أما الذين يسمون أنفسهم أحراراً في هذا التواجد القصير قصر عمر الإنسان، لأنهم يمتلكون هامش بؤرة الحرية فسيقاومون الإسلام، وسلاحهم في هذه المقاومة مألوفاتهم المنطقية!!

لأنهم لا يريدون أن يفقدوا حتى هذا الهامش الذي لهم توجيهه، فهم أحرار بمدى حدود الحرية الإنسانية التي رصدها علم الكلام الإسلامي ـ كما سبق وبينا ـ وأكدها.

الحرية هنا كالذاتية والموضوعية يتداخل فيها الجبر، والمغزى من هذا: أنه طالما هناك خالق هو حتماً وجبراً فرض التسليم على كل مخلوق.

فالإسلام جبر على كل إنسان يخفيه إمكان الاختيار، على أن لا نسمي الاختيار حرية.

لأن الحرية الباقية هي في مدى التسليم بهذا الجبر أو رفضه، وهذا هو الفرق بين المعترف بالشهادة والرافض لها، وهما يتساويان في نهاية المطاف بالموت الحتمي، والعيش الوقتي قبله، لكن واحدهما موعود والآخر بدون وعد؟!

هذا هو منطق الإسلام وموجز علم كلامه إن شئت، وبسبب هذا المنطق بذل ويبذل البحاثة بالسيرة عن التعارضات والتناقضات، والمألوفات واللامألوفات فيها، بحثاً تشتبك فيه ذاتيهم وهامش حريتهم، بكل سطر موضوع أمامهم من موضوعية سيرته ﷺ.

وميزة «إيرفينغ» أنه واحد من هؤلاء الذين لم يقولوا الشهادة لينقذ هامش حريته، لكنه أعجب بمن فعلوا وقالوها، فهو من الأقرب مودة للذين آمنوا، من كل من قرأها من الغربيين اللامضطهدين في الغرب.

وأقول اللامضطهدين لأن الإسلام لا يمكنه أن ينتشر كما بينت اجتماعياً إلا عند من خسروا لا مجرد هامش حريتهم بل حتى قدرتهم على الاختيار، ولا ينتشر إلا عند المسحوقين، إنه دين القوة للضعفاء، وليس دين الجبابرة الأقوياء، شرطه فتح كل آفاق الوعي بحقيقة عرضية هذا التواجد.

هكذا يمكن أن يتضح لنا معنى الإعجاز الإسلامي في تحركه عبر تداخلات الذاتية والموضوعية ـ الذاتموضوعية ـ وعبر الحرية والتحرر من جهة والجبر والقسر من جهة أخرى.

وهذا الإعجاز خرج منه فعل عجائبي ذو تأثير فائق على قلوب الناس، سواء

بالبلاغة أم بالتفسيرات المجازية لنصوصه، رغم كل الخلافاتِ الفردية والفرقية حولها، والتي تغنيها وتغني الإسلام، خلافاً لما يظن فيها من تفرقة هدامة، فيكفي أن نعلم أن الإسلام دين لا يمكن القضاء عليه بالقضاء على الرأس أو المؤسسة التي تحميه، لأن لا رأس واحد له، ومؤسساته على افتراض أن له مؤسساتٍ، هي فِرَقٌ كثيرة، كثرت بكثرة احتمالات إعجازات بلاغة الكلمة القرآنية.

هذه إحدى معجزات الإسلام، وخوارقه التي اخترق بها أمم الأرض، ولكي نؤكد للقارئ الكريم أن ليس في المعجزة الإسلامية أكثر من القرآن الكريم، لا بد أن نستعرض معه معنى الخوارق والمعجزات، عسى أن نضع بعض التعريفات التي تساعدنا في هذا السياق.

فنحن نتحدث عن دين عقلي يريد أن يأخذ مكانه في كل قلب، فبقدر طموح هذا المطلب، من حق أصحاب هذه القلوب أن يسألوا عن كل شاردة وواردة فيه.

فإذا أيقنوا أيقنوا من وعوده في اليوم الآخر، قياساً أو شرح صدر، لذلك يصير بمقدورهم أن يقرضوا هامش حريتهم للتشريع، مقابل الحرية بذاتها عند الحق في المطلق، في اليوم الآخر.

الخوارق والمعجزات:

تقول العرب عن الخارقة إنها: (الشيءُ البالغُ الغاية في الجودة)[21] والمعجزة كاسم فاعل من الإعجاز: الذي يعني لغوياً تأدية المعنى بطريق أبلغ من جميع ما عداه، وهو إن لم يتصل بالكلام والقول قصد به إظهار صدق من ادعى ـ صلة بما هو فوق الوجود ـ أي صلة مع الخارق الذي هو الله تعالى[22].

فالمعجزة هي أمر خارق للعادة لإظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله[23].

فهي مخالفة لنظام الطبيعة المألوف ـ القائم على السببية والنسبية ـ لإظهار أمر خارق للعادة[24]، لا يخضع للقوانين التي يعرفها الناس ـ عن السببية والنسبية ـ عبر استخدامهم القبلي ـ قبل تعلم ـ المنطق «Common Sense».

على أن لا ننسى أن هناك أموراً في هذا الوجود ككل نجهل قوانينها، وأموراً قد لا يكون لها أي قانون؟!

لذلك أنكر البعض دلالتها غير المباشرة على الصدق، وحصر «التهانوي» هذه

الدلالة بمدعي النبوة أو الولاية الصوفية بسبعة شروط، تدور كلها على شروط الإعجاز الخارق للتأييد[25].

على أن لا ننسى أننا قد نتعرض لأمور نجهل قوانينها، فلا نستطيع لها تفسيراً لا سببياً ولا نسبياً، فنسميها مصادفة.

والصدفة أو «Chance» تعني الأحداث التي تحدث بفعل علل غير مطردة ولا منسقة فيما بينها[26].

فالمصادفة لا تحصل عند الحاجة إليها، بل قد تبرز هكذا بدون أي سبب، لكن إذا حصلت عند الحاجة إليها، عادت لترتبط بالسببية وهي لا تنتمي إليها، لذلك تصبح خارقة للعادة، أي تصير أمراً يعبر عنه بالعجيبة، التي من معناها سميت الخوارق باللغة الانكليزية «Wonders» أي أموراً عجيبة تدعو إلى التعجب، وعند هذا يتوقف الفكر عن التفسير؟!

فالمصادفات تظل مصادفات لا قيمة لها، إلا إذا اقترنت بالحاجة إليها، فإذا حصلت حين الحاجة إليها صارت خوارق.

والغزالي حين هاجم الفلاسفة في عشرين مسألة لإظهار تناقضهم فيها، عمد في كتابه «تهافت الفلاسفة» إلى المسألة السابعة عشرة إلى: إبطال قولهم باستحالة خرق العادات[27].

يقول: (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً، وبين ما يعتقد مسبّباً، ليس ضرورياً عندنا... فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر... فإن اقترانهما... من تقدير الله سبحانه، يخلقهما على التساوق لا لكونه ضرورياً... بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل... وإدامة الحياة مع جز الرقبة وهلم جرا)[28]. والدليل الوحيد على قولهم بصلة الأسباب بالمسببات هو الملاحظة عادةً بتلازم الوقوع بينها. (وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول... وهي.. لا تدل على الحصول بها)[29]. واقترانها من تقدير الله، خلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً؟!

ورد «ابن رشد» على نقد «الغزالي» للضرورة الحتمية في التلازم في الوقوع بأنه: قول سفسطي ينكر المشاهدة العينية، ويتنكر للأسباب غير الواضحة للعيان المؤثرة في كل سببية، والتي هي كناية عن إضافات لا تنتهي، حين ملاحظتها لا يوجب مثلاً للنار سلب صفة الإحراق عنها، لأنها لم تحرق فلاناً بظرف من الظروف، تعطلت فيه إضافة من الإضافات السببية غير الملاحظة.

وكأني بالرد الرشدي يقول بالنسبية التي من الواجب فهم السببية عبرها، وهذه النسبية هي التي تسمح لما نسميه بالمصادفة أن تحصل.

لكن النسبية لا تفسر سبب حصول مصادفة عند حاجة إنسان معين لها، فإن نوسع دائرة السببية بالاحتمالية والنسبية شيء، وأن تُسَخرُ هذه الاحتمالية والنسبية لدفع كل شروط السببية لخدمة إرادة إنسانية تحتاج قطع صلة الأسباب بمسبباتها أو توجيهها حسب ما تريد شيء آخر، اسمه لا يقع إلا تحت الخوارق.

الخوارق إذاً: تنتج عن سلوك سببي لكنها توصل بالسببية إلى ما هو أبعد من كل توقعاتها المحتملة، أي توصل إلى النتائج الفائقة التي كان احتمالها ضعيفاً جداً، عبر كل الاحتمالات الممكن حسابُها. وهذا يحصل مع كثير من الناس في الواقع.

فإن تحسب كل الحسابات السببية والاحتمالية لأمر يعطي مردوده قرشاً واحداً مثلاً فتحصل منه على عشرات الملايين، أمر خارق.

والعكس قد يحصل من محاولة كسب هذا القرش البسيط بعدة فواجع بنفسك وبأهلك وربما بوطنك، أيضاً هو خارق بالفاجعة.

إن كل واحد منا لديه قصة غير مصدقة يمكنه أن يرويها، من فاجعة حصلت له، بما لا علاقة له بالفواجع سببياً واحتمالياً ونسبياً معاً، أو تفوقٍ هو أبعد من توقعاته، بنفس كل هذه المعايير.

كلنا معرض إذاً للخوارق سلباً وإيجاباً.

ولهذا السبب انطلق «ديفيد هيوم، David Hume» من نفس منطلق «الغزالي» بإلغاء صلة السببية بالنتيجة لا ليصل إلى تأكيد الخوارق والمعجزات بل لنفيها ونفي إمكان حدوثها؟!

فوضع من أجل هذا كتاباً عن ـ حول ـ المعجزات «Of Miracles» عام «1748»م اعتبر الأكثر تشهيراً بها من كل أعماله المثيرة للجدل، والتي أهملت فترة طويلة من الزمن.

وربما على هذا الكتاب بنى فكر النهضة رفضه لمعنى الخارقة والمعجزة المتداول سابقاً، فماذا في هذا الكتاب؟!

إن «هيوم» رغم إقراره بأن النتائج ليست مرتبطةً دائماً بعادة تكرار حصولها السببي، يقول: (إنه من الخداع الإدعاء بأن النتائج يمكنها أن تحصل بدون أي سبب أبداً)[30].

أي أن النتائج قد لا تعطي دائماً ما توقعناه عادة من أسبابها، أما الادعاء بنتائج تحصل بدون أسباب قطعاً، فهو قول مضلل.

وعلى هذا بنى كل منطقه في معالجة هذا الأمر ـ أمر المعجزة ـ في هذا الكتاب ليصل في النتيجة إلى القول: (إن ديننا المسيحي لم يكن أول دين يعتمد على المعجزات فقط، بل هو إلى حد اليوم لا يمكن الإيمان به من قبل أي شخص عاقل بدونها. . . فهو يعطي له تأكيداً بأن يؤمن بما يتعارض مع كل عادة وخِبرَة)(31).

السؤال إذا هل علينا كي نؤمن أن نعتقد بكل ما يتعارض مع عاداتنا وخبراتنا؟!

يبدو أن «ديفيد هيوم» يعتقد أن هذا هو شرط الإيمان؟!

والدليل الوحيد على هذا هو العيان اللاسببي، فإذا كان من الممكن عقلياً عدم ارتباط النتيجة بالسبب الذي اعتدنا أن نراه مسبباً لها، كالاحتراق وملاقاة النار، فليس من الممكن عنده، بل هو المحال وجود نتيجة بلا سبب أبداً، وبالتالي فمطلب الإيمان الديني من خلال المعجزات محال.

إن الحكم على الإيمان الديني بربطه بالمعجزات كما أكد «هيوم» بقوله إن الدين المسيحي «أول دين يعتمد على المعجزات فقط» كما سبق وأشرنا، شيء وجهل «هيوم» بالدين الإسلامي وطرق إيمانه شيء آخر.

لذلك قال: (إننا حين نؤمن بأي معجزة لمحمد وخلفائه، نجد أن شاهدنا على ذلك بعض شهادات البرابرة الأعراب)(32).

هذه الشوفينية التي لازمت الفكر الغربي منذ بداية احتكاك الرومان مع الفاتحين المسلمين، لا زالت حتى عصر «هيوم» عصر التنوير والنهضة المزعوم وربما حتى اليوم، لا تكلف نفسها عناء دراسة أسس الإيمان الإسلامي القائم على إعجاز القرآن فقط، لا معجزات السببية المبتورة بعيان الشهادات لفلان أو علان بحصولها، ففي القرآن الكريم نجد:

ـ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [سورة الكهف، الآية: 85 ـ 89 ـ 92].

ـ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [سورة البقرة: 255].

ـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: 49].

ـ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [سورة ص: 10].

ـ ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق: 3].

ـ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [سورة الكهف: 84 ـ 85].

وبغض النظر عن جهل «هيوم» بالدين الإسلامي، وعدم معرفته بالأسباب التي بني عليها الإيمان الإسلامي، نجد أن الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، لا يتعارض مع ما قلناه عن التعرض لأمور خارقة لكل حساب سببي سلباً أو إيجاباً.

فالقول بالحتمية السببية.

كالقول بالحتمية اللاسببية.

لا يراعيان النسبية والاحتمال في صلب السببية، وبمراعاتهما لا تعود شهادة الشهود على الخوارق وحدها هي التي تؤكد أو تنفي صدق حصولها، فالطعن بشهادة شهود الخوارق لا يكفي لنفي حصولها.

وتقع هذه الشهادات ضمن ضرورة استقصاء الجمل الخبرية منطقياً، من منطلق أن ما ألفناه يجب أن لا يكون وحده معياراً للتصديق ولا للتكذيب، فما ألفناه بحدود معاييرنا المعرفية المحدودة هو ليس كل معايير المعرفة المطلقة. ولنأخذ مثالاً على ذلك من التاريخ:

إن «هيرودوتس» الذي يُعْتَبَرُ أول من أسس الفكر النقدي في التاريخ، كذب القصة التي رَوَتْها بردية عن الفرعون «نيكور الثاني» «600ق.م» بأن البحارة «الفينيقيين» قد داروا حول أفريقيا من البحر الأحمر، وعادوا إلى مصر من البحر الأبيض المتوسط، بعد حوالي ثلاث سنوات، وما قالوه: إن الشمس أثناء رحلتهم تغير مركزها الجنوبي إلى الشمال، من منطلق أن البحارة يحبون رواية العجائب. ومن منطلق استحالة روايتهم بحسب معاييره المعرفية، لذلك رفض تثبيت كل هذه القصة بتاريخه.

بينما تشكل روايتهم هذه بالنسبة لنا على العكس من ذلك تأكيداً على أنهم فعلاً قد داروا حول أفريقيا، بناء على معاييرنا المعرفية الأوسع من معايير «هيرودوتس»[33].

وهذا يؤكد الحض القرآني الكريم بضرورة الارتقاء في الأسباب، والإرتقاء بهذا المعنى هو ارتقاء بنسبية المعارف وبها أي بالمعرفة.

إن عبارة ظواهر غير قابلة للتفسير الآن «Unexplained Phenomena» يجب أن لا تعنيَ غير قابلة للتفسير قطعاً.

فالحتمية جهل بالنسبية في فهم كل سببية، سواء مع السببية أو ضدها، وهي - الحتمية - تتراجع في تفسيرات الكثير من العلوم المعاصرة إن لم يكن كلها، وخاصة عند دراسة «Parapsycology» في مجالات علم النفس، ولا مكان لها حتماً، أي لا مكان للحتمية حتماً في علوم الفضاء، فاللاحتمية هي الحتم الوحيد في العلم اليوم.

ليس الدين وحده إذا يؤكد لنا ضرورة أن نؤمن بما يتعارض مع بعض عاداتنا وخبراتنا، بل اللاحتمية الفلسفية تطلب ذلك من كل العلوم لحَثّ الجهد المعرفي الإنساني على توسيع دائرته المعرفية في عاداته وخبراته دوماً.

وإذ تنصاع العلوم لهذا الحثّ يظهر منها دوماً ما يشبه المعجزات، وأقول: «ما يشبه المعجزات، لأن شبيه المعجزة يختلف عن المعجزة فقط بأننا نعرف أسبابه، ونستطيع أن نستدعيها في كل وقت نشاء عبر شروطها».

تعريف:

أما المعجزة فهي ما يَنْتِجُ عن سلوك سببي لكنه يؤدي إلى نتائج تفوق كل نسبية احتمالات التوقع، وإذا كانت النتائج ضمن احتمالات التوقع لكنها فائقة مبهرة صارت خارقة.

ونحن فعلاً نقوم بالخوارق عبر العلوم، في الوقت الذي ترصد الظواهر غير القابلة للتفسير طبيعياً، وبشرياً في «الباراسيكولوجي»، وعبر مقارنة رصد هذه الظواهر الأخيرة - باراسيكولوجي - مع تاريخ الأديان والنبوة فيها، نستطيع أن نقول: إن هناك من البشر من هم مطلوبون من الخوارق، وهم غير طالبين لها وعلى أيدي هؤلاء تحصل المعجزات.

إننا عبر توسيع دائرة عاداتنا وخِبراتنا نوسع دائرة معارفنا، وهذا مطلب فلسفي قديم، به نصل إلى ما يشبه المعجزات، فنحن طلاب خوارق.

لكن إذا طلبت الخوارق بعضنا عبر تفاضلية ندرة حدوث هذا الطلب من أجل الله لا من أجلنا ظهرت المعجزات النبوية، وهذا حتماً غير مكرر ولا معاد في التاريخ البشري في صلة الإنسان مع الحق لأنها وصلت وعرفت وختمت بالإسلام، لذلك لا نبوة اليوم لأحد.

ولكن لكل الناس، بل على كل إنسان إذا انصاع للفكر الفلسفي والمنهجي أن يوسع دائماً من دائرة عاداته وخبراته وبالتالي وعيه، أي لكل الناس فرصة القيام بالمعجزات لأجل أنفسهم، ولا يمنعهم عن ذلك إلا تحبيط الحتميات العلمانية الفجة،

والإلحاديات السلبية في مواجهة الحياة.

إن كل واحد منا هو بحد ذاته خارقة، خرجت إلى الوجود من تفاضليات احتمالات لانهائية لو نقص منها ثانية أو أُضِيفَتْ لها حركة لما كان، وعلوم «الجينوم» توضح هذا الأمر، لكنها لا تستطيع أن تفسِّره.

ولأنك خارقة احتمال من بلايين الاحتمالات غير القابلة للحصر، تواجه ملايين احتمالات هذا التواجد أمامك، تستطيع أن تخرق هذه الاحتمالات بالقوة الكامنة فيك إلى حيز الفعل الخارق.

شرط أن تعرف أن كل ما تقدمه المعرفة لك من مفاهيم كالإرادة والحتمية والعرفان بحد ذاته، وكل العموميات حول الإنسان والوجود، يمكن لفرادتك غير القابلة لأي رصد معرفي أن تجعلها بالاتجاه الذي تريد، لأنها كناية عن بؤرة الحرية التي تملك في الواقع، فإذا ارتفعت بها من التحرر نحو وباتجاه حريتك الميتافيزيائية المطلقة ستقابل كل الخوارق.

فإذا كنت مستعداً ـ بالفلسفة ـ لمثل هذه المقابلة، عليك أن لا تنكر المعجزات في الدين.

في الدين:

وإذا سئلت عن الصدفة، فالصدفة هي أنت كما قرر «نيتشه» (قال أرسطو: «إن على الإنسان أن يعيش عابداً وفيلسوفاً»)[34]، فهل (أنت أصيل أم مجرد ممثل على خشبة هذا الوجود... لقد بحثت عن العظمة الإنسانية فلم أجد إلا قِرَدَةً خاضعة لأفكار... فوصفتي للسعادة بنعم ولا بخط مستقيم نحو الهدف)[35].

إن كل فلسفة «نيتشه» كناية عن توسيع للعادات والخبرات، بكل عجرها وبجرها، كذلك كل فلسفة فيلسوف آخر، لكن «نيتشه» أشد وأقسى بجراحة هذا التوسيع ليس إلا.

وخلافاً «لنيتشه» يمكننا أن نقول: «ليست الإرادة هي التي صنعت كياننا البشري، لكنها المعجزة»، أما حقل الإرادات فهي حتماً الخوارق. وبدون أن نمرّ بحقل هذه الخوارق سلباً وإيجاباً لن نلمح المعجزة التي صنعتنا!!؟!

وما العجز إلا في عدم فَهم هذا الإعجاز؟!

أما الأمناء لحدود معارفهم غير المفكرين حتى باحتمال إمكان توسعها، فهم دعاة الموضوعية الجافة الهازئون بسواها، والمعرفة باتساعها المستمر تهزأ بهم، وقد كرمهم الدين كثيراً حين أدانهم.

والإسلام حين أعطاهم دلائل معجزته من التاريخ، قالوا إنها عبقرية محمد ﷺ القابلة للتكرار، ورغم أنها لم تكرر لا زالوا يراهنون على احتمال مثل هذا التكرار، وهم ضِد كل نسبية واحتمال.

و(الذين شهدوا العلامات يوم ميلاده لم يعرفوا يومئذٍ مغزاها ومؤداها)[36] وظلوا يحكمون عليه ﷺ بين الحب الشديد، والبغض الشديد (فهو عند أناس صاحبُ رِقة تحرمَه القدرة على القتال، وهو عند أُناسٍ آخرين صاحبُ قَسْوَةٍ تغريه بالقتل)[37].

وأمام الاثنين معجزته بجملة واحدة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، شقت أسماع الكون من الصين إلى أوروبا بأقل من عشرات السنين بعد وفاته ﷺ.

نبي وليس بناسك مهزول في الصوامع ينتظر المعجزات من غير خوارق، يأتي بأبلغ ما قيل وسيقال من لفظ عربي و(يُبْغِضُ التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال: «إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها»)[38].

وفحل يعرف صلة الغريزة بالعقل الكلي، فلم يحرم نفسه ولا أتباعه منها بسنته في عدم مخالفة سنن الخالق، ولكن حرم عليهم الكذب والالتواء فيها، الذي به تضيع حقوق الزوجات بالخليلات، والخليلات المخفيات بالزوجات، عبر ادعاءات التبتل «Celibacy»، أو واحدية اكتفاء الذكر بأنثى التي تعارض طبيعة كلا الجنسين. و(الشرائع المدنية الحديثة. . . تحللت منها ـ أي من تعدد الزوجات ـ بإباحة الزنا)[39].

إن طلاب ضرورة المساواة بين الجنسين يهملون استحالتها، وضرورة التكافؤ، فمحال على الذكر أن يحمل كما تحمل الأنثى من نسل وأعباء، ومحال على الأنثى أن تحمل ما يحمل الذكر من أعباء، والرجل (الذي يجمع بين زوجات لا يبدو عليه ذلك الأثر كالأثر الذي يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال، إنها تضمحل)[40].

وإذا أردت فهم هذه الظاهرة أنت بحاجة إلى دراسة كل إعجازات علوم الوراثة، لأن (خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد بصورة من الصور، فإذا أداها في صورة أُعْفِيَ منها في الصورة الأخرى)[41].

والذين لا يريدون أن يفهموا سنته ﷺ بتكافؤ حقوق الجنسين لن يفهموا سنن

الوجود في هذا التكافؤ لا المساواة المستحيلة.

هكذا خرق الرسول ﷺ صلة التبتل بالدين والعبادة، ومهاوي النسك الأخرق في إمكان الوصول إلى الحق.

ومن لا يرى هذه الخارقة في فهم الدين، لا يستطيع أن يرى خرق تشبه الإنسان بالملائكة أو بالآلهة، ويظل على ضلالٍ صوفي بإمكان قتل الذات قبل موتها لتصل إلى الله، ومن قال إن الموت لا يُوْصِلُ إلى جهنم، وكذلك قتل النفس بشتى الطرق.

والمؤمن الذي لا ينتظر تألب الناس عليه والفتك به، قوي مؤيد بخوارق الحق في الجهاد، الذي يعطيه إحدى الحسنيين «الشهادة أو النصر».

هكذا اخترق محمد ﷺ انطوائية الأديان، في انتظارها لسلطات الأقوياء كي تؤيدها، وهو المؤيد بسلطة الحق.

فظهرت خوارق الفتح الإسلامي على أيديه وأيدي أتباعه، تلك الخوارق التي شقت عصور ظلام الحضارات القديمة، بالحضارة الإسلامية المعروفة النتائج.

وهي إلى اليوم على وهنها شوكة لن تسمح للعالم بأن يحكم بمناخ اعتقادي واحد، على أضعف الإيمان، (الحق ان الإسلام مثلُ المستقبل... انفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء... ليذكر هذا من يحارون في أمر العالم اليوم وهو غارق في دمائه... في طلب المسوغ للوجود)(42). من رجل كان يوماً مع صاحبه طريداً لاجئاً في غار بين مكة والمدينة، ولا أمل له عبر كل حسابات السببية، حتى بمجرد البقاء.

هذه هي المعجزة التي لم يعلن الإسلام سواها عبر كل الخوارق التي سمحت لها اليوم أن تصل إلى أقلامنا، فلا نملك إلا التعجب العجائبي من إمكان كل هذا الحدوث وكل تلك النتائج الفائقة، التي بإيماننا العياني بها يمكننا أن نشهد كيف تحصلُ الخوارقُ مع كل فرد منا.

أما الخوارق المتعلقة بالغيبيات أي اللاسببيات المؤثرة أحياناً بالسببية فسلبي حدوثها متصل ـ بالنسبة لوعي الإنسان بها ـ بالضرر الذي يمكن أن يصيب الإنسان منها، وإيجابي نفس هذا الحدوث بالنفع الذي يأتي خارقاً لكل احتمال.

وهذا النفع هو مجال تقديس في الأديان السابقة للإسلام، والضرر مجال عدم تقديس وإدانة لها علاقة سببية قصوى بموجد كل الأسباب وغايتها، الله تعالى. وهذا هو

الفرق بين الخير في فهم الضمير الإنساني له حين حصوله بشكل خارق، وبين ملاك الرحمة في فهم الدين للخير، وبالعكس في فهم الشر عبر وعي وضمير الإنسان، وفهم الشيطان في الأديان. والإسلام يختلف عن كل الأديان الأخرى بجعل الشر والشيطان خاصةً وهماً لا يضر ولا ينفع، حتى ولو سطعت كل براهين عيان خوارقه سلباً أو ظن إيجاب، إلا بإرادة الله تعالى.

وبهذا اخترق الإسلام خوارق الخير والشر، بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى.

ويكفي أن نشير بهذا الشأن إلى أن «المُعَوِّذَتَيْنِ» من القرآن الكريم تكفيان لدرء كل وهم شر شيطاني يمكن أن يصيب المسلم، أما ما نظنه الشر بذاته وهو حين يصيبنا، فقد يكون خيراً عند المؤمن بأن القضاء والقدر في خيره وشره، نسبي في إدراكنا، وخير لنا بالنهاية عند من بيده الخير والشر أي الله تعالى، حيث هو الخير المطلق ولا شر عنده، فلِمَ الجزع مما يخرقك من خوارق سلبية إذا كنت مؤمناً؟!

إن الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ليس مجرد لوحٍ قيمي ديني، بل فعل يومي نعيشه، فنحن لا نستطيع أن نعرف ما هو الخير من الشر لنا في كل أمر نطلبه، واللوح القيمي الإسلامي قونن لنا هذه الجهالة المؤثرة بكل أفعالنا اليومية بقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [سورة النساء: 19].

وهكذا يخترقنا الوجود بخرق تواجدنا سلباً وإيجاباً، لذلك يمكننا أن نقول: إننا نحن يحد أنفسنا خارقة تخترق، ولا يمكن أن تصل هذه النفس إلى مصاف الخوارق في اختراقها للوجود بالتواجد إلا إذا أسلمت لقضائها وقدَرِها والقبول بهذا الإسلام حتمي كرفضه، فالكل مسلم شاء أم أبى، وهذا بحد ذاته إعجاز قرآني على أولى البصيرة أن يَروه.

والرافض لن يجني إلا احتمال الوعيد الديني، بينما القابل سيجني ثمرات الوعد، ويصعب الفكاك من هذا الخيار الصعب، أليس هذا إعجازاً؟!

خاتمة:

هذه هي المقدمة الفكرية الضرورية التي يمكن أن ينطلق منها، أو من شبيه لها بنفس الروح، كل ابن شرعي لأمة محمد ﷺ لا يهدف إلى أي سلبية فكرية تضخم الحَدَثَ التاريخي للسيرة النبوية، أو تغض منه بتعصب قَبَلي مع أو ضد الرسول ﷺ،

تحت اسم الموضوعية وفيه كل ذاتيات التعصب، باستخدام نهج اللعبة السفسطية القديمة باللعب بالكلمات عبر الأدب.

على أن لا ننسى أن توسع المعرفة الفلسفية من العلمية والعكس في هذا العصر، شأنها في كل عصر تحتم على كل دين أن يواجه أسئلة جديدة، وهذا هو قَدَرُ الفكر الديني الذي إذا عجز عن ملاقاته، عرض نفسه إلى الهجر والإنطواء.

وقد نجد الحق بهذا المعنى فيما قاله «شارلز بيرس»: (نحن نتوقع بأن الأبحاث في المعادلات التفاضلية، وقياس شدة الضوء النجمي، وتصنيف الشوكيات، وأمثالها ستؤثر في النهاية على توجيه حياتنا... ستؤثر على الإنسان وعلى روح الفيلسوف نفسه، ليصبح مختلفاً عن الناس العاديين بآرائه عن السلوك الصحيح)[43].

ولهذا أكاد أن أقول بضرورة إعادة قراءة كل الفكر الديني من رجاله الغيورين عليه، مع كل مكتشف علمي أو معرفي جديد، ومثل هذا الجهد الفائق لا يعجز عنه المسلمون إلا إذا كان الناطقون باسم هذا الدين العظيم جهلةً أو مُرْتَزَقَةً، يهشمونه في كل مرة يدعون أنهم يحسنون إليه.

ومرة أخرى أؤكد أن الرسول الأعظم ﷺ قد تنبأ بهذا الأمر عندما قرر لنا، أن لا رهبانية في الإسلام، قال ﷺ: (إقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه)[44].

فعلى المسلمين فرض كفاية متابعة العلم، وليس هذا وظيفة امتياز لأي رجل يدعي أنه رجل دين. قال ﷺ: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهلة فسُئِلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأَضلوا)[45].

كلنا مسؤول عن رعاية هذا الدين عبر متابعة توسع المعرفة، لا عبر التشبث والتعصب لما نعرف، فلنضع المعرفة العلمية والفلسفية أمام القارئ بكل أزمات تساؤلاتها، ونرى كيفية الإجابة الحقة عن هذه التساؤلات، ومدى انسجام ذلك مع الإجابة الكلامية الإسلامية الصحيحة، ثم لنعرض بعد كل هذا الإطار السيرة الشريفة لنقرأها بذهن مسلح وخبير بكل أسلحة العقل.

وإذ لا أدعي أن نفس هذه الأسلحة العقلية التي وضعتها في هذه المقدمة، هي التي تسلح بها «واشنطن إيرڤينغ» حين كتب سيرة الرسول ﷺ أستطيع القول: إن مناخاً علمياً فكرياً قد يكون به الكثير من الشبه قد حكم فكره حين كتب السيرة، من منطلق أن

معارف العلوم والفلسفات الأساسية واحدة، يخصبها الزمن الذي كان لنا حظ التقدم على «إيرڤينغ» فيه فقط، لأننا أبناء نهاية هذا القرن وهو ابن القرن التاسع عشر، وعدا عن ذلك سنقع بالادعاء والغرور حين أي تقرير.

فمن هو «واشنطن إيرڤينغ» وما هي صلتنا به من وراء البحار؟!

لحسن الحظ ترجمت «لواشنطن إيرڤينغ» بالاشتراك مع الأستاذ عبد الكريم ناصيف عام 1996 كتابه الشهير «الحمراء»[46]، ومن مقدمة «الحمرا» يمكن للقارئ أن يعرف من هو واشنطن إيرڤينغ، فلا غنى عنها لقارئ هذا الكتاب «سيرة الرسول ﷺ» الذي نحن بصدده ليشكل صورة أدق لذاك المؤرخ الفيلسوف الذي يستعمل الأسلوب القصصي الراقي في أدب كتاباته بحقليّ التاريخ والفلسفة، والذي به عامل جذب لي، رأيت فيه دقة تحديد الحدث التاريخي للسيرة، كما لم أراها بأي مرجع سابق، فأردت أن أنقل هذا النفع بالتحديد إلى القارئ العربي، إضافة إلى كل فوائد الاقتراب من معرفة الحدث التاريخي مع الرسول ﷺ في السيرة بشكل عام. وقد حرصت على وضع نصوص من السيرة كما عرضها محمد حسين هيكل وأيضاً من ابن كثير ومن غيرهما، إضافة إلى بعض التعليقات التي كتبتها من جهتي عند بعض المفاصل الإشكالية، حرصاً مني على إيضاح أكثر من وجهة نظر وعلى أمل إفادة القارئ من هذه المقارنات.

نظرة على مقدمة المؤلف

إن «إيرڤينغ» حين وضع مقدمة هذا الكتاب اتبع أسلوبه نفسه الذي كان يتبعه في كل مقدمات كتبه، وهو أسلوب التحديد والإيجاز لما يريد أن يقوله بصورة منهجية.

فهو يؤكد هنا أنه لم يضف في كتابه أي إضافة جديدة على السيرة النبوية كما عند المؤلفين الغربيين، ولكنه يترك القارئ ليستنتج بأن أهمية عمله هي: في منهجة هذه السيرة لتصير سيرة يستطيع القارئ أن يتابع أحداثها دون انقطاع أو تقطيع يطمس الحقائق بين أسطره.

وهذه المنهجية هي التي دفعت «بهيكل» إلى السير على خطاها خطوة خطوة في سيرته التي كتب، دون أن يطلع قراءه في ذلك الوقت، على أنه إنما يترجم «لإيرڤينغ» بتصرف[*].

(*) وجل ما قال ص 23 من كتابه، حياة محمد: فقرأت كتاب دِرْ منجم وكتاب واشنطن إيرڤينغ، ثم انتهزت فرصة وجودي بالأقصر في شتاء 1932 وبدأت أكتب.

إن منهجية «إيرڤينغ» التي فتنت «هيكل» هي نفس منهجيته التي فتنتني، لكن «هيكل» تقمصها ليكتب سيرة من عنده تتوافق مع المتفق عليه عند نقاد الكتاب المعاصرون أيامه، وهذا لا يعني أن «إيرڤينغ» لم يكتب بما يتوافق بما اتفق عليه كتاب السير من المستشرقين لكن يعني أن منهجيته الصارمة خرجت كثيراً عن مثل هذا التوافق لتعلن عظمة الرسول ﷺ دون غلو أو غيبية أسطورية.

وبين هذين الموقفين رأيت أن واجب إعطاء كل ذي حق حقه يقضي، أن أعرض كل هذه الآراء للقارئ، «فهيكل» حين أكثر من الاقتباس المنهجي من «إيرڤينغ» سواء من منطلق أن قلة من العرب قادرة على العودة إليه لقراءته، أو بسبب عدم وجود ما يضارع منهجية «إيرڤينغ» بين كتاب السير عندنا، سواء هذا أو ذاك قدم لنا السيرة ببيان أدبي عربي مشرق، مهما افتقر إلى الأمانة يظل يستأهل الاطلاع عليه.

أما حقائق السيرة التاريخية التي وردت مع «أبو الفدا» أحد المراجع الأساسية التي استند عليها «إيرڤينغ» نفسه، فلا غبار على صحّتها، بدليل ندرة ما يوجد من تعارض بينها وبين باقي السير العربية، أو بينها وبين باقي السير الغربية.

إلا أن وجود هذه الحقائق التاريخية بين إسناداتها المملة والمبعثرة، يجعل من قراءتها أمراً شاقاً، قلما يستطيع القارئ أن يخرج بصورة واضحة عن حياة الرسول ﷺ عبر التفاصيل التي نهتم نحن بها في هذا القرن منها.

وهذا لا يسقط أبداً صفة المصدرية عن «أبو الفدا» إذ يظل ركناً أساسياً يجب الرجوع إليه لتقويم سوء ترجمته إلى اللاتينية التي اعتمد عليها «إيرڤينغ»، فبرزت عنده بأخطاء تاريخية ولغوية خطيرة، «فالهدي» مثلاً اعتبره من النوق والجمال لأنه على ما يبدو قد ترجم كذلك... وسوى هذه الأمثلة كثيرة.

كذلك نحن بحاجة إلى مصدرية «أبو الفدا» للجم المبالغات الأدبية، التي تجر الأدباء أمثال «هيكل» عند إعادة كتابة أهم حدث تاريخي في حياة أمتنا، سيرة الرسول الأعظم ﷺ.

وإزاء كل هذه الصعوبات لم أر بداً من تثبيت الثلاثة معاً: إيرڤينغ وهيكل و«أبو الفدا ـ ابن كثير ـ».

رغم أن هدفي الأساسي هو جر القارئ العربي ليعتاد الأسلوب المنهجي الذي عند «إيرڤينغ»، لكن لا بد من تصحيح أخطائه التاريخية بمثل «ابن كثير»، وإعادة إبرازه برشاقة أدبية عربية مشابهة لرشاقته الانكليزية مع مثل «هيكل».

وأخيراً: أن «إيرفينغ» حين قرر في نهاية مقدمته عدم ضرورة إملاء الهوامش بالمراجع التي استقى منها كل حدث تاريخي ذكره، أكد صفة نقص منهجي متعمد في كتابه، قد لا تعوض القارئ الغربي الذي يثق «بإيرفينغ»، والذي لا يشكل الرسول ﷺ موضوع قداسة عنده، لكنها عندنا تشكل نقص منهجي فاضح وخطير، فنحن لا نسمح بأن نتكلم عن رسولنا ﷺ دون أن يكون حديثنا موثقاً بأدق التفاصيل الممكنة، فهو ﷺ ليس بطل تاريخي فقط كما رآه «إيرفينغ»، بل صلة الوصل الوحيدة لهذه الأمة بالألوهة وشفيعها على الحوض، وبعبارة أخرى هو: صلى الله عليه وسلم موضوع قداسة وبطولة معاً عندنا، والتاريخ ـ لا الذي كتبناه ونكتبه عنه ﷺ بل كل التاريخ ـ بأدق تفاصيله المنهجية من أي مصدر موضوعي كان، يؤكد عاملي البطولة والقداسة عند محمد رسول الله ﷺ.

وهذا ما نسعى لإيضاحه في هذا الكتاب بأن نضع أمام القارئ نص «إيرفينغ» ثم ما استند إليه من حقائق تاريخية مع نص «أبو الفدا»، إضافة إلى الصيغة الأدبية التي وضعها «هيكل» دون أن نرضى بما رضيه «هيكل» لنفسه بزيف أن تنسب هذه السيرة إليه وحده.

أما أسلوب «إيرفينغ» بعدم تغيير لفظ الأسماء العربية كما كانت تلفظ بالانكليزية القديمة، فقد سبب لنا مشقة شديدة في الترجمة، لا ييسرها إلا منهجنا بمقارنة النصوص حيث سنضع نص «أبي الفدا» تحت كل نص يقدمه «إيرفينغ» لأي حدث تاريخي، ثم نزين الاثنين بنصوص «محمد حسين هيكل» للرشاقة الأدبية المعاصرة ليس إلا.

وبالنسبة إلى هذا الأخير لا بد من الإشارة إلى أن كتابه في طبعته الخامسة التي هي بين يدينا تفتقر إلى تاريخ الطبع، وإلى ذكر دار النشر التي نشرتها، وكل ما لدينا عن أي تاريخ فيها هو مقدمة «محمد مصطفى المراغي» عام 1935م، كما أشار «هيكل» في نهاية «ص 362» إلى أن الطبعة الرابعة قد طبعت بمطبعة مصر، وشكر «سيد نوفل» مدير الإدارة التشريعية بمجلس الشيوخ بمصر على: «دقة المراجعة لتجاربها ـ أي تجارب الطبقة الخامسة ـ ولتجارب الطبعة الرابعة» في صفحة «362» لذلك لا نستطيع أن نثبت الارجاع إلى «هيكل» إلا على النحو التالي: محمد حسين هيكل، حياة محمد، دار النشر؟، المكان؟، السنة؟، ثم الصفحة.

وهذا نقص منهجي آخر يعلن عن نفسه بنفسه، وعن حاجتنا إلى المنهج العلمي عند أمثال «إيرفينغ»، ومن قال أن الإسلام ليس ملكاً لكل البشر.

بين يدي هذا الكتاب:

يتألف هذا الكتاب من تسعة وثلاثين باباً، في كل باب عدد من الفصول، بكل فصل فكرة أو عدد من الأفكار منفصلة أو مرتبطة بسواها من الفصول السابقة، ومعتمدة على حقائق تاريخية من التاريخ الغربي والإسلامي، عن أحداث تاريخية حول الرسول ﷺ، في معظمها يتلاقى التاريخان لدرجة أني وجدت معظم هذه الحقائق التاريخية موجودة عند أمثال ابن كثير الذي اعتمدته كابن هشام مثلاً.

وأنا لم أعتمد على المراجع الأجنبية التي اعتمد المؤلف على ترجماتها إلى اللغة الإسبانية، ومع ذلك جاءت نصوص الأقوال مطابقة تماماً لمراجعنا العربية إلى حد كبير.

لذلك يمكنني القول: إن الحدث التاريخي الذي اعتمد «إيرڤينغ» الاستناد عليه صحيح إلى درجة عالية، مع تعليق حكمي على الأحداث التاريخية التي نقلها من المراجع التي تفردت بها اللغة اللاتينية، لذلك اعتمدت تثبيت تلك التي لا تتعرض إلى الأحكام القيمية من تلك المراجع، منتبهاً إلى ضرورة الفصل المنهجي بين الحقيقة التاريخية كحدث، وبين أي تأويل قيمي للأحداث.

وهنا تبرز إشكالية من يريد أن يحتفظ لنفسه بحق التأويل للحدث التاريخي من المراجع والمصادر التي تَعْرِضُ له هذا الحدث، إذ يمكنني القول: إنه لا يمكن عرض أي حَدَثٍ تاريخي دون تدخل من الكاتب الذي يعرضه، لأن لكل كاتب خلفية قيمية يحكمها لوح من القيم على ضوئها يهتم بهذا الحدث التاريخي ويركز عليه دون سواه.

فتعارض ألواح القيم عند المؤرخين كتعارضه عند المعاصرين، هو السبب الأساسي في اختلاف وجهات النظر.

وقد اختلفت وجهة نظري مع «إيرڤينغ» في كثير من المواضع، وكان أشدها حدة فيما كنت أجده من أخطاء تاريخية نقلها عن المراجع الغربية، فصححتها باختزال روايته أو إهمالها في أحيان كثيرة. وعلى سبيل المثال لا الحصر: نسب «إيرڤينغ» مثلاً شاعر قصيدة البردة المشهورة «كعب بن زهير» إلى مكة، واعتبره من شعرائها الذين فروا من وجه الرسول ﷺ حين فتحها، و«كعب» شاعر نجدي وليس شاعراً حجازياً، كما نقل «إيرڤينغ» عن المصادر الغربية في السيرة أن «ورقة بن نوفل» كان يهودياً قبل أن يصير مسيحياً وهذا خطأ تاريخي آخر، يقود إلى استنتاجات أكثر بطلاناً من كل سوء فهمه لقصيدة البردة، وملابسات سبب كتابتها، كذلك اختلفت مع «إيرڤينغ» شأن اختلاف الحضارتين الإسلامية والمسيحية حول من كان ذبيح «إبراهيم» «عليه الصلاة والسلام» من

أبنائه؟! فهو عند «إيرڤينغ» «إسحاق» «عليه السلام» وعندي «إسماعيل» «عليه الصلاة والسلام»؟!

ومن الأخطاء التاريخية التي وقع بها «إيرڤينغ» أن «أبا سفيان» هو الذي هدم صنم اللات بمعوله، والواقع أن الذي فعل ذلك كان «المغيرة بن شعبة» حسب: ابن كثير جـ 3، ص 63 من المرجع الذي اعتمدناه. ويمكن إيضاح ملابسات هذا الأمر في الباب الثاني والثلاثين، الفصل الثاني من هذه الترجمة، حيث أغفلت خطأ «إيرڤينغ» كما أفعل دوماً حين مواجهته في هذه الترجمة، وأثبت رأي «ابن كثير» هنا.

كذلك اضطرني «إيرڤينغ» بسبب تقديره للكلمة الأدبية بشكل يعلو عنده في بعض الأحيان عن تقديره لموضع الكلمة منطقياً، إلى البحث عن القصد من قوله، وجمله التي فيها هذا الأمر، من خلال حسن نية المعنى، لإرضاء كل القراء بمختلف اتجاهاتهم، كما يحبذ التلاعب الأدبي بغموض دقة المعاني، فلجأت إلى المعاني الحسنة من قصده مثلاً من استعمال كلمة «Fanaticism, Delusive» أو «Fury» أو «Zeal» وسواها مما قد يعني كلا معنيي الذم والمدح حسب براعة الاستعمال الأدبي لهذه الكلمات في نصوصه وحسب دقة سبك وضعها مما يدفع بذهن القارئ المعاني التي توافق هواه حسب هواه، وبمثل هذه البراعة الأدبية يروج النص ويقبل بمعناه وبعكس معناه تماماً، وتلك براعة أدبية قلما تجدها في نص انكليزي، وتختلف عن البلاغة بأنها لا تفتح مضمرات الكلمة بالذهن، بل قد تجعلها تعطي القارئ ما يشاء منها، ومع اندهاشي من هذه القدرة والبراعة الأدبية عند «إيرڤينغ»، إلا أنني أعتبرها من أشد ما يمكن أن يقدمه الفكر السفسطي براعة، لا تليق بمنهج «إيرڤينغ» العام فيما يوحيه للقارئ من هدف البحث عن الحقيقة معه.

تلك الحقيقة التي أتفق مع «إيرڤينغ» وحتى مع المنهج الغربي العلمي، في ضبط كل الحقائق النقلية عبر تحري الجوانب الهامشية في سقطات المديح الذي يؤدي إلى الذم، أو الذم الذي يؤدي إلى مديح، أي في سقطات أقلام المؤرخين المصرين على الأحكام القيمية.

لكن الخطر في تحرّي هذه السقطات القيمية لخدمة قيمية أخرى، يظل يلعب بالقارئ لعبة قيمية، ويوجهه إذا هي ضخمت بأكثر مما تستأهل، وهذا هو الباب الذي تخرج منه الموضوعية لحظة دخولها فيه.

ولنعط مثلاً على هذا من تاريخ السيرة ومن الأحاديث ـ الصحيحة ـ التي اعتمدها

«إيرفينغ»، والتي لا زالت بحاجة إلى إيضاح سواء وقعت عين «إيرفينغ» المحب للحضارة العربية عليها أو عين مبغض آخر، أو حتى أعين أبناء هذه الحضارة أنفسهم. فعن نسخة صحيح البخاري المترجمة والمعتمدة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في مكة المكرمة بتحقيق الدكتور «محمد محسن خان»، والمطبوعة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، عام؟، الجزء السابع ص 35، في باب «الشغار» جاء ذكر الحديث النبوي الشريف التالي: «عن محمد بن سلاَم. . . عن هشام عن أبيه قال: كانت «خولة بنت حكيم» من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة: أما أن تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟! فلما نزلت ـ ترجئ من تشاء منهن ـ قلت يا رسول الله: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك».

كذلك ثبت «إيرفينغ» ما وجدناه عند ابن كثير، جـ 2، ص 445. حين سأل الرسول ﷺ عائشة «رضي الله عنها» مازحاً وقد شعر بدنو أجله ﷺ: «وما ضرك لو متِ قبلي فقمتُ عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟! قالت: «والله لكأني بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك! قالت: «فتبسم رسول الله ﷺ ونام به وجعه ـ أي سكن وجعه».

وإذ تؤكد هذه الأحاديث سرعة غضب «عائشة رضي الله عنها» حين تغار على الرسول ﷺ، ويؤكد هذا صحيح البخاري السابق ذكره في هذه الصفحة تحت باب: «غيرة النساء ووجدهن»، ص 114، وفيه عن «عائشة رضي الله عنها» قالت: قال لي رسول الله ﷺ: إني لأعلم إذا كنتِ عني راضية، وإذا كنتِ علي غضبىٰ، قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أما إذا كنتِ عني راضيةً فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبىٰ قلتِ: لا، وربِ إبراهيم. قالت: قلت: أجل».

فمن رضى وغضب «عائشة رضي الله عنها» ظهرت لنا نحن ـ المتأخرين ـ هذه الأحاديث التي على ضوئها يمكن البحث بمدى الغَيْرَة عندها رضي الله عنها، أما أن توضع هذه الأحاديث لوضع «عائشة رضي الله عنها» بصف من يريدون أن يؤكدوا أن جانباً من الوحي لم يكن أكثر من تعبير عن هوى الرسول ﷺ ورغبته الشخصية إزاء مواقف تمليها الظروف، فأمر يهدم كل مصداقية الإسلام. وأكثر من ذلك يجعل من الرسول ﷺ حاشاه عن ذلك: أول من زيف إرادة الله وكلامه تعالى في القرآن الكريم.

وبمثل هذا المطب وقع «إيرفينغ» من خلال اطلاعه على أمثال هذه الأحاديث التي ليس وراءها أكثر من غَيْرَة الشابة عائشة «رضي الله عنها»، لأن مصادر الفكر الغربي التي

رصدت هذه الأحاديث وأمثالها اعتبرتها من سقطات ضبط النقل عن النبي ﷺ في أقلام المؤرخين، لا لتكتفي بهذا فقط، بل لِتُسخر ما اعتبرته كسقطات قيمية لخدمة القيم المناوئة للإسلام وللرسول ﷺ بالشك والتشكيك بمصداقية الرسول ﷺ.

و«إيرفينغ» الذي لا يريد أن يقف هذا الموقف من التراث الذي كرس له قلمه بين الغرب، بدا في حيرة واضحة عندما وضع نتيجة هذا الكتاب الذي نحن بصدده في الباب الأخير الفصل الرابع، فهو لا يستطيع إلا أن يأخذ بعين الاعتبار النظر إلى المشاعر الإنسانية ـ والغيرة من أشدها ـ على أنها حين تعبر، تعبر بسقطات قيمية، في الوقت الذي لم يستطع أن يرى بهذا الأمر ما يحقق شروط السقطات القيمية كلها، إذ بدا له واضحاً عبر كل دلائل السيرة، أن الرسول ﷺ لم يحصل على أي فائدة شخصية له من عبء النبوة الذي نزل عليه، وبدا له بما لا يدع مجالاً للشك أيضاً أن الرسول ﷺ كان يشعر بكل صدقٍ مع نفسه قبل أن يشارك هذا الأمر مع الآخرين، بصدق روح الإلهام الإلهي الذي يتلقاه.

وبين فواصل تلك النشوة السماوية حين نزول الوحي، كانت الصلاة هي سبيل استعادة هذه النشوة وترسيخها عنده ﷺ وعند المؤمنين، لذلك حببت له ﷺ بقدر ما أحب من طيبات هذا الوجود التي فضل ﷺ عنها جميعاً الطيب والنساء، فكانت الصلاة على رأسها جميعاً استعادةً لتلك النشوة الإلهية بكلمات الحق تعالى ـ القرآن ـ يردده فيها، وترسيخاً لثمار هذه النشوة عند باقي الناس الذين لم يعانوها، فكانت فرضاً عليهم لتصير لهم عادة.

ونتج عن كل هذا برأي «إيرفينغ» اتكالية الرسول ﷺ المطلقة على الله تعالى، والتي تختلف عن كل تفسير لاحق للاتكالية، بأنها عنده ﷺ كانت بعدتقديم أشد أصناف الجهد وإنكار الذات والتضحيات، لا بالامتناع عن العمل كدراويش القدرية المتخاذلين بعد الرسول ﷺ.

ولئن كانت كل الأعمال الصالحة غير كافية لدخول الجنة إلا برحمة من الله تعالى، فبسبب أن الله ليس نداً للإنسان يضمن بينهما ميزان علاقات التبادل، بل أن الإنسان محدود عليه أن يثق بالمطلق، ويؤدي له فرائضه ويتكل عليه، ثم يسلم له ويبقى بحال تضرّع، لأن الله أكبر من كل هذا جميعاً وحق الله أكبر.

أكبر بدرجة لا يمكن لعقلنا المحدود تصور هذا الكِبَرِ، ونوع صلة هذا الكيان المحدود ـ الإنسان ـ به تعالى عن كل وصف.

لقد رأى «إيرفينغ» ارتفاع الرسول ﷺ عن كل مطلب مادي نتيجة هذا الوحي الذي جعله يرتفع ويرقى بفهم الألوهة المطلق نحو الاطلاق، فليس من العدل بحق هذا المُلْهَم ـ الرسول ﷺ ـ اتهامه بأنه أسير رغباته، والتي لم يبرز منها عنده إلا حبه للنساء ﷺ ليفرغ نحو توجهاته المطلقة بعيداً عن أسر صراع الحاجة والدافع.

لذلك قرر «إيرفينغ» أنه من الصعب على المنكرين لرسالته ﷺ إنكار صدق توجهاته وسموها، أو إنكار عظمة ثمار هذه التوجهات التي قدمها للبشرية، فلم يبق أمامهم إلا اعتبار شخصيته أسيرة هلوسة مرضية عبقرية، ولأن «إيرفينغ» لا يستطيع أن يصير مسلماً في بيئته الأميركية في القرن التاسع عشر، أي تابعاً لدين لا يعرف أحد من الناس إلا صداه الخافت بين الزنوج هناك.

ترك هذا الأمر في متابعة السيرة النبوية وتوقف عنده، ولعجزنا عن الاستمرار من حيث توقف «إيرفينغ» بسبب الضعف المنهجي الصارخ في كتابة السيرة الشريفة لدى كتابنا، والذي يظهر بإنقسامهم بين فجور الجرأة والتعدي اللامنهجي على رمز هذه الأمة «محمد ﷺ»، أو الخوف الصبياني العاجز عن مس الأمور المقدسة، والمحوري منها بصورة خاصة، والذي تحكمه العقلية الرقابية التي لا تفسح من القول إلا أخنعه، وبسبب هذا الغلو بشقيه الايجابي والسلبي عند كتابنا ظل هذا الجانب من السيرة النبوية غير متابع، في الوقت الذي أجده لا يمكن أن يتابع إلا بالجهد الفلسفي لإبراز صلة العبقريّة بالإلهام، والمحدود بالمطلق، والسواء باللاسواء، والعقل الجزئي بالعقل الكلي... إلخ وبعبارة أخرى الفيزياء بالميتافيزياء.

وعند هذا يريدالفكر العربي الفقهي أن يتوقف، وبالتالي لا مجال للفلسفة وعلم الكلام العربي لا في جامعاتنا ولا في كلياتنا الشرعيَّة، لتحتمي هذه الذهنية الالغائية لأحد أهم مستويات المعرفة الإنسانية ـ الفلسفة ـ بشرنقة الرقابة التي تنسج خيوطها العنكبيَّة على كل بحث خارج إطار ما اعتبرته رقابة شرعية.

وعلى نفس هذا المنهج المؤسف النتائج، تحكم نفس هذه الذهنية الإلغائية المتمردين من مثقفينا، فينهالون بأي معوَل تحطيم تصل إليه أيديهم ضد «محمد ﷺ» والإسلام.

وكل ما يحصده طلاب الحقيقة بين هذا التطرف الساذج والتطرف المرتد الأرعن، هو ترك متابعة السيرة في المكان الذي تركها فيه الاستشراق، صديقاً كان أم عدواً.

لذلك لم أستطع أن أقرأ «إيرفينغ» إلا بحسن النية الذي توقعته منه، ومن نصوصه

التي تحمل ببلاغة انكليزية أدبيّة نادرة في تلك اللغة احتمال الإساءات بقدر الإحسان، فلم أفعل أكثر من أن أحسنت النية.

ومن جهة أخرى: إذ أرفض شخصياً التوقف حيث يتركني «إيرڤينغ» وأمثاله من الأصدقاء لتراثنا، بقدر ما لا أستطيع أن أرى باطل الفكر الإلغائي عند أعدائنا ينسلّ إلينا دون إيضاح وإبراز للحقّ الذي يطمسه، لا أستطيع إزاء كل هذاإلا أن أعد القارئ بالاستمرار في بحوثي الفلسفية، التي تشكل فيما تتشكل به من منظورات للوجود ولوجودنا كأمة «المحمد ﷺ» ضمن هذا الوجود، في جماعها منطلقاً يمكن الارتكاز عليه للتحرك فيما خلف وأمام ما توقف عنه الاستشراق أو صمت عنه.

فمطلب التحرك من حيث صمت الاستشراق لا يعني أخذ القلم لكتابة فصول جديدة تضاف إلى تلك السيرة، بل أخذه لكتابة فصول جديدة تضاف إلى الفلسفة، في متابعة الميتافيزياء العربية الكلامية في إشكالات الإلهام والوحي والإبداع والحرية والجبر والوهم والجهل والتجاهل والفكر والوعي... إلخ وباقي الاشكالات الفلسفية التي يمتنع الفكر العربي والإسلامي المعاصر عن معالجتها للأسباب التي سبق وأشرنا، متراكماً معها ضعف القدرة على معالجة هذه الإشكالات فلسفياً للإماتة المتعمدة للتفلسف وما نتج عنها من شبه جهلنا بهذا المستوى المعرفي الإنساني القائم بذاته بين العلم والدين والفن عند كل الأمم الراقية.

إننا ما لم نكتب فلسفة معاصرة لن نستطيع أن نكتب سيرة نبويّة منهجية لنبينا صلى الله عليه وسلّم، يمكن أن يقرأها عالم معاصر وفنان معاصر ورجل دين غير مسلم معاصر.

وإلى حين أن نفعل ذلك، لا أقل من ضرورة اطلاعنا على الحقائق بغض النظر عن تفسيراتها ولومؤقتاً، من كتاب تمرسوا بمنهج عرض هذه الحقائق، وأفضلهم في الغرب كما نرى في هذا المجال، على كل مآخذنا عليه، وإعجابنا به بذات الوقت هو صاحب هذا الكتاب: واشنطن إيرڤينغ.

مقدمة المؤلف

إن إبراز حياة محمد ﷺ في هذا العصر ليس فيه أي إضافة جديدة على أحداثها، وهذا ما يجب أن نعتذر عنه، لقد مضت عدة سنوات منذ كنت مقيماً في «مدريد»، حيث كتبت سلسلة من الكتب التي تصوّر فترة سيطرة العرب على اسبانيا، والتي كان من المفروض أن تكون مقدمتها صورة عن مؤسس العقيدة الإسلامية، والمحرك الأول للفتح العربي، وعلى هذا اعتمدت في معظم مراجعي على المراجع الإسبانية، وعلى ما ترجم للمؤرّخ العربي «ابن كثير ـ أبو الفدا ـ» في النسخة التي وجدتها في المكتبة اليسوعية لدير «سانت إيزيدور» في «مدريد».

ولأنني لم أتابع هذا العمل الأدبي إلى آخره، ظلت أوراقي حول هذه المخطوطة ـ العمل ـ مهملة حتى عام 1831م، حيث عدت إليها لتوسيعها من أجل طبعها للسيد «جون موري» ناشر «الفاملي لايبراري»، ورغم ذلك حصلت أحداث منعتنا من النشر في ذلك الوقت، فتنحيت عن المشروع لعدد من السنين.

وخلال إقامتي الأخيرة في «اسبانيا» أعدت النظر وبشكل ممحّص وبدون أي ضجر بالمخطوط، مستفيداً مما ألقي من أضواء أخيرة حول هذا الموضوع من قبل عدد من الكتاب، وخاصة «الدكتور غوستاف ويل» المكتبي العالم في جامعة «هيدلبورغ» الذي لا يمكن أن ينكر فضل بحوثه المتأنية في هذا المجال[47].

هذه هي أصول هذا العمل الذي أقدمه الآن إلى القراء، والذي لا أدعي فيه أي جديد لا في حقائقه المعروضة ولا في طرق بحثه، وهو لا زال يحمل نفس الطابع الذي قصدت بوضعه أساساً «للفاملي لايبراري». طابع بناء قصة متتابعة يمكن إدراكها بسهولة، تراعي الحقائق حول الرسول ﷺ ولا تحيد عنها. مع عرض الأساطير التي اكتنفت هذه الحقائق والتنويه بها وبالتقاليد التي رسّختها عبر نظم الأدب الشرقي ككل، كذلك أجد أن إعطاء هذا العمل الموجز حول الإيمان ـ الإسلامي ـ قد يكون كافياً للقارئ دون ما

حاجة إلى إملاء الهوامش بالمراجع التي استقيت منها كل حدث في كل مرة أذكره، ولا حاجة أيضاً لتغيير أسلوبي بالابتعاد عن اللغة الانكليزية القديمة في العرض، ولا بتغيير لفظها للمواقع والأسماء.

سني سايد 1849م

الهوامش:

(1) وانظر كتاب الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، المطبعة السلفية، القاهرة 1396هـ، ص 56 ـ 65.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمِصْرَ، ط 2، جـ 1، عام 1955، ص 401.

(3) أبي عبد الله بن قيّم الجوزي، زاد المعاد، دار الكتاب العربي، بيروت، عام؟، جـ 2، ص 54.

(4) أبي الحسن مسلم بن مسلم، صحيح مسلم، دار المعرفة، بيروت عام؟، جـ 7، ص 84 ـ 89.

(5) Friedrich Nietzsche, Twilight of the Idols, Penguin Books, N.Y. 1990, p. 143.

(6) Friedrich Nietzsche, The Birth of Tragedy, Penguin Books, N.Y. 1993, p. 102.

(7) Friedrich Nietzsche, Ecce Homo, Penguin Books, N.Y. 1992, p. 46.

(8) Friedrich Nietzsche, Twilight of the Idols, op. cit., p. 195.

(9) Ibid., p. 195.

(10) بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت 1977، ص 974.

(11) Vincent G. Potter, On Understanding Understanding, Fordham univ. Press, N.Y., 1994, p. 15.

(12) انظر كتابنا، الفكر والوعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، «مجد»، عام 1998 بيروت.

(13) سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص 300.

(14) علي بن أبي طالب «كرم»، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت عام؟، ص 4.

(15) عبد العزيز بن مسلم الكناني، الحِيدة، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت عام 1983م.

(16) عباس محمود العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي، دار الهلال بمصر، عام؟، ص 148 ـ 150.

(17) الحسن البصري ابن مولى الصحابي كاتب الوحي «زيد بن ثابت»، وأمه «خيرة» مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ وقد نشأ في بيتها، وولد سنة «31هـ». انظر أبو حيان التوحيدي، مثالب الوزيرين، تحقيق محمد الطبخي، دمشق 1965، ص 473.

(18) الحسن البصري والقاسم الرسي وعبد الجبار أحمد والشريف المرتضى، رسائل التوحيد، تحقيق محمد عمارة، دار الهلال بمصر، عام 1971، جـ 1، ص 82.

(19) انظر المرجع السابق، ص 83 ـ 88، ثم انظر رسالة البصري بالقدر بعدها.

(20) المرجع السابق، ص 89.

(21) بطرس البستاني، محيط المحيط، مرجع سابق، ص 227.

(22) المرجع السابق، ص 578.

(23) علي الجرجاني، التعريفات، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحمية، عام 1306هـ، ص 96.

(24) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982، جـ 2، ص 391.

(25) المرجع السابق، ص 391 أيضاً.

(26) يوسف كرم، المعجم الفلسفي، مطابع كوستاتسوماس وشركاه، القاهرة 1966، ص 159.

(27) أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، ط 3، عام 1958م، ص 237 ـ 249.

(28) المرجع السابق، ص 237.

(29) المرجع السابق، ص 238.

(30) David Hume, Of Miracles, Open Court «la salle, Illinois» USA, 1985.

(31) Ibid, p. 11.

(32) Ibid, p. 55.

(33) Ibid, p. 41.

(34) Ibid, pp. 15-16.

(35) Friedrich Nietzsche, Twilight of the Idols, Penguin books, N.Y. 1990, pp. 33-37.

(36) عباس العقاد، عبقرية محمد، المكتبة العصرية، بيروت، عام؟، ص 19.

(37) المرجع السابق، ص 52.

(38) المرجع السابق، ص 75.

(39) المرجع السابق، ص 113.

(40) المرجع السابق، ص 116.

(41) المرجع السابق، ص 120.

(42) المرجع السابق، ص 158.

(43) Potter and Nasri, text in sociology level 4, Dar Al-bayan Al Arabi, Jeddah 1982, p. 87.

(44) صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، عام؟، جـ 8، ص 136.

(45) صحيح مسلم، مرجع سابق، جـ 8، ص 60.

(46) واشنطن إيرڤينغ، الحمراء، ترجمة عبد الكريم ناصيف، ود. هاني يحيى نصري، مركز الإنماء الحضاري، حلب 1996م.

(47) وخاصة بحثه حول محمد الرسول، شتو تغارت 1843م.

السيرة الشريفة

من المصادر الغربية والمقارنة

الباب الأول

ملاحظات أساسية حول العرب وجزيرتهم

قال إيرفينغ(*):

إنه ومنذ فجر التاريخ المتعاقب حتى القرن السابع الميلادي، وشبه الجزيرة المسمّاة بجزيرة العرب والتي يحدها من الشمال الهلال الخصيب ومن الجنوب المحيط الهندي وهي بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر. وقد ظلت على حالها دون أي تغيّر يذكر، غير متأثرة بالأحداث التي اجتاحت آسيا، وهزت أوروبا حتى عمق أفريقيا، حيث ظهرت الممالك والامبراطوريات وتداعت. وبينما كانت تزول الملكيات القديمة وتتغير الحدود وأسماء البلاد، ويفنى سكانها أو يحولون إلى عبيد بقيت الجزيرة العربية رغم كل التقلبات على حدودها محفوظة بعمق الصحراء، محافظة على شخصيتها البدائية المستقلة، وقبائلها البدوية لا تخضع لأحد ولا تسمح لأحد حتى بحق الارتفاق عبر أراضيها.

وترجع الأصول العربية في القدم الغابر، وتنسب نفسها إلى ما قبل التاريخ إلى سلالات بائدة من الناس من ذرية سام بن نوح الذين شكلوا جماعات قبلية عديدة، معروف منها «عاد وثمود». وكل هؤلاء القبائل قد محيت من وجه الأرض بسبب إما آثامها، أو انحلت إلى جماعات وأعراق جديدة، ولم يبق منها إلا ظلال يذكرها الأثر، وبعض مقاطع جاءت عنها بالقرآن الكريم.

قال ابن كثير:

والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل، ومنهم عاد وثمود، وطسم وجديس،

(*) لقد تم تقسيم النصوص بحيث وضع نص إيرفينغ في الأعلى والنصوص الأخرى تم وضعها تحت بهدف المقارنة.

ويذكر التاريخ الشرقي هؤلاء باسم: «العرب البائدة» أو القبائل البدائية المفقودة القديمة.

وتذكر نفس هذه المصادر قبائل من أصول قديمة أيضاً انحدرت من الجيل الرابع لسام بن نوح مثل «قحطان»، يسكنون الجزء الجنوبي من الجزيرة ويمتدون إلى البحر الأحمر، وابنه «يعرب» الذي أوجد مملكة اليمن حيث سمي العرب باسمه بعد ذلك واستقوا منه اسم بلادهم. أما الابن الآخر لقحطان فقد كان «جرهم» الذي أسس مملكة الحجاز التي سكنتها سلالاته لأجيال طويلة. وبين هؤلاء الناس استوطنت «هاجر» مع ابنها «إسماعيل» عندما طردت من قبل «إبراهيم» الذي يعد واحداً من آباء الجنس البشري. وتزوج «إسماعيل» ابنة «معد» أمير من أمراء «جرهم»، وصار هذا «العابر» جداً من أجداد العرب، أما زوجة إسماعيل فقد أنجبت له اثني عشر ولداً منهم ظهر اثنا عشر بطناً لقبيلة سيطرت على جزيرة العرب وطردت بقايا «قحطان» أو أخضعتها.

هذا هو التاريخ الذي يجمع المؤرخون العرب عليه حول الجزيرة العربية، والذي اعتبره المؤرخون المسيحيون تأكيداً لوعد الله تعالى «لإبراهيم» كما ذكر الكتاب المقدس: «وقال إبراهيم لله، فليعش إسماعيل بين هؤلاء يا رب. فأجاب الله: لقد سمعت قولك عن إسماعيل وباركته وسأجعله أمة، سيأتي - يلد له - اثنا عشر أميراً وسأجعل منه أمة عظيمة». «كتاب جنيسس 18 - 20».

وقد ذكر الكتاب المقدس مزيداً عن أحوال هؤلاء الأمراء الاثني عشر، كأسياد للمنطقة بين «هافيلا وشور» المقابلة لمصر والممتدة إلى بلاد آشور، التي يعتبرها الجغرافيون جزءاً من بلاد العرب، وهي كذلك إلى هذا اليوم، وبها المدن والقصور والبدو والخيام إضافة إلى القرى. لقد كان «نابت» و«قيدر» أول أولاد إسماعيل من الأمراء الأغنياء بالمال والحلال - القطيع - وما يستخرجان منه من صوف جيد، ومن «نابت» خرج «الأنباط» الذين استوطنوا الجبال في أطراف الجزيرة العربية، بينما ألحقت الكتب المقدسة معنى «قيدر» لتعنى كل الأمة العربية: «أنا الذي أسكن في خيمة قيدر»،

وأَمَيْم وجُرهم والعماليق، وامم آخرون لا يعلمهم إلا الله، كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام وفي زمانه أيضاً[1].

العرب ثلاثة جراثيم: العدنانية والقحطانية وقُضاعة. قيل فأيهما أكثر العدنانية أو القحطانية؟ فقال: ما شاءت قضاعة، ان تيامنت فالقحطانية أكثر وإن تعددنت فالعدنانية أكثر. وهذا يدل على أنهم يتلونون في نسبهم... قال علماء النسب: يقال شعوب، ثم قبائل، ثم عَمَائر،

وكلاهما كانا آباء ذرية البدو العرب المتنقلين بحرية في الصحراء. قال النبي «جرمايا»: «الأمة الغنية هي الأمة المتنقلة، التي لا تأبه لا بالحصون ولا بالحواجز، المتنقلة وحدها».

وهكذا ظهر التمييز الحاد من فجر التاريخ بين العرب الذين يسكنون المدن والقلاع، وبين من يتنقلون في البوادي، حيث شغل الأوائل البلاد الخصبة والوديان المتفرّقة هنا وهناك بين الجبال، حيث يحيط بهذه المدن والقلاع الأوركيد والكروم وأشجار النخيل، وتزرع بينها الحبوب، حيث تروى بانتظام، وبها استقروا يزرعون ويربّون مواشيهم.

لذلك لم يعتبر سكان الحضر من العرب الممثلين الحقيقيين للجنس العربي، لنعومة عيشهم المستقر الذي به فقدوا الكثير من طباعهم الأصلية وذلك لاختلاطهم بالأعاجم. وكان هذا الاختلاط على أشده في اليمن التي أغرت بنهبها من الأجانب، لذلك كثر غزوهم لها وإخضاعها.

وبين طبقات العرب البدو جوّابو الصحراء بخيامهم، والأكثر من سكان المدن القريبة منهم حيث بقيت فيهم شخصيتهم القومية بكل قوتها وبطشها البدائي محافظة على مقوّماتها.

وهم بدو بالطبع، رعاة بالمهنة، يعرفون كل مصادر الصحراء عبر الخبرة والتقاليد، ويعيشون حياة متنقلة من مكان لآخر بين الغدران والآبار التي أوجدها آباؤهم وأجدادهم منذ بداية الجنس البشري، يحلون حيث يجدون ظل شجر النخيل حيث يرعون ويردون بقطعانهم وجمالهم، ويرحلون كلما نضب المرعى إلى مرعى آخر.

وهؤلاء البدو العرب تقسموا إلى قبائل وبطون لكل شيخه أو أميره، الممثل لكل نسبهم حيث يغرس رمحه بجانب خيمته كإشارة إلى أنه القائد. وتتعاقب على منزلته أبناؤه وأحفاده عبر الأجيال دون أن تكون هذه المنزلة وراثيّة قطعاً، بل مرتبطة بإرادة

ثم بطون، ثم أفخاذ، ثم فصائل، ثم عشائر، والعشيرة أقرب الناس إلى الرجل وليس بعدها شيء؟!

قال هيكل(2):

فشبه جزيرة العرب مستطيل غير متوازي الأضلاع، شماله فلسطين وبادية الشام، وشرقه الحيرة ودجِلة والفرات وخليج فارس، وجنوبه المحيط الهندي وخليج عَدَن، وغربه بحر

القبيلة ككل، فهو قد يعزل وينتخب بديل عنه من عائلة أخرى، كذلك تعد سلطاته محدودة وتعتمد على مميزاته الشخصية ومدى الثقة المعطاة له، وله التفاوض في السلم والحرب حيث يقود قبيلته إلى المعركة، ويختار مكان انتجاعها، ويستقبل الزوّار والضيوف، ويضبطه في كل هذا رأي جماعته.

ومهما كان عدد القبيلة أو أفخاذها تظل صلة النسب محفورة بذاكرتهم جميعاً لعدة أجيال، ولمشايخ القبائل شيخ كبير يرجعون إليه، ويسمى شيخ المشيخة سواء سكن بقلعة أو صاحَبَ جماعته بتنقلها، يظل يجمع تحت علمه كل فروع القبائل ويوجِّهها للخير العام.

ورغم كل تكاثر هذه القبائل المتنقلة، كل بأميرها المستقل ضمن نطاق انتجاعها المحدد، ظلت كل هذه الأمة بدون رأس، لتقع ضحية الصدام بين بعضها أحياناً، لذلك كان الثأر يشكل ما يشبه الدين المشترك بينهم، وهو بمثابة واجب كل أسرة تجاه مغدورها ويتصل هذا الأمر بشرف القبيلة ككل، وقد تبقى مسألة ثأر غير محلولة ومطالب بالدم فيها لعدة أجيال، وينتج منها نزاع مميت.

لذلك برزت الحاجة إلى الاستعداد الدائم للذود عن الحمى، مما جعل الطفل العربي منذ نعومة أظافره فارساً في الصحراء وخبيراً باستخدام كل الأسلحة، فلا شيء يبعده عن قوسه ورمحه وحسامه، ورعاية حصانه. وهو أيضاً غازٍ بفطرته، لذلك تجده

القُلْزُم (البحر الاحمر). فهو إذاً حصين بالبحر من غربه وجنوبه، حصين بالصحراء من شماله، وبالصحراء وخليج فارس من شرقه. وليست هذه المناعة هي وحدها التي عصمته من الغزو الاستعماري أو الغزو الديني، بل عصمه كذلك ترامي أطرافه. فطول شبه الجزيرة يبلغ أكثر من ألف كيلومتر وعرضه يبلغ نحو الألف من الكيلومترات ومعظمه أكثر من هذا جَدْبُه جدباً صرف عين كل مستعمر عنه. فليس في هذه الناحية الفسيحة من الأرض نهر واحد، وليست لأمطارها فصول معروفة يمكن الاعتماد عليها وتنظيم الصناعة إياها. وفيما خلا اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة والممتازة بخصب أرضها وكثرة نزول المطر فيها، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأودية غير ذات زرع وطبيعةٌ جرداء لا تيسر الاستقرار ولا تجلب الحضارة وهي تشجّع على حياة البادية وما تقضي به من الارتحال الدائم واتخاذ الجمل سفينة للصحراء وانتجاع مراعي الإبل، والاستقرار عندها ريثما تأتي الإبل عليها، ثم الارتحال من جديد انتجاعاً لمرعى جديد. وهذه المراعي التي ينتجعها بدو شبه الجزيرة إنما تدور حول عين من العيون، تتفجر عن ماء المطر الذي يتسلل خلال أرض البلاد الحجرية، فينبت تفجُّره الخضرة المنتشرة ها هنا وهناك في واحات تحيط بهذه العيون.

يؤمن للتجار الأدلة والجمال لنقل بضائعهم، واضعاً عليهم جزيته حين مرورهم في مجاهل صحرائه، وهو ينظر إلى كل هذا كحق شرعي لسيفه، معتبراً أبناء التجار الغرباء بنظرة دونية تتعلق بهم وبكل عاداتهم.

هكذا كان حال العرب في صحرائهم تحقيقاً لنبوءة «إسماعيل» جدهم الأول القائل: «ستكون يد ـ العربي ـ بقفره ضد كل إنسان، وكل إنسان ضده»، كما ذكر كتاب «جنيسس». والطبيعة قد أهّلته لقدره هذا، فكان خفيف اللحم شكلاً لكنه نشطٌ وقويّ وفعال، وقادر على تحمل الإجهاد والقسوة، لا يطلب إلا القليل من الطعام بأبسط أنواعه. وعقله مثل جسده سريع الخاطر، يتمتع بميزات الصفات العقلية للجنس السامي بفهم الأشياء العميقة بذكاء سريع عبر مفاهيم جاهزة وخيال آخاذ، وإحساساته دقيقة وحادة رغم عدم تعمقه بها، لكنه فخور وشجاع النفس، ويظهر عليه ذلك بوجه صارم وعيون حادة البريق، يسهل إثارته بالبلاغة اللفظية وسحره بالعبارات الشعرية، وهو يتحدث لغة غزيرة المترادفات بشكل فائق بكلمات يمكن مقارنتها بالدرر اللفظية، فهو أديب بالفطرة تسره المحسنات البديعية، أكثر من وضوح المعنى، ينقل أفكاره بالأسلوب الشرقي عبر الحكايات الرمزية والأساطير.

وهو كمحارب غير مستقر كريم ومضياف، يسره العطاء لذلك يفتح بيته دوماً للغرباء، مستعداً لمشاركتهم بكل ما يملك والذود عنهم حتى الهلاك متى حصل بينه وبينهم أي خبز وملح تحت ظل خيمته المقدسة.

أما من حيث الدين فالعرب في ما سمي بأيام الجاهلية كان يتنازعهم ضربان من

طبيعيٌ في بلاد هذه حالها أن تكون كصحراء أفريقية الكبرى لا يقيم بها مقيم، ولا تعرف الحياة الانسانية إليها سبيلاً، وطبيعي ألا يكون لمن يحلّ بهذه الصحراء غرض أكثر من ارتيادها والنجاة بنفسه منها، إلا في هذه النواحي القليلة التي تُنبت الكلأ والمرعى. وطبيعي أن تظلّ هذه النواحي مجهولة من الناس لقلة من يغامر بحياته لارتيادها. وقد كانت بلاد العرب فيما سوى اليمن مجهولة بالفعل من أهل تلك العصور القديمة.

لكن موقعها انجاها من الإقفار وأمسك عليها أهلها. ففي تلك العصور القديمة لم يكن الناس قد أمنوا البحر ليتّخذوه مركباً لتجارتهم أو لأسفارهم. وما تزال أمثال العرب تحت أنظارنا تُنبئنا بما كان من خوف الناس البحر كخوفهم الموت.

قال ابن كثير:

وحكى ابن إسحاق عن الأنصار أن «تُبعاً» إنما كان حنقه على اليهود... ويقال إنه إنما جاء

الإيمان: المانوية والصابئة التي كانت شائعة في العالم الشرقي بذاك الوقت، والصابئة كانت الغالبة، حيث كانوا يظنون أنها قد وصلت إليهم من «صابي بن شيت» المدفون مع والده وأخيه في أهرامات مصر؟ بينما اشتق البعض هذا الاسم من «صبأ» التي تعني بالسامية النجوم، والتي يرجع أصلها إلى الرعاة الآشوريين الذين لاحظوا حركة النجوم في السماء عبر مشاهداتهم لها، فشكّلوا حولها النظريات المتعلقة بفأل الخير وطيرة الشر التي تؤثر على الإنسان، بشكل آراء غير واضحة نظمها الفلاسفة والرهبان «الكلدان» بنظام يفترض أنه أقدم حتى من الحضارة المصريّة القديمة.

أما آخرون فيرجعون الصابئة إلى سلطة أعلى باعتبارها الدين الذي كان سائداً قبل الطوفان، والذي نجا من الغرق وظل دين آباء الجنس البشري الأوائل، وهي في تعاليم «إبراهيم عليه السلام» وتناقلتها ذريته، ووصلت إلى «إسرائيل» بلوائح «موسى» عبر شرارات البرق والرعد في جبل «سيناء».

والدين «الصابىء» كان روحياً ونقياً حيث به الإيمان بإله واحد، وبه نظرية الثواب والعقاب في اليوم الآخر، وضرورة الفضيلة في الحياة للحصول على الخلود بعد ذلك، أما اسم الله تعالى فيجب عدم ذكره، أو تصوره إلا عبر العقول الوسيطة التي هي الملائكة التي تسكن السماء بالنجوم بنفس الطريقة التي تسكن بها نفس الإنسان بالجسد، وهم ـ أي الملائكة ـ بوضعهم في النجوم كي يراقبوا ويسيروا الكون من عليائهم، والصابئة حين يتوجهون إلى النجوم في صلاتهم لا يعبدونها ولا يعبدون القمر بل يطلبون شفاعتها عند الكائن الأعظم، فينظرون من خلالها إلى الله الخالق العظيم.

وعلى التتابع فقد هذا الدين أصوله البسيطة ونقاءه وأصبح يقع بسخف الغموض، وانحدر إلى الوثنية، فهم بدل أن ينظروا إلى النجوم كوسطاء راحوا يعبدونها بحد ذاتها، ويرسمون ما يمثلها من أصنام تعظيماً لها في أماكن يقدسونها بالجبال والغابات، ثم بنوا لها المعابد وجعلوها تحوي ذات الألوهة، وهكذا خضعت الصابئة إلى التغيّر والتعديل حسب طبيعة البلاد التي حلت بها، ومصر متهمة بتحويلها إلى وثنيتها الذاتية،

ـ من اليمن ـ لنصرة الأنصار أبناء عمه على اليهود الذين نزلوا عندهم ـ عند الأنصار ـ في المدينة على شروط لم يفوا بها، واستطالوا عليهم... فبينما «تُبّع» على ذلك في قتالهم إذ جاءه حبران من أحبار اليهود... فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها ولم نأمن عليك عاجل العقوبة. فقال لهما لم ذلك؟ قالا هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان؟؟

فالهيروغليفية والتماثيل المنحوتة هناك اعتبر غموضها للناس دلالة، لا على عبادة الأجرام السماوية فقط والعقل المتجلي بها، بل أحط درجات العبادة المشخصة، مع أن البحوث الحديثة أثبتت بتحرياتها ما ينقذ هذه الأمة العظيمة من هذا التشهير القديم بعقائدها، فقد رُفع بموضوعية وبطء حجاب السرية الذي ظل مغطياً قبور المصريين القدامى، حيث بدا أن ما كان يظن معبوداً هناك عبارة عن رموز تدل على عبادة الكائن الأعظم ذي الاسم الأقدس من مجرد تداوله ـ نتر(*) ـ وهذا دلالة على أن عقيدة الصابئة قد مزجت بكثير من الخرافات، وسيطرت عليها الوثنية في رؤية الأمور، إلى حد أن كل قبيلة كانت تعبد نجماً خاصاً بها، وتضع صنماً يمثله بخلط واضح بين المخاوف البشرية مع شعائر الدين، كذلك اعتبر ولادة الأنثى بين بعض البدو دلالة على سوء الطالع، لأنها لا تنفع في طبيعة حياة التجوال، كما أنها قد تجلب العار لعشيرتها أحياناً بأي سلوك خاطئ أو إذا هي وقعت بالأسر، وهكذا اختلط الدافع غير الطبيعي مع الشعور الديني مما دفع إلى تقديم أطفالهم الأناث كضحايا بشرية للأصنام، أو إلى وأدهم أحياء.

أما المانوية «عبدة النار» التي تقاسمت الامبراطوريات الشرقية، فقد استقرت عند الفرس، واختزلت بتعاليم «زارادشت» المقدسة في كتابه المقدس «الابستاق»، وهي كالصابئة في أساسها عبارة عن روحانية بسيطة تتضمن الإيمان بكائن أعظم خالد بسببه وله وُجِدَ الكون، وهو الذي أنتج من كلماته الخالقة «أهورامزدا» و«أهرمان»، الأوّل منه مبدأ الملائكة والنور، ومن الثاني شياطين الشر والظلام، وصنع العالم من هذين العنصرين المختلطين وبتعارضاتهما، وبهما تتم شؤون الحياة بسيادة أحد الملكين، وبالتالي الخير والشر هما من نتاج صراع ملاك النور مع ملاك الظلام، وهذا الصراع سيستمر حتى نهاية العالم، حيث سيحصل البعث والحساب، وآن ذاك سيدمّر ملاك

... وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن... حتى أتاه نفر من «هذيل»... فقالوا له... ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى. قالوا بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده.

... فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك، فقالا له: ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك، ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه في الأرض لنفسه غيره؟؟

ثم قال ابن كثير: ذكر السهيلي أن «أبرهة» استذل أهل اليمن في بناء كنيسة أنواعاً من

(*) نتر: في الهيروغليفية تعني حرفياً الله تعالى ويشار إليها برسمة علم كأعلام الجيوش.

الظلام بومضة واحدة، وسيدخل خصومه إلى حقل النور الأزلي المبارك.

وقد كانت شعائر هذا الدين الأساسية بسيطة، فلم يكن للمانويه أي معابد أو شارات دينية من أي نوع، بل يتوجهون بعبادتهم إلى ما يظنونه مصدر كل نور أي الشمس، كمبدأ لكل نور وحرارة تتألف منها الأجسام السماوية، ولذلك كانوا يشعلون النيران فوق رؤوس الجبال لتأمين النور حين غيابه، لكن «زارادشت» هو أول من أدخل على هذا الدين المعابد حيث أشعل النار التي ادعى أنه قد حصل على قبسها من الجنة وظلت توقد من هذا القبس باستمرار عبر حراسة الرهبان الذين راحوا يحفظونها ويراقبونها ليل نهار.

وهكذا فقدت هذه الطائفة شأنها شأن الصابئة رمز المبدأ الإلهي الذي قامت عليه، وذهبت إلى عبادة النار والنور كآلهة لإبعاد الشيطان إله الشر، ووصلوا بتعصبهم إلى حد تقديم غير المؤمنين بعقيدتهم إلى النيران قرباناً لآلهتهم.

وقد أشار سليمان الحكيم إلى هاتين الطائفتين بنصه الجميل التالي:

من المؤكد ضلال كل إنسان بطبيعة جهله بالله، فلم يميز بعمله عمل الرب السيد، فعبد إما النار، أو الريح، أو الهواء العاصف، أو فلك النجوم، أو أمواج الماء العارمة، أو ضوء النجوم، على أنها آلهة تحكم العالم.

وكما سبق وأشرنا كانت الصابئة هي الغالبة من هاتين الطائفتين على العرب، ولكن بصيغتها المتراجعة إلى أبعد الحدود، والمختلطة مع كل أنواع الإساءة والاستغلال القبلي الذي يختلف باختلاف القبائل، وكانت المانوية شائعة في القبائل العربية الحدودية شمالاً مع الفرس، أما باقي القبائل فكانت خاضعة لخرافات الوثنيات التي كانت قريبة من حدودها.

إلا أن اليهودية الدخيلة على جزيرة العرب دخلتها من الأحقاب الغابرة بطريقتها غير الكاملة والغامضة، فغرست الكثير من شعائرها وطقوسها، وتقاليدها في العصبية والتعصب

السخر، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة... فخرج - كناني - حتى أتى «القُلّيس»، الكنيسة، فقعد وأحدث فيها حيث لا يراه أحد، ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر أبرهة... فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة... فغضب «أبرهة»... وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت. ثم سار وخرج ومعه الفيل... حتى إذا مر بالطائف خرج إليه... رجال ثقيف، فقالوا له أيها الملك إنما نحن عبيدك... وليس بيتنا هذا البيت الذي تريده، يعنون - كعبة - اللات، إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه. فتجاوز عنهم.

في هذه البلاد، وعندما احتلت فلسطين من الرومان، وسقطت «القدس» بأيديهم، وهاجر الكثير من اليهود إلى جوار سابقيهم لاجئين إلى العرب، وقبلتهم القبائل المحلية العربية، لكنهم شكلوا مجتمعهم الخاص بتسللهم إلى الواحات وأماكن الخصب، حيث بنوا فيها ـ مستعمرات ـ وقلاعاً وحصوناً قوية، مما زاد من قوتهم ونفوذهم.

أما المسيحية فقد كان لها أتباعها من العرب أنفسهم، فالقديس «بولس الرسول» قال بنفسه إنه بعد أن دعي إلى التبشير بالمسيحية بين «الحثيين» ذهب إلى البلاد العربية، وكان للقرار الكنسي في الكنيسة الشرقية في القرن الثالث الميلادي أثره في قسم المسيحية إلى طوائف تضطهد كل واحدة منها الأخرى، مما دفع الكثير من المسيحيين إلى المنفى نحو أقصى الأماكن في الشرق، فامتلأت الصحراء بهم وبشّروا بالدين المسيحي فيها بين زعماء القبائل.

إننا وبتتبع هذه الظروف الفيزيقية والأخلاقية للعرب يمكننا أن نأخذ فكرة عن سبب كون العرب لم يتغيروا لأحقاب طويلة، خاصة وأنهم محميون بموقعهم وصحرائهم من كل غزو خارجي، مما هيأهم لأن يكونوا غزاة وفاتحين في المستقبل، إنهم ينتمون إلى مكان قصي من المعمورة، مليء بالأنانيات الفردية، لكنه مهيء لكل قوة فعالة، فقد جعلتهم حياة البداوة أشداء وفعالين، فكان غالبهم من المحاربين منذ نعومة أظفارهم، لكن سلاحهم كان موجهاً ضد بعضهم البعض، عدا بعض القبائل الحدودية منهم التي كانت أحياناً تخوض حروب الآخرين كمرتزقة، فكما كانت القبائل البدوية في آسيا الوسطى لا تسعى للحرب في بداية عهدها، لكنها على مر الزمن كسحت العالم المتمدن ـ كما فعل المغول ـ كان هذا الجنس البشري من المحاربين ـ العرب ـ غير شاعر بقوته التي كانت مُفَتّتَه وغير مؤثرة في عمق صحرائه.

ولما حان الوقت لتوحد هذه القبائل الممزقة في هدف واحد وقيادة موحدة، ظهرت عبقرية كاسحة جمعت هذه الفروع المبعثرة وشحنتهم بحماس من روح جريئة، وقادتهم إلى الأمام، عملاقاً من الصحراء هز وهزم طغيان امبراطوريات العالم.

... فبعثوا معه «أبارغال» يدله على الطريق.. حتى إذا نزل «بالمغمَس» ـ مات هناك ـ فرجمت العرب قبره؟؟

... فبعث «أبرهة» الأسود بن مفصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال «تهامة» من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هشام، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها.

الباب الثاني

الفصل الأول

ولادة الرسول ﷺ

ولد رسول الإيمان الإسلامي العظيم في «مكة» في أبريل/ نيسان عام 569م، من قبيلة «قريش» المعروفة ذات الفرعين المتسببين إلى الأخوين «هاشم وعبد شمس»، وكان

قال ابن كثير:

قال الزبير بن بكار: حملت به أمه في أيام التشريق في شِعْب أبي طالب عند الجمرة الوسطى. وولد بمكة بالدار المعروفة بدار محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف لثنتي عشرة ليلة خلت من شهرِ رمضان.

ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عثمان بن عقبة بن مكرم، عن المسيَّب ابن شريك. عن شعيب بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: حُمِل برسول الله ﷺ في يوم عاشوراء في المحرم، وولد يوم الإثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل.

وذكر غيره أن الخيزران، وهي أم هارون الرشيد، لما حَجَّت أمرت ببناء هذه الدار مسجداً. فهو يعرف بها اليوم.

وذكر السهيلي أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في العشرين من نيسان. وهذا أعْدَل الزمان والفصول، وذلك لسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة لذي القرنين فيما ذكر أصحاب الزيج.

وزعموا أن الطالع كان لعشرين درجة من الجَدْي، وكان المُشْتَرى وزُحَل مقترنين في ثلاث دَرَج من العقرب وهي درجة وسط السماء. وكان موافقاً من البروج الحمل، وكان ذلك عند طلوع القمر أول الليل. نقله كله ابن دحية والله أعلم.

* * *

قال ابن إسحاق: وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل.

وهذا هو المشهور عن الجمهور. قال إبراهيم بن المنذر الحزامي: وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل؛ وبُعِث على رأس أربعين سنة من الفيل.

لهاشم الذي منه الرسول ﷺ ريادة مكة، تلك المدينة الواقعة وسط سلاسل جبال صخرية وكانت منذ فجر التاريخ موضع قداسة، وفيها قد أسس «هاشم» رحلتي الشتاء والصيف التجاريتين إلى اليمن ثم سوريا، وبهما كانت المؤن تدخل «مكة» مع الكثير من

وقد رواه البيهقي من حديث أبي إسحاق السَّبِيعي عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني المطَّلب بن عبد الله بن قيس بن مَخْرمة، عن أبيه عن جده قيس بن مخرمة، قال وُلِدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، كنا لِدَيْن.

قال: وسأل عثمان رضي الله عنه قُبَاث بن أَشْيَم أخا بني يَعْمر بن ليث: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أقدم منه في الميلاد. ورأيت خَزق الفيل (أي روثه) أخضر مُحيلاً. ورواه الترمذي والحاكم من حديث محمد بن إسحاق به.

قال هيكل:

مولد محمد (سنة 570م)

وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى، فلما تمّ لها الوضع بعثت إلى عبد المطلب عند الكعبة تخبره أنه وُلد له غلام. وفاض بالشيخ السرور حين بلغه الخبر، وذكر ابنه عبد الله وقلبه مفعم بالغبطة لِخَلَفه، وأسرع إلى زوج ابنه وأخذ طفلها بين يديه، وسار حتى دخل الكعبة وسمّاه محمداً. وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب، لكنه كان معروفاً. وردّ الجد الصبيّ إلى أمه وجعل وإياها ينتظر المراضع من بني سعد لتدفع الأم بوليدها إلى إحداهن، على عادة أشراف العرب من أهل مكة.

وقد اختلف المؤرخون في العام الذي ولد محمد فيه؛ فأكثرهم على أنه عام الفيل (570 ميلادية). ويقول ابن عبّاس: إنه وُلد يوم الفيل. ويقول آخرون أنه وُلد قبل الفيل بخمس عشرة سنة: ويذهب غير هؤلاء إلى انه وُلد بعد الفيل بأيام أو بأشهر أو بسنين، يقدّرها قوم بثلاثين سنة؛ ويقدرها قوم بسبعين.

واختلف المؤرخون كذلك في الشهر الذي ولد فيه وإن كانت كثرتهم على أنه وُلد في شهر ربيع الأول. وقيل: وُلد في المحرّم. وقيل وُلد في صفر وبعضهم يرجح رجباً، على حين يرجح آخرون شهر رمضان.

كذلك اختلف في تاريخ اليوم من الشهر الذي وُلد فيه؛ فقيل: وُلد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوّل، وقيل لثماني ليال، وقيل لتسع. والجمهور على أنه وُلد في الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل، وهو قول ابن إسحاق وغيره.

وكذلك اختلف في الوقت الذي وُلد فيه أنهاراً كان أم ليلاً. كما اختُلف في مكان ولادته بمكة. ويرجّح كُوسَّان دِبِرْسِفَال في كتابه عن العرب أن محمداً وُلد في أغسطس سنة 570، أي

البضائع المتنوعة، فصارت المدينة مركزاً تجارياً مما جعل من قريش ككل القبائل التي تساهم في هذه البعثات التجارية قبيلة غنية وقوية، وكان «هاشم» في ذلك الوقت راعياً وسادناً «للكعبة» رمز الحج العربي العظيم والعبادة، وحماية الحرم كانت لا تعطى لأحد

عام الفيل، وأنه وُلد بمكة بدار جدّه عبد المطلب.

وفي سابع يوم لمولده أمر عبد المطلب بجزور فنُحرت، ودعا رجالاً من قريش فحضروا وطِعموا. فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمداً سألوه لِمَ رغب عن أسماء آبائه؟ فقال أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه.

وقال هيكل، في موضوع ذكر الصلاة والسلام على الرسول ﷺ حين ذكر اسمه الشريف: (حتى يعرف الناس جميعاً سمو الإسلام. فوق القيود اللفظية ويقدروا قيمة الحديث: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق...». فقد ذكر أبو البقاء في «كلياته» أن: «كتاب الصلاة في أوائل الكتب قد حدثت في أوائل الدولة العباسية، ولهذا وقع كتاب البخاري وغيره عارياً عنها». وكثرة الائمة على أن الصلاة على النبي يكفي أن يذكرها المرء مرة واحدة في حياته. قال ابن نجيم في «البحر الرائق»: أن ما أوجب الأمر في قوله تعالى: ﴿صلوا عليه﴾ فهو افترضها في العمر مرة واحدة في الصلاة أو خارجها، لأن الأمر لا يقضي التكرار وهذا بلا خلاف. والخلاف بين الشافعي وغيره على وجوب الصلاة على النبي أثناء الصلاة لا خارجها. والصلاة هي الدعاء: ومعناها في الآية أن يترحم الله على النبي ويسلم. هذا ما أورده علماء المسلمين وأئمتهم في هذا الموضوع. وهو يدل على إسراف الذين يزعمون وجوب الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه وكلما كتب) «حياة محمد، مرجع سابق، ص 38 و39».

أما نحن فنقول: فقد ظللنا على تفضيل ذكر الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كلما ذكر اسمه الشريف حتى ولو لم يضعها «إيرڤينغ» في ترجمته «صلى الله عليه وسلم»، من منطلق أن هذا التوقير بالدعاء للرسول الأعظم دوماً كي يترحم الله تعالى عليه، هو ما يميزنا كمسلمين حين ذكر رسولنا ﷺ.

وتلك لا تأخذ مساحة واسعة.

لا من تفكيرنا.

ولا من الورق حين الكتابة.

ولكنها إضافة إلى إشعارنا بهويتنا كمسلمين، تأخذ مساحة واسعة في قلوبنا، ومتى كان الإيمان إلا فعل قلب؟!

وكلا الرأيين محترم، والله أعلم.

أما الدعاء إلى الصحابة بأن يرضى الله تعالى عنهم بعبارة رضي الله عنه «رض»، فنحن لا نحبذ ذكرها أثناء سرد تاريخ السيرة النبوية الشريفة قبل إسلامهم، وإلا جاءت فارغة من المعنى منافقة، كالقول مثلاً حين ذكر اسم «خالد بن الوليد» في معركة «أحد» وهو يعمل سيفه

إلا لأولي الشرف من أشراف القبائل، منذ فجر تاريخها، تماماً كما في «القدس» التي لم تكن تُزعى إلا من «اللاويين». فالأمر يتصل بالكرامة المدنية والامتيازات الشخصية، فكان راعي وحامي الحرم صاحب الكلمة العليا في المدينة المقدسة.

وبعد وفاة «هاشم» استلم مركزه ابنه «عبد المطلب» بالشرف والريادة، وهو الذي خلص المدينة المقدسة هذه من الغزاة أصحاب «الفيل» الذين كان يقودهم أمراء الحبشة المسيحيون الذين كانوا يستعمرون «اليمن» آن ذاك، مما أكد أحقية بني هاشم بريادة الكعبة، رغم كل سخط وحسد فرع «عبد شمس» من قريش.

وقد كان لعبد المطلب عدة أولاد وبنات، المشهور منهم في التاريخ:

أبو طالب

بالمسلمين «رضي الله عنه» أو «رض»، أو حين ذكر «أبو سفيان» في غزوة الخندق ونحن نترضى عنه، وسواها من المواقف قبل إسلامهم.

وقد رأينا كثيراً من المحدثين يقعون بهذا الخطأ، بل أكثر من ذلك يطالبوننا فيه «هداهم الله»، من منطلق المساواة بين السابقين والمتأخرين من الصحابة وإلا اتهمونا بالتحيز وذهبوا بمقصدنا مذهب التشنيع.

نعم نسأل الله تعالى أن يرضى عن الصحابة جميعاً، بعد أن صاروا صحابة، وعن جميع المسلمين حين يكونون كذلك دون غباء أو غلو، أما قبل ذلك فلا تصح بهم إلا عبارة «هداهم الله». ولأننا لا نكتب كتاب ادعية، بل نحاول أن نعيد صياغة السيرة المطهرة كي نفهمها، غضضنا النظر عما لا يجب ذكره من الأدعية، لا غلواً ولا نسياناً ولكن انسجاماً مع مواقفنا كمؤمنين، دون أن نغض النظر عن اي حقيقة تبرزها السيرة، فعلينا أن لا نضع انفسنا ولاة أمور على الحقيقة، بل أن نحسن شرحها بنية صادقة، فلا نخفي شيئاً يريد الحق ـ الله ـ إبرازه.

نحن في هذه السيرة المقارنة لن نخفي، بل سنضع كل الحقائق التي أمامنا، وبقدر بروزها لنا سنحاول تفسيرها دون أن يعني هذا أن ليس من أهدافنا أيضاً أن يكون الحق لكل قارئ بالتفسير.

هذا هو القصد التنويري الذي نهدفه وإلا فالاكتفاء بالقديم كاف، إضافة إلى أن لنا رأي حول عدم ضرورة كتابة السيرة أصلاً، فالجهل بالسيرة لا يجعل المسلم اقل إسلاماً من العارف بها لأن الإسلام دين وليس حدثاً تاريخياً. والله من وراء القصد.

قال ابن كثير:

قد تقدم أن عبد المطلب لما ذبح تلك الإبل المائة عن ولده عبد الله، حين كان نذر ذبحه فسلمه الله تعالى، لِمَا كان قدِّر في الأزل من ظهور النبي الأمي ﷺ خاتم الرسل وسيد ولد آدم من صلبه، ذهب كما تقدم فزوّجه أشرف عقيلة في قريش، آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن

وأبو لهب

والعباس

وحمزة

وعبد الله، الذي كان أصغرهم وأحبهم من قلب عبد المطلب، وهو الذي تزوج

زهرة الزُّهرية، فحين دخل بها وأفضى إليها حملت برسول الله ﷺ.

وقد كانت أم قتّال رقيقة بنت نوفل، أخت ورقة بن نوفل، توسَّمت ما كان بين عَيْني عبد الله قبل أن يجامِع آمنة من النور، فودَّت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ، وأنه قد أزف زمانه فعرضت نفسها عليه. قال بعضهم: ليتزوجها وهو أظهر. والله أعلم، فامتنع عليها، فلما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة بمواقعته إياها كأنه ندم على ما كانت عرضت عليه. فتعرض لها لتعاوده. فقالت: لا حاجة لي فيك. وتأسفت على ما فاتها من ذلك وأنشدت في ذلك ما قدمناه من الشعر الفصيح البليغ. وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ، فإنه كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

وقد تقدم الحديث المروي من طريق جيد أنه قال عليه الصلاة والسلام: «ولدت من نكاح لا من سفاح».

والمقصود أن أمه حين حملت به توفي أبوه عبد اللّه وهو حَمْل في بطن أمه على المشهور.

قال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عمر، هو الواقدي، حدثنا موسى بن عُبيدة اليزيدي، وحدثنا سعيد بن أبي زيد، عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصعة، قال: خرج عبد اللّه بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة في عير من عِيران قريش يحمِّلونه تجارات، ففرغوا من تجاراتهم، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة، وعبد اللّه بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال أتخلَّف عند أخوالي بني عَدِيّ بن النجار.

فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقَدِموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد اللّه، فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض.

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث، فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه فأخبره.

فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وَجْداً شديداً.

ورسول الله ﷺ يومئذ حَمْل، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة.

قال الواقدي: هذا هو أثبتُ الأقاويل في وفاة عبد الله وسنه عندنا.

قال الواقدي: وحدثني معمر عن الزهري، أن عبد المطلب بعث عبد اللّه إلى المدينة يمْتار لهم تمراً فمات.

من «آمنة»، امرأة فاضلة من الفرع القريشي البعيد ـ بيثرب ـ. وكان عبد الله وسيماً وبه

قال محمد بن سعد: وقد أنبانا هشام بن محمد بن السائب الكَلْبي عن أبيه، وعن عَوَانه بن الحكم. قالا: توفي عبد اللّه بن عبد المطلب بعدما أتى على رسول الله ﷺ ثمانيةٌ وعشرون شهراً، وقيل سبعة أشهر.

وقال محمد بن سعد: والأول أثبت، أنه توفي ورسول الله ﷺ حَمْل.

وقد تقدم في الحديث «ورؤيا أمي الذي رأت حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

وقال محمد بن إسحاق: فكانت آمنة بنت وهب أمُّ رسول الله ﷺ تحدِّث أنها أُتِيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملتِ بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي:

أعِيذه بالواحد، من شر كل حاسد، من كل برٍّ عاهد وكل عبد رائد، يذود عني زائد، فإنه عند الحميد الماجد، حتى أراه قد أتى المشاهد.

وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُصْرى من أرض الشام، فإذا وقع فسميِّه محمداً، فإن اسمه في التوراة أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد.

وهذا وذاك يقتضي أنها رأت حين حملت به عليه السلام كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، ثم لما وضعته رأت عياناً تأويل ذلك كما رأته قبل ذلك ها هنا. والله أعلم.

كانت أم أيمن واسمها بَرَكة تحضنه، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه فلما كبر أعتقها وزوّجها مولاه زيد بن حارثة، فولدت له أسامة بن زيد رضي الله عنهم.

وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام مولاة عمه أبي لهب ثُوَيْبة قبل حليمة السعدية.

من حليمة بنت أبي ذُؤيب السعدية وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة؟

قال محمد بن إسحاق: فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبي ذؤيب، واسمه عبد اللّه بن الحارث بن شِجنة بن جابر بن رِزَام بن ناصرة [بن فُصَيَّة بن نصر] بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مُضَر.

قال: واسم أبي رسول الله ﷺ الذي أرضعه ـ يعني زوج حليمة ـ الحارث بن عبد العُزّى بن رفاعة بن ملاَّن بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن.

وإخوته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة: عبد اللّه بن الحارث، وأُنيسة بنت الحارث، وخِذَامة بنت الحارث، وهي الشَّيْماء، وذكروا أنها كانت تَحْضن رسول الله ﷺ مع أمه إذ كان عندهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني جهم بن أبي جهم [مولى لامرأة من بني تميم كانت عند الحارث بن حاطب، ويقال له] مولى الحارث بن حاطب، قال: حدثني من سمع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: حدِّثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت: قدمت مكة في نسوة ـ وذكر الواقدي بإسناده أنهنّ كنَّ عشرة نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن بها الرُّضعاء ـ من بني سعد نلتمس بها الرُّضعاء في سنة شَهْبَاء، فقدمنا مكة، فوالله ما علمتُ منا امرأة إلاَّ وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل إنه يتيم، تركناه قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما

كل صفات الرجل المرغوب من كل امرأة، فليلة زواجه من «آمنة» كُسِرَتْ قلوب

نرجو معروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا! فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري.

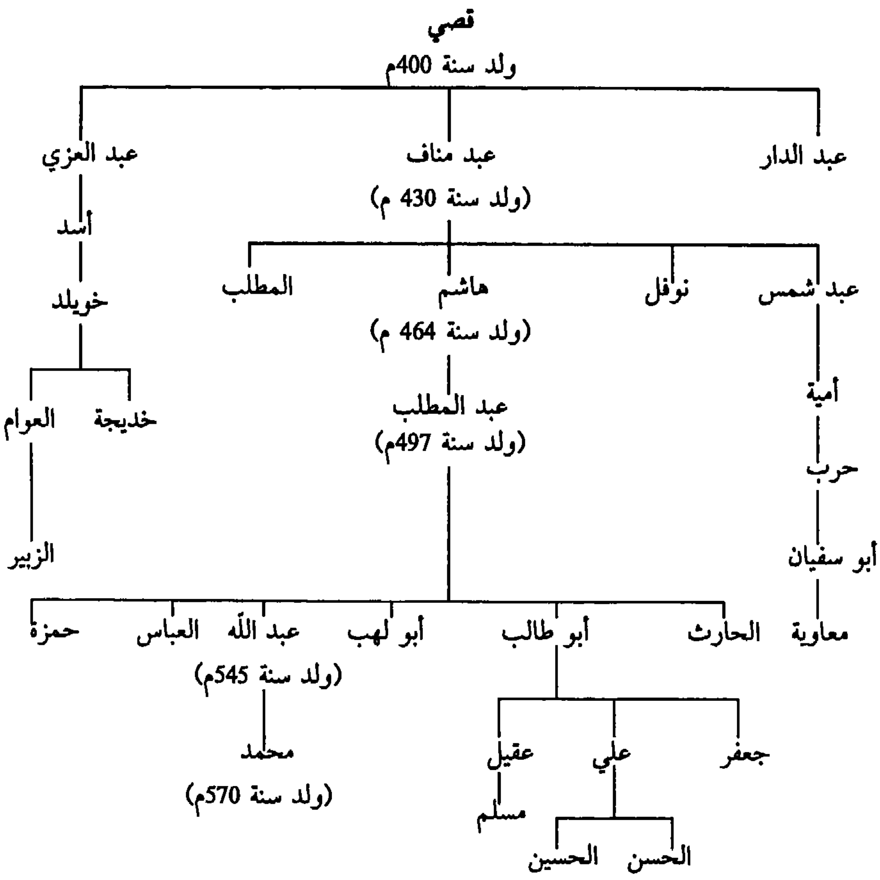
فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العُزّى: والله إني أكره أن أرجع من بَيْن صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

فقال: لا عليك أن تفعلي، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة.

فذهبت فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره.

فما هو إلا أن أخذته فجئت به رَحْلى فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافلٌ، ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة.

وضع هيكل شجرة نسبه ﷺ التالية:



العذارى في قريش كلها، وكان «محمد» ﷺ الثمرة الوحيدة لهذا الزواج، ومع يوم مولده كما يؤكد الأثر التاريخي الإسلامي، ظهرت علامات.

فلم تعان أمه من المخاض، ولحظة نزوله أعقبها ضوء أضاء الكون رفعت عيني الوليد إلى السماء.

وتؤكد لنا المصادر الإسلامية أن السماء والأرض اهتزتا لقدومه، فقد عادت بحيرة «ساوة» إلى نبعها السري، وفاض الفرات على الأراضي المجاورة، واهتز قصر «كسرى» ملك الفرس ووقعت بعض دعائمه على الأرض، ورأى قاضي «كسرى» رؤيا في منامه أن العرب يهزمون الفرس بجمالهم وفسرها لمليكه بخطر يأتيهم من جهة العرب، وبنفس هذه الليلة المليئة بالأحداث أطفئت النار الزرادشتية التي كان تشتعل باستمرار منذ آلاف السنين، وسقطت كل الأوثان بالعالم، وطرد الجن الذين يجوبون الفضاء مع قائدهم «إبليس» من السماء بين النجوم حيث كانوا يقومون بآثارهم السيئة على البشر من قبل الملائكة إلى عمق المحيط.

قال هيكل:

كان عبد المطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أَبْرَهَةُ مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق. وكان ابنه عبد الله في الرابعة والعشرون من سنه. فرأى أن يزوّجه، فاختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرة سيد بني زهرة إذ ذاك سناً وشرفاً. وخرج به حتى أتى منازل بني زُهرة ودخل وإياه عند وهب وخطب إليه ابنته. ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه إنما ذهب إلى أهيب عم آمنة؛ لأن أباها كان هلك وكانت هي في كفالة عمها. وفي اليوم الذي تزوّج عبد الله فيه من آمنة تزوج عبد المطلب من ابنة عمها هالة، فأولدها حمزة عمّ النبيّ وضريبه في سنه.

وأقام عبد الله مع آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام، على عادة العرب حين يتم الزواج في بيت العروس. فلما انتقل وإياها إلى منازل بني عبد المطلب لم يُقِمْ معها طويلاً، إذ خرج في تجارة إلى الشام، وتركها حاملاً، وتختلف الروايات في أمر عبد الله وهل تزوج غير آمنة، وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن. والوقوف لتقصيّ أمثال هذه الروايات لا غناء فيه. وكل ما يمكن الاطمئنان إليه أن عبد الله كان شاباً وسيماً قويّاً؛ فلم يكن عجباً أن تطمع غير آمنة في الزواج منه. فلما بنى بها تقطّعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين. ومن يدري، لعلهن قد انتظرن أَوبته من رحلته إلى الشام ليكنَّ زوجات له مع آمنة. ومكث عبد الله في رحلته هذه الأشهر التي يقتضيها الذهاب إلى غزّة والعود منها، ثم عرّج على أخواله بالمدينة يستريح عندهم من وعثاء السفر ليقوم بعد ذلك في قافلة إلى مكة؛ لكنه مرض عند أخواله فتركه رفاقه؛

كذلك تؤكد مصادر التقليد التاريخي عجائب رصدها خال الوليد الذي كان يعمل بالنجوم، أدت إلى تنبؤه بأنه سيكون منشئ أمة وامبراطورية الإيمان بين البشر، أما جده «عبد المطلب» فقد أقام الأفراح في مكة سبعة أيام حيث قدم ابنه في نهايتها لقريش كتتويج لآخر عقبه، وأعطاه اسم «محمد» حمداً لعقباه، ولما سيكون به ﷺ من محامد.

وإضافة إلى هذه التقديرات التاريخية التي جاءت من المؤرخين المسلمين، لدينا أساطير عن بداية حياته ﷺ، فبعد أن توفي والده وعمره شهران فقط ولم يترك له سوى خمسة جمال وعدد قليل من الغنم، وعبدة أثيوبية اسمها «بركة» ولم تتمكن أمه من إرضاعه إذ قد جفّ حليبها من الحزن على فقد زوجها. ولأن جو مكة لم يكن أيضاً صحياً للطفل، طلبت له مرضعة بين نساء القبائل المجاورة اللواتي اعتدن أن يأتين إلى مكة كل سنة مرتين في الربيع والخريف، لأخذ الأولاد للإرضاع، باحثات عن أولاد

حتى إذا بلغوا مكة أخبروا اباه بمرضه. ولم يلبث عبد المطلب حين سمع منهم أن أوفد الحارث اكبر بنيه إلى المدينة ليعود بأخيه بعد إبلاله. وعلم الحارث حين بلغ المدينة أن عبد اللّه مات ودُفن بها بعد شهر من مسيرة القافلة إلى مكة، فرجع ادراجه ينعي اخاه إلى اهله ويُثير من قلب عبد المطلب ومن قلب آمنة همّاً وشجناً، لفقد زوج كانت آمنة ترجو في حياته هناءة وسعادة. وكان عبد المطلب عليه حريصاً حتى افتداه من آلهته فداءً لم تسمع العرب من قبل بمثله.

وترك عبد اللّه من بعده خمسةً من الإبل وقطيعاً من الغنم وجارية هي أم ايمن حاضنة النبي من بعدُ. ربما لا تكون هذه الثروة مظهر ثراء واسع؛ لكنها كذلك لم تكن تدلّ على فقر ومَتْرَبة. ثم إن عبد اللّه كان في مقتبل عمره، فكان قديراً على الكسب والعمل والبلوغ إلى السعة في المال؛ وكان ابوه ما يزال حيّاً فلم يؤل إليه شيء من ميراثه.

انتظرت آمنة مجيء المراضِع من بني سعد لتدفع به إلى إحداهن كعادة أشراف العرب من أهل مكة. ولا تزال هذه العادة متبعة عند أشراف مكة، إذ يبعثون ابناءهم إلى البادية في اليوم الثامن من مولدهم ثم لا يعودون إلى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة. ومن قبائل البادية مَنْ لها في المراضع شهرة، ومن بينها قبيلة بني سعد. وفي انتظار المراضع دفعت آمنة بالطفل إلى ثُوَيْبة جارية عمه أبي لهب، فأرضعته زمناً، كما أرضعت من بعدُ عمه حمزة؛ فكانا أخوين في الرضاع. ومع أن ثُويبة لم ترضعه إلا أيّاماً فقد ظل يحفظ لها خير الودّ ويصلها ما عاشت؛ ولما ماتت في السنة السابعة من هجرته إلى المدينة سأل عن ابنها الذي كان أخاه في الرضاع ليصله مكانها، فعلم أنه مات قبلها.

وجاءت مراضع بني سعد إلى مكة يلتمسن الأطفال لإرضاعهم. وكنَّ يعرضن عن اليتامى لأنهن كنّ يرتجين البرّ من الآباء. أما الأيامى فكان الرجاء فيهن قليلاً؛ لذلك لم تقبل واحدة من

الأغنياء لرعايتهم مقابل المال نظراً لفقرهن المدقع. وأخيراً تحركت عاطفة «حليمة السعدية» وأخذت الطفل بدون أي دافع مادي إلى منزلها الواقع بإحدى القرى الجبلية التابعة لبني سعد، بطن من قحطان لهم وادٍ شمال الطائف به يعيشون عيشة بدائية.

أولائك المراضع على محمد، وذهبت كل بمن ترجو من أهله وافر الخير.

حليمة بنت أبي ذؤيب

على أن حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية التي أعرضت عن محمد أوّل الأمر كما أعرض عنه غيرها لم تجد من تدفع إليها طفلها؛ ذلك أنها كانت على جانب من ضعف الحال صرف الأمهات عنها. فلما أجمع القوم على الانطلاق عن مكة قالت حليمة لزوجها الحارث بن عبد العُزّى: والله إني لأكره أن أرجع مع صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ولآخذنه! وأجابها زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. وأخذت حليمة محمداً وانطلقت به مع قومها إلى البادية. وكانت تحدّث أنها وجدت فيه منذ أخذته أيّ بركة: سمنت غنمها وزاد لبنها، وبارك الله لها في كل ما عندها.

وأقام محمد في الصحراء سنتين ترضعه حليمة وتحضنه ابنتها الشّيماء؛ ويجد هو في هواء الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النمو ويزيد في وسامة خلقه وحسن تكوينه. فلما أتمّ سنتيه وآن فِصَالُه ذهبت به حليمة إلى أمه ثم عادت به إلى البادية، رغبة من أمه، في رواية، ومن حليمة في رواية أخرى؛ عادت به حتى يغلظ، وخوفاً عليه من وباء مكة. وأقام الطفل بالصحراء سنتين أخريين يمرح في جوّ باديتها الصحو الطلق لا يعرف قيداً من قيود الروح ولا من قيود المادة.

الفصل الثاني

ما ذكره المؤرخون من معجزات التطهير

نسب المؤرخون الكثير من العجائب التي حصلت «لحليمة» مع الطفل الرضيع، فخلال عودتها من «مكة» تكلم البغل الذي يحمل الرضيع معلناً أنه يحمل على ظهره نبياً عظيماً ورسولاً مفضلاً من رسل الله، وسجدت الأغنام له حين كان يمر بها، وتوقف القمر حين نظر إليه الطفل(*).

قال ابن كثير:

فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نَسَمة مباركة، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟! فلم يزل الله عز وجل يريدنا خيراً.

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالرُّكب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب! هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ أقول: نعم والله إنها لهي. فيقلن: والله إن لها لشأناً.

حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجْدَبَ منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحلب ما شئنا، وما حوالينا أو حولنا أحدٌ تَبِضُّ له شاةٌ بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً، حتى إنهم ليقولون لرعاتهم أو لرعيانهم: ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لبناً تحلب ما شئنا.

فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها.

حتى بلغ سنتين فكان يَشِبُّ شباباً لا تشبُّه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جَفْراً فقدمنا به على أمه ونحن أضنُّ شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه، قلت لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى، فإنا نخشى عليه وباء مكة.

فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم. فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة.

فبينما هو خلفَ بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بَهْم لنا جاء أخوه ذلك يشتد، فقال: ذاك

(*) كلام مختلق لم نجد ما يقابله بمراجعنا.

كذلك نزلت خيرات السماء على «حليمة» كما يؤكد المؤرخون العرب جزاء لها على حسن صنيعها بإرضاع الطفل، طالما ظل الطفل تحت سقف بيتها، حيث تحسن كل ما فيه، فلم يعد يجف البئر في المنزل، وظل المرعى أخضر وزاد قطيعها وتضاعف

أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه.

فخرجت أنا وأبوه نشتدُّ نحوه، فنجده قائماً مُنتقعاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: يا بني ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، أضجعاني وشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم ردَّاه كما كان. فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف. قالت حليمة: فاحتملناه فلم تُرَعْ أمه إلا به، فقدمنا به عليها فقالت: ما رَدَّكما به يا ظِئْر، فقد كنتما عليه حريصين؟ فقالا: لا والله، إلا أنا لله قد أدى عنا وقضينا الذي علينا وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث نرده إلى أهله. فقالت: ما ذاك بكما، فاصدقاني شانكما. فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟! كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، والله إنه لكائن لإبنى هذا شان، ألا أخبركما خبره؟ قلنا: بلى قالت: حملت به فما حملت حملاً قط أخف منه(*)، فاريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما.

وهذا الحديث قد روي من طرق أُخَر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

وقال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد، عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس، قال: خرجت حليمة تطلب النبي ﷺ وقد وجدت البَهْم تَقِيل، فوجدته مع أخته فقالت: في هذا الحر؟ فقالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حراً، رأيت غمامة تظلل عليه، إذا وقف وقفت؛ وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع.

وقال ابن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بَهْم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طَسْت من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه عَلَقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه ردَّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه. زِنْه بعشرة من أمته. فوزنني بعشرة فوزنتهم، ثم قال: زِنْه بمائة من أمته. فوزنني بمائة فوزنتهم. ثم قال زنه بألف من أمته. فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوَزَنَهم».

(*) يوهم ذلك أنها حملت بغيره وهو غير ثابت.

وعم السلام والبركات على مكان إقامتها. وتذهب الأساطير العربية بهذا الشأن إلى حد إضفاء صفات جسدية وعقلية خارقة على الطفل منذ نعومة أظافره، فقد مشى عندما كان عمره ثلاثة أشهر، وصار قادراً على الجري حين بلغ السبعة أشهر، وصار ماهراً بضرب النبل عندما كان في الشهر العاشر، وتكلم منذ شهره الثامن بشكل يمكن فهم عباراته ثم ببلاغة واضحة، واضعاً الحكم التي أذهلت كل من حوله.

وعندما بلغ عامه الثالث وبينما كان يلعب في الحقل مع إخوته في الرضاع جاءه ملكان متلألئان، وضعاه على الأرض برفق وكان أحدهما «جبريل» الذي فتح صدر الرسول لكن بدون ألم، وأخرج قلبه ونظفه من مغمز الشيطان وعلق دم الخطايا الموروثة بالإنسان من أبيه آدم فطرحاها(*)، ثم قال أحدهما للآخر إغسل قلبه غسل الإناء، ثم دعا بالسكينة وملأه حكمة وعلماً كأنها وجه هرة بيضاء فأدخلت قلبه(**)، ثم خاطا بطنه وجعل الخاتم بين كتفيه. وهكذا ملأ قلبه بالإيمان والحكمة ونور النبوة ثم أعاداه إلى صدره الصغير. وتثبت نفس هذه المصادر كيف نقل نور النبوة وتناقل عبر سلالة النبوة

وهذا إسناد جيد قوي.

وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح، وهو أبو نعيم، عن ثور بن يزيد، عن مكحول، عن شداد بن أوس هذه القصة مطولة جداً، ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع. فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يُفْرَح به.

ثم قال: وحدثنا أبو عمر بن حمدان، حدثنا الحسن بن نفير، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بقية بن الوليد، عن بحير بن سعيد، عن خالد بن معدان، عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي، عن عُتبة بن عبد اللّه، أنه حدثه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابنٌ لها في بَهْم لنا ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا. فانطلق أخي ومكثت عند البَهْم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني للقفا فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج. فغسلا به جوفي. ثم قال: ائتني بماء بَرَد. فغسلا به قلبي. ثم قال: ائتني بالسكينة فذَرَّها في قلبي. ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْه. فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة. فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليَّ بعضهم. فقال: لو أن أمته وُزِنت به لمال بهم. ثم انطلقا

(*) فهم مسيحي فسر به إيرڤينغ الحادثة.

(**) لم نجد لهذا الوصف ما يقابله بمراجعنا.

المقدسة منذ آدم حتى «إسحاق وإسماعيل عليهما السلام» ثم خبا في أتباعهم إلى أن تألق من جديد بمؤهلات محمد ﷺ.

والدليل فوق الطبيعي على صحة ذلك هو ختم النبوة بين كتفي الرسول ﷺ الذي ظل طوال حياته إشارة ـ رمزاً ـ إلى مهمته الإلهية، رغم أن غير المؤمنين لا يرون به إلا وحمة كبيرة بحجم بيضة الحمامة بين كتفيه.

أما حليمة وزوجها فقد جزعا مما أخبرهما به الأطفال عن فتح الملائكة لصدر الرسول ﷺ، عسى أن يكون هؤلاء الزوار غير الطبيعيين من الأرواح الشريرة والجان التي تسكن الأماكن النائية من الصحراء، وتسبب سوء الطالع للإنسان، لذلك أرجعاه إلى مكة(*)، وسلماه إلى أمه «آمنة».

فظل مع أمه حتى عامه السادس حين أخذته معها إلى أخواله من بني النجار في يثرب لزيارتهم، لكنها توفيت في طريق عودتها ودفنت في «الأبواء» قرية بين المدينة

فتركاني وفرقتُ فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت: أعيذك بالله. فرحَّلت بعيراً لها وحملتني على الرحل؛ وركبت خلفي، حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أدَّيت أمانتي وذمتي. وحدَّثْتُها بالذي لقيتُ، فلم يَرُعْها، وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

ورواه أحمد من حديث بقية بن الوليد به. وهكذا رواه عبد اللّه بن المبارك وغيره عن بقية بن الوليد به.

وقد رواه ابن عساكر من طريق أبي داود الطيالسي، حدثنا جعفر بن عبد اللّه بن عثمان القرشي، أخبرني عمير بن عمر بن عروة بن الزبير، قال سمعت عروة بن الزبير يحدث عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كيف علمتَ أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي؟ قال: «يا أبا ذر، أتاني مَلكان وأنا ببعض بطحاء مكة، فوقع أحدهما على الأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: هو هو. قال زِنْه برجل. فوزنني برجل فرجحته» وذكر تمامه، وذكر شقَّ صدره وخياطته وجَعْل الخاتم بين كتفيه قال: «فما هو إلا أن وَلياً عني فكأنما أعاين الأمر معاينة».

ثم أورده ابن عساكر عن أبيٍّ بن كعب بنحو ذلك، ومن حديث شداد بن أوس بأبسط من ذلك.

وثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك: أن رسول

(*) هذا خطأ تاريخي فهما لم يرجعاه إلى مكة حتى بلغ السنتين، ووقتها حصلت الحادثة، لاحظ قول ابن كثير في الصفحات التالية.

ومكة. وظل مكان قبرها مكان عطف وحنان من ابنها حتى آخر أيام حياته.

إنه وبعد أن فجع الرسول ﷺ بأمه صغيراً صار برعاية أمته الأثيوبية «بركة» التي صارت بمثابة أم لهذا اليتيم، إلى أن أوصلته إلى جده «عبد المطلب»، وأقام عنده مدة سنتين، حيث عومل بكل حب وحنان.

لكن السنين كانت قد فعلت فعلها بعبد المطلب وشارف على نهايته الحتمية التي هي قدر كل إنسان، وحين شعر بدنو أجله، دعا بابنه الأكبر «أبو طالب» ووضع محمداً ﷺ برعايته. وهكذا أخذ «أبو طالب» الصالح ابن أخيه وراح يحميه ويرعاه، وصار أباً بالنسبة له، ثم إنه بعد وفاة أبيه نال منصب رعاية الكعبة، فظل الرسول في بيت يرعى الشؤون الدينية وشعائرها بشكل قوي.

وهذا يحتم علينا شرحاً أوضح للكعبة وشؤون رعايتها وأصول ذلك وشعائره، والتقاليد وحتى الخرافات التي كانت متصلة بكل هذا ـ في الجاهلية ـ وصلة هذا الأمر مع الإسلام، وكذلك قصة من أنشأ الكعبة.

الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظِئْرِه ـ فقالوا: إن محمداً قد قُتِل. فاستقبلوه وهو مُنْتَقِع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

وقد رواه ابن عساكر عن طريق ابن وهب، عن عمرو بن الحارث عن عبد ربه بن سعيد، عن ثابت البناني، عن أنس، أن الصلاة فرضت بالمدينة، وأن ملكين أتيا رسول الله ﷺ فذهبا به إلى زمزم فشقا بطنه فأخرجا حشوته في طست من ذهب فغسلاه بماء زمزم ثم لَبسا جوفَه حكمة وعلماً.

ومن طريق ابن وهب أيضاً، عن يعقوب بن عبد الرحمن الزهري، عن أبيه عن عبد الرحمن بن عامر بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ ثلاث ليال: قال خذوا خيرهم وسيدهم، فأخذوا رسول الله ﷺ فَعُمِد به إلى زمزم، فشق جوفه ثم أتى بتور من ذهب فغسل جوفه ثم مليء حكمة وإيماناً. وثبت من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس.

وفي الصحيحين من طريق شريك بن أبي نمر، عن أنس، وعن الزهري عن أنس، عن أبي ذر وقتادة عن أنس، وعن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ في حديث الإسراء كما سيأتي قصة شرح الصدر ليلتئذ وأنه غسل بماء زمزم.

ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين، مرة وهو صغير، ومرة ليلة الإسراء ليتاهب للوفود إلى الملأ الأعلى ولمناجاة الرب عز وجل والمثول بين يديه تبارك وتعالى.

الباب الثالث

الفصل الأول

التقاليد العربية

من المعروف عبر التقاليد المتناقلة عند العرب أن آدم وحواء حين طردا من الجنة، سقطا بمكانين مختلفين على الأرض، حيث وقع آدم على قمة جبل «سرنديب» أو «سيلان»، وحواء في «جدة» على البحر الأحمر، وظلا لمئتي سنة يتنقلان من مكان لآخر حتى عفا الله عنهما وسمح بتلاقيهما على جبل «عرفات» غير البعيد كثيراً عن «مكة». فرفع آدم يديه إلى السماء يطلب العفو والصفح عن خطيئته من الله، طالباً من الله بناء صرح له ليعبده كما كان يفعل في الفردوس، حيث كانت تطوف به الملائكة.

ولما استجيبت دعوته تشكلت غيمة في السماء على شكل نفس ذاك الصرح، وأنزلتها الملائكة على نفس خط تواجدها في السماء، ومنها نزل الصرح، الذي التفت آدم له ودار حوله سبع مرات، مثل ما تفعل الملائكة.

قال ابن كثير:

ذكرنا إسماعيل نفسه عليه السلام مع الأنبياء(*)، وكيف كان من أمره حين احتمله أبوه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مع أمه هاجر فاسكنها بوادي مكة بين جبال فاران، حيث لا أنيس به ولا حسيس، وكان إسماعيل رضيعاً، ثم ذهب وتركهما هنالك عن أمر الله له بذلك، ليس عند أمه سوى جراب فيه تمر ووكاء فيه ماء، فلما نفد ذلك أنبع الله لهاجر زمزم التي هي طعام طعم وشفاءُ سُقم، كما في حديث ابن عباس الطويل الذي رواه البخاري رحمه الله.

ثم نزلت جُرْهم، وهم طائفة من العرب العاربة من أمم العرب الأقدمين عند هاجر بمكة، على أن ليس لهم في الماء شيء إلا ما يشربون منه وينتفعون به، فاستأنست هاجر بهم.

وجعل الخليل عليه السلام يطالع أمرهم في كل حين. يقال إنه كان يركب البُرَاق من بلاد

(*) وذلك في الجزء الأول من البداية والنهاية للمؤلف.

كذلك تذكر التقاليد أن الغيمة رفعت عند موت آدم إلى الجنة مع الصرح. فبنى «شيت» ابن آدم مثيلاً له من الحجر والملاط وفي نفس موقعه - الحطيم - وظل قائماً إلى أن أزاله الطوفان - حطمه مع نوح - بعد أجيال متعاقبة من آباء الجنس البشري، وعندما كانت «هاجر» بعد ذلك على وشك الهلاك من العطش في الصحراء، أظهر لهما «جبريل» بئر «زمزم» القريب من مكان الصرح السابق، الذي ظل مقدساً منذ عهد «إسماعيل» إلى اليوم، وبعد زمن قصير ضاع لقوم من العماليق جمل وجده إثنان منهم بقرب البئر، فرويا أنفسهما منه، ثم أحضرا قومهما إلى المكان، وهكذا أسست مدينة «مكة» وصار «إسماعيل عليه السلام» وأمه بحمايتهم، لكنهم طردوا من المكان من قبل السكان القريبين منه وبقي «إسماعيل» مع الغزاة الجدد، ولما صار جدعاً (أي شاباً) تزوج ابنة حاكمهم والتي منها أنجب الأمة العربية أجداد العرب الحاليين، وبمرور الزمن أوحى الله تعالى له بإعادة بناء الصرح فبنى الكعبة بنفس مكان الصرح القديم - الحطيم - حيث كانت الغيمة السماوية، وقد ساعده في هذا العمل الصالح والده «إبراهيم عليه الصلاة والسلام»، تخدمه صخرة عجائبية أثناء البناء حيث يقف عليها لتعلو به وتنخفض عندما كان يبني هذا المكان المقدس، وهي لا زالت في «مقامه» قرب الكعبة وعليها آثار

بيت المقدس في ذهابه وإيابه.

ثم لما ترعرع الغلامُ وشبَّ وبلغ مع أبيه السعى كانت قصة الذبح، والذبيح هو إسماعيل على الصحيح.

ثم لما كبر تزوج من جرهم امرأةً ثم فارقها وتزوج غيرها، وتزوج بالسيدة بنت مُضَاض بن عمرو الجُرْهمي وجاءته بالبنين الاثنى عشر كما تقدم ذكرهم وهم: نابت وقَيْذَر [وأَدْبُل]. ومشا، ومِسْمع، وماشي، ودِمَّا، وأذر، ويطور، ونبش، وطيما، وقَيْذُما. هكذا ذكره محمد بن إسحاق وغيره عن كتب أهل الكتاب، وله ابنة واحدة اسمها نسمة، وهي التي زوجها من ابن أخيه العيصو بن إسحاق بن إبراهيم، فولد له منها الروم وفارس والأشبان أيضاً في أحد القولين.

ثم جميعُ عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في انسابهم إلى ولديه نابت وقَيْذر.

وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكة، والناظر في أمر البيت وزمزم، نابت بن إسماعيل وهو ابن أخت الجرهميين.

ثم تغلبت جُرْهم على البيت طمعاً في بني أختهم، فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بني إسماعيل مدة طويلة، فكان أول من صار إليه أمر البيت بعد نابت مضاضُ بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن عيير بن نَبْت بن جُرْهم.

وجرهم بن قحطان، ويقال: جرهم بن يقطن بن عيبر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن

قدميه كما يؤكد المؤمنون.

وبينما كان «إبراهيم وإسماعيل» في عملهم، أحضر لهم «جبريل» حجراً يقول البعض إنه من حجار الجنة النفيسة التي سقطت على الأرض مع آدم، وضاعت في الطوفان، ويدعي التقليد المحافظ أن هذا الحجر كان بالأساس الملاك الحارس لآدم في الفردوس، لكنه حول إلى حجر وألقي به مع آدم في السقطة «الهبطة» عقاباً لإهماله بعمله، وقد تلقى هذا الحجر «إبراهيم وإسماعيل» بالشكر ووضعاه في زاوية الكعبة ـ ليبدأ الطواف حولها منه ـ وقد ظل ـ أو ظلت بقاياه ـ إلى اليوم، يقبله المؤمنون بعد كل دورة حول الصرح، وقد كان هذا الحجر أبيض عندما وضع لأول مرة بشكل لامع آخاذ كما يقولون، لكنه بدأ تدريجياً بالسواد بسبب خطايا الناس التي تقبله، وهو سيستعيد شكله الملائكي الأصلي في يوم البعث، ليقف شاهداً أمام الله على كل إنسان قام بفرض الحج.

هذه هي التقاليد العربية بما يخص «زمزم» والكعبة ـ المبنية على نفس مكان الحطيم ـ والتي ينظر لها بشكل خارق من قبل الناس في الشرق، وخاصة بني «إسماعيل» عليه الصلاة والسلام.

نوح الجرهمي. وكان نازلاً بأعلى مكة بقُعَيْقِعَان.

وكان السَّمَيْدع سيد قَطُوراء نازلاً بقومه في أسفل مكة، وكلٌ منهما يَعْشُر مَنْ مَرَّ به مجتازاً إلى مكة.

ثم وقع بين جُرْهم وقَطُوراء فاقتتلوا، فقُتل السَّمَيْدع واستوثق الأمر لمُضَاض وهو الحاكم بمكة والبيت، لا ينازعه في ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم وانتشارهم بمكة وبغيرها وذلك لخؤولتهم له ولعظمة البيت الحرام.

ثم صار الملك بعده إلى ابنه الحارث، ثم إلى عمرو بن الحارث.

ثم بغت جُرهم بمكة وأكثرت فيها الفساد، والحدوا بالمسجد الحرام، حتى ذكر أن رجلاً منهم يقال له إساف بن بَغِيّ وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل اجتمعا في الكعبة فكان منه إليها الفاحشة، فمسخهما الله حجرين، فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما، فلما طال المطال بعد ذلك بمُدَد عُبِدا من دون الله في زمن خزاعة. كما سيأتي بيانه في موضعه. فكانا صنمين منصوبين يقال لهما إساف ونائلة.

فلما أكثرت جُرْهُم البغي بالبلد الحرام تمالات عليهم خزاعة الذين كانوا نزلوا حول الحرم، وكانوا من ذرية عمرو بن عامر الذي خرج من اليمن لاجل ما توقع من سيل العرم كما تقدم. وقيل إن خزاعة من بني إسماعيل. فالله أعلم.

والمقصود أنهم اجتمعوا لحربهم وآذنوهم بالحرب واقتتلوا.

واعتزل بنو إسماعيل كلا الفريقين.

الفصل الثاني

أديان العرب القديمة

إن «مكة» التي تحتوي هذه الموضوعات المقدّسة ضمن أسوارها، قد ظلت مدينة مقدسة لأحقاب طويلة قبل الرسول ﷺ، وهدف الحج إليها من كل العرب، وشعورهم الديني كان يحترم هذه المكان لدرجة أنهم بذهابهم إليه وإيابهم كل عام خلال أربعة أشهر ـ حسب المواصلات القديمة ـ للحج كانوا يعتبرون هذه الأشهر حرماً من كل حرب وعنف، فكانت هذه القبائل المحاربة تنحي أسلحتها، وتنزع رؤوس رماحها، وتسافر في الصحراء قاصدة مكة آمنة، وليس على أفرادها إلا لباس الإحرام، ليقوموا بشعائر دورانهم سبعاً حول البيت العتيق، كما كانت تفعل الملائكة حول «الحطيم» ـ أو الصرح ـ ويلمسون أو يقبلون الحجر الأسود الغامض هذا، ويشربون ويتحللون من إحرامهم قرب زمزم تخليداً لذكرى جدهم «إسماعيل» عليه الصلاة والسلام وبعد أن ينتهوا من باقي شعائرهم يعودون إلى مضاربهم ومنازلهم بأمان، ليعيدوا إلى أسلحتهم نصالها ويستأنفوا حروبهم.

كذلك كان العرب في «جاهليتهم» قبل الإسلام يراعون الصوم والصلاة ويضعون هذه الأمور بسلم أولوياتهم، فكان عندهم ثلاث مناسبات للصوم في كل شهر طوال السنة، في اليوم السابع والتاسع وفي اليوم الثلاثين الأخير من كل شهر، ويصلون ثلاثة مرات في اليوم في الفجر والظهر والمغرب متوجهين نحو الكعبة كقبلة لهم، وعندهم بالإضافة إلى هذا الكثير من التقاليد الدينية المرعية والتي يرجع بعضها إلى احتكاكهم الأول والقديم مع «اليهود»، حيث تسرب إلى عقائدهم الكثير من إصحاحات اليهود «بسالمز Psalms» مع كتاب يدعون أنه أنزل إلى «شيت» وهو مليء بالوصايا الأخلاقية.

ولأن الرسول ﷺ قد نشأ في بيت سدانة الكعبة، فقد ظلت هذه الشعائر مرتبطة بمسلمات فكره حول القداسة، ورغم أن المؤرخين المسلمين يريدون إقناعنا بأن قدره كرسول قد حدد من يوم ولادته وطفولته الباكرة، هم يهملون أثر البيئة والتربية عليه لما في سيرته ﷺ من إهمال للتعليم ـ القراءة والكتابة ـ والذي كان أمراً عادياً لكثير من

أولاد العرب، لكنه كان طفلاً قابلاً للفكر، سريع الملاحظة والخاطر، ويتمتع بخيال خصب وواسع، فالحج السنوي الذي كان يقدم إلى مكة من كل الجهات البعيدة والقريبة جعل منها مكاناً نموذجياً لتبادل المعارف المتباينة، التي يبدو أنه قد استوعبها جميعها بشغف وحواها بذاكرة أخاذة، وحين تقدم به العمر بدأ أفق ملاحظاته بالتوسع بشكل تدريجي بما فتح - الله - له من منافذ معرفية(*).

(*) إن المنافذ المعرفية التي فتحها الله تعالى لرسوله الكريم أشار إليها الإسلام بأن الله تعالى أدّبه فأحسن تأديبه، وهذا لا يتعارض مع قدره الذي حدد يوم ولادته ﷺ كما ظن إيرڤينغ، فكلا الرأيين يكمل الآخر.

الباب الرابع

الفصل الأول
أساطير الصحراء

عندما بلغ الرسول ﷺ الثانية عشرة من عمره بدت قدراته العقلية التي تفوق سنه بشكل واضح للجميع(*)، فقد كانت روح الاستقصاء لديه تزداد تيقظاً باتصاله مع الحجاج القادمين من كل أصقاع الجزيرة، وقد أخذ كذلك يتأثر بشخصية عمه «أبي طالب» الصالحة كسادن للكعبة وهو في الوقت ذاته من أكابر تجار قريش، وله كلمته في القوافل التجارية الخارجة من مكة والقادمة إليها والتي أسسها جده «هاشم» كخط تجارة بين اليمن وسورية. وكان وصول القوافل إلى أبواب مكة حدث مهم حين امتلاء شوارعها بالناس بالنسبة ليافع كمحمد ﷺ، يدفع بتصوراته إلى تلك الأماكن البعيدة التي جاءت منها. ولذلك لم يعد بمقدوره أن يلجم دوافع حب الاستطلاع لديه عندما ركب عمه مرة جَمَلَهُ لقيادة القافلة إلى الشام، فتعلق به قائلاً: «من سيرعاني يا عماه بغيابك؟».

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا طالب خرج في ركبٍ تاجراً إلى الشام.

فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير صَبَّ به رسول الله ﷺ، بما يزعمون.

فرق له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً. قال:

فخرج به، فلما نزل الركب بُصْرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بَحِيرى في صومعة له. وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب، فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى، كانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض عليهم حتى

(*) ارجع لتعليقنا في هامش الصفحة السابقة وقارن.

وهكذا لم يخذل «أبو طالب» الطيب طلبه، خاصة وأنه قد دخل السن الذي يجب أن يبدأ فيه بتعلم كيفية دخول الحياة العملية العربية آن ذاك، وبالخدمة الأساسية لتجارة وواجبات القوافل، فأخذه معه إلى الشام.

وطريق الشام مليء بالقصص والأساطير الخصبة والمتناقلة عبر التقاليد، التي تعتبر كناية عن تسالي العرب المسائية حين تتوقف القوافل للراحة، فالمساحات الصحراوية الشاسعة التي يقضي فيها البدو المتنقلون كل وقتهم، والتي تشعر بالوحدة تحرض الخيال والتصورات التي يربطونها عادة بأحداث الخير والشر، عن الأماكن المسكونة بالجن، مع ما حصل بها من أحداث وعجائب نادرة في الماضي. ولا شك أن ذاكرة الرسول ﷺ اليافع قد احتوت الكثير من هذا في تلك الاستراحات المسائية، ويمكننا أن نذكر تقليدين من التقاليد التي رافقت ذاكرته من ذاك الوقت بصورة خاصة، وصححت وذكرت بالقرآن الكريم سنين بعد ذلك، أحدها يتعلق بمنطقة الجبال الصخرية في «هجر»، فحين مرت القافلة في ذاك الوادي القاحل الصامت فظهرت في جباله الكهوف على جانبيه التي كانت سكن «ثمود» في الغابر، وهم إحدى قبائل العرب البائدة الذين ذكرت الكثير من التقاليد أنهم:

جنس من العمالقة الأباة المتكبرين الذين وجدوا قبل عهد «إبراهيم» عليه الصلاة والسلام ولإخراجهم من وثنيتهم العمياء أرسل الله لهم الرسول «صالح» عليه الصلاة والسلام ليرشدهم إلى التواضع والحق، فرفضوا ذلك ما لم يظهر لهم معجزة تؤكد

كان ذلك العام، فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك بما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ في الرُّكب حتى أقبل وغمامة تظلّله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجر على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها.

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع، ثم أرسل إليهم فقال: إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحركم.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم! ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟

قال له بحيرى: صدقتَ قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت

رسالته، فكانت ناقته الخالدة التي خرجت لهم من الصخر، فكانت حجة لهم وحساباً عليهم، اقتنع بعضهم بها، وتركوا أصنامهم وشركهم، لكن معظمهم ظل على طغيانه وكفره، لكن «صالح» عليه السلام ترك ناقته بينهم لتذكرهم دوماً، كدلالة وتحذير من غضب السماء عليهم فيما لو ارتكبوا أي فاحشة، وظلت هذه الناقة ترعى بين جمالهم مدة تخرج في الصباح لتعود في المساء، لكنها إذا شربت من بئر كانت تنضح كل مائه لتعطيهم بالمقابل حليباً يكفيهم جميعاً، ولأنها أخافت باقي قطيعهم من الجمال، أصبحت مكروهة من بني «ثمود» الذين عقروها ثم ذبحوها، فجاءتهم صرخة من السماء ورعد يصم الآذان، قضوا كلهم على أثره، وهكذا محي أثرهم من وجه الأرض، وظلت أرضهم ملعونة من السماء حتى الأبد.

لقد أثرت هذه القصة بشكل قوي بالرسول ﷺ لدرجة أنه حين مر بالموضع بعد سنين رفض أن يقيم مخيمه فيه، وأسرع من هذه الأرض الملعونة.

الشجرة.

فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التي يعرف ويجده عنده فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي.

قالوا: يا بحيرى ما تخلَّف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدثنا سناً فتخلف في رحالنا. قال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب عن طعام من بيننا.

ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى وقال له: يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه.

وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما.

فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزى شيئاً، والله ما أبغضت شيئاً قط بُغضهما. فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؟ قال له: سلني عما بدا لك.

فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره. فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته.

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التي عنده.

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني.

أما التقليد الثاني الذي تتداوله القصص الشعبية فيتعلق بمدينة «إيليا» الواقعة على البحر الأحمر التي كان يسكنها في غابر الزمن قبيلة من «اليهود» ارتدوا عن دينهم وأحلوا يوم السبت لصيد السمك، فتحول ـ مسخ ـ كبار السن منهم إلى خنازير، وشبابهم إلى قردة خاسئين.

قال بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً.

قال: فإنه ابن أخي. قال فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به.

قال: صدقتَ، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرّاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فاسرع به إلى بلاده.

فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

قال ابن إسحاق: فزعموا فيما روى الناس أن زُرَيْراً، وتَمّاماً ودَرِيساً ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثلما رأى بحيرى في ذلك السَّفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه فردَّهم عنه بَحِيرى.

الفصل الثاني:
التأثير الديني

والقرآن الكريم جاء على ذكر هذين التقليدين المعروفين عند العرب كدلالة ـ إشارة ـ إلى حكم الله تعالى على جريمة الوثنية، وقد تهيأ عقل اليافع محمد ﷺ لهذا الموضوع صغيراً.

أما المؤرخون المسلمون فيخبروننا كعادتهم أن عجائب حصلت مع الصبي في رحلته هذه، لإعطاء تأكيدات على حماية السماء له، فبينما كان يعبر الصحراء القاحلة الحارقة كان ملاك يحجب عنه أشعة الشمس بأجنحته، كمعجزة لم يؤكدها أي من شهود الرحلة(*). وفي مرة أخرى عندما جلس بظل شجرة عرعر عارية الورق، اكتست أوراقاً وبراعم.

وهكذا بعد أن قطعت القافلة أرض «مؤاب» و«عمون» المذكورتين بالعهد القديم، وصلت إلى «بصرى» على حدود سورية وهي بلاد قبائل «مناصح» الغسانية في الأردن، وقد كانت حسب العهد القديم بلاد «اللاويين» لكنها بزمن الرسول ﷺ كانت مسيحية «نسطورية»، وهي منتجع عظيم للقوافل تمر بها سنوياً، وهنا ستتوقف القافلة قليلاً قرب دير لراهب «نسطوري».

قال هيكل:

في هذه الرحلة وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء، وتعلقتا بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة. وجعل يَمُرّ بِمَدْيَن ووادي القُرَى وديار ثمود وتستمع أذناه المُرْهَفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضي نَبَئِها. وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الغنَّاء اليانعة التي أنسته حدائق الطائف وما يُروى عنها، والتي تبدّت له جنات إلى جانب جَدْب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة.

(*) وقد رآها أبو طالب لكنه مات مشركاً لأنه خشي أن يعيره قومه حتى بعد موته ويقال عنه ترك دين آبائه وقد كان أبو طالب يعلم بنبوءته ﷺ.

حيث رحب الراهب بأبي طالب وابن أخيه، والبعض يسمون هذا الراهب «بسرجون» وآخرون «ببحيرى» - وآخرون يؤكدون أنهما راهبان حاورا الرسول ﷺ - ودهش أو دهشا من ذكائه ورغبته المعرفية، التي تتضمن إرجاعات هامة خاصة في المسائل الدينية(*).

وكان لهم العديد من الحوارات معه حول هذه الموضوعات المشتركة التي كان الرهبان بطبيعة الحال مع الرسول ﷺ ضد الوثنية الغالبة على تقاليد وثقافة - العرب -، خاصة وأن النساطرة كانوا لا يدينون الصور فقط بل كل الشعائر المتعلقة بعبادتها وعرضها على الناس، وحتى الصليب الذي كان المسيحيون يحملونه كان مداناً عندهم وممنوعاً.

وهذه نقطة توافق عند البعض مع المبادئ والتقاليد المسيحية الأساسية مع الرسول ﷺ ودوره المستقبلي، ويمكن أنه صار للرسول مع هؤلاء الرهبان علاقات حوار أخرى خلال زياراته القادمة لسورية.

إلا أن بعض المؤرخين المسلمين يؤكدون أن اهتمام الرهبان كان بختم النبوة بين كتفي الرسول ﷺ فقط، والذي اكتشفوه صدفة، لذلك حذروا «أبا طالب» بأن لا يقع ابن أخيه بأيدي «اليهود» متنبئين بالمعارضة والمشكلات التي ستواجه الرسول ﷺ من «اليهود».

والواقع أن هؤلاء الرهبان لم يكونوا بحاجة إلى أي عجيبة لكي يهتموا بعبقرية هذا الطفل التي هي بحد ذاتها معجزة، ظهرت من ابن أخ «سادن الكعبة» الذي يحمل معه

وفي الشام كذلك عرف محمد أخبار الروم ونصرانيتهم، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس من عبّاد النار لهم وانتظارهم الوقيعة بهم. ولئن كان بعد في الثانية عشرة من سنه لقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وما إلى ذلك من صفات حباه القدر بها تمهيداً للرسالة العظيمة التي أعدّه لها ما جعله ينظر إلى ما حوله نظرة الفاحص المحقق، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى، فيرجع إلى نفسه يسائلها: أين الحقّ من ذلك كله؟

والراجح أن أبا طالب لم يُفدْ مالاً كثيراً من رحلته تلك، فلم يعد من بعدُ إلى رحلة مثلها، بل قنع بحظه، وأقام بمكة يكفل في حدود ماله القليل أولاده الكثيرين. وأقام محمد مع عمه

(*) ونحن نتحدث عن صبي عمره اثنتا عشرة سنة فقط.

من مكة بذور التوحيد في عقله الغض اللامع، وخوفهم بطبيعة الحال من أن يؤثر عليه اليهود بهذا المعنى مبرراً.

وهكذا عاد الرسول ﷺ إلى «مكة» بخبرة مشاهدة واقع تصورات التقاليد ـ الدينية والشعبية ـ التي ستؤثر في عقله بشكل عميق، مشفوعة بالآراء التوحيدية النسطورية، ولذلك ظل للشام في قلبه مكان هام، بما بها من تأثيرات دينية. إنها بلاد «إبراهيم» عليه الصلاة والسلام الأب المصلح لعقيدة التوحيد بعبادة إله واحد، لذلك يروى عنه القول بعد ذلك بالأقطاب الأربعين المصلحين في الشام، إذا مات أحدهم قام بديله في مكانه، وهم بركة الشام المباركة تحت أجنحة ملائكة الله ـ «اللهم بارك لنا بشامنا»(*) ـ.

قانعاً بنصيبه، يقوم من الأمر بما يقوم به مَنْ هُمْ في مثل سنّه. فإذا جاءت الأشهر الحُرم ظلّ بمكة مع أهله، أو خرج وإيّاهم إلى الأسواق المجاورة لها بعكاظ ومجنة وذي المجاز يستمع لإنشاد أصحاب المذهبات والمعلّقات، وتلتهم أذناه بلاغتهم في غزلهم وفخرهم وذكرهم أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم، ثم يَعْرِض ذلك على بصيرته تلفظ منه ما لا تسيغ وتُعْجب بما تراه جديراً بالإعجاب. ويستمع إلى خطب الخطباء ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا ينقمون من إخوانهم العرب وثنيّتهم، ويحدّثونهم عن كتب عيسى وموسى، ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحق؛ ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله، ولكنه لا يطمئن كل الطمأنينة إليه. وكذلك جعل القدر يوجه نفسه منذ نعومة أظفاره الوجهة التي تهيئه لذلك اليوم العظيم، يوم الوحي الأوّل حين دعاه ربه لتبليغ رسالته: رسالة الهدى والحق للناس كافة.

(*) الحديث: «الإبدال في أهل الشام وبهم ينصرون وبهم يرزقون (الطبراني عن أنس بإسناد حسن) من كتاب التسيير بشرح الجامع الصغير ص 420 ـ 421. وسياق الكلام يدل على أن عاطفة النبي ﷺ دفعته لأن يذكر الشام بالخير وهذا غير صواب لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

الباب الخامس

الفصل الأول

الأرملة خديجة «رضي الله عنها»

انطلق الرسول ﷺ في الحياة العملية مصاحباً عمومته في رحلات الشتاء والصيف، ويذكر لنا أنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره ﷺ صحب عمه«الزبير» رضي الله عنه في رحلة إلى «اليمن»، كذلك يذكر لنا التاريخ أنه صاحب نفس هذا العم كحامل لسلاحه عندما انطلق بقريش في غزوة لمساعدة قبيلة «كنانة» ضد «هوازن»، فكانت هذه أول مرة يحمل فيها السلاح ـ يافعاً ـ رغم أنه لم يكن إلا مُزَوِداً لعمه بالنبال حين يحمى الوطيس ويذود عنه بالدرع من نبال العدو، وتسمى هذه الواقعة عند المؤرخين العرب

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال على مالها مضاربةً.

فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صِدْق حديثه وعِظَم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها في مال تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار. مع غلام لها يقال له مَيْسرة.

فقبله رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذاك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطّلع الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحَرَم.

فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي(*).

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته ـ يعني تجارته ـ التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة.

(*) يريد: ما نزل الآن، وإلا فلم يخل أن ينزل تحتها كثير من الناس غير أنبياء.

بحرب «الفجار» لأنها حصلت في الأشهر الحرم ـ أشهر الحج ـ.

ومع تقدمه بالعمر ﷺ صار يعمل بالتجارة لحساب الآخرين بقيادة قوافلهم لسورية واليمن وأماكن أخرى، وكل هذا وسع من أفق ملاحظاته، وهو المتمتع بقدرة الرؤية النافذة إلى معارف الناس وشخصياتهم.

كذلك كان الرسول ﷺ يحضر أسواق العرب، التي لم تكن للتجارة فقط بل أحياناً مناسبة تنافسٍ بين شعراء القبائل، ينال الفائز فيها جوائز إمارة الشعر بمعلقته ـ على الكعبة الشريفة ـ، وأخص بالذكر من هذه الأسواق سوق «عكاظ»، حيث علقت سبع قصائد فائزة فيه على جدار الكعبة الشريفة.

وفي هذه الأسواق كانت تقرأ التقاليد العربية شفاهاً، والتي تتضمن إيمان القبائل الديني، ومن هذا التقليد الشفهي يتم المتعلم معلوماته التي ستلعب دوراً في حياته فيما بعد.

وفي مكة آن ذاك كانت تقيم أرملة اسمها «خديجة» وتنتمي إلى قبيلة قريش، قد سبق لها الزواج مرتين، وقد مات زوجها الأخير التاجر الثري مؤخراً، وبيتها الواسع بحاجة إلى رب أسرة، وابن أخ هذه الأرملة «خزيمة» يعرف محمداً ﷺ من خلال رحلات القوافل، وقد لمس قدرات الرسول ﷺ الفائقة في كثير من المناسبات، فذكره لعمته كخير ما يصلح لها زوجاً، وكذلك كان جماله وشخصيته الرائعة خير تأكيد على تزكيته، وهو في أول شبابه بسن الخامسة والعشرين، وقد وصفه الكتاب العرب بكامل جمال الرجولة والأخلاق الحميدة المصاحبة لهذه الطلعة البهية. ولتقدير خديجة لخدماته في القوافل التجارية عرضت عليه مصاحبة قوافلها المتجهة إلى سورية بضعف الأجر،

فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلاّنه من الشمس وهو يسير على بعيره.

فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأَضعف أو قريباً، وحدَّثها ميسرةُ عن قول الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملائكة إياه.

وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبةً، مع ما أراد الله بها من كرامتها.

فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون، يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك ووُسْطتك(*) في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثم

(*) وسطتك: توسطك في قومك وكونك من أعرقهم. وتروى: وصيتك.

وقَبِلَ بعد أن شاور عمه «أبا طالب» بهذا الشأن. ورافقه وساعده في رحلاته «ابن أخ» الأرملة، وعبد من عبيدها اسمه «ميسرة»، ولأن «خديجة» كانت مسرورة من عمله وطريقته في أدائه حين عاد دفعت له ضعف الضعف الذي قررته له، وأرسلته إلى الجهات الجنوبية من جزيرة العرب بقافلة أخرى، وكانت نتيجة كل هذا مُرضِيَة للغاية.

عرضت نفسها عليه.

وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه.

الفصل الثاني

الزواج

لقد كانت «خديجة» في الأربعين من عمرها، مكتملة الخبرة والعريكة، لذلك نظرت إلى مؤهلات محمد ﷺ بتقدير كبير، فبدأ قلبها يميل إلى هذا الشباب المكتمل، لكن التقاليد ـ السير ـ العربية أبت إلا أن تضيف معجزة لتأكيد أصول وقواعد لقياهم الطبيعية، فقالت أنها عندما كانت وخادمتها على سطح منزلها ترقب قدوم القافلة مرة وقت الظهيرة، شاهدت ملكين يحفان «بمحمد ﷺ» ويجللانه بجناحيهما ليحمياه من الشمس المحرقة، فالتفتت إلى خادمتها قائلة: أنظري إلى حبيب الله كيف تحميه الملائكة(*)!!

ولا تذكر لنا الأسطورة أي تأكيد أو تصريح للخادمة على هذا الأمر. أما نحن فيكفينا القول إن الأرملة كانت تؤمن بمحاسن الرسول ﷺ الخارقة، فكلفت خادمها «ميسرة» ليعرض عليه الزواج منها، بحوار أوصله لنا التاريخ بشكل مقتضب، به أظهر الرسول ﷺ أن امتناعه عن الزواج هو بسبب قصر ذات يده، ثم حددت ساعة اللقاء وجرى الاتفاق بطريقة مرضية، بتحديد ودقة ميزت كل سلوك «محمد ﷺ» في تعامله، وخاصة مع «خديجة» رضي الله عنها، وقد عارض أهل خديجة زواجها في بدء الأمر

قال ابن كثير:

فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خُوَيلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها عليه الصلاة والسلام.

قال ابن هشام: فأَصْدَقَها عشرين بَكْرَة، وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها

(*) لا أظن أن إيرڤينغ يقصد بعبارة التقاليد: كتاب السير التاريخية الموثقة من العرب، بل لعله يقصد خرافات الغلاة التي أضيفت لها على ظن الإحسان للرسول ﷺ من جهلة بالتاريخ، ولعل الثابت من السيرة الحلبية، جـ 1، دار المعرفة، بيروت، عام؟، ص 228 أن السيدة خديجة قد رأت الغمامة التي كانت تظله ﷺ والتي هي كناية عن انعكاس طاقة النبوة الخارقة منه ﷺ والله أعلم.

نظراً لفقر محمد ﷺ، لكن الأرملة أوضحت لهم أن ثروتها مجرد وسيلة لسعادة قلبها، فأقاما الأفراح التي دعي إليها الأقارب، ووجوه قريش، حيث أكلوا وشربوا!! وتسامروا، ونسي الجميع الاعتراضات على فقر محمد ﷺ، ثم ألقى أبو طالب كلمة آل العريس، و«ورقة بن نوفل» كلمة آل العروس مادحاً فيها ابنة أخته وبدفع المهر تم الزواج رسمياً ـ كما كانت تفعل العرب ـ.

ثم ضحى الرسول ﷺ بجمل على باب بيته ووزع لحمه على الفقراء، ثم فتح المنزل لكل الضيوف، ورقصت جواري خديجة على أنغام الدفوف وعم الفرح الجميع، إلى حد أن «أبا طالب» نسي تقدم سنه وخرج عن كآبته ووقاره وأظهر فرحه بالمناسبة السعيدة. كذلك شاركت «حليمة السعدية» مرضعة الرسول ﷺ بالعرس وعادت منه بأربعين شاة إلى قريتها الجبلية في صحراء بني «سعد» ثرية وسعيدة(*).

غيرها حتى ماتت.

قال ابن إسحاق: فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم: القاسم وكان به يكنى، والطيِّب والطاهر، وزينب، ورُقَيَّة، وأم كلثوم، وفاطمة.

(*) هذا المقطع الأخير غير موجود بالسير، ولعل إيرڤينغ قد حصل عليه من الأساطير الغربية عن الرسول ﷺ، فأحداثه موضوعة حتماً.
ولعل مثل هذه الأمور هي التي دفعتنا إلى ضرورة المقارنة بين سيرة إيرڤينغ ومحققات السير عندنا، لذلك ثبتنا أمثال ابن كثير من الماضي وهيكل من الحاضر القريب.

الباب السادس

الفصل الأول

مسلكه ﷺ بعد الزواج

بزواجه من خديجة صار محمد ﷺ من أغنياء المدينة، وزاد نفوذه الاجتماعي بسبب أخلاقه الحميدة بين الناس، فقد زوده الله تعالى ـ كما يذكر المؤرخ «أبو الفدا» ـ بكل مواهب الرجل المستقيم، فكان نظيف الطوية مخلصاً، خالياً من كل فكرة شريرة، لذلك عرف بين الناس بالأمين.

وقدرته على عدم التحيز في أحكامه جعلته موضع استشارة من أبناء مدينته إذا وقع بينهم أي خلاف، وقد أعطانا التاريخ مثالاً عن ذلك، فبعد أن شب حريق بجانب الكعبة حيث يجب إعادة الحجر الأسود إلى موضعه(*)، حصل خلاف بين زعماء القبائل عمن سيكون له شرف إعادة وضعه، ثم وصلوا إلى الاتفاق على الرضوخ لرأي أول رجل يدخل باب الحرم، فكان محمد ﷺ. وهو حين سمع أسباب خلافهم، أمر بعباءة ففرشت على الأرض، ووضع الحجر فيها، ثم رفع أطرافها كل الخصوم، فَرُفِعَ الحجر من قبل الجميع وبنفس الوقت ـ من قبلهم جميعاً ـ إلى مستوى موضعه، حيث ثبته الرسول ﷺ بيديه.

أما ثمرة زواجه من «خديجة» فكانت صبياً وأربعة بنات، وكانا اسم الصبي

قال ابن كثير:

وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ الأمين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا ثابت ـ يعني أبا يزيد ـ حدثنا هلال عن ابن حبان، عن مجاهد عن مولاه ـ وهو السائب بن عبد الله ـ أنه حدّثه أنه كان فيمن بنى الكعبة في

(*) إنما حمل قريش على بنائها أن السيول كانت تأتي من فوقها، انظر ابن كثير، المرجع السابق، ص 275، فلا صحة لمسألة الحريق عند إيرفينغ.

«القاسم»، ولذلك كان الرسول ﷺ يسمى بأبي القاسم حسب طريقة العرب بنعت الآباء، مع أن هذا الصبي مات رضيعاً.

وقد استمر محمد ﷺ بالتجارة عدة سنوات بعد زواجه، وهو على اتصال بأسواق العرب التجارية، ومستمراً في رحلات القوافل التي يقودها، لكن قوافله لم تكن تدر عليه ربحاً كبيراً، كما في الأيام السابقة، ولذلك تراجعت واضمحلت ثروة زوجته، بدل من أن تزداد بعد إشرافه عليها. لكن دخلهم كان كافياً لحاجاتهم، مما مكنه من التفرغ لأصول فكره التي يقدرها بالعودة إلى التأمل الديني، والتي ظهرت دلائلها عليه منذ فجر حياته ﷺ، وقد أخصبها عبر تلاقيه في رحلاته مع المسيحيين واليهود النازحين من عَسَف الاضطهاد الديني ـ خارج الجزيرة ـ بقبائل شكلوها، أو عبر توزعهم كجزء من ـ بدو ـ سكان المدن. كذلك أذاعت الصحراء كما بينا، بين هؤلاء الخرافات التي آثارت اهتمامه ﷺ لكنه تعرض لتأثير الحكمة الإلهية في منزله منذ زواجه «بخديجة» من قبل خالها «ورقة» الرجل ذي التطلعات الفكرية والإيمان المرن الذي تنقل في الأديان حتى اعتنق المسيحية، وزاد عليها علمه بالفلك. ومن الجدير بالملاحظة أنه كان أول من ترجم قسماً من العهدين القديم والحديث إلى اللغة العربية.

الجاهلية قال: وكان لي حجر أنا نحتُّه أعبده من دون الله، قال: وكنت أجيء باللبن الخاثر الذي آنفه على نفسي فاصبه عليه فيجيء الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول عليه؛ قال: فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ولا يرى الحجر أحد. فإذا هو وسط أحجارنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل. فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: نحن نضعه. فقالوا: اجعلوا بينكم حكَماً. فقالوا: أول رجل يطلع من الفجّ. فجاء رسول الله ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين. فقالوا له، فوضعه في ثوب. ثم دعا بطونهم فرفعوا نواحيه فوضعه هو ﷺ.

الفصل الثاني

الأفكار الدينية الثابتة

هذه المعلومات التي وضعت تحت تصرفه ﷺ خزنتها ذاكرته الذهبية بصورة خارقة غير معهودة بالناس، قد توجهت بؤرتها ضد الوثنية المزدهرة عند العرب، والممارسة في الكعبة الشريفة، حيث مليء هذا الصرح المقدس وأحيط بالأصنام إلى أن وصل عددها إلى ثلاثمئة وستين صنماً، بمعدل صنم لكل يوم من أيام السنة، أحضرت من أماكن متفرقة، وحتى من شعائر عبادات أقوام أُخَر، وكان على رأسها «هبل» الذي أحضر من سورية والذي يفترض أن له قوة إعطاء المطر، حتى أن تماثيل «إبراهيم وإسماعيل» عليهما الصلاة والسلام صارت أصناماً تعبد وبأيديها قوس إلهي مسحور، بعد أن كانا نبيين من أنبياء الله الصالحين.

وقد أدرك محمد ﷺ سخف هذه الأصنام فصار يزيد تحسسه منها بصورة تدريجية، كلما كان فكره الفائق يرقى بتجريد معانيها الدينية، وهذه المجردات كانت موضوع استقصائه. ونستطيع أن نلمس هذا التدرج في القرآن الذي أوحى له بكل سلوكه فيما بعد على أنه ﷺ سيعيد الناس إلى الإسلام الحق كمصلح ديني، وهذا هو أساس فكره ﷺ الاعتقادي الثابت، من منطلق أكده كل ما رآه وعرفه وعاينه ﷺ من أن الدين الحقيقي هو الإسلام الذي أوحى الله تعالى به إلى «آدم» منذ بدء الخليقة فهو دين الفطرة، القائم على عبادة رب واحد حق، خالق لكل الكون.

وهذا الدين الفطري البسيط قد أفسده الإنسان عبر القرون بالوثنية التي لا تطاق،

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثماني عشرة ذراعاً وكانت تُكْسى القَبَاطِيّ(*). ثم كسيت بعد البرود(**). وأول من كساها الديباجَ الحجاج بن يوسف.

(*) القباطيّ: نوع من الثياب كان ينسج بمصر.

(**) المطبوعة: البرور وهو خطأ.

والتي جاء الأنبياء بالتعاقب ضدها، ملهمين من الله العلي الذي أرسلهم من وقت لآخر، في فترات متباعدة لإعادة الإسلام إلى أصوله النقية، كنوح وإبراهيم وموسى، وعيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام ومع كل منهم عاد الدين الحق ليرسخ في الأرض، لكنه أفسد من أتباعهم. فالإيمان الذي بشر به إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما خرج من أرض «قلديا» شكل معياراً يجب الرجوع إليه عند الرسول ﷺ من منطلق أن «إبراهيم» والد «إسماعيل» عليهما الصلاة والسلام وهما أحد آباء الجنس البشري والعربي.

وقد آن الأوان لإعادة ملتهم الحنيفية على يديه ﷺ وتجديدها، بعد أن عاد العالم إلى وثنيته العمياء، لذلك لا بد من رسول مؤيد بالعلي لإعادة أبناء الإنسان الخطاة إلى الطريق السوي، ولإعادة العبادة الحقيقية في الكعبة إلى ما كانت عليه في أيام «إبراهيم» عليه الصلاة والسلام الأب ـ أب الشعوب والعرب ـ وهكذا استحوذ هذا الفكر الإصلاحي على الرسول وفكره ﷺ، وأنتج عادات الخلوة والتأمل لديه، وعدم الاهتمام بشؤون الحياة العادية وضوضاء العالم.

قلت: وقد كانوا أخرجوا منها الحِجر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ قَصُرت بهم النفقة، أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم. وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق. وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد فيدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا.

الفصل الثالث

الرؤية في الغار

هذه الحقائق التي تهيأ لها ذهن الرسول ﷺ أبعدته تدريجياً عن المجتمع نحو العزلة والتوحد في غار «حراء» بالجبل - جبل النور - الواقع مسافة ثلاثة فراسخ عن مكة المكرمة، حيث قد يبقى هناك لأيام بلياليها يتحنث ويتأمل ويتعبد، وعلى هذا النحو كان يقضي شهر رمضان بالخصوص، وهو من الأشهر الحرم، وقد استحوذ على فكره موضوع التوحيد بشكل مكثف، مع روحه الوثابة، مما سبب تأثيراً قوياً على نفسه لا يمكنه إلا أن يكون بشكل قاطع، أعقبها أحلام كانت تأتيه ﷺ كفلق الصبح كما ذكر بعض المؤرخين والمحدثين تنبئه بكل موضوعات اليقظة، أعقبها حالات من فقد الوعي

قال ابن كثير:

باب كيفية بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وذكر أول شيء أنزل عليه من القرآن العظيم:

كان ذلك وله ﷺ من العمر أربعون سنة.

وحكى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب: أنه كان عمره إذ ذاك ثلاثاً وأربعين سنة.

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بُكير، حدثنا الليث، عن عُقيل، عن ابن شهاب، عن عُروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها.

حتى جاءه الحق وهو في غار حِرَاء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

الذي أقلق «خديجة» رضي الله عنها التي كانت تلحقه في وحدته لتقوم بشأنه، وحين كانت تبحث معه عن أسباب ذلك فكانت لا تجد إلا مزيداً من الغموض، وأعداء الرسول ﷺ عزوا هذه الحالة إلى مرض الصرع ـ بتشخيص ناقص حتماً ـ بينما هي حالة ناتجة عن الاتصال أو بداية الاتصال بالمطلق حيث بدأ ذهنه بالتعامل مع مفاهيم أكبر بكثير من قدرة الفكر العادي على تحملها، كما يؤكد المؤرخون المسلمون كدلائل على النبوة. وأخيراً بدا مما كان يظهر بظل أحلامه عياناً واضحاً بظهور ملاك أعلن له أمراً إلهياً.

فعندما كان الرسول ﷺ في الأربعين من عمره ظهر له الوحي لأول مرة، كما أخبرنا ﷺ بلسانه وكما جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم وبالأثر، إذ كان يقضي شهر رمضان كعادته في الغار مشغولاً بصومه وتحنثه(*) وعزلته التي يرفع فيها فكره للتأمل

فقال: اقرأ. فقلت: ما انا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زَمِّلوني زملوني. فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة ـ واخبرها الخبر ـ: لقد خشيتُ على نفسي.

فقالت خديجة: كلا؛ والله لا يخيزك الله ابداً. إنك لتَصِلُ الرَّحم وتَقْرِى الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتَكسب المعدومَ، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة. وكان امرءً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله ان يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: يا بن عم! اسمع من ابن اخيك. فقال له ورقة: يا بن اخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جَذَعا، ليتني أكون حيًّا، إذ يُخْرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «اوَ مُخْرِجِي هم؟!» فقال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزَّراً.

وقال ابن كثير عن محاولات الرسول ﷺ الانتحار؟!

(*) تحنث: حنث الرجل مال من باطل إلى حق، والتحنث تعبد الليالي ذوات العدد واعتزل الأصنام مثل تحنف.

بالحقيقة الإلهية، وفي الليلة التي يسميها العرب «بليلة القدر»، الليلة المقدسة التي تنزل فيها الملائكة على الأرض كما أكد القرآن الكريم، نزل عليه «جبريل» بالوحي الإلهي. وإذ يعم السلام خلال هذه الليلة على الأرض حتى مطلع الفجر، وبينما كان الرسول ﷺ يرقب الليل الصامت، ملتفاً بعباءته، سمع صوتاً يناديه قطع سكون الليل، فرفع الغطاء عن رأسه، ليرى نوراً غامراً جعله يغيب عن وعيه، ولما عاد إليه الوعي، رأى الملاك بصورة إنسان تقترب من الشفق يحمل لوحاً على ما يشبه قطعة من الحرير ويقول له اقرأ؟!

فأجاب محمد ﷺ: ما أنا بقارئ؟!

قال الملاك: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ

ثم لم يَنشَب ورقة أن توفي وفَتَر الوحي فترة. حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال. فكلما أوْفَى بذروة جبل لكي يلقى نفسه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقاً. فيسكن لذلك جاشه، وتقرُّ نفسه، فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غَدَا كمثل ذلك. قال: فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له: مثل ذلك.

هكذا وقع مطولاً في باب التعبير من البخاري.

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن جابر بن عبد الله الانصاري قال - وهو يحدث عن فترة الوحي - فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض: فرعبت منه، فرجعت فقلت: زمِّلوني، زملوني. فانزل الله: ﴿يا أيها المُدَّثِّر، قُمْ فانْذِر، وربَّك فكَبِّر، وثيابَكَ فَطَهِّر، والرُّجْزَ فاهجر﴾ فحمي الوحي وتتابع.

ثم قال البخاري: تابعه عبد اللّه بن يوسف، وأبو صالح، يعني عن الليث، وتابعه هلال بن رَدَّاد عن الزهري. وقال يونس ومَعْمَر: بوادره.

وهذا الحديث قد رواه الإمام البخاري رحمه الله في كتابه في مواضع منه، وتكلمنا عليه مطولاً في أول شرح البخاري في كتاب بدء الوحي إسناداً ومتناً ولله الحمد والمنة.

واخرجه مسلم في صحيحه من حديث الليث به، ومن طريق يونس ومعمر عن الزهري كما علَّقه البخاري عنهما، وقد رمزنا في الحواشي على زيادات مسلم ورواياته، ولله الحمد، وانتهى سياقه إلى قول ورقة: انصرك نصراً مؤزراً.

فقول أم المؤمنين عائشة: «أول ما بُدِئ به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» يقوِّي ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار عن عُبيد بن عُمير الليثي

﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [سورة العلق: 1 ـ 8].

مع هذه الآية ارتفع عقل «محمد ﷺ» إلى مستوى الإشراق السماوي الراقي، فقرأ ما هو مكتوب على اللوح الحريري من أحكام إلهية من اللوح المحفوظ عند الله تعالى، والتي فصلت بعد ذلك في القرآن الكريم، وعندما أنهى ذلك أعلن الملاك السماوي له أنه المختار «رسولاً لله»، وأنه هو أي الملاك هو «جبريل».

ويخبرنا التاريخ أن محمداً ﷺ عاد إلى «خديجة» في الفجر يرتعش، غير عارف ما إذا كان الذي رآه صحيحاً، وعما إذا كان هو رسول الله الذي يحمل الرسالة التي هُيِء لها عقله الإصلاحي كموضوع لكل تأملاته، أو أن الأمر مجرد وهم من أوهام الحواس أنتج هذه الرؤية، وأسوأ من هذا عما إذا كان الأمر كله من تلاعبات الشيطان، مما جعل الرسول ﷺ يضطرب اضطراباً شديداً كاد يودي به إلى الانتحار(*)؟!

أن النبي ﷺ قال: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب. فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ؟ فغتّني، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني» وذكر نحو حديث عائشة سواء.

فكان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرّحاً بهذا في مغازي موسى بن عُقبة عن الزهري، أنه رأى ذلك في المنام، ثم جاءه الملك في اليقظة.

قال هيكل:

الرؤيا الصادقة

وكان إذا استدار العام وجاء شهر رمضان ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره ينضجه شيئاً فشيئاً وتزداد نفسه به امتلاء. وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه، صار يرى في نومه الرؤيا الصادقة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التي ينشد، ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها. إذا ذاك آمن ان قومه قد ضلوا سبيل الهدى، وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما إليها من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالاً وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما يُنقذ قومه من ضلالهم. ففيما يذكر هؤلاء وأولئك حقّ؛ لكن فيه كذلك ألواناً من الوهم، وصوراً من الوثنية، لا يمكن أن تتفق مع الحق المجرَّد البسيط الذي لا يعرف كل هذه المضاربات الجدلية العقيمة مما يمعن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب. وهذا الحق هو الله خالق الكون لا إله إلا هو. وهذا الحق هو أن الله رب العالمين. هو الرحمن الرحيم. وهذا الحق هو أن الناس مجزيون بأعمالهم ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞

(*) انظر «التردي من شاهق» عند ابن كثير في الصفحات التالية المقارنة لهذا الفصل، فصل الرؤية في الغار.

وبيقين حدس المرأة الإيماني رأت «خديجة» الأمر كثمرة لإعداد إلهي سابق انصب على إرادة زوجها، قد توج كل نوبات فقدان وعيه، فاستطلعت منه بفرح هذا الخبر قائلة: والذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، إبشر فإنا لله لن يخذلك أبداً، والله أنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر، ثم انطلقت به إلى «ورقة بن نوفل بن أسد»

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: 7 ـ 8]، وأن الجنة حقّ والنار حق، وأن الذين يعبدون من دون الله إلهاً آخر لهم جهنم، وساءت مستقراً ومُقاماً.

وشارف محمد الأربعين، وذهب إلى حراء يتحنث وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى في رُؤاه الصادقة، وقد خلصت نفسه من الباطل كله، وقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة، وقد اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدي قومه بعد أن ضربوا في تَيْهاء الضلال. وهو في توجُّهه هذا يقوم ويُرْهف ذهنه وقلبه، ويطيل الصوم، وتثور به تأملاته، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء، ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له في رؤاه. ولقد طالت به الحال ستة أشهر، حتى خشي على نفسه عاقبة امره، فاسرَّ بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يرى، وأنه يخاف عبث الجن به. فطمأنته الزوج المخلصة الوفيّة، وجعلت تحدثه بأنه الأمين، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه، وأن لم يدر بخاطرها ولا بخاطره أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم، وإلى النبأ العظيم، يوم الوحي الأول، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة.

أول الوحي (سنة 610م)

وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفي يده صحيفة، فقال له: اقرأ. فأجاب مأخوذاً: ما اقرأ! فأحس كان الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له: اقرأ. قال محمد: ما اقرأ! فأحس كان الملك يخنقه كرّة أخرى، ثم يُرسله ويقول: اقرأ. قال محمد ـ وقد خاف أن يُخنق مرّة أخرى ـ ماذا اقرأ؟! قال الملك: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورة العلق: 1 ـ 5] فقرأها وانصرف الملك عنه وقد نُقشتْ في قلبه(*).

(*) كذلك روت كتب السيرة الأولى، وعليه ابن إسحاق. وكذلك روى كثير من المحدثين. على أن بعضهم يرى أن بدء الوحي كان في اليقظة وكان نهاراً، ويذكر حديثاً على لسان جبريل طمأن به محمداً حين رأى روعه. وذكر ابن كثير في تاريخه ما أورده الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه (دلائل النبوة) عن علقمة بن قيس أنه قال: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد»: وأضاف: «وهذا من قبل علقمة بن قيس نفسه، وهو كلام حسن يؤيده ما قبله ويؤيد ما بعده».

خالها الذي يعرف العهد القديم، وهو مرجع في شؤون الدين، وأخبرته فتلقى الأمر بحماس قائلاً: والذي نفسي بيديه إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى. . . فزاده ذلك من قول «ورقة» ثباتاً وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهم.

ولكنه ما لبث أن استيقظ فزعاً يسأل نفسه: أي شيء رأى؟ أتراه أصابه ما كان يخشى من جنَّة؟ وتلفَّت يَمْنةً ويَسْرةً فلم يَرَ شيئاً. ومكث برهة أصابته فيها رِعْدَة الخوف وتولاه أشدُّ الوجل، وخاف ما قد يكون بالغار، ففر منه وكله حيرة لا يستطيع تفسير ما رأى. وانطلق هائماً في شعاب الجبل يُسائل نفسه عمَّن دفعه ليقرأ. لقد كان إلى يومئذ يرى وهو في تحنثه الرؤيا الصادقة تنبلج من خلال تأمله فتملأ صدره فتضيء أمامه وتدله على الحق أين هو، وتُنير له حُجب الظلمات التي زَجَّت قريشاً في وثنيتهم إلى عبادة أصنامهم. وهذا النور الذي أضاء أمامه وهذا الحق الذي هداه سبيله هو الواحد الأحد. فمن هذا المذكر به، وبأنه الذي خلق الإنسان، وبأنه الأكرم الذي علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم؟ وتوسَّط الجبل وهو في هذه الحال من فزع وخشية ومساءلة، فسمع صوتاً يناديه، فأخذه الرَّوْع ورفع رأسه إلى السماء، فإذا الملك في صورة رجل هو المنادي وزاد به الفزع ووقفه الرعب مكانه، وجعل يصرف وجهه عما يرى، فإذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً ويتقدم ويتأخَّر فلا تنصرف صورة الملك الجميل من أمامه. وأقام على ذلك زمناً كانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتمسه في الغار فلا يجده. فلما انصرفت صورة الملك رجع محمد ممتلئاً بما أوحي إليه، وفؤاده يجف وقلبه يضطرب خوفاً وهلعاً. ودخل على خديجة وهو يقول زملوني، فزمَّلته وهو يرتعد كأن به الحمَّى. فلما ذهب عنه الرُّوع نظر إلى زوجه نظرة المستنجد، وقال: يا خديجة! مالي!؟ وحدَّثها بالذي رأى، وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته أو أن يكون كاهناً. وكانت خديجة، كما كانت أيام تحنثه في الغار ومخاوفه أن تكون به جنَّة، ملك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوجل. لم تُبد له أي خوف أو ريبة، بل رَنَتْ إليه بنظرة الإكبار وقالت: أَبْشِر يا بن عمِّ واثْبُتْ. فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة. والله لا يُخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدُق الحديث وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

واطمأن روع محمد وألقى على خديجة نظرة شكر ومودة ثم أحسَّ بجسمه متعباً في حاجة إلى النوم فنام. نام ليستيقظ من بعدُ لحياة روحية قوية غاية القوة؛ حياة تأخذ بالأبصار والألباب، ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والإنسانية. تلك رسالة ربه يبلغها ويدعو الناس إليها بالتي هي أحسن، حتى يُتِمَّ الله نوره ولو كره الكافرون.

الباب السابع

الفصل الأول

معارضة أبي لهب

أبقى الرسول ﷺ قضية الوحي هذه محصورة لفترة من الزمن بأسرته، فكان أول من آمن منهم بها ـ بعد «خديجة» و«ورقة» ـ خادمه «زيد» من قبيلة «كلب» الذي أسر في صباه وابتاعته قريش ثم وصل إلى حيازة الرسول ﷺ، ولما علم والده بمكانه «بمكة» عرض فدية كبيرة له، لكن الرسول ﷺ خيره بين الذهاب مع أهله بدون عوض وبين البقاء معه، واختار البقاء معه ﷺ فعامله الرسول كابن له لا كعبد، ثم أعلن أمام الناس تبنيه له، فظل هذا الفتى مخلصاً له طوال حياته، وهو بعد أن آمن أثبت ولاءه وتعلقه المطلق بمحمد ﷺ الذي وهبه الله تعالى هبة تعلق قلوب من يعرفونه به.

لقد كانت بداية دعوته ﷺ محفوفة بكل الشكوك والمخاطر والسرية، فعداء فرع قريش غير الهاشمي كان حتمياً لأن قوتهم وازدهارهم كانا قائمين على الأصنام وشعائر عبادتها، وخاصة من هم من نسل «عبد شمس» الذين ينظرون بعين الحسد الطويل والغيرة إلى بني «هاشم»، فيرفعون أصوات التكفير ضدهم بكل مناسبة لانتزاع سدانة الحرم منهم، وكان على رأس هذا الفرع «أبو سفيان بن حرب» حفيد «أمية» وحفيد حفيد «عبد شمس» وكان رجلاً داهية طموحاً، وذا نفوذ مالي، وسنجده أحد خصوم محمد ﷺ الأشداء ـ سياسياً ـ.

قال ابن كثير:

فقال أبو جهل: يا محمد، هل انت مُنتهٍ عن سبِّ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلَّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلَّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك.

فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل عليٌ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن [يمنعني] شيء، إن بني قُصي. قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. ثم قالوا فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم قالوا

ويظل هذه الظروف كان على الإيمان الجديد أن يتحرك ببطء وسرية، لذلك لم يزد عدد أتباعه خلال السنوات الثلاث الأول عن أربعين شخصاً، وكان معظمهم شباباً ـ صغاراً في السن ـ وغرباء أو أرقاء، وكانت تعقد صلواتهم بخلوات إما في بيوت أحدهم أو في شعاب مكة وكهوفها، ورغم هذه السرية كانوا عرضة لغضب التنكيل خاصة بعد أن كشف هدف لقاءاتهم، وقد رد بعضهم على هذا بالثورة مثل «سعد» الذي جُرِحَ برأسه فكان أول من أراق دماً في سبيل الإسلام(*).

أما عم الرسول ﷺ وكان رجلاً سريع الغضب فقد عارض الرسول ﷺ بشدة ـ غير مبررة ـ واسمه «أبو لهب» الذي كان غنياً ذا نفس متعالية بالإباء ـ العربي ـ، ابنه تزوج من بنت الرسول ﷺ الثالثة «رقية» فكان من المفروض تلاحمهما، لكن «أبو لهب» كان حليفاً لفرع من قريش، فرع «عبد شمس وأمية» بزواجه من «أم جميل» أخت «أبي سفيان»، ـ ورغم كل ادعاءاته الرجولية ـ كان تحت تأثيرها مباشرة وتأثير صهره، فأعلن ما ادعاه بهرطقة ابن أخيه، وأنه قد جلب على عائلتهم العار بخروجه عن دين آبائه، وعمل على التشهير به في كل قريش. لقد عز على الرسول ﷺ أن يكون هذا الكاشح عمه بالذات، بسبب تأثير زوجته «أم جميل» عليه، وحزن على تأثير هذا على سعادة ابنته «رقية» التي بميلها إلى عقيدته قد جلبت على نفسها عداء زوجها وعائلته.

وقد أثرت هذه الأمور وسواها على نفسيته ﷺ فأنهكته، مما جعله يزداد تجريداً يوماً بعد يوم، وقد لاحظ المقربون منه ترقبه وشروده وحالات مرضه هذه، فكانت ذريعة لخصومه كي يتهموه بالجنون والهلوسة، وخاصة زوجة عمه «أم جميل» أخت «أبي سفيان».

ولإنهاء هذا الموقف الشديد المسبب لعدم التوازن النفسي والجسدي، جاءه الوحي

فينا النَّدْوة. فقلنا نعم. ثم قالوا: فينا اللِّواء. فقلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الرُّكب قالوا: منا نبيٌّ! والله لا أفعل.

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصمّ، حدثنا محمد بن خالد، حدثنا أحمد بن خلف، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق. قال: مر النبي ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان، وهما جالسان، فقال أبو جهل: هذا نبيكم يا بني عبد

(*) على القارئ أن يتذكر من هذه الواقعة ما ناقض «إيرڤينغ» فيه نفسه حين قرر أن الجهاد لم يبدأ قبل شعور الرسول ﷺ بقوته في المدينة.

بإعلان الدعوة خارج إطار عزوته وأسرته، فدعا بالسنة الرابعة للوحي كل نسل «هاشم» من قريش على جبل ـ هضبة ـ «الصفا» في «مكة» ليخبرهم بأمر هام ومعهم زوجة عمه المستهزئة به «أم جميل»، ليقرر لهم مهمته كرسول لله، وأنه يوحى إليه، وهنا وبغضب شديد كاد يقذفه «أبو لهب» بحجر وهو يقول: تباً لك ألهذا دعوتنا أو جمعتنا، فالتفت إليه الرسول ﷺ بنظرة واهنة غاضبة، فأوحي له فوراً قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [سورة المسد: 1 ـ 5]، وفض الاجتماع والناس حيارى، لكن أبا لهب وزوجته ورغم ما حل بهما من لعنة إلهية وبسببها أرغما ابنهما على تطليق «رقية» وإرسالها إلى منزل أبيها باكية، لكن الرسول ﷺ زوجها بعد فترة قصيرة من أحد أتباعه المناصرين الغيورين على الإسلام «عثمان بن عفان» رضي الله عنه.

ولم يثنه فشل هذا الاجتماع عن الدعوة إلى اجتماع آخر لبني «هاشم» في بيته، وبعد أن قدم لهم لحم الضأن والحليب، وقف ليعلن لهم دعوته التي أمرته بها السماء، وأمر الله بأن ينذر عشيرته والأقربين قائلاً:

يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فأحجم القوم، وقال «علي» أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ ـ برقبتي ـ ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا؟ فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: لقد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

ورغم أن دعوة محمد ﷺ لم تلق إذناً صاغية من عشيرته والأقربين، لقيت استجابة من أناس آخرين، فانتشرت بصورة خاصة بين النساء اللواتي يتعاطفن بطبعهن مع القضايا

شمس. قال أبو سفيان: وتعجب أن يكون منا نبي! فالنبيُّ يكون فيمن أقلُّ منا وأذل.

فقال أبو جهل: أعجبٌ أن يخرج غلامٌ من بين شيوخكم نبيًّا!

ورسول الله ﷺ يسمع، فأتاهما فقال: «أمَّا أنت يا أبا سفيان، فماالله ورسوله غضبتَ ولكنك حَمِيتَ للأصل. وأما أنت يا أبا الحكم، فوالله لتضحكن قليلا ولتبكين كثيراً» فقال: بئسما تَعِدني يابن أخي من نبوَّتك.

هذا مرسل من هذا الوجه، وفيه غرابة. وقول أبي جهل، لعنه الله، كما قال تعالى مخبراً عنه وعن أضرابه: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ

الخاسرة، أما اليهود الذين تبعه منهم عدد كبير(*) فقد ارتدوا عنه لأنه كان يحل لحم الجمل والأنعام المحرمة عندهم.

وزاد الوحي وصار يعلنه للناس كافة مع كل آراء الإسلام ونظراته معلناً نفسه نبياً مرسلاً من الله للقضاء على الأصنام والشرك لترسيخ دين الله الذي هو الإسلام في كل أصوله عبر الأديان من مسيحية ويهودية... إلخ. وكانت هضبة «الصفا» وهضبة «قبيس» المعروفتان في قصة «هاجر وإسماعيل» مفضلتين لديه لإلقاء خطبه ومواعظه، وظل غار «حراء» مكان هبوط الوحي عليه، وإليه يذهب للتحنث وتلقي الوحي بوحدته، ويعود منه بآيات جديدة من القرآن الكريم.

ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الفرقان: 41 ـ 42].

(*) لم يكن في مكة عدد كبير من اليهود.

الفصل الثاني

المؤرخون المسيحيون و«تطيرهم»

عالج الكُتاب المسيحيون الأوائل بسذاجة هذه الأحداث التي اعتبروها عداء عربياً للكنيسة، مما تركوه من سجل خرافي متطير حول الأحداث التي حصلت في ذلك الوقت، ممهدين لشرح المشاكل الرهيبة التي كانت على وشك أن تثير العالم. ففي القسطنطينية التي كانت مركز الامبراطورية المسيحية ادعوا بولادة عدد من الأحداث الممسوخة الوحشية التي أذهلت قلوب المعتنقين للمسيحية، وفي أحد الأماكن التي كانت تقام فيها الشعائر الدينية بجوار القسطنطينية تحركت الصلبان لوحدها، وثارت بقوة مسببة الدهشة والرعب، أما النيل نهر الماء العجائبي القديم فقد ولد منه مسخان يشبهان الرجل والمرأة، وخرجا من مائه، وحدقا بالناس بشكل رهيب ثم غطسا في أمواجه ثانية، والشمس ظلت ليوم كامل بثلث إنارتها، تنشر أشعة شاحبة، وبإحدى الليالي المعتمة تألق ضوء غريب من السماء، وظهر رمح دامٍ مضيء فيها.

كل هذه وشبيهها من العجائب فسرت على أنها علامات أزمات قادمة، دفعت بالرهبان خدام الإله القدامى إلى إدارة رؤوسهم حسرة متنبئين بولادة عدو المسيح، المسيح الدجال القريبة، الذي سيدمر الإيمان المسيحي ويسبب خراباً كبيراً للكنيسة، ولكل سلسلة الرجال المقدسين الذين عانوا من أجل ترسيخ الإيمان، وأضاف «بادر

قال ابن كثير:

وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب، واسمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب، وامرأته أم جميل أرْوَى بنت حَرْب بن امية، اخت ابي سفيان.

وخالفه في ذلك عمُّه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول الله ﷺ أحبَّ خلق الله إليه طبعاً، وكان يحنو عليه ويحسن إليه، ويدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك مع أنه على دينهم وعلى خُلُتهم، إلا أن الله تعالى امتحن قلبه بحبه حباً طَبَعياً لا شرعياً.

وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة، ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه

جايمي بلدا» أن هذه العلامات قد أعطيت لكي يفهم الناس ما سيحصل للكنيسة من مصائب، مثلما كانت تعطى العلامات للقدامى ليقرؤا من إشارات السماء صلة السماء بالأرض، والتي ستفرض عبئاً إضافياً على ظهورهم.

لذلك تجمع القديسون ليمجدوا أيقونة الصليب في الجنة العليا في السماء ويعطوا إشاراتهم إلى الأرض، وهم ينظرون إلى ما ستتعرض له المسيحية في الأرض ويتحسرون، مثلما ينظر الرجال من أعلى الجبال لجائحة تجتاح البحر واليابسة، وهي تدمر الأبراج العالية وتغرق السفن.

ويحترمونه. ولاجترؤوا عليه، ولمدُّوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار. وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً.

فهذان العَمَّان كافران أبو طالب وأبو لهب، ولكن هذا يكون في القيامة في ضَحْضاح من نار، وذلك في الدَّرْك الأسفل من النار، وأنزل الله فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر، وتقرأ في المواعظ والخطب، تتضمن أنه سيصْلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمَّالة الحطب.

وفي موقف آخر حين جمع الرسول ﷺ أهله ليكلمهم بشأن الدعوة في داره ﷺ، ذكر ابن كثير ما قد رواه أبو جعفر بن جرير، عن محمد بن حُميد الرازي، عن سلمة بن الفضل الأبرش، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الغفار أبو مريم بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد اللّه بن الحارث، عن ابن عباس عن علي فذكر مثله. وزاد بعد قوله: «وإني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي» وكذا وكذا.

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت ولأني لأحدثهم سناً وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأخمشهم ساقاً: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي فقال: «إن هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا».

قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك فتطيع!

الباب الثامن

الفصل الأول

الخطوط الأساسية للدعوة المحمدية

إننا لا نقصد في هذا المجال تغطية كل ما في دعوة الرسول ﷺ، بل ما يتعلق بتقديراته وشخصيته وسلوكه، وصلة الأحداث التي سجلها التاريخ لإيضاح الخطوط العامة لذلك.

وقبل كل شيء يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الرسول ﷺ لم يدع أنه جاء بدين جديد، بل جاء لإعادة الناس إلى دين الله الحق القديم، «سنة إبراهيم حنيفاً» كما يؤكد القرآن، بالإيمان بالله الواحد وما أرسله للناس كافة مع رسله من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وبما أوحي إلى موسى وعيسى وكل رسل الله تعالى، لا فرق بين رسله، وإلى الله تعالى كل الأمور.

والقرآن الكتاب الأساسي العظيم لإيضاح هذا الإيمان، نزل بأوقات متفرقة اتصلت بأحداث آثارت مشاعر «الرسول» ﷺ فرضتها ظروف وهو ليس من صنع محمد ﷺ بل وحي إلهي نقل كلام الله نفسه ـ حول هذه الظروف ـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ

قال هيكل:

دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة

وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قويّ؛ فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة لك في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية. فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة

فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة المائدة: 48].

لقد كانت قوانين «موسى» عليه السلام منهجاً للسلوك الإنساني، ومع «عيسى» عليه السلام أيضاً، لكن حرفها أتباعهم وحواريهم، وبنزول القرآن الكريم يتحدد هذا المنهج بطريقة أوضح وأكمل لتقويم التحريفات والاهمالات التي قصد بها إزاحة الكلم عن مواضعه، فهو خاتم هذه القوانين ومكملها، ولن يكون بعده أي وحي سماوي، فمحمد ﷺ هو آخر الأنبياء وأعظمهم أرسله الله تعالى ليتم أمره وإرادته.

وحجر الزاوية في هذا الإصلاح الديني هو تأكيد الوحدة المطلقة لله تعالى وحده دون شريك «فلا إله إلا الله» أساس هذه العقيدة وكلمة إسلام ـ من التسليم لله وحده فالسلامة والسلام معه تعالى ـ ومن الخضوع لله والاستسلام له. وقد أضيف لها عبارة «محمد رسول الله» لتأكيد كونه رسولاً من الله تعالى كما يؤكد الخالق تعالى نفسه ذلك، لكي يؤخذ منه ﷺ الوحي ويقبل.

وبجانب الإيمان بالله الواحد، يؤكد الإسلام ضرورة الإيمان بملائكته كعقول أو أجسام روحية غير عيانية، وبرسله، والإيمان باليوم الآخر ـ البعث ـ والحساب والعقاب فيه على الأعمال، كذلك يمكنك أن تجد في «المشنا» و«التلمود» اليهودي الكثير من هذا و«المشنا» عبارة قريبة من «السنة» في الإسلام، وخاصة بكل التعابير الفكرية حول الملائكة وحول الأنبياء ورسل الله، والجن المؤمنة والكافرة.

كذلك يمكنك أن تجد الكثير من منهج القرآن الكريم في العقيدة المسيحية بالعهد الجديد كما كانت عند الطوائف المسيحية العربية، حيث اعتبر المخلص ـ مخلصنا(*) ـ

الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علميةً ما لم يثبت البحث العلمي تسرّب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وها هي ذي مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته، فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها؟ نزعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدؤا يفكرون فيما أمامهم. لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم. فأي صنم هو الحق وأي صنم هو الباطل؟ وكان في بلاد العرب وفي البلاد التي تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار، وكان فيها الذين يعبدون الشمس فأيّ هؤلاء على الحق،

(*) المؤلف مسيحي طبعاً، وقد عاد إلى استدراك خطأه بأن الطوائف المسيحية العربية كانت تقول بالطبيعتين للمسيح ولم تكن تقول عنه مجرد رسول، وذلك في هوامش ص 85 من كتابه الذي نحن بصدد ترجمته.

رسولاً ملهماً، وهو أعظم الرسل قبل محمد ﷺ لإصلاح مواضعات البشر وإعادتهم إلى عبادة الله الحق، لكن أتباعه رفضوا تعاليمه بجعله جزءاً من الذات الإلهية مفسدين معنى واحدية الله المطلقة، عبر ما اعتبر خطأً وتحويراً لأقواله عليه السلام، لذلك رفض الإسلام إضفاء أي صفة إلهية على المسيح عليه السلام كما رفض التثليث، مثلما كانت ترفضه الطوائف المسيحية العربية قبل الإسلام.

أما عبادة القديسين والشفعاء والصور والأيقونات التي تمثلهم فقد أدينت إلى أبعد الحدود كشرك تسلل إلى الإيمان المسيحي الأساسي.

لذلك منعت كل التصاوير التي تمثل الأحياء، ونقل عن الرسول ﷺ قوله: إن الملائكة لا تدخل بيتاً به مثل هذه التصاوير، وسيدان صانعوها في اليوم الآخر بأن يطلب منهم وضع حياة بها وإلا سيعاقبون.

أما معظم صفات الرأفة والأخلاق الحميدة لمخلصنا فقد ذكرت في القرآن(*)، واعتبرت الزكاة فرضاً ضرورياً، مع كل حق يجب الأخذ به وباطل يجب تجنبه، من منطلق أن على الإنسان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه كقاعدة أخلاقية أكدها الرسول ﷺ للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: 8] كما ذكر القرآن الكريم.

لقد أظهر الرسول ﷺ بكريم عدله وصدقه في المعاملات ضرورة الزكاة، وأكد

وأيهم على الباطل؟ لنذر هذا كله إذاً جانباً، ولنمحُ أثره من نفوسنا، ولنتجرد من كل رأي ومن كل عقيدة سابقة ولننظر. والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيّان. مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتصالاً؛ فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأممه بعضها ببعض. والإنسان يتصل بالحيوان والجماد. وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك. وذلك كله يتصل في سنن مطّردة لاتحويل لها ولا تبديل. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار. ولو أن إحدى موجودات الكون تحوّلت لتبدّل ما في الكون. فلو أن الشمس لم تُسْعد الأرض بالنور والحرارة، على السنّة التي تجري عليها منذ ملايين السنين، لتبدّلت الأرض غير الأرض والسماء. وما دام ذلك لم يحدُث. فلا بد لهذا الكل من روح يمسكه؛ منه نشأ، وعنه تطوّر، وإليه يعود. هذا الروح وحده هو الذي يجب أن يخضع له الإنسان. أما سائر ما في الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء. والإنسان والكون والزمان والمكان وحدة، وهذا

(*) مرة أخرى نذكر بمسيحية المؤلف.

القرآن ذلك ﴿... وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: 12].

وثبت الرسول ﷺ كل الأخلاق الحميدة بالتكافل الاجتماعي، والتواضع الإنساني بأن لا يمشي الإنسان في الأرض ملكاً ومختالاً، لأن الله لا يحب المتكبرين، وليكن الإنسان لين العريكة سهل القول والعمل فأنكر الأصوات هو صوت الحمير.

كذلك منعت بقوة كل وثنية بأي شكل كانت، وكل الشعائر الدينية التي لا تتعارض مع واحدية الله تعالى، والتي ظلت بذاكرة العرب التي عرفها الرسول ﷺ منذ طفولته سمح بها، مثل الحج إلى مكة، وكل حقوق وشعائر الكعبة الشريفة وبئر زمزم والأماكن الأخرى التي كانت مجال تقديس بعيدٍ عن أي وثنية كانت تعبد فيها.

كما ظلت الصلاة التي يمارسها العرب منذ القدم معمولاً بها، فبينما كانت ثلاث مرات في اليوم صارت خمساً، وتبدأ بالتكبير وكل شعائرها المعروفة.

وقد أكد الرسول ﷺ على ضرورتها، فالملائكة تحمل إلى السماء خبر العبد الذي يؤديها.

أما العقائد المتعلقة باليوم الآخر والبعث فهي شبيهة بالعقائد المسيحية، لكنها

الروح جوهرها ومصدرها(*). وإذاً فلتكن لهذا الروح وحده العبادة. ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة. وفي الكون كله يجب أن نلتمس من طريق النظر والتأمل سننه الخالدة. وإذاً فما يعبد الناس من دون الله أصناماً وملوكاً وفراعنة وناراً وشمساً إنما هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الإنسانية، ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كرّم به من القدرة على استنباط سنّة الله من طريق النظر في خلقه.

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأولون. وقد أبلغهم الوحي إياها على لسان محمد في آي من البلاغة كانت ولن تزال معجزة؛ فجمع لهم بذلك بين الحق وتصويره في كمال جماله. وهناك ارتقت نفوسهم وسَمَتْ قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم؛ فهداهم محمد إلى أن الخير هو طريق الأصول، وأنهم مجزيُّون عن هذا الخير يوم يُتمون واجبهم في الحياة بالتقوى، ويوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(*) هذه لحمة لاحم القوانين مع بعضها، وهي من خلق الله وليست الله كما يدّعي هيكل هنا، سمّاها الأغريق بـ «اللوغوس» والعرب بـ «العقل الكلّي» أمّا الله تعالى فليس كمثله شيء.

مخلوطة بتصورات أخرى، فرغم أن جزءاً من متع المسلم في الجنة روحي بحت، فإن بعضها الآخر حسي أرضي يتعارض مع القداسة المطلقة للجنة حسب التصور المسيحي الذي وعد به المخلص(*).

أما وصف اليوم الآخر المتضمن في السورة الواحدة والثمانين في القرآن الكريم التي يبدو أنها نزلت على الرسول ﷺ في مكة، في بداية الوحي وفيها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ * فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة التكوير: 1 ـ 29].

خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: 7 ـ 8].

أي سموّ بالعقل الإنساني أعظم من هذا السمّو! وأي تحطيم لقيوده أشدُّ من هذا التحطيم!! حسب الإنسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليبلغ الذروة من مراتب الإنسان. وفي سبيل هذه المكانة تهون كل تضحية على من يؤمن بها.

وقد كان من جلال موقف محمد ومن اتبعه أن ازداد بنو هاشم وبنو المطلب منعاً له ودفعاً للأذى عنه. مرَّ أبو جهل بمحمد يوماً فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتوهين من أمره، فاعرض محمد عنه وانصرف ولم يكلمه. وكان حمزة عمه وأخوه من الرضاعة، لا يزال على دين قريش، وكان رجلاً قويّاً مخوفاً.

وكان ذا ولع بالصيد، فإذا رجع من صيده طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره. فلما جاء إلى ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبي جهل ملأه الغضب؛ وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلماً على أحد ممن كان عندها كعادته، ودخل المسجد فألفى أبا جهل فقصد إليه، حتى إذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشجَّه شجة منكرة. وأراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسماً للشر ومخافة استفحاله معترفاً أنه سبَّ محمداً سبّاً قبيحاً، ثم أعلن حمزة إسلامه، وعاهد محمداً على نصرته والتضحية في سبيل الله حتى النهاية.

(*) هل هذا عند «إيرفينغ» أن المسيحية تنكر بعث الأجساد؟!

الباب التاسع

الفصل الأول

الذين يطلبون المعجزات

كان أشد من واجه الرسول ﷺ من خصومه المستهزئون به ممن عرفه منذ طفولته، فمن طفل يلعب مع أقرانه في شوارع مكة إلى رجل يحوز ويتدخل بكل اهتمامات الحياة اليومية، ليأخذ شخصية رسولية تفرض على الناس سلوكهم، ومثل هؤلاء كانوا يشيرون إليه بالسخرية حين كان يمر بينهم كالقول: انظروا ابن «عبد المطلب» الذي يدعي أنه يعرف خبر السماء!! وبعضهم ممن اطلع على محنته من قرب اعتبره مجنوناً، وآخرون قالوا به مس من الشيطان، وذهب البعض إلى اتهامه بالعمل بالسحر والشعوذة.

كان عندما يمشي ﷺ في الشوارع يتعرض لمثل هذا التهكم والاستهزاء، وحتى إلى إهانات العوام الجهلة الذين يرونها فرصة لصب جهلهم على كل من يرونه في أزمة نفسية، أما إذا حاول وعظهم فكانوا يلغون ويثيرون الضجيج والهتافات التافهة إلى حد أنهم ألقوا عليه الأوساخ عندما كان يصلي بالحرم.

قال ابن كثير:

فقالوا يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبالَ التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليُجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيما يبعث لنا منهم قُصَيٌّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول: أحقٌّ هو أم باطل؟

فإن فعلت ما سألناك وصدَّقوك، صدَّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلَّغتكم

ولم يقتصر إيذاؤه على العوام والجهلة بل وصل إلى الشعراء، وكان منهم شاب يدعى «عمرو بن العاص» سيلعب دوراً هاماً في تاريخ الرسالة في المستقبل ولهذا أردنا أن نشير إليه للفت انتباه القارئ له، لقد كان ابن عاهرة من مكة كانت تحب الأشكال الرومانية الإغريقية، وتختار من عشاقها علية القوم من مكة أيضاً فكان شكله كالرومان عندما ولد، فادعته إلى عدة وجوه قبائل من قريش، ولأن به بعض الشبه أيضاً «لابن العاص» أقدم المعجبين بها، أضافت اسمه إليه وأصبح اسمه «عمرو بن العاص».

ورغم صغره في السن كان موهوباً بطبيعته بالشعر ويعد من أشهر الشعراء العرب في جيله وهو مشهور كذلك بذرابة اللسان والدهاء، وحسن الإلقاء لقصائده.

وعندما أعلن محمد ﷺ رسالته تسلط لسان هذا الشاب عليه بالهزء والسخرية عبر هجاء يوافق ذوق العرب بهذا الفن من القريض، لذلك تداول الناس قصائده، وكانت سبباً من أسباب التحريض على اضطهاد المسلمين، ومعيقاً من معيقات انتشار الإسلام.

أما الذين طلبوا من الرسول ﷺ المعجزات كبرهان على صدق رسالته، فقد كانوا أكثر جدية في التعامل معه من هؤلاء، من منطلق الادعاء أن «موسى» عليه السلام و«المسيح» عليه السلام وباقي الأنبياء قد جاؤوا بمعجزات تؤكد مهمتهم الإلهية، فإذا كان رسولاً أعظم من هؤلاء حقاً، فليأت بمعجزات مثلهم؟!

ويمكننا أن نرى رد محمد ﷺ على هؤلاء من القرآن الكريم نفسه فأي معجزة أعمق من كتاب بهذه العظمة يأتي به رجل أمي، فلو اجتمعت الأنس والجن على أن تأتي بمثله لما استطاعت، أي برهان أعظم من أنه كتاب من الله تعالى مباشرة، القرآن بحد ذاته هو المعجزة.

لكنهم كانوا يريدون معجزة توجه إلى الحواس كدليل أسطع تجعل الأخرس ينطق والأطرش يسمع، والأعمى يرى، وإحياء الموتى، أو أن يغير من طبيعة الأشياء الطبيعية، كإخراج الماء من الأماكن القاحلة وتحويلها إلى حدائق أعناب ونخيل، أو يبني

ما ارسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة.

ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله

لهم قصراً من ذهب مطعماً بالأحجار الثمينة والجواهر، أو يصلهم بحبل إلى السماء ليروا ما فيها، وإذا كان القرآن قد نزل فعلاً من السماء لماذا لا يرون كيف ينزل، أو على الأقل يرون الملائكة وهي تنزله، آن ذاك سوف يؤمنون؟!

وكان الرسول ﷺ يرد عليهم تارة بالحوار وأخرى بالإنذار، فهو لم يدع سوى أنه رجل كباقي الرجال لكن يوحى إليه فقط ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: 8 ـ 9].

لذلك أكد أن الله لا يحتاج إلى ملاك لينفذ أمره وهو الشاهد بينه وبينهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾. الآية [سورة الأنعام: 19].

ثم إن الله تعالى أعطى «موسى» عليه السلام قدرة على صناعة المعجزات التي يطلبها الناس، فماذا كانت النتيجة؟! سوى اتهام الفرعون له بالسحر وطرده مع قومه من الأرض، والنتيجة هي غرق الفرعون ومن معه، فهل من يطلب معجزة من الله يقدر على جزاءٍ مثل جزاء الفرعون؟!

بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يا محمد ما عَلِم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك ويعلّمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به.

فقد بلغنا أنه إنما يعلّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك ما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قَبِيلا.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم وقام معه عبد اللّه بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتِكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجِّل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً، ثم تَرْقَى منه وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأيم الله لو فعلت ذلك لظننتُ أني لا أصدِّقك.

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته مما طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

الفصل الثاني

معجزات نسبت إلى الرسول ﷺ

سجل بعض المؤرخين العرب أن بعض أتباع الرسول ﷺ انضموا في يوم من الأيام إلى صرخة المطالبة بالمعجزات، ليثبت صدق رسالته بتحويل هضبة «الصفا» ذهباً، ومثل هؤلاء المؤرخين الغيورين أرادوا بإخلاص خدمة هدف الإسلام فاختلقوا قصصاً على ظن أنها تؤيد الإسلام وهي على العكس تماماً، فادعوا أنه خضع ﷺ لهذا الطلب فصلى وأكد لأتباعه ظهور جبريل له ليخبره أن الله تعالى سيحقق لهم معجزتهم المطلوبة، لكن كل من لا يؤمن بعدها سيمحى من الوجود، وشفقة عليهم كجيل عنيد بدون فهم لم يعرضهم لإمكان هذا التدمير، لذلك سمح لهضبة «الصفا» أن تظل على حالها.

ومؤرخون آخرون أكدوا أن الرسول ﷺ قد خرج عن قاعدته هذه وقام ببعض المعجزات أحياناً عندما رأى بطء إيمان سامعيه، وهكذا أخبرونا أنه مرة أمام الجمهور

وقال ابن كثير[3]:

وهكذا رواه العَوفي عن ابن عباس رضي الله عنه وهو من مرسلاته.

وقال الحافظ أبو نُعيم: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا بكر بن سُهيل، حدثنا عبد الغني بن سعيد، حدثنا موسى بن عبد الرحمن، عن ابن جُرَيج، عن عطاء عن ابن عباس. وعن مقاتل، وعن الضحَّاك، عن ابن عباس في قوله: «اقتربت الساعة وانشقَّ القمر». قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يَغُوث، والأسود بن المطلب [بن أسد بن عبد العُزَّى]، وزَمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، ونظراؤهم [كثير].

فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشقَّ لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قُبَيس ونصفاً على قُعَيْقعان. فقال لهم النبي ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنوا؟» قالوا: نعم. وكانت ليلة بدر، فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا، فأمسى القمرُ قد سلب نصفاً على أبي قُبيس ونصفاً على قُعيقعان، ورسول الله ﷺ ينادي: يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن الأرقم اشهدوا.

ثم قال أبو نُعيم: وحدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا الحسن بن العباس الرازي، عن الهيثم بن العُمان، حدثنا إسماعيل بن زياد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: انتهى أهل

دعا إليه ثوراً وأخذ من قرنيه لفافة بها آيات من القرآن نزلت لتوها من السماء، ومرة ثانية وبينما كان يكلمهم وبعظهم نزلت على كتفيه ﷺ حمامة، وهمست في أذنه كملاك من الله، ومرة ثالثة أمر الأرض أن تنشق على جرتين بإحداهما الحليب وبالأخرى العسل كدليل برهان ووعد من السماء على من شاهدها بضرورة طاعة قوانينه.

ونقد الكُتاب المسيحيون هذه الأخبار بأن الحمامة كانت مدربة على أخذ الحب من أذنه، وأن الجرار كانت مدفونة سابقاً، والمخطوط مسبق الوضع بين قرون الثور، مما سمح بنقد هذه المعجزات على أنها أساطير وضعها غيورون غير أكفاء على الدين، أو مغرورون بهؤلاء الغيورين غير الأكفاء فوصلت إلى أقلام شراح مسلمين أكفاء من مصادرها الواهنة.

والواقع أنه لا يوجد ما يؤكد حصول هذه المعجزات من روايات الصحابة لتأكيد وفرض الاعتقاد الإسلامي عبر المعجزات التي طلبها الأتباع، فقد اعتمد الرسول ﷺ كما هو واضح ومؤكد على العقل وحده وصفاء السريرة التي تدعم الاعتقاد الديني منذ بداية مراحل رسالته ﷺ، فهجومه الصادق على الأوثان التي كانت تحيط بالكعبة وتؤدي إلى العبادة البدائية بها، بدأ يعمل مفعوله وينذر قريشاً لذلك طلبت قريش من «أبي طالب» إسكات ابن أخيه، أو طرده، ولما لم يجدهم هذا شيئاً أنذروه بأن هذا المدعي النبوة وأتباعه سيدفعون حياتهم إذا استمروا بهرطقاتهم ضد الآلهة.

فذهب «أبو طالب» إلى الرسول ﷺ طالباً منه أن لا يعرض نفسه وعائلته لهؤلاء الخصوم الأشداء.

فعبر محمد ﷺ بروحه الوثابة في رده قائلاً: «يا عماه؟! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لما رجعت عن هذا الأمر، إلى أن يقضي الله أمره بي».

مكة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل من آيةٍ نعرف بها إنك رسول الله.

فهبط جبرائيل فقال: يا محمد قل لأهل مكة أن يحتفلوا هذه الليلة فسيروا آية إن ينتفعوا بها.

فأخبرهم رسول الله ﷺ بمقالة جبرائيل، فخرجوا ليلة الشق ليلة أربع عشرة. فانشق القمر نصفين، نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا، ثم قالوا بأبصارهم نحوها ثم أعادوا النظر فنظروا، ثم مسحوا أعينهم، ثم نظروا، فقالوا: يا محمد ما هذا إلا سحر.

فأنزل الله: ﴿اقتربت الساعة وانشقَّ القمرُ﴾.

ثم روى الضحاك عن ابن عباس: قال: جاءت أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أرنا آية حتى نؤمن بها.

فسأل ربَّه، فأراهم القمر قد انشق بجزئين؛ أحدهما على الصفا والآخر على المروة، حتى ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه ثم غاب، فقالوا: هذا سحر مفترى.

الفصل الثالث

عداء قريش

وهكذا عاد الرسول ﷺ إلى خلواته بملامح الاستياء، ثم ما لبث أن دعاه «أبو طالب» مرة ثانية وهو الرجل الهرم المتمسك بدينه القديم، لكنه المعجب بثبات ابن أخيه على مواقفه، وأخبره أن بإمكانه أن يبشر كما يشاء فهو لن يتركه لأعدائه، فهو رجل لا يخضع للتهديد، وكذلك دعا نسل «هاشم وعبد المطلب» ليدرؤوا عن قريبهم ما أدانته به بقية بطون القبائل القريشية، من منطلق قداسة وقوة التماسك العائلي عند العرب، ولذلك حماه الجميع من كل تهم الهرطقة التي تمسهم جميعاً، ووقفوا معه عدا عمه «عبد العزي» الملقب «بأبي لهب» ـ لاحمرار وجهه ـ.

ومن جهة أخرى زاد عنف تهجم قريش، ووصل إلى حد الإيذاء الشخصي للرسول ﷺ، فقد هوجم بالكعبة وكاد مهاجموه أن يخنقوه فيها، حيث أنقذه «أبو بكر» رضي الله عنه بصعوبة من أيديهم، وأصيب «أبو بكر» رضي الله عنه بجراح من الحادث وصارت عائلته القريبة مكروهة من الجميع، وخاصة ابنته «رقية» وزوجها «عثمان بن

قال هيكل:

طعن محمد على الأصنام

وباداهم محمد بذكر آلهتهم، وكان من قبلُ لا يذكرها، وعابها، وكان من قبل لا يعيبها. هنالك عظم الأمر على قريش وحزّ في صدورهم؛ وبداوا يفكرون التفكير الجدّ في أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه، لقد كانوا إلى يومئذ يسخرون من قوله، وكانوا إذا جلسوا في دار النَّدوة أو حول الكعبة وأصنامهم فجرى ذكره على ألسنتهم لم يُثر أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم. أما وقد حقَّر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم، ونال من هُبَل ومن اللات والعُزَّى ومن الأصنام جميعاً، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية، بل أصبح موضع جدّ وتدبير. أو لو أتيح لهذا الرجل أن يؤلب عليهم أهل مكة أن يصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول إليه تجارة مكة؟ وماذا يكون مقامها الديني؟

لم يكن عمّه أبو طالب قد دخل في دين الله، لكنه ظلّ حامياً لابن أخيه قائماً دونه، معلناً استعداده للدفاع عنه. لذلك مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، وفي مقدمتهم أبو

عفان» رضي الله عنه، كما هُدد أتباعه الذين ليس لديهم عشيرة تحميهم بحياتهم، ولذلك طلب محمد ﷺ منهم ترك مصاحبته في الوقت الحاضر واللجوء إلى «الحبشة»، لأن ضيق البحر الأحمر يسمح بالوصول إلى الشاطئ الأفريقي بسهولة، ولأن الأحباش أمة مسيحية سمح لهم دينهم بالارتقاء عن جيرانهم من البرابرة الأفريقيين، كما يشتهر ملكهم «النجاشي» بالعدل والحزم، ولذلك وثق محمد ﷺ أن يضع ابنته بين يديه، وائتمنه على أتباعه الهاربين بقيادة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نساء، وهكذا غادروا بالقرب من شاطئ «جدة»، هذا الميناء الذي يبعد مسافة يومي سفر بالراحلة من «مكة»، حيث وجدوا سفينتين للأحباش راسيتين في الميناء، فركبوهما وأبحروا بهما إلى المنفى.

وقد حصلت هذه الأحداث في السنة الخامسة لنزول الوحي، وسميت بالهجرة الأولى، تمييزاً لها عن الهجرة الثانية التي هاجرها الرسول ﷺ بنفسه إلى المدينة، وكان لحسن المعاملة التي تلقاها هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة من الأحباش أثره بتشجيع مؤمنين آخرين لاتباعهم، إلى أن وصل عدد المهاجرين المسلمين إلى الحبشة خمسة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة بالإضافة إلى الأطفال.

سفيان بن حرب، فقالوا: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه» فردّهم أبو طالب ردّاً جميلاً. ومضى محمد يشتدّ في الدعوة إلى رسالته، ويزداد لدعوته أعواناً. وائتمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ومعهم عُمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أنهد فتىً في قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ويسلمهم محمداً، فأبى. ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها. ثم ذهبوا إلى أبي طالب مرة ثالثة وقالوا له: «يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعَيْب آلهتنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين». وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام ابن أخيه ولا خذلانه. ماذا تراه يصنع؟ بعث إلى محمد فقصّ عليه رسالة قريش، ثم قال له: «فأبقِ عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق».

ما اتجاه التاريخ؟

وأطرق محمد إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتاً لا يدري بعدها ما اتجاهه. وفي الكلمة التي تفتر عنها شفتا هذا الرجل حكمٌ على العالم: أهو يظلّ في الضلال يمد له فيه، فتطغى المجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخرف الأفن. أم هو يُضيء أمامه نور الحقّ، تُعلن فيه كلمة التوحيد، وتحرر فيه العقول من رقّ

ورغم هذا تبين لقريش أن الرسول ﷺ لم يصمت وظل يحصل على الأتباع الجدد في كل يوم، لذلك أصدرت قريش قانوناً بمقاطعة كل من يتبع دينه، وقبل هبوب أي عاصفة قوية من قريش ضده لجأ الرسول ﷺ إلى بيت «الأرقم» على هضبة «الصفا»، تلك الهضبة التي تؤكد التقاليد العربية كما سبق وأشرنا إلى أنها المكان الذي جمع آدم وحواء فيه، بعد نفيهم الطويل في الأرض وضياعهم فيها بعد الهبوط من الجنة، وترتبط كذلك بمصير «هاجر وإسماعيل عليهما السلام».

وظل الرسول ﷺ مختفياً في بيت «الأرقم» مدة شهر يتابع نزول الوحي وتلقي الأتباع سراً، لكن عداء قريش لحقه في مكان اعتزاله هذا عبر «أبي جهل» الذي كشف مكانه وراح يكيل له الإهانات والشتائم إلى حد الاعتداء عليه باليد، وحين وصل خبر هذا إلى عم الرسول ﷺ «حمزة» رضي الله عنه وكان عائداً من رحلة صيد وقد مال إلى الإسلام بقلبه لا بعقله، انطلق ليحمي ابن أخيه، ودخل على جمع قريش بقوسه الموتر بينما كان «أبو جهل» يفخر بنصره الأخير هذا، وضرب هذا السافل بقوسه على رأسه فشجه شجة قوية، فتجمع أتباعه لنصره لكنه قال لهم: دعوه لقد بالغت بالإساءة إلى ابن أخيه حقاً، ليخفف من إمكان الصدام مع أتباع أتباع الرسول ﷺ، ولكن «حمزة» رضي الله عنه لم يكن ليتراجع فصاح بصوته القوي الجهوري: من يستطيع منكم إرغامي فأنا أيضاً لا أؤمن بأصنامكم، وهكذا دفعه الغضب إلى ما حاوله عقله ولم يستطع أن يصل إليه، وهكذا أعلن إيمانه، وبايع الرسول ﷺ فصار من أهم أتباع هذا الدين الجديد وحماته المتحمسين.

العبودية والقلوب من أسر الأوهام، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى؟ وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فهو خاذله ومُسْلمه. وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدَّة والعدد. إذاً لم يبق له دون الحق الذي ينادي الناس باسمه نصير، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عُدَّة. ليكن! إن الآخرة خير له من الأولى. فليؤد رسالته وليدع إلى ما أمره ربه. ولخير له أن يموت مؤمناً بالحق الذي أوحى إليه من أن يخذله أو يتردّد فيه. لذلك التفت إلى عمّه ممتلىء النفس بقوّة إرادته وقال له: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته».

الباب العاشر

الفصل الأول

غضب عمر بن الخطاب ثم إسلامه «رضي الله عنه»

كان للعقاب القاسي الذي أوقعه «حمزة» رضي الله عنه «بأبي جهل» أثره في زيادة عدائه للرسول ﷺ، وكان له ابن أخت اسمه «عمر بن الخطاب» شاب في السادسة والعشرين من عمره قوي بشكل لا يصدق وعملاق طويل وشجاع، وتظهر عليه علامات الصرامة والصراحة بشكل واضح، وهو إذا مشى أثار الرعب في قلب خصومه أكثر من سيف مسلول، كما وصفه المؤرخ العربي «أبو عبد الله محمد الواقدي» لكن الأحداث التاريخية أثبتت مدى هذه المبالغة في الوصف ـ كعادة الواقدي ـ.

وبدفع من خاله «أبي جهل» تسلل هذا العربي المخيف إلى مكان عزلة الرسول ﷺ

قال ابن كثير(4):

إسلام عمر بن الخطاب

قال ابن إسحاق: ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ، وردّهم النجاشي بما يكرهون وأسلم عمر بن الخطاب، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرَامُ ما وراء ظهره امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة، حتى غاظوا(5) قريشاً.

فكان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

قلت: وثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر بن الخطاب».

وقال زياد البكّائي: حدثني مسعر بن كدام، عن سعد بن إبراهيم قال: قال ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلّى عند الكعبة وصلينا معه.

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

ليخترقها، في بيت «الأرقم» وليحَاول قتله أيضاً مقابل ما وعدت به قريش من مئة جمل وألف قطعة ذهبية لعمل شجاع كهذا، ونحن لا نرجح هذا الاحتمال خاصة وأن ابن أخت أبي جهل ليس بحاجة إلى أي رشوة.

وبطريقه إلى بيت «الأرقم» التقى بأحد أبناء قريش وأخبره بنيته، لكن هذا القريشي كان ممن أسلم سراً، ففكر بإبعاده عما نوى قائلاً: «قبل أن تقتل محمداً وتجلب على نفسك ثأر أسرته انظر أولاً عما إذا كان بيتك خالياً من هذه الهرطقة؟!» فأجابه عمر بدهشة: «هل في بيتي من يمكن إدانته بتبعيتهم؟!» أختك «آمنة»(*) وزوجها «سعيد» أجاب القرشي.

فانطلق «عمر» إلى منزل أخته واقتحمه فوجدها وزوجها يقرآن القرآن، وعندما حاول «سعيد» إخفاءه بارتباك ظاهر اقتنع «عمر» بالأمر فثار غضبه، وضرب «سعيداً» بالأرض ووضع قدمه فوق صدره ليشهر سيفه، لكن «آمنة» تدخلت لتمنعه، فلطمها على وجهها لطمة أنزفتها، فقالت: «يا عدو الله تضربني لأنني أؤمن بالله الواحد الأحد الحق، إنني وعلى الرغم منك ومن تجبرك سأظل مسلمة، فلا إله إلا الله محمد رسول الله إنّهِ

حدثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عيَّاش بن ابي ربيعة، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمه أم عبد الله بنت ابي حثمة قالت: والله إنا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر فوقف وهو على شركه، فقالت: وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا.

قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟

قلت: نعم، والله لنخرجن في أرضٍ من أرض الله، إذ آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

قالت: فقال: صحبكم الله!

ورأيتُ له رقة لم أكن أرها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا.

قالت: فجاء عامر بحاجتنا تلك؛ فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقَّته وحزنه علينا!

قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم.

قال: لا يُسلم الذي رأيت حتى يُسْلم حمارُ الخطاب!

(*) وفي مرجع ابن كثير «فاطمة بنت الخطاب» وزوجها سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل.

ما جئت من أجله يا عمر»؟!

فهدأ غضب «عمر» وتسرب إليه الندم، فرفع قدمه عن صدر «سعيد» وقال: «أرني ما بيدك»، فرفضت إعطاءه الكتاب حتى يتطهر ويتوضأ ولما فعل قرأ السورة العشرين من القرآن الذي كان معهم التي هي سورة «طه» القائلة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ * لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى...﴾ [سورة طه مكية: 1 ـ 7].

فدخلت كلمات الله إلى قلب «عمر»، وكلما كان يقرؤها كانت تؤثر فيه أكثر فأكثر، وعندما وصل إلى القسم الذي يعالج البعث واليوم الآخر والحساب كان قد تحول مسلماً.

قالت: يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

* * *

قلت: هذا يردُّ قول من زعم أنه كان تمام الأربعين من المسلمين. فإن المهاجرين إلى الحبشة كانوا فوق الثمانين.

اللهم إلا أن يقال: إنه كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين.

ويؤيد هذا ما ذكره ابن إسحاق ههنا في قصة إسلام عمر وحده رضي الله عنه، وسياقها، فإنه قال:

وكان إسلام عمر فيما بلغني أن اخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كانت قد أسلمت، وأسلم زوجها سعيد بن زيد، وهم مُستخفون بإسلامهم من عمر.

وكان نُعيم بن عبد الله النحّام، رجل من بني عَدِي، قد أسلم أيضاً مستخفياً بإسلامه من قومه.

وكان خبّاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشّحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصَّفا، وهم قريب من أربعين، من بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمُّه حمزة وأبو بكر بن أبي قُحافة الصدِّيق وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة.

وهكذا عندما تابع طريقه إلى بيت «الأرقم» بقلب منفتح على الإيمان، دق على بابه برفق وتواضع، فسمع إذن الدخول من الرسول ﷺ، أن أدخل يا ابن الخطاب وقل لنا ما أتى بك اليوم؟!

جئت لأبايع الله ورسوله على الإسلام؟!

فكبر المسلمون الحاضرون.

لكنه لم يكن ليقبل حتى يعلن إسلامه أمام الجميع، وبناء على طلبه ذهب الرسول ﷺ معه إلى الكعبة لأداء شعائر الدين الإسلامي، وهكذا دخل الرسول ﷺ الحرم وعلى يمينه «حمزة» وعلى يساره «عمر» يحميانه مع أربعين من الصحابة خلفهم، وهم يسيرون علناً بشوارع «مكة» التي ملئت بدهشة سكانها، وطافوا سبعاً حول الكعبة يلمسون في كل مرة الحجر الأسود ويكملون شعائرهم.

ورغم إنكار قريش لفعلهم هذا لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم أو التعدي على الرسول ﷺ، وهم يتلافون نظرات هؤلاء المحاربين الأشداء، خاصة «حمزة» و«عمر»

فلقيه نُعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟

قال: أريد محمداً، هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها وعاب دينها وسبَّ آلهتها، فاقتله.

فقال له نُعيم: والله لقد غرّتك نفسك يا عمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأي أهل بيتي؟ قال: خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما وتابعا محمداً ﷺ على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عائداً إلى أخته فاطمة، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «طه» يُقرئها إياها.

فلما سمعوا حسَّ عمر تغيَّب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى الباب قراءة خبَّاب عليها.

فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها فضربها فشجَّها.

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنُه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه

المحيطين بالرسول ﷺ كأسدين متوثبين فقدا شبلهما، كما روى الأثر(*).

وفي اليوم التالي ذهب «عمر» بدون أي جزع ليصلي بالحرم معلناً عداءه واستفزازه لقريش كلها، لكن عندما حاول مسلم آخر تقليده عومل بكل سوء وطرد، ولكن أحداً لن يقرب من ابن أخت أبي جهل كما ذكّروه بذلك وإزاء هذا أعلن لهم فسخ ولائه له وحمايته وبراءته منه، ومنذ ذلك اليوم ظل على ولائه للرسول ﷺ وظل واحداً من أشد المدافعين عنه.

الصحيفة التي كنتم تقرأون آنفاً، انظر ما هذا الذي جاء به محمد. وكان عمر كاتباً.

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافي. وحلف بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها.

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسُّه إلا المطهَّرون.

فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها «طه». فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!

فلما سمع ذلك خبَّاب بن الارت خرج إليه فقال له: والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه ﷺ، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب. فالله الله يا عمر.

فقال عند ذلك: فدُلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسْلَم. فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خَلَل الباب فإذا هو بعمر متوشح بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف.

(*) أليس هذا دليل على أن الجهاد بدأ بمكة المكرمة؟!

الفصل الثاني

محمد ■ أمام الحجاج

وهذه هي القصة العجائبية لإيمان «عمر» رضي الله عنه الذي سيكون بعد ذلك أشهر أبطال العقيدة الإسلامية، وقد أحبطت قريش جداً بهذا الانتصار الجديد لمحمد ﷺ، لدرجة أن «أبا طالب» خشي عليه ﷺ من الاغتيال الذي يمكن أن يحصل نتيجة خيانة أحد أتباعه، أو بالعنف المكشوف، فأخذه مع مجموعة من أتباعه المختارين إلى شعب بين هاشم في جوار مكة.

وقد سببت هذه الحماية التي قدمها «أبو طالب» رأس بني هاشم بمناصرة هاشميين آخرين غير مؤمنين بالدين الجديد، إنزال غضب القريشيين الآخرين وإظهار حقدهم على

قال ابن كثير:

فقال حمزة فَأْذَنْ له: فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه. فقال رسول الله ﷺ: إيذن له.

فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة، فقال: ما جاء بك يابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله.

قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة، فعرف أهلُ البيت أن عمر قد أسلم.

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعلموا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوِّهم.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر حين أسلم رضي الله عنه.

ونحن نقول:

هذا ويهتم «هيكل» من كل قصة إسلام «عمر رضي الله عنه» بأنها الدليل على تهافت حديث «الغرانيق» الذي لا زال أعداء الإسلام يتمنطقون به، إضافة إلى ثورة «الحبشة» التي

هذا الفرع بين القبائل، وكان على رأس هؤلاء فرع أمية الذي يرأسه «أبو سفيان» الذي رأى في ذلك فرصة لإدانة كل الفرع «الهاشمي» لا بحماية الرسول ﷺ فقط، بل بالهرطقة في دين الآباء أيضاً، وكره «أبي سفيان» وعداؤه الواضح ليس ضد رمز هذا الدين الجديد شخصياً، بل ضد امتيازات عائلته ونفوذها، إذ كان يطمح أن ينقل شرف سدانة الكعبة إلى عائلته، هذا الشرف الذي طالت حيازة فرع «هاشم» له. فاحتج بسلوك «أبي طالب» الطيب في إيواء محمد ﷺ بعيداً عن متناول قريش في شعب بني هاشم النائي ليحميه على أنه دليل على ترك سدانة الحرم من هذا العقب، لذلك أصدر وأتباعه منشوراً بمقاطعة القبائل لهم بكل مجالات الحياة المدنية، حتى في مجال البيع والشراء، إلى أن يسلموا محمداً ﷺ لهم ليعاقبوه، وهذا العهد أو المنشور كان في السنة السابعة للوحي النبوي وقد كتب على رق من جلد وعلق في الكعبة بتوقيع الجميع، وهكذا حوصر محمد ﷺ وأتباعه إلى حد المجاعة في حصنهم الذي لجؤوا إليه، وحرص القرشيون على مراقبة الحصن لكي يتأكدوا من فرض مقاطعتهم بكل مجالاتها، ولمنع احتمال أي تموين.

دفعت بالمهاجرين إلى العودة إلى مكة، وإبراز هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية التاريخية لا في تاريخ الإسلام الوقائعي فقط، بل في تاريخ الإسلام الفكري أيضاً، وللحقيقة هذا أمر يقف فيه «إيرفينغ» ـ كما سيرى القارئ ـ موقف مشابه لموقف «هيكل» وإن كان أقل تفصيلاً.

ونحن إذ يهمنا تفصيل هذا الرأي، لأن حديث «الغرانيق» قد عاد في هذا العصر ضمن حجج «الآيات الشيطانية» لا ككتاب رددنا عليه «بالآيات الرحمانية»[6] وبنفس لغته الانكليزية، بل كمجموعة من دعاوى السياسات الصهيونية في تقويض الإسلام تحت شعار تشجيع الالحاد الذي حتماً سيخدم مخططاتها في المنطقة اليوم، سنة لليهود منذ أن بدأوا التعامل مع الإسلام في فجر دعوته.

قال هيكل تحت عنوان:

أسباب عودة المهاجرين من الحبشة

١ ـ إسلام عمر

هذه هي الحجج التي يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرانيق، وهي حجج واهية لاتقوم أمام التمحيص. ونبدأ بدفع حجة المستشرق موير؛ فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة إنما دفعهم إلى العود إلى مكة سببان: أولهما أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل. وقد دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها، لم يخف إسلامه ولم يستتر، بل ذهب يعلنه على رؤوس الملا ويقاتلهم في سبيله. ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسللهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة بعيدين عن أذى قريش، بل دأب على نضال قريش حتى صلى

لكن مع قدوم الحجيج السنوي من كل أصقاع الجزيرة العربية إلى مكة، كانت تخرق هذه المقاطعة تدريجياً، لأن على العرب خلال هذا الشهر الهام من الأشهر الحرم حسب قوانينهم وأعرافهم ترك كل أصناف العداوة والبغضاء، لتتمكن القبائل من الاجتماع ولو مؤقتاً بسلام كي تؤدي شعائر الحج، لذلك تمكن محمد ﷺ وأتباعه من ترك هذا الحصن والنزول إلى مكة، بحماية الأشهر الحرم، وهكذا راح محمد ﷺ يختلط بالحجيج لينشر دعوته بينهم وينبئهم بالوحي الذي نزل عليه، فحصل بهذه الطريقة على الكثير من الأتباع الذين سيحملون معهم بذور الإيمان إلى أوطانهم البعيدة، ومن جملة هؤلاء المنتقلين إلى الدين الإسلامي كان هناك أمراء ورؤوساء قبائل في بعض الأحيان، يمكن أن يؤثروا على أتباعهم.

عند الكعبة وصلى المسلمون معه. هناك أيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهلية لا يعرف أحد مداها ولا على من تدور دائرتها. فقد أسلم من قبائل قريش وبيوتاتها رجال تثور لقتل أيّ واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه. فلا مفرّ إذاً من الالتجاء في محاربة محمد إلى وسيلة لا يترتب عليها هذا الخطر. وإلى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة، هادنت المسلمين فلم تنل أحداً منهم بأذى. وهذا هو ما اتّصل بالمهاجرين إلى الحبشة، ودعاهم إلى التفكير في العودة إلى مكة.

٢ ـ ثورة الحبشة

وربما تردّدوا في هذا العود لو لم يكن السبب الثاني الذي ثبت عزمهم؛ ذلك أن الحبشة شبت بها يومئذ ثورة على النجاشي، كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهم وجهت إليه. ولقد أبدى المسلمون أحسن الأماني أن ينصر الله النجاشي على خصومه؛ لكنهم لم يكونوا ليشاركوا في هذه الثورة وهم أجانب، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل. أما وقد ترامت إليهم أنباء الهدنة بين محمد وقريش، هدنة أنجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى، فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا بأهليهم؛ وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم. على أنهم ما كادوا يبلغون مكة حتى كانت قريش قد ائتمرت ما تصنع بمحمد وأصحابه، واتفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامة؛ فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم.

الفصل الثالث

أسطورة الحكيم «حبيب بن مالك»(*)

تضفي الأسطورة العربية الأبهة والفخامة على كيفية تحول أحد هؤلاء الأمراء إلى الدين الإسلامي، قاصدة من وضع هذه الأسطورة ـ تسجيل ـ وتأكيد ووضع واحدة من معجزات الرسول ﷺ الكبرى في سجل المعجزات، التي أنكرها الرسول ﷺ نفسه، لكن الأتباع أصروا على نسبها إليه لذلك هي جديرة بأن نلخصها كما يلي:

اسم الأمير موضوع هذه الأسطورة: «حبيب بن مالك» الملقب بالحكيم، وذلك بسبب معرفته وخبراته الواسعة، وقد وصف بأنه رجل عالم بالسحر، وبالعلوم كلها

قال هيكل:

وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين، ورجع الذين عادوا من الحبشة، وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم. وقد وجدوا هذه المرة عنتاً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة.

ليس الصلح الذي يشير إليه المستشرق موير، هو إذاً الذي دعا المسلمين إلى العودة من بلاد الحبشة؛ إنما دعاهم هذه الهدنة التي حدثت على إثر إسلام عمر وحماسته في تأييد دين الله. فتأييد حديث الغرانيق إذاً بحجة الصلح تأييد غير ناهض.

الاحتجاج بالآيات مقلوب

أما احتجاج المحتجين من كتاب السيرة والمفسرين بالآيات: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ..﴾ فهو احتجاج أشد تهافتاً من حجة السير موير ويكفي ان نذكر من الآيات الاولى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لنرى انه إن كان الشيطان قد ألقى في امنية الرسول

(*) هذه قصة مختلقة من أولها إلى آخرها في كل هذا الفصل، ولم أثبتها إلا أمانة للترجمة، ولأن بها إشارات إلى الأزياء فقط، ولعل إيرفينغ قد أحسن حين حددها «بالأسطورة» ومنها الكثير في المراجع القروسطية الغربية الموضوعة على الرسول ﷺ وهي غير موجودة قطعاً في كتب السير التاريخية، ونحن من خلالها كنموذج مما وضع على نبينا نستطيع أن نفهم كيف فهم أمثال «دانتي» وغيره من الاستشراق المعادي للسيرة والإسلام، فلتقرأ هذه الأسطورة على ضوء هذا.

ويعرف كل الأديان، لأنه أطلع وقرأ كل ما يخص هذه المعارف الإنسانية، إضافة إلى خبراته الذاتية بها حيث عمل بكل من هذه المعارف ومارسها واحدة واحدة، فكان يهودياً ثم مسيحياً ثم مانوياً، ولجعله تام الخبرة بهذه المعارف تؤكد الأسطورة العربية أنه قد بلغ من العمر مئة وأربعين سنة، عندما قدم إلى مكة مع عشرين ألفاً من أتباعه، ومعه ابنته «ساطعة» التي أنجبها مؤخراً لتقديم شعائر الحج في الكعبة. والدعاء لها لأنها كانت خرساء صماء عمياء كسيحة؟!

وقصد «أبو سفيان» و«أبو جهل» كما تؤكد الأسطورة مجلس هذا الضيف القوي العاقل المشرك لتأليبه على محمد ﷺ، فأخبراه بهرطقته في ادعائه النبوة، واقترحا على هذا الأمير إحضاره إلى مجلسه في مخيمه بوادي الحجارة، لتفنيد دعواه، على أمل أن يكون خطأ إجاباته مجلبة ووسيلة للقضاء عليه.

وتقول الأسطورة إن كل مشركي قريش قد جاؤوا لحضور هذا اللقاء بأبهتهم وتحاملهم سواء على ظهور الخيل أو سيراً على الأقدام، بقيادة «أبي سفيان» و«أبي جهل» في وادي الحجارة، وقد لقيهم «حبيب» حسب التقاليد المرعية وهو جالس تحت خيمة الاجتماع على كرسي من «الأبانوس» المطعم بالعاج وخشب الصندل المغطى برقائق الذهب.

وكان محمد ﷺ في منزل «خديجة» عندما وصلته الدعوة إلى هذا الاجتماع

حتى لقد كان يركن إليهم شيئاً قليلاً فقد ثبّته الله فلم يفعل، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات. وإذاً فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب. فقصة الغرانيق تجري بأن محمداً ركن إلى قريش بالفعل. وأن قريشاً فتنته بالفعل فقال على الله ما لم يقل. والآيات هنا تفيد أن الله ثبّته فلم يفعل. فإذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعاً غير مسألة الغرانيق، رأيت أن الاحتجاج بها في مسألة تتنافى مع عصمة الرسل في تبليغ رسالاتهم، وتتنافى مع تاريخ محمد كله، احتجاج متهافت، بل احتجاج سقيم.

أما الآيات ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ...﴾ فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتة، فضلاً عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويجعله فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، ويُحكم الله آياته والله عليم حكيم.

وندع هذا إلى تمحيص القصة التمحيص العلمي الذي يُثبت عدم صحتها. وأوّل ما يدل على ذلك تعدّد الروايات فيها، فقد رويت، كما سبق القول على أنها: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهنّ لترجى. ورواها بعضهم: «الغرانقة العلا إن شفاعتهم ترتجى». وروى آخرون: «إن شفاعتهم ترتجى» دون ذكر الغرانقة أو الغرانيق. وفي رواية رابعة: «وإنها لهي الغرانيق العلا»

المصيري الهام، فأنذرته «خديجة» وبناته معها بأن المطلوب هو رأسه، ورحن يندبن لأنهن علمن أنه ذاهب إلى موت محقق، لكنه خفف عنهن بلطف وطلب منهن الوثوق بالله.

وخلافاً لعدوّيه «أبي سفيان» و«أبي جهل» وصل إلى المكان بدون أية أبهة، بثياب بسيطة لابساً ثوباً أبيض، ومعتماً بعمامة سوداء، متشحاً بعباءة جده «عبد المطلب» الخشنة، وقد انسدل شعره ﷺ من تحت العمة على كتفيه، وأحاطه نور النبوة وشع منه، وعبق بندى الطيب رغم أنه لم يتطيب إلا بقليل من المسك والكافور على شعره ﷺ وشاربه، وكان العبق الرائع يضوع منه في كل مكان يمر فيه، ويعكس طيب ذاته.

ويصحبته «أبو بكر» يلبس قميصاً أرجوانياً ويعتم بعمامة بيضاء، وقد جمع عباءته تحت إبطه التي أظهرت ثوبه تحتها.

وعم سكون مهيب كما تقول الأسطورة على جميع الحضور عندما اقترب الرسول ﷺ، فلم يعد يسمع أي صوت، حتى من الحيوانات المصاحبة لفرسانها، وخيم الصمت على كل شيء.

ثم قام «حبيب» واستقبله بالترحاب ودخل معه بالموضوع مباشرة قائلاً: يقولون أنك تدعي أنك رسول أرسله الله؟! فهل هذا حقاً؟!

فأجابه ﷺ لقد أرسلني الله لإعلاء دينه على الرغم من المشركين؟!

حسناً.

وفي رواية خامسة: «وإنهن لهن الغرانيق العلا. وإن شفاعتهم لهي التي ترتجى» وقد وردت في بعض كتب الحديث روايات أخرى غير هذه الروايات الخمس. وهذا التعدُّد في الروايات يدلّ على أن الحديث موضوع، وأنه من وضع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق، وأن الغرض منه التشكيك في صدق تبليغ محمد رسالات ربه.

ودليل آخر أقوى وأقطع؛ ذلك سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسالة الغرانيق. فالسياق يجري بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۞ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۞ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الآيات: 18 ـ 23].

وهذا السياق صريح في ان اللاّت والعزّى أسماء سمَّاها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان. فكيف يحتمل أن يجري السياق بما يأتي: «أفرأيتم اللاّت والعزّى. ومناة الثالثة الأخرى. تلك الغرانيق العلا. إن شفاعتهنّ ترتجى. الكم الذكر وله الأنثى. تلك إذاً قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» إن في هذا

ولكن لكل رسول بينة يظهر بها صدق رسالته ومعجزة تؤيده، فنوح كان له قوس القزح، ولسليمان خاتمه العجائبي، ولإبراهيم كانت النار التي عادت برداً وسلاماً عليه، فإذا كنت رسول حقاً أعطنا معجزة تثبت ذلك.

فجزع أصحاب محمد ﷺ من هذا الطلب، بينما فرك «أبو جهل» يديه مبدياً إشارات المدح «لحبيب» الحكيم على سؤاله المباشر هذا، فرمقه الرسول ﷺ بنظرة قائلاً الزم نفسك يا كلب القوم وعار أناسك وقبيلتك؟! وبهدوء تابع تنفيذ رغبة «حبيب».

فكانت أول معجزة إظهار الداعي الذي دعا حبيب إلى قدومه فيما جلبه بخيمته إلى مكة.

ولهذا كما تقول الأسطورة انحنى الرسول ﷺ إلى الأرض والتقط حفنة من الرمال، ثم رفع يديه قائلاً: لقد أحضرت يا حبيب ابنتك الصماء العمياء والكسيحة «ساطعة» على أمل أن تشفيها السماء، اذهب إلى هذه الخيمة وتكلم معها واسمع جوابها، واعلم أن الله تعالى هو القوي العزيز.

وعندما أسرع هذا الأمير الهرم إلى خيمته، استقبلته ابنته بذراعيها وقد عادت تامة المعالم، وعيناها تطفحان بشراً، وعلى وجهها بسمة، وهي مشرقة أكثر من قمر مكتمل.

أما المعجزة الثانية فكانت بجعل القمر ينزل ويستقر على ظهر الكعبة وقد ترك

السياق من الفساد والاضطراب والتناقض، ومن مدح اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى وذمها في أربع آيات متعاقبة، ما لا يسلّم به عقل ولا يقول به إنسان، ولا تبقى معه شبهة في أن حديث الغرانيق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم، وصدّقه من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيغ العقل المنطقي.

وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ محمد عبده حين كتب يفنّد قصة الغرانيق. تلك أن وصف العرب لآلهتهم بانها الغرانيق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على السنتهم. وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائيّ أسود أو أبيض، والشابّ الأبيض الجميل. ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب.

وقال ابن كثير:

ثم ذكر ابن إسحاق من عاد من مُهاجرة الحبشة إلى مكة.

وذلك حين بلغهم إسلامُ أهل مكة، وكان النَّقْل ليس بصحيح، ولكن كان له سبب.

وهو ما ثبت في الصحيح وغيره أن رسول الله ﷺ جلس يوماً مع المشركين، وأنزل الله

السماء لعتمة دامسة، وقد رأى الناس كيف نزل القمر استجابة لطلب المصطفى ﷺ وكيف انسحب من السماء ليدور سبعاً حول الكعبة ثم يأتي إلى محمد ﷺ ليجلس في حجره، وكأنه سيف مشتعل في تنقله، ويحيه بالسلام عليه كرسول لله.

ولم يكتف الرسول ﷺ بهذه المعجزات كما تستمر الأسطورة، بل أمر القمر أن يدخل في كم عباءته من اليمين ليخرج من اليسار، ثم لينقسم إلى قسمين ذهب أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب ليعودا إلى اللقاء ثانية كما كانا قمراً في مجد السماء.

وبهذا آمن «حبيب» وجماعته ومعهم أربعمئة وسبعون مكياً، لكن هذه البينات زادت «أبا جهل» تعنتاً لأنه أكد أنها كلها سحر أوهام سحرهم به محمد ﷺ.

وجدير بالبيان أن الرسول ﷺ لم يدع أي معجزة غير القرآن، لكن أمثال المؤرخ «أبو الفداء»(*) وغيره في التقاليد العربية أصروا على نسب هذه المعجزة وسواها إليه ﷺ مما وضعوه على الرسول؟! وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً للإسلام وإليه ﷺ؟!

عليه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ يقرؤها عليهم حتى ختمها وسجد، فسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والإنس.

وكان لذلك سببٌ ذكره كثير من المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة الحج: 52].

وذكروا قصة الغرانيق، وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحاً لئلا يسمعها من لا يضعها على مواضعها.

(*) لم نجد هذه الأسطورة عند رواتنا العرب، ولعلها غريبة في أساسها موضوعة ولم يذكرها ابن كثير لا من قريب ولا من بعيد، ولعلها في التراجم الاسبانية المختلقة فقط.

الباب الحادي عشر

الفصل الأول

وفاة أبي طالب وخديجة «رضي الله عنهما»

ثلاث سنوات مضت على محمد ﷺ وأتباعه في شعب بني هاشم، والحظر لا زال قائماً عليهم حائلاً بينهم وبين باقي القبائل، على أن لا ننسى أن الاضطهاد يزيد من قوة الطوائف كالعادة، لذلك لحق الكثير من أهل مكة بالدين، وزاد الهمس ضد ظلم قريش حتى أن «أبا سفيان» قد بدأ يخجل من معاملته العدائية هذه لأبناء بلده.

ثم تبين أن عهد المقاطعة الذي كتبوه وعلقوه بالكعبة الشريفة قد تآكل ولم يبق من كلماته إلا افتتاحيته «باسمك اللهم» وهكذا اعتبر هذا العهد لاغياً، فسمح لمحمد ﷺ وأتباعه بالعودة إلى مكة، بدون أي اعتداء عليهم، لذلك اعتبر المسلمون المؤمنون أن الطريقة الغامضة التي أزالت هذا العهد معجزة قامت بها قوى فوق طبيعية لصالح

قال ابن كثير:

روي من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا أسيد الكلابي، أنه سمع العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه. قال: رأيت غلبة فارس الرومَ، ثم رأيت غلبة الروم فارسَ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم، وظهورهم على الشام والعراق، كل ذلك في خمس عشرة سنة!!

ـ وقد بدأ كل هذا من عام الأحزان؟! فما هو عام الأحزان؟! ـ

قال ابن كثير:

ـ بينما أبي طالب على فراش الموت وقد ـ رأى حرص رسول الله ﷺ قال: يابن أخي والله لولا مخافة السُبَّه عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش إني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها.

قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بإذنه.

قال: فقال: يابن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها.

قال: فقال رسول الله ﷺ: لم أسمع.

الرسول ﷺ، بينما اعتبر غير المؤمنين أن العهد سبب إحراجاً لأبي سفيان، فخربته أياد بشرية(*).

وتبع عودة محمد ﷺ وأتباعه إلى مكة، زيادة بعدد الأتباع من سكانها ومن الحجاج القادمين إليها كل عام، لكن حين انتصر الفرس ـ المشركون ـ على الروم ـ المؤمنين ـ شمت خصوم الدعوة بالمسلمين مما قلل من زيادة الأتباع، خاصة وأن سورية وقسماً من مصر سقطت بأيدي الفرس، فاستنتج المشركون القريشيون من هزيمة المسيحية التي تعارض عبادة الأصنام برهاناً على عكس ما يدعو إليه الرسول ﷺ من نصر المؤمنين الحتمي على الشرك، وكان رده ﷺ على هذا الاستنتاج وتلك الشماتة في السورة الثلاثين من القرآن وهي «سورة الروم» التي تفتتح بقوله تعالى:

﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الروم مكية: 1 ـ 4].

لذلك تراهن «أبو بكر الصديق» المؤمن الغيور مع أحد المشركين على أن هذا الوعد سيحصل بعد ثلاث سنوات، لكن وبناء على نصيحة الرسول ﷺ بأن يزيد قيمة الرهان ويطيل المدة أكثر، قدم أبو بكر مئة جمل على أساس أن هذا الوعد سينجز بين سبع وتسع سنوات، وربح رهانه على هذا الأساس، ويمكننا أن نؤكد حدوث هذه الواقعة الموثقة تاريخياً من علماء المسلمين بشكل جيد، كبرهان على صدق نزول القرآن من السماء، وأن محمداً ﷺ يملك هبة النبوة، وليس الأمر نتيجة تخمين لا أساس له

قال: وأنزل الله تعالى في أولئك الرهط ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ الآيات. وقد استدل بعض من ذهب إلى أن أبا طالب مات مسلماً بقول العباس في هذا الحديث.

وقال ابن كثير:

في موت خديجة بنت خويلد

وذِكْر شيء من فضائلها ومناقبها رضي الله عنها وأرضاها، وجعل جنات الفردوس منقلبها ومثواها. وقد فعل ذلك لا محالة بخبر الصادق المصدوق، حيث بشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

(*) مما يلفت النظر إلى اللعبة السياسية التي بدأها «أبو سفيان» قبل إسلامه ثم انظر ابن هشام، السيرة النبوية، المكتبة العلمية، بيروت، عام؟ جـ 1، ص 380، قصيدة حسان بن ثابت: يبكي المطعم بن عدي حين مات ويذكر قيامه في نقض الصحيفة.

عن المستقبل، أو أن أسسه قائمة على معلومات عن واقع حال المتحاربين.

أما بعد عودته ﷺ إلى مكة بقليل فقد شهد إغماض عيني عمه «أبي طالب» المتقدم بالعمر تقدم شخصيته في كل مجالات الحياة، وعندما اقتربت ساعته، ألح الرسول ﷺ على عمه بضرورة قول الشهادة ليبعث كما يحب.

لكن شرارة من الإباء الأرضي لمعت في صدر هذا البطل المحتضر فقال: يا ابن أخي؟ ستقول قريش إن أبا طالب خاف الموت؟! النار ولا العار!!؟

إلا أن المؤرخ «أبو الفدا» يصر على أن أبا طالب مات مؤمناً، من شهادة «العباس» الذي كان واقفاً على رأس أخيه وهو يحتضر، وقد لمح شفتيه تتحركان بالشهادة التي سمعها حين قَرَّبَ أذنيه منه، وربما كان هذا أملاً باعترافه ليس إلا، بينما أكد مؤرخون آخرون أن كلماته الأخيرة كانت: «أموت على دين عبد المطلب» وقد فسرها المفسرون على «أن عبد المطلب» قد هجر عبادة الأوثان في أيامه الأخيرة وآمن بالله الواحد.

ولم تمض ثلاثة أيام على موت «أبي طالب» الجليل الشأن، إلا ولحقته إلى القبر «خديجة» المؤمنة المكرسة للرسول ﷺ وزوجته وهي في السادسة والخمسين من عمرها، فذرف الرسول ﷺ على قبرها دموعه ﷺ بأسى ولوعة على فقدها وفقد عمه «أبي طالب» لذلك سميت تلك السنة بسنة الأحزان، ولم يخفف أحزانه ﷺ كما ذكر «أبو هريرة» إلا تأكيد «جبريل» له ﷺ أن قصراً من الفضة قد بني لخديجة في الفردوس جزاء لها على إيمانها العظيم، وخدمتها لقضية الإسلام من أول أمرها.

وبالرغم من أن «خديجة» كانت أكبر بكثير من الرسول ﷺ بالعمر، وقد اجتازت مرحلة الغضاضة المرغوبة في الشرق من المرأة، ورغم أن الرسول ﷺ قد صرح برغبته

قال يعقوب بن سفيان: حدثناأبو صالح، حدثنا الليث، حدثني عُقيل، عن ابن شهاب قال: قال عروة بن الزبير: وقد كانت خديجة توفيت قبل أن تفرض الصلاة.

ثم روى من وجه آخر عن الزهرى أنه قال: توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقبل أن تفرض الصلاة.

وقال محمد بن إسحاق: ماتت خديجة وأبو طالب في عام واحد.

وقال البيهقي: بلغني أن خديجة توفيت بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام. ذكره عبد الله بن منْده في كتاب المعرفة، وشيخنا ابو عبد الله الحافظ.

قال البيهقي: زعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرجوا

في النساء والطيب ظل مخلصاً لها إلى النهاية، فلم يسمح لنفسه عبر قوانين العرب التي تبيح تعدد الزوجات بأن يأتي بضرة لها في بيته، لكنها بعد أن توفيت وهون عليه ـ جبريل ـ آلامه بفقدها، عوض عنها بزواج آخر أتبعه بزيجات متعددة، وسمح الشرع الإسلامي بأربعة زوجات، لكنه لم يتقيد هو ﷺ بهذا العدد، لصفات النبوة التي تصطفيه عن امتيازات الآخرين.

من الشِّعب، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة.

قلت: مرادهم قبل أن تُفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء.

وكان الأنسب بنا أن نذكر وفاة أبي طالب وخديجة قبل الإسراء، كما ذكره البيهقي وغير واحد، ولكن أخَّرنا ذلك عن الإسراء لمقصد ستطلع عليه بعد ذلك، فإن الكلام به ينتظم ويتسق الباب. كما تقف على ذلك إن شاء الله.

وقال البخاري: حدثنا قُتيبة، حدثنا محمد بن فُضَيل بن غزوان، عن عُمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة. قال: أتى جبرائيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنِّي، وبشِّرها ببيت في الجنة من قَصب لا صخب فيه ولا نصَب.

وقد رواه مسلم من حديث محمد بن فضيل به.

وقال البخاري: حدثنا مُسدَّد، حدثنا يحيى، عن إسماعيل، قال: قلت لعبد الله بن أبي أَوْفَى: بشَّر النبي ﷺ خديجة؟ قال: نعم، ببيت من قصَب لا صَخَب فيه ولا نَصَب.

ورواه البخاري أيضاً ومسلم من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد به.

قال السهيلي: وإنما بشَّرها «ببيت في الجنة من قَصَب»، يعني قصب اللؤلؤ، لأنها حازت قصب السَّبْق إلى الإيمان «لا صخَب فيه ولا نصَب»، لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ ولم تتعبه يوماً من الدهر، فلم تصخب عليه يوماً ولا آذته أبداً.

الفصل الثاني

خطبة عائشة رضي الله عنها

وكان خياره الأول ﷺ بعد شهر من موت «خديجة» على الطفلة «عائشة» ابنة تابعه المخلص «أبي بكر» الشجاع المشهور في قبيلته، وكان عمر «عائشة» سبع سنوات، لكن النساء ينضجن في سن مبكرة في البلاد الحارة، ورغم ذلك كان لا يمكن الدخول بها لصغرها، لذلك أخر هذا الأمر لسنتين أخريين، تتهيأ خلالهما بالثقافة التي تسمح للمرأة الحرة العربية من علية القوم لتكون زوجة صالحة.

ولهذه المختارة من بداية زهرة عمرها كانت تتجه عاطفة الرسول ﷺ أكثر من سواها من زوجاته المتتابعات اللواتي كن كلهن متزوجات من رجال قبله، خاصة وأن «عائشة» رضي الله عنها كانت العذراء الوحيدة بين يديه ﷺ.

ومع ذلك لم يبق عازباً فترة إعدادها للزواج لتصل إلى السن الملائمة، فتزوج «بسودة بنت زمعة» أرملة «شكران» أحد أتباعه، التي كانت مربية لابنته «فاطمة»، وإحدى المؤمنات المهاجرات إلى الحبشة، منذ الاضطهاد الأول للإسلام في مكة، ويقال إنها

وقال ابن كثير:

وقال الإمام أحمد في مسند عائشة أم المؤمنين: حدثنا محمد بن بِشر، حدثنا بِشر، حدثنا محمد بن عمرو [حدثنا] أبو سلمة ويحيى، قالا: لما هلكت خديجة جاءت خَولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوَّج؟ قال: من؟ قالت: إن شئت بِكراً، وإن شئت ثَيِّبا.

قال: فمن البِكر؟ قالت أحبُّ خلق الله إليك عائشة ابنة أبي بكر.

قال: ومن الثيب؟ قالت سَوْدة بنت زَمْعة، قد آمنت بك واتبعتك. قال: فاذهبي فاذكريهما عليَّ.

فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة قالت: انظري أبا بكر حتى يأتي.

فجاء أبو بكر فقلت: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة! قال: وما ذاك؟

عندما كانت في المنفى أنبئت بالمستقبل الذي ستصير إليه عبر حلم رأت فيه الرسول ﷺ يضع رأسه على صدرها، ولما أخبرت زوجها بالحلم تنبأ بأنه لن يعيش طويلاً إذ ستتزوج الرسول ﷺ من بعده.

وسواء سبق هذا الزواج توقع أم لم يسبق فقد تم هذا الزواج، لكن الرسول ﷺ لم يكن بقلبه «لسودة» أياً من العواطف التي كانت لزوجاته الأخر، لأنه ابتعد عنها في سنين قادمة، دون أن تفقد شرف بقائها زوجة الرسول ﷺ، لذلك تركت يومها لعائشة رضي الله عنها، وظلت في حرمته ﷺ طوال بقية حياتها.

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه.

فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال: «ارجعي إليه فقولي له: أناأخوك وأنت اخي في الإسلام وابنتك تصلح لي».

فرجعتُ فذكرت ذلك له قال: انتظري، وخرج. قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد ابو بكر وعداً قط فأخلفه.

فدخل ابو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الصبي. فقالت: يا ابن أبي قحافة لعلك مُصبئ صاحبنا تُدْخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوَّج إليك؟! فقال ابو بكر للمطعم بن عدي أَقَوْلَ هذه تقول؟ [قال:] إنها تقول ذلك. فخرج من عنده وقد اذهب الله ما كان في نفسه من عِدته التي وعده.

فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ. فدعته فزوجها إياه، وعائشة يومئذ بنت ست سنين.

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ما أدخل الله عليك من الخير والبركة؟! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك إليه. قالت: وددتُ، أدخلي إلى أبي بكر فاذكري ذلك له، وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فحييته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قالت: خولة بنت حكيم. قال: فما شأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سَوْدَة. فقال: كفء كريم، ما تقول صاحبتُكِ؟ قالت: تحب ذلك. قال: ادعيها إليَّ. فدعتها قال: أيّ بُنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك به؟ قالت: نعم. قال: ادعيه لي.

فجاء رسول الله ﷺ فزوَّجها إياه.

فجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج، فجاء يحثي على رأسه التراب. فقال بعد أن أسلم: لعمرك إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة!

الفصل الثالث

إخراجه ﷺ من الطائف

بدأ فقد الرسول ﷺ لأبي طالب يؤثر عليه تدريجياً، لا من الناحية العاطفية فقط، بل كنصير وحام قوي له ﷺ بسبب نفوذه القوي في مكة المكرمة، فبعد موته لم يعد أحد ليقف ليرد الهجوم المعاكس لأبي سفيان وأبي جهل عن الرسول ﷺ، اللذين حرضا دوافع الاضطهاد ضد النبي ﷺ عند القريشيين، إلى الحد الذي وجد معه الرسول ﷺ أنه لم يعد يستطيع الإقامة بينهم، فتوجه إلى الطائف بصحبة عتيقه «زيد» عسى أن يجد

قال ابن كثير في تنكر الطائف للرسول ﷺ:

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم، فيما ذكر لي، إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليّ. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيُذئرهم ذلك عليه.

فلم يفعلوا، وأغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه.

فعمد إلى ظل حُبْلَة(*) من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف.

وقد لقي رسول الله ﷺ، فيما ذكر لي، المرأة التي من بني جمح، فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك!

فلما اطمأن قال فيما ذكر: «اللهم إليك أشكو ضعف قوّتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أم إلى عدو ملَّكته أمري؟! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلُح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو تُحلّ على سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك».

(*) الحبلة: الكرمة.

الحماية هناك، وهي مدينة صغيرة تبعد مسافة سبعين ميلاً عن مكة في الجبال تسكنها قبائل ثقيف، وهي من أخصب البقاع العربية وأغناها بالحدائق والأعناب، والدراق والخوخ، والتين والفواكه والخضراوات، على عكس جدب الأماكن الصحراوية القريبة منها، إلى حد أن العرب قد وضعت حولها أسطورة تدعي أنها جزء من سورية جرفها الطوفان ـ طوفان نوح ـ إلى الجزيرة العربية.

ولما كان لعم الرسول ﷺ العباس أملاك هناك دخل الطائف واثقاً إلى حد ما بتأثير عمه فيها، لكن تبين أنها أسوأ مكان يمكن أن يؤمن له هذه الحماية، لأن الطائف كانت أيضاً من أقوى مراكز الوثنية، حيث تعبد فيها «اللات» صنم امرأة سبق لنا ذكره، وقد غطيت منحوتتها بالجواهر النفيسة التي كان يهبها عبادها لها، ويعزون لها الحياة داخل صنمها وهي كإحدى بنات الله جل وعلا أفضل وسيلة له تعالى بزعمهم.

وظل محمد ﷺ مدة شهر بالطائف يحاول عبثاً هداية أحد من سكانها، فكلما كان يريد أن يلقي خطبة فيهم كانوا يقاطعونه بالسخرية، وقد جرح أكثر من مرة بما ألقي عليه من الحجارة، التي حاول «زيد» المخلص جاهداً صدها عنه. ثم تصاعد هذا الغضب الشعبي ضده ﷺ أخيراً إلى حد طرده من المدينة، تلاحقه الإهانات من وراء أسوارها، وبعض أبناء العبيد يقذفونه بالحجارة.

وبهذه الطريقة أخرج من المكان الذي أمل فيه الملجأ، دون أن يجرؤ على العودة

قال: فلما رآه ابنا ربيعة عُتبة وشيبة وما لقي تحركت له رَحِمُهما، فدعو غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس [وقالا له] خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه.

ففعل عدّاس، ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له كل.

فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «بسم الله» ثم أكل، ثم نظر عدّاس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي بلاد أنت يا عدّاس وما دينك؟ قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

فقال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متّى؟

فقال رسول الله ﷺ: ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي.

فأكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه؟

قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك.

علانية إلى بلده، فظل في الصحراء حتى يتمكن «زيد» من إيجاد مأوى سري له بين أصحابه في مكة. وبينما هو بهذه الحال من الإحباط النفسي الذي يصاحب دائماً لحظات وحدته بمثل هذه الحالة، وفي مكان منعزل في وادي «نخلة» بين مكة والطائف، وهو وحيدٌ لا معيل له، كُشِفَ الغطاء بينه ﷺ وبين المخلوقات اللامنظورة برؤية أعقبت تلاوته للقرآن، حيث وجد نفسه محاطاً بقوم من الجن، الذين يعبرون المكان، وهذه المخلوقات الروحية البحتة معرضة كالإنسان إلى الثواب والعقاب، ومنها المؤمن ومنها الكافر(*): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الأحقاف مكية: 29 ـ 31].

لقد أعقبت هذه الرؤية الروحية للرسول ﷺ بعد أن أخرج من «الطائف»، كتأكيد أن رفض الدعوة من قبل الناس لا يعني رفضها عقلياً من العقول الروحية، وقد ثبت هذا في القرآن الكريم في سورة «الأحقاف»، وسورة «الجن»، فالدعوة الإسلامية دعوة لكل عقل «أنسياً» ظاهراً كان أم مخفياً «جنياً»(**).

فلما جاء عدَّاس قالا له: ويلك يا عدَّاس! مالك تقبِّل راس هذا الرجل ويديه وقدميه.

قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيّ.

قالا له: ويحك يا عدَّاس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

(*) راجع ما قلناه في المقدمة حول أمر الشر والشيطان.

(**) كلمة جن في لغة العرب تعني الخفاء فقط، وقد عرفه الشيخ ابن سينا بأنه حيوان ـ حياة ـ هوائي يتشكل بأشكال مختلفة.. أي من بيان مدلول هذا اللفظ مع قطع النظر عن انطباقه على حقيقة خارجية، انظر: بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت 1977م، ص 130 جنع.

البَابُ الثَّانِي عَشَر

الفصل الأول

الإسراء

تم تأمين ملجأ وحماية للرسول ﷺ من «المُطْعِم بن عدي» فغامر بدخول مكة، ولم يلبث بعد أن أعقب كشف غطائه عن الجن في وادي «نخلة» بسط الأرض والسماء بين يديه عبر رؤية أو وحي كان أكثر خرقاً للعادة. وهو منذ حصوله ظل موضوع تعليقات من دكاترة ـ فقهاء ـ الإيمان الإسلامي، وموضوع خرافات من الساذجين، ونعني الرحلة الشهيرة التي أُسرِيَ به فيها ﷺ من «مكة» إلى «بيت المقدس»، ومنهما إلى السماء روحياً، والتي أعطى الرسول ﷺ عنها بعض المجملات بكلامه عنها بالسنة،

قال ابن كثير:

ولنذكر ملخص كلام ابن إسحاق رحمه الله: فإنه قال بعد ذكر ما تقدم من الفصول.

ثم أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى، وهو بيت المقدس من إيلياء، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها.

قال: وكان من الحديث فيما بلغني عن مَسراه ﷺ عن ابن مسعود، وأبي سعيد، وعائشة، ومعاوية، وأم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنهم، والحسن بن أبي الحسن، وابن شهاب الزُهري، وقتادة وغيرهم من أهل العلم، ما اجتمع في هذا الحديث، كلٌ يحدث عنه بعض ما ذكر لي من أمره.

وكان في مَسْراه ﷺ وما ذكر لي منه بلاء وتمحيص، وأمر من أمر الله وقدرته وسلطانه، فيه عبرة لأولى الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدَّق وكان من أمر الله على يقين.

فاسرى به كيف شاء وكما شاء، ليريه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد.

وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني يقول: أتى رسول الله ﷺ: بالبُراق، وهي الدابة التي كانت تُحمَل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في موضع منتهى طرفها، فحمل عليها.

ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض.

وكانت فرصة لإضافة خرافات الشراح الساذجين، كما يستطيع البعض أن يجد لها تحديدات إرجاعية غير خرافية ودقيقة لكنها قليلة في آيات متفرقة في القرآن الكريم، تخالف تفاصيل سردها الخرافي ببعض السير، ونحن لن ندعي الإحاطة بهذا الأمر لذلك سنعرض العلامات الأساسية العامة لهذه القصة من الأثر الشعبي ونضيف تصحيحاتها بعد سردها، كما جاءت بصورتها العامة في التقاليد.

حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى، في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له، فصلى بهم.

ثم أتى بثلاثة آنية من لبن وخمر وماء. فذكر أنه شرب إناء اللبن، فقال لي جبريل: هُديت وهديت أمتك.

وذكر ابن إسحاق في سياق الحسن البصري مُرْسلاً أن جبريل أيقظه، ثم خرج به إلى باب المسجد الحرام، فأركبه البُرَاق، وهو دابة أبيض بين البغل والحمار، وفي فخذيه جناحان يَحْفز بهما رجليه، يضع حافره في منتهى طرفه، ثم حملني عليه ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته.

قلت: وفي الحديث، وهو عن قتادة فيما ذكره ابن إسحاق، أن رسول الله ﷺ لما أراد ركوب البراق شَمَس به، فوضع جبريل يده على مَعرَفته ثم قال ألا تستحي يا براق مما تصنع! فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمداً أكرم عليه منه. قال: فاستحى حتى ارفَضَّ عرقاً، ثم قَرَّ حتى ركبتُه.

قال الحسن في حديثه: فمضى رسول الله ﷺ ومضى معه جبريل، حتى انتهى به إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فأمَّهم رسولُ الله ﷺ فصلى بهم.

الفصل الثاني

الخرافة الشعبية حول الإسراء والمعراج(*)

لقد وصفت الليلة التي حصل بها الإسراء على أنها من أحلك الليالي، وأكثرها سكوناً وصمتاً، فلا صياح ديكة ولا عواء كلاب، أو وحوش في البر، ولا نعيق بوم، حتى أن صوت خرير الماء توقف، وتوقفت الريح عن الصفير لدرجة بدت فيها كل الطبيعة كالميتة غير المتحركة، وفي منتصف هذه الليلة صحا الرسول ﷺ على صوت جبريل يوقظه بطلعته الخارقة المتلألئة كاللؤلؤ والذهب.

وقد أحضر معه مركوباً للرسول ـ بين البغل والحمار ـ لم ير مثله من دواب الركب سابقاً ليوصف، وله جناحان يشبهان جناحي النسر ـ في فخذيه ـ يتألقان تألق الضوء

قال ابن كثير:

ثم ذكر اختياره إناء اللبن على إناء الخمر، وقول جبريل له: هُديت وهديت أمتك، وحُرِمَت عليكم الخمر.

قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة، فاصبح يخبر قريشاً بذلك.

فذكر انه كذَّبه أكثر الناس، وارتدَّت طائفة بعد إسلامها.

وبادر الصدِّيقُ إلى التصديق وقال: إني لأصدِّقه في خبر السماء بُكرة وعشيّة، افلا أصدقه في بيت المقدس!

وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس، فذكرها له رسول الله ﷺ.

قال: فيومئذ سمِّي أبو بكر الصديق.

قال الحسن: وأنزل الله في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية.

* * *

(*) ننبه إلى أن إيرڤينغ يعرض هنا الأثر الشعبي لقصة الإسراء والمعراج، كما وصلت إلى الفكر الغربي، لذلك يتعرض للخرافة الأسطورية لا للقصة الحقيقية. ومن أجل هذا سنعقب بخبر ابن كثير ثم رأي «هيكل» المعاصر.

الثاقب، وشكله يتألق تألق الأحجار النفيسة والشهب، لذلك اشتق اسمه من البرق فهو «البراق».

ولما دنا منه الرسول ﷺ ليركبه شمس، فوضع جبريل يده على مَعْرفته ثم قال: ألا تستحي يا براق مما تصنع، فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه.

فرد البراق الذي أوتي بشكل عجائبي ملكة النطق، أن يا جبريل: ألم يركبني «إبراهيم» عليه السلام في غابر الزمن حين زار ابنه «إسماعيل» عليه السلام، ألم يكن هو الشفيع رسول الإيمان الأول؟!

ومع هذا ردّ جبريل: هذا هو محمد بن عبد الله النبي العربي، سيد أبناء آدم، وأعظم الرسل وخاتم النبيين، الشفيع لكل الأمم قبل دخولها الجنة، والذين يؤتون كتابهم بيمينهم، بينما على يساره من يؤتى كتابه بيساره من أهل النار التي يدخلها كل كافر معارض لرسالته.

فليكن شفيعي في اليوم الآخر رد البراق على جبريل، فأجاب محمد ﷺ سيشفع الله لك بإذنه تعالى، فاقترب هذا الحيوان ـ استحياء حتى أرفض عرقاً ـ ثم ـ قَرّ ـ حتى ركبه الرسول ﷺ وانطلق به فوق جبال مكة، وبينما كان يسير بسرعة البرق بين السماء والأرض أوقفه جبريل ليعودوا ويصلوا ركعتي شكر على الأرض لله، ولما سأل الرسول ﷺ صاحبه «جبريل» عن المكان الذي صلوا فيه؟ ولماذا اختاره؟ كان جوابه: إنه جبل سيناء الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام.

ثم ركبوا كما فعلوا في السابق بسرعة البرق بين السماء والأرض وما كادوا حتى أوقفهم جبريل ثانية لينزلوا لصلاة شكر أخرى، ولما سأل الرسول ﷺ عن المكان؟ قال

وذكر ابن إسحاق فيما بلغه عن أم هانئ، أنها قالت: ما أُسري برسول الله ﷺ إلا من بيتي، نام عندي تلك الليلة بعدما صلى العشاء الآخرة، فلما كان قُبيل الفجر اهبَّنا ـ أيقظنا ـ فلما كان الصبح وصلينا معه، قال: «يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة في هذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين».

ثم قام ليخرج، فأخذتُ بطرف ردائه فقلت: يا نبي الله لا تحدِّث بهذا الحديث الناس فيكذبونك ويؤذونك.

قال: «والله لأحدثنَّهموه». فأخبرهم فكذبوه.

فقال: وآية ذلك أني مررتُ بِعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حسُّ الدابة، فندَّ لهم

جبريل إنها «بيت لحم» حيث ولد «المسيح ابن مريم» فيها.

فأسلس الرسول ﷺ زمام الرحلة للمأمور من الله تعالى: جبريل، وانطلقوا بسرعة البرق بين السماء والأرض، ليستمهلهم صوت يخرج عن يمينهم مستطلعاً أن يا محمد تمهل حتى أكلمك، فأنا الأكثر إخلاصاً ونصحاً لك من كل المخلوقات. لكن البراق زاد من سرعته، ولم يحاول الرسول ﷺ تخفيف سرعته فعليه أن يسير إلى ما هو مأمور له، والأمر لله القوي العزيز لا للرسول ﷺ.

وما كادوا يجتازونه حتى تمهلهم صوت آخر يطلب منهم العودة إلى مصدره، لكن البراق استمر مسرعاً، ليجد الرسول ﷺ نفسه أمام امرأة ما عرف حسنها أنس ولا جان، ترفل بأنفس ما في الوجود من الحلي، وتسأل الرسول ﷺ أن تحدثه قليلاً وعلى وجهها ابتسامة ولا أعذب قائلة: أنا الأكثر نصحاً وإخلاصاً لك من كل الموجودات فتمهل لمحادثتي، لكن الرسول ﷺ لم يقف لأن الأمر لله تعالى لا له في هذه الرحلة.

إلا أنه خاطب جبريل مستفهماً عمن كانت هذه الأصوات، ومن هي هذه الحسناء؟! فأجابه بأن الصوت الأول صوت اليهود، وهو لو سمع لهم لهادت أمته، والثاني صوت النصارى ولو سمع لهم لتنصرت، أما الحسناء فهي مباهج الحياة الأرضية الفانية ولو سمع لها، لاختارت أمته مباهج هذه الحياة عن مباهج الآخرة، ولباءت بالخسران المبين.

بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضَجَنَان(*) مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم تُصوَّب الآن من ثنية التَّنعيم البيضاء، يقدمها جمل أوْرَقُ عليه غِرارتان إحداهما سوداء والأخرى بَرْقاء. قال: فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل الذي وصف لهم وسالوهم عن الإناء وعن البعير، فأخبروهم كما ذكر صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر يونس بن بُكير، عن أسباط، عن إسماعيل السُّدِّي، أن الشمس كادت أن تغرب قبل أن يقدم ذلك العير، فدعا الله عز وجل فحبسها حتى قَدِموا كما وصف لهم.

قال: فلم تحتبس الشمس على أحد إلا عليه ذلك اليوم وعلى يوشع بن نون.

رواه البيهقي.

* * *

(*) ضجنان: جبل بناحية تهامة. وفي الأصل: صحنان محرفة.

وهكذا استمروا برحلتهم الفضائية حتى وصلوا إلى المسجد الأقصى في القدس، ونزل البراق قرب حائطه الذي ربطه الرسول ﷺ به بنفس المربط الذي كانت تربطه فيه الرسل قبله، ودخل المسجد حيث وجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل عليهم السلام فصلوا جميعاً، وبعد ذلك ارتقى الرسول ﷺ «الصخرة» صخرة «يعقوب» المقدسة ليرقى - يعرج - بحبل إلى السماء مع «جبريل» وبسرعة البرق.

وحين وصل إلى السماء الأولى طرق جبريل بابها ولما سئل عمن معه أجاب: محمد!!

أوهل بعث؟؟

نعم.

فدعا له بالخير وفتحت أبوابها.

قال هيكل:

الإسراء سنة (621م)

في هذه الفترة كان الإسراء والمعراج. وكان محمد ليلة الإسراء في بيت ابنة عمه هند ابنة أبي طالب، وكنيتها أم هانئ. وقد كانت هند تقول: «إن رسول الله نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أهَبَّنا رسول الله؛ فلما صلّى الصبح وصلينا معه قال يا أمَّ هانئ لقد صلَّيتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما تَرين فقلت له: يا نبيَّ الله لا تحدِّث به الناس فيكذبوك ويؤذوك. قال: والله لأحَدِّثنهمُوه».

الإسراء بالروح أم بالجسد

يستند الذين يقولون بأن الإسراء والمعراج إنما كانا بروح محمد عليه السلام إلى حديث أم هانئ هذا، وإلى ما كانت تقوله عائشة: ما فُقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه. وكان معاوية بن أبي سفيان إذا سئل عن مسرى الرسول قال: كانت رؤيا من الله صادقة. وهم يستشهدون إلى جانب ذلك كله بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [سورة الإسراء: 60].

وفي رأي آخرين أن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس كان بالجسد، مستدلين على ذلك بما ذكر محمد أنه شاهد في البادية أثناء مسراه مما سيأتي خبره، وأن المعراج إلى السماء كان بالروح. ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الإسراء والمعراج كانا جميعاً بالجسد. وقد كثرت مناقشات المتكلمين في هذا الخلاف حتى كتبت فيه ألوف الصحف. ولنا في حكمة الإسراء رأي نبديه. ولسنا ندري أسُبِقْنا إليه أم لم نُسْبَق. لكنا قبل أن نبدي هذا الرأي، بل لكي نبديه، يجب

لقد كانت السماء الأولى كالفضة النقية فوق قبتها المتألقة التي تتدلى منها النجوم مربوطة بسلاسل من الذهب، ويحمي كلاً منها ملاك من الشياطين التي تحاول استراق السمع، وحين دخل الرسول ﷺ هذه السماء رأى رجلاً طاعناً في السن عرفه عليه «جبريل» بأنه آدم أبو البشر، فقدم الرسول ﷺ له الاحترام، وخاطبه آدم بالمقابل كأعظم الدعاة والمرسلين.

وفي هذه الجنة كل أصناف الحيوان الذين قال عنهم جبريل أنهم ملائكة على شكل حيوان لأنهم الشفعاء بكل الحيوانات، ومن بينهم ديك متألق البياض وبحجم هائل لدرجة أنه يلمس الجنة الثانية بذيله، وهي التي تبعد عن الأولى بخمسمئة سنة سفر، وهو يحيي الله تعالى بصوته الشجي كل صباح، وكذلك تصحو على صوته كل المخلوقات في الأرض عدا الإنسان، وعلى نهج أنغامه تغني كل أصناف الطيور، ولعل من علامات اليوم الآخر توقف صياح الديكة؟!

ان نروي قصة الإسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيرة.

تصوير الإسراء في كتب السيرة

سرد المستشرق دِرْمَنْجم هذه القصة مستخلصة من مختلف كتب السيرة في عبارة طلية رائعة، هذه ترجمتها: «في منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله، وصمتت فيه طيور الليل وسكنت الضواري، وانقطع خرير الغدران استيقظ محمد على صوت يصيح به: أيها النائم قم. وقام فإذا أمامه الملك جبريل وضّاء الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج مُرْسَلاً شعره الأشقر، واقفاً في ثيابه المزركشة بالدرّ والذهب، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش، وفي يده دابة عجيبة هي البُرَاق، ولها أجنحة كأجنحة النسر انحنت أمام الرسول، فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم وصفير الرياح، فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة صوب الشمال. وصحبه الملك في هذه الرحلة، ثم وقف به عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى، ثم وقف به مرة أخرى في بيت لحم حيث وُلد عيسى، وانطلق بعد ذلك في الهواء في حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبي الذي رأى في إخلاصه لرسالته أن ليس لغير الله أن يستوقف حيث شاء دابته. وبلغ بيت المقدس. فقيَّد محمد دابته وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى. ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد محمد سراعاً إلى السموات، وكانت السماء الأولى من فضة خالصة علقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب، وقد قام على كل منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى عَلو عليها أو يستمع الجن منها إلى أسرار السماء. في هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم، وفيها كانت صور الخلق جميعاً تسبح بحمد ربها. ولقي محمد في السموات الست الأخرى نوحاً وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى. ورأى فيها ملك الموت عزرائيل، بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم، ومن سلطانه أن كانت تحت إمرته مائة ألف فرقة، وكان

ثم ارتفعا إلى السماء الثانية، وكما فعل بالأولى طرق جبريل على بابها وقوبل بنفس الأسئلة وتبادل الإجابات، ثم سمح لهم بالدخول، وكانت هذه جنة من الحديد الصقيل ذي الجمال الآخاذ، وبها «نوح» عليه السلام الذي استقبل محمداً ﷺ كأعظم الرسل.

وفي الجنة الثالثة حصل لهم نفس التأهيل، وكانت جنة الأحجار الثمينة التي تأخذ بالنظر، وبها ملك بين عينيه مسافة سفر سبعين يوماً، تحت إمرته مئة ألف محارب مسلح، وأمامه كتاب يكتب فيه دوماً ويمحي وهذا هو «عزرائيل» ملك الموت كما قال «جبريل» للرسول ﷺ المسؤول أمام الله المؤتمن، والكتاب الذي أمامه يكتب فيه أسماء من ولد ويمحي منه أسماء من توفي لتوه.

يسجل في كتاب ضخم أسماء من يولدون ومن يموتون. ورأى ملك الدمع يبكي من خطايا الناس، وملك النقمة ذا الوجه النحاسي المتصرف في عنصر النار والجالس على عرش من لهب. وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفترُ عن ذكر الله قائلة: اللهم قد جمعت الثلج والنار! وجمعت كل عبادك في طاعة سنتك. وكان في السماء السابعة مقر أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها، له سبعون ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان، يتكلم كل لسان سبعين ألف لغة، من كل لغة سبعين ألف لهجة، وكلها تسبح بحمد الله وتقدّس له.

«وبينما هو يتأمل هذا الخلق الغريب إذا به ارتفع إلى قمة سدرة المنتهى، تقوم إلى يمين العرش وتُظلّ ملايين الملايين من الأرواح الملائكية. وبعد أن تخطى في أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة ومناطق ضياء يُعشي وظلمة قاتمة وملايين الحجب من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء، يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام، تخطّى حُجُب الجمال والكمال والسر والجلال والوحدة، قامت وراءها سبعون ألف فرقة من الملائكة سُجَّداً لا يتحركون ولا يؤذن لهم فينطقون. ثم أحسّ بنفسه يرتفع إلى حيث المولى جلَّ شأنه، فأخذه الدَّهَش وإذا الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما، وكأنما ابتلعهما الفناء فلم ير منهما إلا حجم سمسمة في مزرعة واسعة. وكذلك يجب أن يكون الإنسان في حضرة ملك العالم.

«ثم كان في حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى، يشهد الله بعين بصيرته، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان. ومدّ العليّ العظيم يداً على صدر محمد والأخرى على كتفه، فأحس النبي كأنه اثلّج إلى فَقَاره، ثم بسكينة راضية وفناء في الله مستطاب.

«وبعد حديث لم تحترم كتب الأثر المدققة قدسيته أمر الله عبده أن يصلي كل مسلم خمسين صلاة في كل يوم. فلما عاد محمد يهبط السماء لقي موسى؛ فقال ابن عمران له:

ومنها انتقلا إلى الجنة الرابعة المصنوعة من الفضة النقية، وأمام الملائكة التي تسكنها ملاك طوله خمسمئة يوم سفر متجهم تنزل من عيونه أنهار من الدموع وهو ملاك الأحزان من خطايا بني الإنسان وعلى مصيرهم والشر الذي ينتظرهم.

أما السماء الخامسة فمن الذهب الخالص.......

والسادسة من الأحجار الشفافة البراقة بها ملاك نصفه من النار والنصف الآخر من الثلج، فلا ناره تذيب ثلجه ولا ثلجه يطفئ ناره، وحوله ملائكة تمجد الله القادر على جمع الضدين، وهذا هو الملاك الحارس للجنة والأرض كما أوضح جبريل، فهو الذي يحدد مهمات الملائكة فيهما إلى يوم البعث.

«كيف ترجو أن يقوم اتباعُك بخمسين صلاة في كل يوم؟ لقد بلوت الناس قبلك، وحاولت مع بني إسرائيل كل ما يدخل في الطوق محاولته، فصدّقني وعُد إلى ربنا واطلب إليه أن ينقص الصلوات.

«وعاد محمد فنقص عدد الصلوات إلى أربعين وجدها موسى فوق الطاقة، وجعل يردُّ خليفته في النبوّة إلى الله مرّات عدّة حتى انتهت الصلوات إلى خمس.

«وذهب جبريل بالنبي فزار الجنّة التي أعِدّت للمتقين بعد البعث. ثم عاد محمد على المعراج إلى الأرض، ففكَّ البُراق وامتطاه وعاد من بيت المقدس إلى مكة على الدابة المجنَّحة».

هذه رواية المستشرق درمنجم عن قصة الإسراء والمعراج. وأنت تقع على ما قصّه منثوراً في كثير من كتب السيرة، وإن كنت تجد فيها جميعاً خلافاً بزيادة أو نقص في بعض نواحيها. من ذلك مثلاً ما روى ابن هشام على لسان النبي عليه السلام بعد أن لقي آدم في السماء الأولى أنه قال: «ثم رأيتُ رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل، وفي أيديهم قطع من نار كالأفهار(*)، يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة مال اليتامى ظلماً، ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أرَ مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرّون عليهم كالإبل المهيومة(**) حتى يُعْرَضون على النار يطئونهم لا يقدرون على أن يتحوّلوا عن مكانهم ذلك. قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الرِّبا. ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحمٌ سمين طيب إلى جانبه غثٌ مُنتن، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيّب. قلت مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله من النساء ويذهبون إلى ما حرَّم الله عليهم منهن. ثم رأيت نساء معلَّقات بثُديِّهن، فقلت مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم... ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جارية لَعْساء، فسألتها لمن

(*) الأفهار: جمع فهر (بكسر فسكون) وهو من الأحجار بما يملأ الكف.

(**) المهيومة التي بها هيام، وهو داء يأخذ الإبل في رؤوسها مثل الجنون.

وهنا كان «موسى» عليه السلام الذي بدل أن يرحب بالرسول ﷺ راح يبكي لرؤيته؟! لماذا تبكي؟

لأني أتبعت برسول سيقدر أن يدخل الجنة من أمته أكثر بكثير مما استطعت مع خراف إسرائيل الضالة!!

وحين الوصول إلى السماء السابعة استقبل الرسول «إبراهيم» أبو البشر عليه السلام، وهذه الجنة لا يمكن وصفها لأنها لن تخطر من كل مجدها على بال بشر، بها ملاك به سبعون ألف رأس بسبعين ألف فم... وهكذا ليمجد الله. وبينما كان محمد ﷺ يتأمل هذا المخلوق نقل فوراً إلى سدرة المنتهى التي بها شجرة «لوتس» تظللها بحجم يفوق ما بين الشمس والأرض، وعدد الملائكة أكثر من عدد رمال الشواطئ تردد آيات القرآن في كل مكان وبها فاكهة أطيب من العسل والحليب، ومن تحت شجرتها ينبع النيل والفرات.

ودخل محمد ﷺ ومرشده الكوني إلى بيت العبادة في هذه السدرة وهو «البيت المعمور» المصنوع من الزمرد الأحمر، والمحاط بمشاعل لا عدد لها تشتعل دون انطفاء، وبمجرد أن دخل قدمت له ثلاثة كؤوس، بأحدها الخمر وبالثاني الحليب وبالثالث العسل، فأخذ وشرب كأس الحليب.

حسناً فعلت قال مرشده «جبريل» إذ لو شربت الخمر لضل قومك.

ولما كان هذا «البيت المعمور» يشبه الكعبة الشريفة بمكة وهو على خط ارتفاع مباشر فوقها في السماء السابعة، يطوف حوله سبعون ألف ملك كل يوم، انضم

أنت؟ ـ وقد أعجبتني حين رأيتها ـ فقالت: لزيد بن حارثة. فبشّر بها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة».

وأنت واجد في غير ابن هشام من كتب السيرة وفي كتب التفسير أموراً أخرى غير هذه. ومن حق المؤرخ أن يسائل عن مبلغ التدقيق والتمحيص في أمر ذلك كله، وما يمكن أن يسند منه إلى النبي بسند صحيح؛ وما يمكن أن يكون من خيال المتصوفة وغيرهم. وإذا لم يكن المجال ها هنا متسعاً للحكم في ذلك أو لاستقصائه، وإذا لم يكن ها هنا مجال القول في المعراج أو الإسراء أكانا بالجسم، أم كان المعراج بالروح والإسراء بالجسم، أم كان المعراج والإسراء جميعاً بالروح، فمما لا شك فيه أن لكل رأي من هذه الآراء سنداً عند المتكلمين، وأنه لا جناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء. فمن شاء أن يرى أن الإسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدّمنا وما تكرر في القرآن وعلى لسان الرسول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: 110]، وأن كتاب الله هو وحده معجزة محمد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

محمد ﷺ لهم في الطواف سبع مرات. ثم انطلق بدون صحبة «جبريل» الذي لم يعد باستطاعته أن يرتفع أكثر من هذا، وكانت سرعة الرسول ﷺ أسرع من الضوء والفكر في انطلاقه يمر بأنوار غامرة ثم بظلام دامس يملؤه رهبة ليصل إلى الحضرة الإلهية، وعلى مسافة رميتي سهم من العرش، حيث احتجب الله بعشرين ألف حجاب تمنع الإنسان من النظر بعظمته، وشعر بلمس الحق له بيد لا كالأيدي لمسة أرجفته ودخلت إلى قلبه وعظامه، أعقبها شعور بغبطة البركة التي حلت به وضاع شذاها من حوله، والتي لا يمكن وصفها إلا لمن عاينوا الحضرة الإلهية بأنفسهم.

ومن الله مباشرة أخذ آيات من القرآن وتأويل له، مع أمر له بأنه تعالى قد فرض خمسين صلاة على المؤمنين في كل يوم، ثم أقبل راجعاً فلما مر بموسى بن عمران وكان نعم الصاحب ـ لكم ـ سأله كم فرض عليك من الصلاة، فقال خمسين، فقال: إن الصلاة ثقيلة، وأن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك، فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك، فعاد محمد ﷺ وسأل أن يخفف عنه وعن أمته، فوضعت عنه عشراً، ثم عاد إلى موسى عليه السلام فقال له مثل ذلك، فرجع وسأل ربه، فوضعت عشراً، وهكذا حتى صار

لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48].

ولصاحب هذا الرأي أكثر من غيره أن يسأل عن حكمة الإسراء والمعراج ما هي؟ وهنا موضع الرأي الذي نريد أن نبديه ولا ندري أسبقنا إليه أم لم نُسْبَق.

الإسراء ووحدة الوجود

ففي الإسراء والمعراج في حياة محمد الروحية معنى سامٍ غاية السمو. معنى أكبر من هذا الذي يصوّرون، والذي قد يشوب بعضه من خيال المتكلمة الخطب حظٌ غير قليل. فهذا الروح القويّ قد اجتمعت فيه في ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها. لم يقف أمام ذهن محمد وروحه في تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكمنا نحن في الحياة نسبيّاً محدوداً بحدود قُوانا المُحِسَّة والمدبِّرة، والعاقلة. تداعت في هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد، واجتمع الكون كله في روحه، فوعاه منذ أزله إلى أبده، وصوره في تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة.

وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية. فإذا جاء بعد ذلك مما اتَّبعوا محمداً من عجز عن متابعته في سمو فكرته وقوة إحاطته بوحدة الكون في كماله وفي جهاده لبلوغ هذا الكمال؛ فلا عجب في ذلك ولا عيب فيه. والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات. وبلوغنا الحقيقة معرَّض دائماً لهذه الحدود التي تعجز قوانا عن تخطيها. وإذا كان

عدد الصلوات خمساً.

وظل اعتراض موسى عليه السلام حتى على هذا العدد؟!

فبحق الله قد جربت هذا مع أبناء إسرائيل عبثاً ارجع واطلب إنقاص العدد.

لا أجاب محمد ﷺ: لقد راجعت ربي وسألته حتى استحييت منه، فما أنا بفاعل، فمن أداهن إيماناً واحتساباً كان له أجر الخمسين المكتوبة؟!

وبهذا ودع «موسى» عليه السلام وانطلق بسلم من الضوء هابطاً إلى «القدس»، حيث وجد البراق مربوطاً كما تركه، فركبه وأعاده بلمحة بصر إلى المكان الذي كان فيه «بمكة».

من القياس مع الفارق أن نذكر، لمناسبة ما نحن الآن بصدده، قصة أولئك المكفوفين الذين أرادوا أن يعرفوا الفيل ما هو، فقال أحدهم: إنه حبل طويل لأنه صادف ذنبه، وقال الآخر: إنه غليظ كالشجرة لأنه صادف رجله، وقال ثالث: إنه مدبب كالرمح لأنه صادف سنه، وقال رابع: إنه مستدير مُلْتَوٍ كثير الحركة لأنه صادف خرطومه ـ فإن هذا المثل، مقروناً إلى الصورة التي تتكون لدى المبصر من الفيل لأول ما يراه، يسمح لنا بالموازنة بين إدراك محمد كنه وحدة الكون والوجود وتصويره في الإسراء والمعراج حيث يتصل بأول الزمن من قبل آدم إلى آخره يوم البعث، وحيث تنعدم نهائية المكان. إذ يُطِل بعين البصيرة من لدن سِدْرة المنتهى إلى هذا الكون يصبح أمامه سديماً. وبين ما يستطيع الكثيرون إدراكه من حكمة هذا الإسراء والمعراج؛ إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحدة الكون وحياته إلا كذرات الجسم، بل كالذَّرات العالقة به من غير أن يتأثر بها نظامه. أين الواحدة من هذه الذرات من حياة هذا الجسم من نبض قلبه وإشراق روحه وضياء ذهنه وامتلائه بالحياة التي لا تعرف حدّاً، لأنها تتصل من الوجود بكل حياة الوجود؟

الفصل الثالث

تعليق على الإسراء والمعراج

هكذا عرضنا لك أيها القارئ الأسطورة التي وضعت على رؤية الرسول ﷺ في الإسراء بإضافات المعراج الجسدي إليها كما وضعت موجزة من أبي الفدا والبخاري وأبي هريرة كمصادر لها وبصياغتنا بعد قراءتها من شروح وتوسعات «Gagnier» بكتابه: «حياة محمد» «Life of Mahomet». والواقع أن عليها تعليقاتٍ لا تنتهي في التقاليد الإسلامية، بقدر اختلافات دكاترة الدين من الفقهاء حولها، بينما أكد البعض أنها لا تتعدى الحلم أو الرؤيا مدعمين آراءهم بالسنة النبوية الشريفة، وما نقل عن «عائشة» رضي الله عنها أيضاً زوجة الرسول ﷺ بقولها: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسرى

قال هيكل:

والإسراء بالروح هو في معناه كالإسراء والمعراج بالروح جميعاً سمّواً وجمالاً وجلالاً. فهو تصوير قويٌ للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبده. فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً، وعلى بيت لحم حيث وُلد عيسى، وهذا الاجتماع الروحي ضمَّت الصلاة فيه محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم، مظهر قويٌ لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدَ الكون في موره الدائم إلى الكمال.

والعلم في عصرنا الحاضر يُقِرُّ هذا الإسراء بالروح، ويُقِرُّ المعراج بالروح؛ فحيث تتقابل القوى السليمة يشعّ ضياء الحقيقة؛ كما أن تقابل قوى الكون في صورة معيَّنة قد طوَّع «لماركوني»؛ إذ سلَّط تياراً كهربيّاً خاصاً من سفينته التي كانت راسية بالبندقية، أن يضيء بقوة الأثير مدينة سِدْني في أستراليا. وفي عصرنا هذا يُقِرُّ العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوي عليه، كما يُقِرُّ انتقال الأصوات على الأثير بالراديو، وانتقال الصور والمكتوبات كذلك، مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال. وما تزال القوى الكمينة في الكون تتكشَّف لعلمنا كل يوم عن جديد. فإذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد، فأسرى به الله ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله لِيُرِيه من آياته، كان ذلك مما يُقِرُّ العلم، وكانت حكمة ذلك هذه المعاني القوية السامية في جمالها وجلالها، والتي تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون في نفس محمد تصويراً صريحاً، يستطيع الإنسان أن يصل إلى إدراكه إذا هو حاول السموَّ بنفسه عن أوهام العاجلة في الحياة، وحاول الوصول إلى كنه

الله بروحه. وبالقرآن الكريم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[7]. لكن عائشة كانت صغيرة يوم الإسراء، ولم يكن الرسول ﷺ قد دخل بها بعد، إلا أن «أم هانئ» بنت أبي طالب رضي الله عنها واسمها «هند» أكدت أن الإسراء حصل بعد أن نام ﷺ في بيتها وأنه أسرى بروحه فقط فهي لم تفتقده أيضاً[8]، وهذا لا يمنع من أن تكون عائشة رضي الله عنها نائمة مع الرسول ﷺ في بيت أم هانئ، حتى ولو كانت صغيرة في ذاك الوقت.

ولأن وصفه ﷺ للقوافل التي مر بها في «مسراه» وما رآه بالطريق كان دقيقاً، أصر آخرون على أنه ﷺ قد قام جسدياً برحلته السماوية هذه وأنها حصلت بزمن قياسي في القصر، فقد شرب في عودته من إناء قافلة نائمة، وأغلقه فوجدوا الإناء فارغاً وهو مغلق[9] ووصفه ﷺ للقافلة التي تاه بعيرها ولون وشكل الجمل الشارد.

وهذا لا يمنع من أن الرحلة حصلت بالرؤيا النبوية الصادقة وهي كالجسد، حسب «أحمد بن يوسف»[*] الذي نقل شهادة بطرك القدس المسؤول عن كنيسة القيامة آن ذاك والتي جاء فيها:

الحقيقة ليعرف مكانه ومكان العالم كله منها.

ريبة قريش وارتداد بعض من أسلم

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعاني؛ لذلك ما لبثوا حين حدثهم محمد بأمر إسرائه أن وقفوا عند الصور المادية من أمر هذا الإسراء وإمكانه أو عدم إمكانه، ثم ساور أتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله. وقال كثيرون: هذا والله الأمر البين. والله إن العير لتطّرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرةً وشهراً مقبلةً، أيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! وارتدّ كثير ممَّن أسلم. وذهب من أخذتهم الريبة في الأمر إلى أبي بكر وحدّثوه حديث محمد، فقال أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. قالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث الناس. قال أبو بكر: والله لئن كان قد قاله لقد صدق، إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه. وجاء أبو بكر إلى النبيّ واستمع إليه يصف بيت المقدس، وكان أبو بكر قد جاءه، فلما أتم النبيّ صفة المسجد قال له أبو بكر: صدقت يا رسول الله. ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصديق.

ويدلّل الذين يقولون إن الإسراء بالجسد على رأيهم بأن قريشاً لما سمعت بأمر إسرائه سألته وسأله الذين آمنوا به عن آية ذلك، فإنهم لم يسمعوا بشيء من مثله؛ فوصف لهم عيراً

(*) لم يحدد إيرفينغ من هو «أحمد بن يوسف» هذا.

إنه في الوقت الذي أرسل الرسول ﷺ للامبراطور «هرقل» في القسطنطينية كتابه الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، كان هذا البطرك من جملة الحضور، وعندما ذكر رسل «الرسول ﷺ» قصة الإسراء، ذهل البطرك ثم أخبر الامبراطور الملابسات التي تخصه هو بالذات والمتعلقة بالقصة المذكورة، قائلاً: إنه كان من عادتي عدم الذهاب إلى النوم والراحة قبل أن أتأكد من إغلاق كل أبواب المعبد ـ الكنيسة ـ وفي الليلة المذكورة، تأكدت من إغلاقها كعادتي، لكن أحد الأبواب، استعصى علي إغلاقه، فطلبت النجارين لكي يفحصوه، لكنهم بعد جهد طويل أكدوا لي أن مزالج الباب قد استعصت لدرجة لا يمكن إصلاحها بأدواتهم المتوفرة مهما فعلوا، فاضطررت إلى تركه مفتوحاً. ومع ضوء الصباح الباكر ذهبت إلى هناك لأشاهد: أن حَجَرَةً مثبتة بزاوية المعبد قد ثقبت، وأن آثار ـ حوافر ـ تدل على زوار ربطوا مطيتهم في هذا المكان الذي ذكر الرسل أن البراق قد ربط فيه، فقلت لمن كان حاضراً معي: لم يكن هذا الباب ليستعصي على الإغلاق لو لم يكن ليأتيَ رسول ليصليَ هنا.

أما في مكة فكان هناك معارضة للإسراء فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر ـ العجب المنكر ـ المبين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! قال: فارتد كثير ممن كان أسلم[10] وهزئت قريش من الخبر، وقال «أبو جهل» إذا كان هذا الذي زرته هو المسجد الأقصى فصفه لنا؟!

مرّ بها في الطريق، فضلّت دابة من العير فدلّهم عليها، وأنه شرب من إناء عير إخرى وغطى الإناء بعد أن شرب منه، فسألت قريش في ذلك فصدَّقت العيران ما روى محمد عنهما. وأحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجباً بعد الذي عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسي للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية. ما بالك بروح يجمع الحياة الروحية في الكون كله ويستطيع بما حباه الله من قوة أن يتّصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده؟

اما نحن فنقول:

إن «هيكل» لم يصب حين سمى رأيه حول الإسراء والمعراج بوحدة الوجود، لان لهذه التسمية معناها الصوفي الذي يتعارض تماماً مع ما ذهب إليه «هيكل»، وهو يقصد إمكان «Projection» العلمي الذي يمكنه ـ من حيث الامكان ـ علمياً أن يحصل.

وقد صدق الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60].

فهي رؤيا مهما حاول الشراح تفسيرها وأكدها خبر «أم هانئ وعائشة رضي الله عنهما»،

ولأن محمد ﷺ كان قد زار المعبد ليلاً حيث يصعب وصف شكله، ظهر له «جبريل» فجأة ووضع أمامه مخططاً كاملاً له، فبدأ الرسول ﷺ يصفه بدقة متناهية، فذهب الناس إلى «أبي بكر» رضي الله عنه وقالوا هل لك يا «أبا بكر» في صاحبك يزعم أنه جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع، قال: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس[11] فذهب يبحث عن الحقيقة من وصف محمد ﷺ الدقيق لمعبد القدس، الذي كان قد زاره هو بنفسه، وكلما ذكر له وصفاً قال: صدقت، فسماه الرسول ﷺ بالصديق، لأنه يشهد على الحقيقة التي بدأت تظهر.

هكذا وكما سبق وذكرنا فإن الإسراء ممكن أن يكون قد حصل بالروح، لكن القصة ككل وصلتنا بالخبر عبر التقاليد، رغم أن هناك تأكيدات لم تحدد تفاصيلها في القرآن، فصارت مجالاً واسعاً لأساطير المسلمين، وكلما زادت هذه الأساطير كانت تزداد صفة التكذيب للرسول ﷺ التي بدأتها قريش - في التراث العربي -.

وهي فتنة للناس كي يعملوا عقولهم في كل زمان ومكان بعيداً عن مألوفات حواسهم حين يبحثون في المفارقات، وبها كل «نسبية» الصلة والصلاة لله تعالى، وهي دعوة دائمة للفكر الإسلامي كي يخرج من إطار المحسوسات لتلمس المفارقات، وليتفضل القارئ بالرجوع إلى مقدمتنا في هذا الكتاب عما قلناه عن صلة الموضوعية بالذاتية، وعن منطق الإسلام في علم الكلام وروّاده في تأليف اللامألوف، ثم ليعيد قراءة قصة الإسراء والمعراج الشريف، ثم ليستزيد من كل شرح حولها مهماكثرت مصادره، في تعبيراتها عن مختلف الآراء التي سيجد في ثنايا جماعها درر الحقيقة المتناثرة ضمن التأويلات التي وضعها المتأخرون.

الباب الثالث عشر

الفصل الأول
هداية أهل المدينة

هكذا ـ وبسبب كل ما سبق ـ راح يُظلِمُ مستقبل الرسول ﷺ في بلده، «فخديجة» رضي الله عنها صاحبته في وحدته، ومفرجة همومه المخلصة، والمؤمنة به وبما يقول صارت في قبرها، وكذلك كان «أبو طالب» حاميه المخلص القوي، وصار محمد ﷺ تقريباً بدون مأوى له في مكة طريداً بها. مجبراً على الإقامة عند من يؤمنون به وبسبب ذلك يضطهدون، فلو كانت مطالبه تشكل أي امتيازات حياتية، فلا مجال للحصول عليها، وقد مضى عليه عشر سنوات منذ أن أعلن وحيه، عشر سنوات طويلة مرهقة، ومليئة بالمتاعب وسوء الطالع، ورغم ذلك ظل على موقفه وهو على مشارف العمر الذي يبحث فيه الإنسان عن الاستقرار، وجني ثمار حياته، بدل المغامرة مع مستقبل مجهول. ومع هذا نجده أنه بعد أن ضحى براحته وثروته وأصدقائه، بدأ يتجه إلى مغادرة بلده بدل أن يترك إيمانه التوحيدي هذا.

وبمجرد أن قرب وقت خروج الحج، خرج من عزلته واختلط بالحجاج من مختلف الاتجاهات العربية، باحثاً بكل جهده لكي يجد قبيلة قوية، أو سكان مدينة هامة يقبلون باستضافته، ويحمونه مقابل ما يقدمه لهم من امتيازات الإيمان.

قال ابن كثير:

قال: فقال لهم: إني رسول الله، وآتيكم لتمنعوني حتى أبلِّغ رسالة ربي، ولا أكره أحداً منكم على شيء.

قالوا: ومن أي قريش أنت؟ قال: من بني عبد المطلب. قالوا: فأين أنت من عبد مناف: قال: هم أول من كذَّبني وطردني.

قالوا: ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك، وسنمنعك حتى تبلِّغ رسالة ربك.

ولم ينجح بحثه لمدة من الزمن، فالذين جاؤوا للعبادة في الكعبة كانوا يبتعدون عن رجل ينعت بالهرطقة، بينما أصحاب المصالح المادية من الحجاج لم يكونوا راغبين بمعارضة مراكز القوة في هذا المكان لصالحه.

وأخيراً، وبينما كان يبشر على هضبة «العقبة» البعيدة قليلاً شمال مكة، جلب انتباه بعض الحجاج القادمين من «يثرب»، تلك البلدة التي سميت منذ هذا الوقت: «بالمدينة» وتبعد عن مكة حوالى «270 ميلاً» شمالاً، ومعظم سكانها كانوا من اليهود وهراطقة الإيمان المسيحي، لكن هؤلاء الحجاج منها كانوا من عرب قبيلة الخزرج القوية القديمة الأصيلة، التي تحالفت مع بعض قبائل اليهود الساكنة بالمدينة والذين يدعون أنهم من أبناء «هارون».

قال لهم: من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟!

واليهود كانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبينا مبعوث الآن، قد أطل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم... قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. خاصة بما لمسوه من تشابه دعوته مع القوانين الموسوية، خاصة وهو يعلن لهم أنه نبي مبعوث من الله تعالى لإعادة قوانين الأنبياء السابقين، وكلما سمعوا له زاد اعتقادهم بذلك، إلى أن أعلنوا له إيمانهم وقناعتهم به.

فطلب الرسول ﷺ حمايتهم لأنهم من أقوى قبائل «يثرب»، وعرض أن يصحبهم في عودتهم، لكنهم أخبروه أنهم بصراع قبلي مميت مع «الأوس» القبيلة القوية الأخرى بتلك المدينة، فليؤخر حضوره حتى يتصالحا، فأرسل معهم «مصعب بن عمير» أكثر

قال: فنزل إليهم القوم يتسوّقون، إذ أتاهم بَيْحرة بن فراس القُشيري، فقال: من هذا الرجل أراه عندكم أنكره؟

قالوا: محمد بن عبد الله القرشي. قال: فما لكم وله؟

قالوا: زعم لنا أنه رسول الله فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه.

قال: ماذا رددتم عليه؟

قالوا: بالترحيب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك ما نمنع به أنفسنا.

قال بيحرة: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشدَّ من شيء ترجعون به،

أصحابه حفظاً ومعرفة بالدين ليفقههم وينشر الدعوة في المدينة. وهكذا زرعت بذرة الإسلام بالمدينة بثبات وبطء، حيث قاوم المشركون منهم «مصعباً» وكادوا يهددون حياته، لكنه استمر بثبات وحصل على الأتباع من السكان، وكان من بينهم «سعد بن معاذ» أمير «الأوس» و«أسيد بن حظير» ذو المكانة المرموقة في المدينة، وصار عدد من مسلمي مكة ينزحون إلى المدينة هرباً من الاضطهاد، ويساعدون بنشر الإيمان فيها، حتى دخل الإسلام تقريباً في كل بيت.

بدأتم لتنابذوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به، اتعمدون إلى زهيق قد طرده قومه وكذّبوه فتؤوونه وتنصرونه؟ فبئس الرأي رأيتم.

الفصل الثاني

العهد مع الأنصار «العقبة الثانية»

وهكذا بعد أن مهد الطريق لدعوة الرسول ﷺ إلى المدينة عاد إلى الحج في مكة بالعام التالي سبعون مدنياً مسلماً برئاسة «مصعب بن عمير»، وكان هذا في العام الثالث عشر من بداية نزول الوحي، ودعوا الرسول ﷺ ليتبوأ مكانه بينهم في المدينة، وتلقاهم الرسول ﷺ في موعد في منتصف الليل على هضبة «العقبة» بصحبة عمه «العباس» الذي أخذ مكان «أبي طالب» برعايته لكنه لم يعتنق الإسلام، وفي هذا اللقاء السري ولخوفه عليه من خطر مثل هذا الأمر أصر العباس عليهم بعدم أخذ ابن أخيه إلى مدينتهم ما لم يكونوا أكثر قدرة على حمايته، وحذّرهم من أن إعلان إسلامهم سيجلب عليهم كل سيوف العرب، ولكنه عبثاً حاول منع توقيع عهد بين الفرقاء، أصر فيه الرسول ﷺ عليهم بضرورة هجر عبادة الأصنام نهائياً فيه، وإعلان عبادة الله الواحد الأحد بدون أي خوف من النتائج، وعلى هذا أخذ منهم البيعة له ولأصحابه الذين يمكن أن يصحبوه، ليحموهم حمايتهم لأهلهم وأبنائهم، وعلى هذا سيكون هو ﷺ عدوّاً لمن يعاديهم وصديقاً لمن يصادقهم، وثواب من يهلك منهم جنان الخلد، وعلى مثل هذا ضرب «البراء بن معرور» على يد رسول الله ﷺ ثم بايع بعده القوم.

قال ابن كثير:

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: قم فالحق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك.

قال: فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها، فغمز الخبيثُ بيحرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته.

وعند بني عامر يومئذ ضباعة ابنة عامر بن قرط، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة، جاءت زائرة إلى بني عمها، فقالت: يا آل عامر، ولا عامر لي! أيُصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم!

فقام ثلاثة من بني عمها إلى بيحرة واثنين أعاناه، فأخذ كلُّ رجل منهم رجلاً فجلد به

فعين الرسول ﷺ اثني عشر نقيباً عليهم من كل من الأوس والخزرج، كما كان يفعل مخلصنا(*)، وما كاد ينتهي من ذلك حتى انطلق صوت لرجل مختبئ يهدد هؤلاء، مما ضايق الحضور:

يا أهل الجباجب ـ المنازل ـ هل لكم في «مذمم» والصباه ـ الذين صبأوا ـ معه، قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ هذا أزيب العقبة. وهو قد يكون من أحد الجواسيس، نعته البعض بإبليس، خاصة وأن قُرَيْشاً قد علمت بالاجتماع في اليوم التالي، وعاملت المدنيين بكل إهانة وقسوة وهم يغادرون مكة.

ومنذ ذلك الوقت المبكر سمى الرسول ﷺ مسلمي المدينة بالأنصار وشاع هذا الاسم عليهم وعرفوا به منذ ذلك الوقت.

وبعد أن رحل الأنصار، ثم انتهى شهر الحج عاد اضطهاد المسلمين بشكل متزايد، لدرجة أن محمداً ﷺ شعر بأن هناك أزمة مقبلة لا مفر منها، فغادر المدينة، تاركاً فيها قلة من أتباعه المخلصين.

الارض ثم جلس على صدره، ثم علوا وجوههم لطماً.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء».

قال: فاسلم الثلاثة الذين نصروه وقُتلوا شهداء، وهم: غطيف وغطفان ابنا سهل، وعروة، أو عذرة بن عبد الله بن سلمة. رضي الله عنهم.

وقد روي هذا الحديث بتمامه الحافظ سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه، عن أبيه به.

وهلك الآخرون وهم؛ بيحرة بن فراس، وحزن بن عبد الله بن سلمة بن قشير، ومعاوية بن عبادة أحد بني عقيل، لعنهم الله لعناً كثيراً.

وهذا أثر غريب كتبناه لغرابته. والله أعلم.

* * *

(*) تذكر بمسيحية المؤلف.

الفصل الثالث

لحظة توتر وقلق

في هذا الوقت كان «أبو سفيان» حاكماً على مكة وشديد العداء للمسلمين يتحسس وينذر من انتشار هذا الدين الجديد، فعقد اجتماعاً مع سادات قريش بدار الندوة لإيجاد وسائل إيقاف هذا الأمر، فنصحه بعضهم بطرد محمد ﷺ من المدينة، لكنه وجد في هذا تسهيلاً له كي يطلب النصرة من قبائل خارجها، أو حتى من أهل المدينة، واقترح آخرون بوضعه ببئر عميق وإغلاقه عليه بشكل يسمح له بالأكل والماء والهواء فقط حتى يموت، لكنه وجد إمكان تسهيل هربه من بعض أتباعه ممكناً في هذا الاقتراح فألغوه. والواقع أن أبا سفيان «البرغماتي» العنيف الداهية الذي كان يثير هذه الاعتراضات بحثاً عن حل أنجع، وبينما هم كذلك جاءهم شيخ «نجدي»، اعتبره بعض الكتاب المسلمين «إبليس» متخفياً بلباس أهل «نجد» لينفث في هؤلاء روحه الشريرة ويحسن لهم اقتراح «أبي جهل» بأن يشتركوا جميعاً بقتل محمد ﷺ فكل قبيلة ترسل ممثلها ويضربونه معاً بسيوفهم ضربة واحدة قاضية.

وعلى هذه الحادثة جاءت تورية في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الأنفال، وهذه هي السورة وشرحها معاً:

وقال ابن كثير:

بدء إسلام الأنصار رضي الله عنهم

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم.

فبينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه. قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟».. قالوا: نفر من الخزرج قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم.

(واذكر يا محمد «وإذ يمكر بك الذين كفروا» وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك بدار الندوة «ليثبتوك» يوثقوك ويحبسوك «أو يقتلوك» كلهم قتلة رجل واحد «أو يخرجوك» من مكة «ويمكرون» بك «ويمكر الله» بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج «والله خير الماكرين» أعلمهم به) [سورة الأنفال: 30].

ومع وصول المتآمرين لتنفيذ جريمتهم بمحمد ﷺ في بيته كان قد علم بنيتهم.

وتوقف المتآمرون على بابه وترددوا بالدخول، ثم نظروا من شق الباب فوجدوا كما لو أنه الرسول ﷺ وقد التف بعباءة خضراء وهو نائم على أريكة، فتشاوروا عما إذا كانوا سيداهمونه نائماً أم ينتظرون قيامه، ثم قرروا مداهمته وحين فعلوا نهض النائم، فإذا «بعلي» رضي الله عنه بدل محمد ﷺ يقف بينهم.

أين محمد بدهشة؟!

لا أعلم أجاب علي بصرامته المعهودة، وغادرهم دون أن يجرؤ أحد على الاعتداء عليه، وبسبب خيبتهم هذه نذروا مئة جمل لمن يحضر لهم محمداً حياً أو ميتاً.

ويزودنا التاريخ بروايات مختلفة عن الكيفية التي غادر بها الرسول ﷺ قبل أن يُغدر به، وكيف لف «علي» رضي الله عنه المؤمن نفسه بعباءته ﷺ وأخذ مكانه على الأريكة، ولكن أكثر هذه الروايات إعجازاً هي أنه: فتح الباب بينما شبان قريش متجمعون يتداولون، ورمى على رؤوسهم حفنة من التراب أعمت عيونهم عنه ﷺ فسار بينهم دون أن يروه ﷺ.

وذهب الرسول ﷺ مباشرة إلى منزل «أبي بكر» رضي الله عنه، وهيّئا أمريهما للهجرة فوراً، على أن يبيتا في غار جبل النور ـ جبل ثور قبل البعثة الشريفة ـ ثم ينطلقا إلى «المدينة» بعد أن يزودهما أولاد «أبي بكر» رضي الله عنه بالزاد سراً، فغادرا مكة ليلاً

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى.

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبياً مبعوثٌ الآن قد أظلّ زمانه نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون

سيراً على الأقدام وعلى ضوء النجوم والغسق، وما إن وصلا غار حراء بالجبل حتى تبعهم المتآمرون، وحين سمعوا وقع أقدامهم جزع «أبو بكر» رضي الله عنه رغم ثبات جأشه قائلاً: إنهم كثر ونحن اثنان؟!

كلا قال الرسول ﷺ: إن الله ثالثنا.

وهنا حصلت معجزة عزيزة على قلوب المؤمنين المسلمين، يؤكدها مؤرخوهم، فمع الوقت الذي اقتربت منه الجماعة التي تلاحق الرسول ﷺ من قريش، إلى مدخل الغار، فرشت شجيرة أغصانها عليه بشكل مكن حمامة من بناء عشها عليه، ووضعت بيوضها في العش، وفوق كل هذا نسجت عنكبوت خيوطها على مدخل الغار.

مما أكد للقريشيين أن أحداً لم يدخله قريباً، لذلك عادوا أدراجهم ليتابعوا مطاردة الرسول ﷺ في مكان آخر.

والحقيقة أن الرسول ﷺ ظل في الغار ثلاثة أيام دون أن تلحظ قريش وجوده المحتم فيه، سواء فسر هذا الأمر بمعجزة أم بغير معجزة فهو أمر غريب، وأثناء ذلك كانت «أسماء بنت أبي بكر» تحضر لهما الغذاء بنطاقيها، كلَّ غسق في المساء.

وفي اليوم الرابع عندما زالت رائحة الخطر هاجر اللاجئان في طريقهما إلى «المدينة» على ظهر جمل أحضره خادم أبي بكر لهما ليلاً، متجنبين طريق القوافل المعهود، وسارا بمحاذاة البحر الأحمر، وما كادا يبتعدان عن الخطر حتى أحيطا بسرية من الفرسان يقودها قاطع الطريق المشهور «سراقة بن مالك». ومرة ثانية أكد الرسول ﷺ لأبي بكر الخائف: أن الله معنا!!

وكان سراقة المحارب يلبس كل زرده ودروعه، ويلوح لهما بسلاحه المشهور وهو يغير عليهما بفرسه، وعندما كاد أن يصل إليهما غاصت قوائم مطيته في الأرض، وسقط مع حصانه أرضاً، فخاف «سراقة» من أن تكون هذه السقطة من دعاء الرسول ﷺعليه فطلب من الرسول ﷺ الصفح ورجع بفرسانه، مما مكن من متابعة الطريق بدون أي أذى، فتابع المهاجران رحلتهما دون أي اعتراض آخر، حتى وصلا إلى «قباء» وهي هضبة تبعد ميلين عن المدينة وتعتبر مصيفاً لأهل المدينة ومكان راحة لنقاء هوائها، ومنها تزود المدينة بالخضراوات والفواكه وهذه الهضبة مغطاة بالبقول والأعناب

والله إنه النبي الذي توعَّدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه.

فاجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

والنخيل، وبها حقول الليمون والتين والزيتون، وحتى المشمش، وتسقى من جداول تنبع منها.

وعندما وصل الرسول ﷺ إلى هذا المكان بركت ناقته ولم تعد تتقدم من التعب، فتفاءل الرسول ﷺ بذلك وبقي في «قباء» يجهز نفسه لدخول «المدينة»، وقد بنى المسلمون بعد ذلك مسجداً في المكان الذي بركت فيه الناقة سموه «مسجد التقوى» تخليداً لذكرى هذا الحدث، كذلك ظهر بئر ماء في المكان الذي جلس فيه الرسول ﷺ بظل نخلة، وبه فُقِدَ خاتمه ﷺ بعد ذلك، ويظن أنه لا زال بمكان ما فيه.

وبقي الرسول ﷺأربعة أيام «بقباء» بمنزل «كلثوم بن هِدْم»، وجاء من «قباء» سبعون شخصاً وأعلنوا إسلامهم، وكذلك أعلن «سلمان الفارسي» إسلامه بقباء أيضاً.

وقال ابن كثير:

ولم يتخلف معه بمكة إلا من حُبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة رضي الله عنهما.

الفصل الرابع

سلمان الفارسي رضي الله عنه

يقال إن أصل سلمان الفارسي من مكان قريب من «أصفهان»، وقد اطلع على المسيحية ونبذ الأصنام عبادة آبائه، وقد تنقل في مدن الشرق من مدينة إلى أخرى، ومن معبد إلى معبد باحثاً عن الدين الصحيح، إلى أن أخبره أحد الرهبان عن النبي الذي ظهر عند العرب ليعيدهم إلى دين «إبراهيم» عليه السلام.

وسلمان هذا كان له شأن في الإسلام بعد ذلك، وإليه تحولت تهم قريش بأنه كان يعلم النبي ﷺ الدين بعد أن كانوا يتهمون شخصاً ظنوا أن اسمه «الرحمن» لتردد هذه العبارة في القرآن. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: 103]. ونفس هذا الاتهام كرره المؤرخون المسيحيون واضعين مع «سلمان الفارسي» عالماً تلمودياً يهودياً اسمه «عبد الله بن سلام».

هذا وكان المسلمون الذين سبقوا بالهجرة إلى المدينة قد علموا بمقدم الرسول ﷺ إليها ينتظرونه في «قباء»، وبينهم من أوائل من أسلم مثل «طلحة والزبير» أولاد أخ «خديجة»، وهما من أعطى الرسول ﷺ و«أبا بكر» رضي الله عنه لباساً جديداً ليدخلوا به المدينة وبدّلا لهما العباءات المغبرة بأخرى بيضاء، ومعهم مجموعة من الأنصار الذين

قال ابن كثير

وكان ابو بكر كثيراً ما يستاذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له «لا تَعْجَل لعل الله يجعل لك صاحباً» فيطمع ابو بكر أن يَكُونه.

فلما رأت قريش ان رسول الله ﷺ قد صار له شِيعةٌ وأصحابٌ من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا انهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة.

فحَذِروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم.

فاجتمعوا له في دار النَّدوة، وهي دار قُصَى بن كِلاَب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا

بايعوا الرسول ﷺ في العقبة في السنة الماضية وقد أسرعوا ليؤكّدوا بيعتهم، وبعد أن أخبروه بمدى سرعة وقوة انتشار الإسلام في «المدينة» وكم أهلها بشوق له ﷺ فحدد لهم يوم الجمعة السادس عشر من ربيع يوماً ليدخل ﷺ فيه يثرب.

فيها، يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني من لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد بن جبر، عن عبد الله بن عباس، وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس، قال: لما اجتمعوا لذلك واتّعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدَوْا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزَّحمة، فاعترضهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ جليل عليه بَتٌّ له ـ كساء ـ فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخٌ من أهل نجد، سمع بالذي اتَّعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعْدمكم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل فادخل.

الفصل الخامس

دخول المدينة

وبعد صلاة الصبح بأتباعه ﷺ ذاك اليوم، ووعظهم بمبادئ الإسلام ركب ﷺ ناقته «القصواء» واتّجه نحو «المدينة» التي ستصير مدينة الرسول ﷺ وملاذه ﷺ.

ورافقه «بريدة بن الحسيب» بسبعين فارساً للحماية من قبيلة «سحام» يتناوبون على إظلاله بسعوف النخل وهو يمتطي مطيته ﷺ، وبجانبه ركب «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه الذي أصر على أن يرفع الرسول ﷺ علماً يدخل به «المدينة» وفك عمامته وربطها على رأس رمحه، وتقدم بها الركب.

وبدتِ «المدينة» بموقعها الجميل، ومناخها المعتدل، وأرضها الخصبة، محاطة بالبساتين التي تشرئب منها أشجار النخيل الضخمة محاطة بالأزهار والرياحين، وقد خرج منها جماعة من المؤمنين إلى هجير الصحراء تحت الشمس للقاء موكب الفرسان. ومعظمهم لم يكن قد سبق له رؤية محمد ﷺ، فلما اقتربوا من «أبي بكر» رضي الله عنه

قال ابن كثير:

فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش: عُتبة وشيبة، وأبو سفيان، وطعيمة ابن عدي، وجبير بن مطعم بن عدي، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر بن الحارث، وأبو البَخْتري بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، وأبو جهل ابن هشام ونَبِيه ومُنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلَف، ومن كان منهم، وغيرهم ممن لا يُعدُّ من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

قال: فتشاوروا، ثم قال قائل منهم، قيل إنه أبو البَخْتري بن هشام: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله، زُهَيراً والنابغة ومَنْ مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليَخرجنَّ أمرُه من وراء الباب هذا الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأَوْشَكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من

ذهب وأظل الرسول ﷺ بسعف النخل، فعرفوه ﷺ وقابلوه بالهتاف والترحيب.

هكذا قوبل محمد ﷺ المطارد من أهل بلده منذ قليل ـ عدة أيام ـ والذين وضعوا مؤخراً جائزة على رأسه لمن يقتله أو يحضره، ليدخل إلى المدينة دخول الفاتحين، لا دخول اللاجئين.

ودعاه «أبو أيوب الأنصاري الخزرجي» الذي بينه وبينه نسب بعيد من جهة الأم، لمنزله مرحباً بكل ترحاب.

ثم لحق بالرسول ﷺ «علي» رضي الله عنه بعد قليل، بعد أن خرج من مكة سيراً على الأقدام يسير ليلاً لينام في هاجرة النهار، وحتى لا يقع بأيدي قريش، فوصل متعباً تدمى قدماه من قسوة الطريق.

أيديكم ثم يُكاثروكم به حتى يَغْلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي.

فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وأُلْفَتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم ترَوْا حُسْنَ حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتُ أن يَحِلَّ على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه.. رأياً غيرَ هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتًى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربةَ رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمُه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومِهم جميعاً، فرضُوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال: يقول الشيخ النجدي: القولُ ما قال الرجل، هذا الرأي ولا رأيَ غيره.

فتفرق القوم على ذلك وهم مُجْمعون له.

فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

قال: فلما كانت عَتَمةٌ من الليل اجتمعوا على بابه يَرْصُدونه حتى ينام فيَثِبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانَهم قال لعلي بن أبي طالب: نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحَضْرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يَخْلصُ إليك شيء تكرهه منهم. وكان رسول الله ﷺ ينام

وبعد عدة أيام وصلت «عائشة» رضي الله عنها مع باقي بيت «أبي بكر» رضي الله عنهم يقودهم عتيق الرسول ﷺ المؤمن «زيد» رضي الله عنه مع «عبد الله» خادم «أبي بكر» رضي الله عنه.

تلك هي قصة الهجرة مختصرة، والتي بها بدأ عد السنين العربية في التقويم الإسلامي، والموافقة لسنة 622م(*).

في برده ذلك إذا نام.

وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق قد رواها الواقدي بأسانيده، عن عائشة وابن عباس وعلي وسُراقة بن مالك بن جُعْشُم وغيرهم، دخل حديث بعضهم في بعض، فنذكر نحو ما تقدم.

(*) يجب التنبيه إلى أن التقويم الشمسي يختلف عن التقويم القمري العربي، وهذا لا علاقة له بالإسلام فالتقويم عربي لا إسلامي بل باختلاف التقاويم، والمتحذلقون الذين يدعون أن التقويم الهجري غير دقيق إذ يجب أن يكون عام 1997م مقابل عام 1375هـ لا عام 1417هـ بفارق 42 سنة، عليهم أن يبحثوا بفوارق السنين القمرية والشمسية التي لا علاقة للعقيدة الإسلامية فيها لا من قريب ولا من بعيد.

البَابُ الرَّابِعَ عَشَرَ

الفصل الأول
أول مسجد في الإسلام

هكذا وجد الرسول ﷺ نفسه على رأس طائفة قوية من الناس بالمدينة، يشكل المهاجرون من مكة قسماً منها، والقسم الآخر من أنصارهم وأنصاره من سكان المدينة الأصليين «الأنصار»، ومعظمهم من قبيلتي «الأوس والخزرج» القويتين، واللتين كانتا تتصارعان في المدينة منذ ما يقارب المئة والعشرين سنة، فوحدهما الإيمان الجديد الآن، أما بقية القبائل التي لم تعتنق الإيمان الجديد، فقد وضع الرسول ﷺ معها عهوداً.

أما زعيم الخزرج «عبيد الله بن أبي بن سلول العوفي» الذي كان على وشك أن

قال ابن كثير:

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن وهب بن يوسف، حدثنا مالك بن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وَعِكَ أبو بكر وبلال، قالت فدخلتُ عليهما فقلت: يا أبتِ كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهلهِ ... والموتُ أدْنَى مِنْ شِرَاك نعلهِ

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شِعْري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحَوْلِي إذْخَرُ وجَلِيلُ(*)

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مَجِنَّةٍ ... وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «اللهم حَبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصَحِّحها وبارك لنا في صاعها ومُدِّها، وانقل حُمَّاها واجعلها بالجُحْفَة(**)».

(*) الإذخر: الحشيش الأخضر، أو حشيش طيب الرائحة. والجليل: نبت ضعيف.

(**) الجحفة: قرية جامعة على اثنين وثمانين ميلاً من مكة. وكان بها حينئذ يهود.

يصير ملكاً فقد ركب موجة الحماس باستقبال الرسول ﷺ، وبلسانه الزلق، ومراوغته أعلن صداقته للرسول ﷺ ولأصحابه، وراح يحضر اجتماعات المسلمين مع من هم على شاكلته من جماعته، وقد أعجب المسلمون لأول وهلة بهم، وبألسنتهم الزلقة، لكنه تبين للرسول ﷺ غيرة «عبد الله» من شعبيته بما يخفيه وراء نفاقه سراً، وأن أصحابه على شاكلته بالنفاق، فنعتهم بالمنافقين، ورغم ذلك ظل «ابن أبي ـ سلول ـ» مستمراً في لعبته السياسية في المدينة.

ولأنه صار بمقدور محمد ﷺ الآن أن يمارس عقيدته علناً، ويبشّر بها، بنى مسجداً في المكان الذي بركت فيه ناقته ﷺ أول دخوله المدينة، وتدعي المصادر المسيحية أن هذا المكان كان مقبرة تظللها أشجار النخيل، وقد نقلت الرفات منها لهذا الغرض(*).

وعلى أية حال كان أول مسجد للإسلام بسيطاً في عمارته يلائم بساطة الإسلام كما بدأ، لكنه غني بالمعاني التي كان يمثلها، فجدرانه كانت من لبن الطين، بها أعمدة من شجر النخيل لدعم سقفه، وقد نظفت من أوراقها وفروعها، وكانت مساحته حوالى مئة متر مربّع، وله أبواب ثلاثة أحدها يتجه جنوباً نحو القبلة، وقد فتح بعد البناء، والثاني باب «جبريل»، أما الثالث فكان اسمه باب الرحمة، كذلك خصص قسم من البناء إلى أهل «الصفة» أي المؤمنين الذين لا مأوى لهم.

ورواه مسلم عن ابي بكر بن ابي شيبة عن هشام مختصراً.

وفي رواية البخاري له عن ابي اسامة، عن هشام بن عروة، عن ابيه عن عائشة، فذكره وزاد بعد شعر بلال. ثم يقول: اللهم العن عتبةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض الوباء.

قال هيكل:

رغبة محمد عن القتال

هذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمد منذ الهجرة، وهي التي جعلته جنوحاً للسلم، راغباً عن القتال، مقتصداً طول حياته اشد القصد فيه، غير لاجيء إليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاعَ عن الحرية دفاعاً عن الدين وعن العقيدة. الم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش ينبهها لأمرهم: «والله الذي

(*) غير ثابت في السير عندنا!!

وقد ساعد الرسول ﷺ شخصياً ببناء هذا المسجد، وملحقاته التي ستكون مرقده ومزاره الأخير الذي سيحوى رفاته حتى اليوم الآخر، وقد تمت توسعة هذا المسجد وتلك الملحقات عبر العصور بتتابع لكنه ظل يحمل اسم مسجد الرسول ﷺ لأنه أنشئ بيديه الشريفتين.

وبعد بناء المسجد حار الرسول ﷺ وأتباعه بكيفية دعاء الناس للصلاة فيه، أباستعمال البوق كما تفعل اليهود، أو بإشعال نار بأعلى مكان فيه، أو بضرب ناقوس، وبينما هم كذلك جاءهم اقتراح التكبير من «عبد الله بن زيد» الذي قال إنه رؤى له في منامه، وفوراً قبله الرسول ﷺ ومنذ ذلك الوقت والتكبير دعوة إلى الصلاة تسمع من كل مآذن المسلمين، والتي تبدأ في الفجر بالتكبير والتنبيه إلى أن الصلاة خير من النوم.

لقد كان كل شيء في هذا المسجد الأول للإسلام بسيطاً، ففي الليل كان يضاء بجذاذات خشب النخل، قبل أن توضع فيه المصابيح الزيتية، وكان الرسول ﷺيخطب واقفاً على الأرض سانداً ظهره على جذع عمود من أعمدة المسجد، ثم بنى بعد ذلك محراباً يصعد إليه بثلاث درجات لترفعه قليلاً عن مستوى المستمعين الجالسين.

وكان أحياناً يجلس ليخطب عليه أو يخطب واقفاً داعياً إلى الإخلاص في عبادة الله تعالى، والتواضع بالسلوك، تماماً كما كان يفعل أصحاب الرّسل من قبله ﷺ، كالقول: إن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، ومن يغض طرفه للّه، يلبسه الله سندسَ أهلِ الجنّة، وسواها من المواعظ الحسنة.

بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منًى غداً باسيافنا»، فكان جوابه: «لم نؤمر بذلك»؟ ألم تكن أول آية نزلت في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]. ألم تكن الآية التي تلت هذه في أمر القتال قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الانفال: 39].

فتفكير محمد إذاً إنما كان متجهاً إلى غاية واحدة عليا؛ هي كفالة حرية العقيدة والرأي كفالة في سبيلها وحدها إحل القتال، ودفاعاً عنها ابيح دفع المعتدي حتى لا يُفْتَن أحد عن دينه، ولا يُظْلَم احد بسبب عقيدته او رأيه.

الفصل الثاني

المواعظ الأساسية «في أول خطبة خطبها الرسول ﷺ بالمدينة»(*)

عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلاّها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادِيَ من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلةٍ من العلم، وضلالةٍ من الناس، وانقطاعٍ من الزمان: ودنوٍ من الساعة وقرب من الأجل.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط وضلّ ضلالاً بعيداً.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلم أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجلٍ ومخافة، وعون صدقٍ على ما تبتغون من أمر الآخرة.

قال هيكل:

بينما كانت هذه وجهة محمد في التفكير في أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها، كان أهل هذه المدينة ممن استقبلوه يفكرون، وإن كان كل فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره. فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار، وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت. ثم كان بها اليهود، يقيم منهم بنو قينُقَاع في داخلها، ويقيم بنو قُريظة في فَدَك، وبنو النَّضير على مقربة منها، ويهود خَيْبَر في شمالها. أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط، وإن بقيت في نفس محمد بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوماً، مما جعله يفكر في وسيلة للقضاء على كل

(*) نقلناها عن ابن كثير بدل ترجمتها، حتى لا نقع بالركاكة، ج 2، مرجع سابق.

ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذِّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد.

وجاهدوا في الله حق جهاده؛ هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة، ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هكذا أوردها ابن جرير وفي السند إرسال.

وقال البيهقي: باب أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصمّ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بُكير، عن ابن إسحاق، حدثني المغيرة بن عثمان بن محمد بن عثمان والأخنس بن شَرِيق، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس فقدِّموا لأنفسكم، تعلمُنَّ والله ليُصعقن أحدكم ثم ليدعَنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالاً وأفضلتُ عليك، فما قدَّمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته».

شبهة من هذا النوع تفكيراً كان له من بعدُ أثره. وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج، فقد ألفوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً نهكتهم الحروب الماضية، فاتجه همهم للوقيعة بين هؤلاء وأولئك. وأما اليهود فبادروا بادئ الرأي إلى حسن استقبال محمد ظناً منهم أن في مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله في حلفهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي أَجْلَت اليهود، شَعْبَ الله المختار، عن فلسطين أرض المعاد ووطنهم القومي. وانطلق كل على أساس تفكيره يمهد أسباب النجاح لبلوغ غايته.

هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد لم يسبقهن إليه أحد من الأنبياء والرسل. هنا

فالثروة الحقيقية هي في اليوم الآخر، ولا يبقى مع الإنسان إلا فعل الخير الذي فعله في الدنيا لأقرانه من بني الشر. وعلى هذا يتساءل الناس عما قد ترك حقاً في هذه الحياة، وعن هذا تسأل ملائكة القبر عما قدّم الإنسان من عمل.

وحين تساءل «ابن أم سعد» عن ما يمكنه أن يحسن به إلى روح أمه التي توفيت؟ أجاب الرسول ﷺ بالماء؟!

أن أحفر لها بئراً يروى به العطاش، فحفر بئراً ليحسن من مائه إلى روحها وبإسمها.

أما إحسان اللسان الأهم والأقل كلفة فقد أكدّه الرسول ﷺ «لأبي جرية»، أحد سكان البصرة الذين قدموا إلى المدينة ممن قبل الإسلام من الصحابة حين أكد له ﷺ بأن لا يذكر أحداً بالسوء، ومن يومها لم يقل سوءاً لا بحرٍ ولا بعبد.

وهكذا امتدت تشريعات الإسلام نحو السلوك الحياتي للناس، كضرورة إفشاء السلام بين الناس في دخولهم وخروجهم عن بعض، وبضرورة رد التحية بأحسن منها، فعلى الراكب أن يبدأ الماشي بالسلام والماشي يبدأ القاعد به، والجماعة الصغيرة تبدأ الكبيرة به، كما يبدأ الصغير الكبير أيضاً.

ولا ننسى أن بعض مسيحيي المدينة قد دخلوا بالإسلام فور دخول محمد ﷺ إليها. وربما كانوا من تلك الطوائف المسيحية الشرقية القديمة التي لم تجد أي تعارض للإسلام معها، والتي تعتبر المسيح بن مريم عليه السلام نبياً من أعظم الأنبياء ليس إلاّ،

يبدأ طور السياسي الذي أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً ثم يطاطئ الرأس إجلالاً وإكباراً. كان أكبر همه أن يصل بيثرب، موطنه الجديد، إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز، وإن كانت قد عرفت قبل ذلك بكثير في بلاد اليمن. فتشاور هو ووزيراه أبو بكر وعمر؛ فكذلك كان يسميهما. وقد كان أول ما انصرف إليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، للقضاء على كل شبهة في أن تثور العداوة القديمة بينهم. ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا في الله أَخَوَيْن أخوين. فكان هو وعليّ بن ابي طالب أخوين. وكان عمه حمزة ومولاه زيد اخوين، وكان ابو بكر وخارجة بن زيد أخوين. وكان عمر بن الخطاب وعِتبان بن مالك الخزرجي أخوين. وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب، بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة في أعقاب هجرة الرسول إياها، مع واحد من الانصار إخاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب. وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيداً.

ولم يظهر باقي المسيحيين بالمدينة أي عداء للإيمان الجديد، معتبرينه أفضل بكثير من عبادة الأصنام، وأنه أفضل أيضاً من الانقسامات المريرة الشائعة بين مسيحيي الشرق التي انعكست عليهم فأضعفت حماسهم المسيحي، مما دفعهم إلى الانقياد السريع للعقيدة الجديدة.

وأظهر الأنصار من كرم الضيافة لإخوانهم المهاجرين ماتقبله هؤلاء أول الأمر مغتبطين. ذلك أنهم تركوا مكة، وتركوا وراءهم ما يملكون فيها من مال ومتاع، ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم. ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفان؛ أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكة شيئاً ينفعه. وقد ذهب حمزة عم الرسول يوماً يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به. وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، ولم

الفصل الثالث

السلوك مع اليهود

أما اليهود ذوو العصبيّة القويّة والغنيّة في المدينة وما حولها، فكان موقفهم على العكس من المسيحيين غير محبذ لهذه العقيدة الجديدة، لكن الرسول ﷺ أقام مع بعضهم عهود سلام، من منطلق إمكان قبوله مع الوقت على أنه المخلص أو النبي المنتظر، على أساس تقارب الصيغ الدينية معهم، وخاصة بما يتعلق ببعض شعائرهم القديمة كمراعاة صيام بعض الأيام والترتيبات الدينية الأخرى في بعض الشعائر التي كانت في وصايا «موسى» عليه السلام، ولما كان من عادة كل الأديان الشرقية التوجه بالعبادة نحو قبلة معينة للتعبد، كالصابئة نحو نجم القطب الشمالي، وتوجه عباد النار نحو الشرق حيث تخرج الشمس نارهم الأزليّة، واليهود نحو القدس، اتجه محمد ﷺ أيضاً نحو القدس كقبلة له ولأتباعه في الصلاة.

وبينما كان يزداد عدد الداخلين بالدين الجديد من سكان «المدينة»، بدأ المرض يتفشى بين المهاجرين من «مكة» في «المدينة»، لعدم اعتيادهم على مناخها، فعانى الكثير منهم من حميات غامضة، مما زاد من شوقهم لوطنهم الذي طردوا منه. ولإعطائهم شعوراً بالمواطنة آخى الرسول ﷺ بين خمسة وأربعين منهم وبين بعض سكان المدينة، فكان هذا الرباط ـ الأخوة ـ يربط بين المتآخين على السراء والضراء،

يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شيئاً. فعرض عليه سعد أن يشاطره ماله؛ فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدله على السوق، وفيها بدأ يبيع الزُّبد والجبن، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة في زمن قصير وأن يمهر إحدى نساء المدينة، وأن تكون له قوافل تذهب في التجارة وتجيء. وصنع كثير غير عبد الرحمن من المهاجرين صنيعه؛ فقد كان لهؤلاء المكيين من الدراية في شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم: إنه ليُحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهباً.

أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعليّ بن ابي طالب وغيرهم. فقد عملت أسرهم في الزراعة في أراضي الانصار مزارعة مع ملاكها. وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شدّة وبأساء؛ لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كلاً على غيرهم؛ فكانوا يجهدون

حتى أكثر مما يجمع بين الإخوة من أسرة واحدة، أو بين من تجمعهم رابطة الدم والعشيرة، ـ وبديلاً عن العصبية المقيتة ـ.

وظلت هذه الرابطة أساساً لكي يتمكن القادمون الجدد من ترسيخ أقدامهم في المدينة، وبصورة خاصة للذين تعرضوا للاضطهاد في «مكة». قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: 71].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [سورة الأنفال: 75].

وبهذه الطريقة البسيطة لكنها الفريدة والهامة، وضعت أسس القوّة التي ستكون هائلة في هذا المجتمع قريباً، والتي سوف تهز أقوى الامبراطوريات في العالم.

أنفسهم في العمل أشد الجهد، ويجدون في ذلك من لذة الطمانينة لأنفسهم ولعقيدتهم ما لم يكونوا يجدونه بمكة. على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا، كانوا في حال من العَوز والمتربة، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه. هؤلاء أفرد محمد لهم صفة المسجد (وهي المكان المسقوف منه) يبيتون بها ويأوون إليها، ولذلك سُموا أهل الصُفة، وجعل لهم رزقاً من مال المسلمين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً.

الباب الخامس عشر

الفصل الأول

الزواج بعائشة رضي الله عنها

إن العداء الذي جلبه تمسك الرسول ﷺ برسالته ﷺ، أدى إلى تحطيم عائلته ﷺ أيضاً، فابنته «رقية» لا زالت في المنفى بالحبشة مع زوجها «عثمان بن عفان» رضي الله عنهما، أما ابنته ﷺ الأخرى «زينب» رضي الله عنها فقد بقيت في مكة مع زوجها «أبي العاص» الذي ظل خصماً عنيداً للإيمان الجديد، ولم يكن معه من عائلته ﷺ في «المدينة» سوى زوجته «سودة» رضي الله عنها وابنته «فاطمة» رضي الله عنها وابنته «أم كلثوم» رضي الله عنها من زوجته «خديجة» رضي الله عنها، ورغم حبه للنساء لم تكن عاطفته ﷺ قوية نحو «سودة» رضي الله عنها، التي لم تستطع أن تملأ عليه مكان «خديجة» رضي الله عنها، ورغم ذلك ظل يعاملها بكل رفق.

المرأة الصالحة هي كنز الرجل الحقيقي تطيع الله تعالى وترضي زوجها، فإذا نظر إليها سرته، وإذا طلب منها أمراً أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته بماله وعرضه.

تلك صفات «عائشة» ابنة «أبي بكر» رضي الله عنها الصغيرة الجميلة التي قد مضى على خطبتها للرسول ﷺ سنتان وقد بلغت التاسعة من عمرها، والتي قد تبدو طفلة لمن يكتب عنها الآن، لكنها امرأة في واقع مناخ الشرق الحار. لذلك أعرس الرسول ﷺ عليها بعد وصوله إلى المدينة بعدة أشهر، بعرس بسيط، على وليمة من الحليب والحبوب والخبز، وكان مهرها اثني عشر أوقية من الفضة.

وأعقب ذلك بفترة قصيرة خطبة «علي» رضي الله عنه من «فاطمة» رضي الله عنها وتزوجا بعد ذلك، وكانت «فاطمة» رضي الله عنها بين الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، امرأة صالحة ذات جمال أخاذ، وصفها الكتاب العرب بأنها واحدة من أفضل وأجمل النساء اللواتي بارك الله تعالى بهن هذه الأرض، وكان علي رضي الله عنه في الثانية والعشرين من عمره.

وحسب بعض الكتاب المسلمين كان قرانهما مباركاً في الأرض والسماء، حيث سادت الأفراح كل «المدينة» وعلقت فيها الزينات إلى حد أن النسيم ملئ بكل أطايب العطر الفواح، وبينما كان الرسول ﷺ يزفها إلى عريسها أحاط بها ملائكة السماء، وكان على يمينها ملاك الرسل ﷺ جبريل، وعلى يسارها ميكائيل يلحق بهم سبعون ألف ملاك أحاطوا منزلها ليلة الدخلة.

وهذه كانت تصورات بعض الكتاب المسلمين حول مثل هذه الأحداث التي كانت تحصل في بيت الرسول ﷺ، والتي كان واقع البساطة المحمدية ﷺ مغايراً لها، لأننا وجدنا بالمراجع الأكثر ثقة وواقعية أن وليمة العرس كانت من التمر والزيتون، ومخدع الزوجية كان من جلد الغنم، وجهاز العروس مجرد ثوبين وغطاء رأس، وسوارين من الفضة، ومخدة من الجلد محشوة بالليف، وقدح شراب واحد، ومروحة يدوية، وجرتي ماء من الفخار كبيرتين، وصحن طعام فخاري، وترجيحنا لهذا الوصف لأنه يتلاءم أكثر مع حقيقة بساطة البيت العربي آنذاك، وظروف زواج الزوجين، حتى أن «علياً» رضي الله عنه اضطر أن يبيع بعض جماله وعتاده لدفع المهر.

كذلك لم يكن أسلوب عيش الرسول ﷺ مترفعاً عن أساليب عيش صحابته، فقد ذكرت «عائشة» رضي الله عنها بعد سنين هذا الأمر بقولها: «لم نكن نوقد الطعام شهراً وكان طعامنا لا يزيد عن التمر والماء، ما لم يرسل أحد اللّحم لنا، فآل البيت لم يشبعوا من خبز الدقيق يومين متعاقبين».

وكان طعامه ﷺ غالباً من التمر وخبز الشعير والعسل والحليب، وكان ينظّف غرفته ﷺ بنفسه، ويشعل ناره بنفسه، وينظف ثيابه بنفسه، ويخدم نفسه بنفسه، واضعاً لكل زوجة من زوجاته غرفة منفصلة ملحقة بالمسجد، ويعدل بينهن رغم تفضيله القلبي لعائشة رضي الله عنها.

الفصل الثاني

إخلاصه ■ لخديجة رضي الله عنها

اشتهر الرسول ﷺ بعذريته وتعففه التي ذكرها المؤرخون وأكدوها في صباه، ومن الملاحظ أنه رغم أن تعدد الزوجات كان أمراً طبيعياً وشائعاً عند العرب، وأنه ﷺ لم يغيره بل ضبطه وسمح لنفسه به في سنين متأخرة من عمره ﷺ، ورغم كل فحولته ورجولته ﷺ ظل مكرساً نفسه «لخديجة» رضي الله عنها طوال فترة حياتها، وحتى يومها الأخير، فلم يدخل عليها ضرة في بيته الزوجية، كما لم يدخل إلى قلبه أي امرأة سواها طوال فترة حياتها، وحتى كل غضاضة وسحر «عائشة» رضي الله عنها التي استحوذت عليه، لم يغير من مشاعره العميقة الرقيقة ولا إعجابه وعرفانه بزواجه الأول، إلى حد أن «عائشة» عندما سمعت تعابيره ﷺ عن هذا الأمر، واستعاداته لهذه الذكرى العطرة تساءلت في يوم من الأيام قائلة: ألم تكن خديجة يا رسول الله طاعنة بالسن؟!

ألم يعوضك الله بامرأة أفضلَ منها؟!

فجاءها الجواب: أبداً!!

بأن الله لم يعطه أفضل منها، لأنه عندما كان فقيراً هي التي ساعدته، وآمنت به حين كذّبه الجميع، وعندما كان كلّ الناس ضدّه هي التي وقفت مخلصة معه ﷺ!!.

الباب السادس عشر

الفصل الأول

سيف الدين

إلى الآن وجدنا كيف أن الرسول ﷺ اعتمد العقل والإقناع بالدين، وبهذه الطريقة كان صحابته ﷺ يبشرون، وهو يحثهم على الصبر وتحمل المعاناة الطويلة من عنف خصومهم عليهم بشكل يشبه ما حصل مع أتباع المسيح عليه السلام: فمن ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر(*). ـ حيث وقفت الدعوة المسيحية عند هذا بغياب المسيح

قال ابن كثير:

عن ابن إسحاق: كانوا ثمانية وأميرهم التاسع، فالله أعلم.

قال ابن إسحاق: وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فمضى لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي فامضِ حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم». فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بما في الكتاب، وقال: قد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفُرع يقال له بحران، أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعُتبة بن غَزْوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة.

فمرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي، قال ابن هشام: واسم الحضرمي عبد الله بن عباد. وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، وأخوه نوفل والحكم بن كَيْسان مولى هشام بن المغيرة.

(*) مفهوم إنجيلي لم يعتمده الرسول ﷺ أبداً لا في مكة ولا في المدينة، وقد رأينا من أبو الفدا وهيكل سابقاً كيف كان الرسول ﷺ يسمح بالرد عند الإمكان.

الشاب عليه السلام ـ أما الآن فقد وصل الرسول ﷺ إلى المرحلة التي تقضي فراق هذه الروح السماوية في الدعوة بالأرض، فطبع دينه بطابع الواقع الأرضي الذي وإن كان يتعارض مع ذاتيته الإنسانية الراقية، تلك الذاتية التي لم تحصد مدة ثلاث عشرة سنة إلا الإساءة والإهانات، فقد كان مضطهدوه من نفس عشيرته القريشية، وخاصة من فخذ بني «عبد شمس» يرأسه «أبو سفيان» زعيم «مكة» الآن والمسيطر عليها، ونتيجة هذه السيطرة زادت ثروته فيها بشكل هائل، بينما عانى فخذ الرسول ﷺ وعائلته خاصة مقابل ذلك من الفقر والقمع، والنفي له ولأتباعه. وحتى كل هذا كان بإمكان الرسول ﷺ أن يستمر بتحمله طوعاً وبكل شهامة لولا أن ضرورة الرد قد ساقها قدر الله تعالى كي تصير في متناوله ﷺ بشكل إعجازي غير متوقع، فهو قد جاء إلى المدينة يطلب ملجأ وسكناً، فما برح أن وجد نفسه بعد برهة وجيزة إلا وتحت إمرته جيش جرار من المسلمين المتزايدين الجدد يومياً من أهل المدينة ومن النواحي والصحاري المحيطة بها، من المحاربين الأشداء، فهي كملجأ له ﷺ من «مكة» كانت أيضاً مركز استقطاب قبائل الصحراء، برجالها ذوي الروح الوثابة، والمهارة باستخدام السلاح، الشغوفين بالمشاركة

فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فاشرف لهم عُكاشة بن مِحْصَن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه امنوا، وقال عمار: لا باس عليكم منهم.

وتشاور الصحابة فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتنُعنَّ به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام. فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم.

ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقدُ بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستاسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فاعجزهم.

واقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ.

وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ فيما غنمنا الخمس. فعزله وقسم الباقي بين أصحابه، وذلك قبل ان ينزل الخمس.

قال: ولما نزل الخمس نزل كما قسمه عبد الله بن جحش. كما قاله ابن إسحاق.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام» فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أُسْقِط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال.

بالحروب، الذين أيقظ فيهم مشاعر المضاهاة، وهو ﷺ بقمة السلطة، فاختلط هذا الحماس مع هدف الإصلاح الديني الذي كان هو هدف الدعوة كدافع أولي لها، فوصلت به القناعة ﷺ إلى أن توفر هذا الأمر الذي يحققه الإسلام لكل روح وثابة، والقوة بمتناول أيديهم قصد الله به تحقيق هدفه تعالى، خاصة وأن أمر الله تعالى قد جاءه بضرورة استخدامها، وبهذا تغير منهج الدعوة كصدى لكل هذا، وبتغيره تغير قدر هذا الإيمان.

ففضل الجهاد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ. . .﴾ الآية [التوبة: 111] قال: (ابن عباس الحدود الطاعة)[12]. وأن رسول الله ﷺ قال: (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[13]. وقوله ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر وقوله عز وجل: سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله. . .)[14] قاله جابر عن النبي ﷺ.

فقال من يردُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

وقالت يهود: تُفائل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله. عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب. وواقد بن عبد الله: وُقدت الحرب. فجعل الله ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿يسألونكَ عنِ الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيهِ، قُلْ: قِتالٌ فيه كبيرٌ، وصَدٌّ عن سبيلِ الله وكُفْرٌ به، والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلِهِ منهُ أكبرُ عند الله، والفِتْنَةُ أكْبَرُ منَ القتلِ، ولا يزالونَ يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دِينِكم إن استطاعوا﴾ [البقرة: 217].

أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل. أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردُّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعو﴾ الآية.

قال هيكل:

الإسلام والقتال

وليس معنى هذا أن الإسلام كان يومئذ ينكر القتال دفاعاً عن النفس ودفاعاً عن العقيدة، دفعاً لمن يريد فتنة صاحبها عنها. كلا بل إن الإسلام لا يفرض هذا الدفاع. وإنما معناه أن

فالرسول ﷺ خاتم الأنبياء بالسيف، وكل من شهر سيفه في سبيل الله جزاؤه الجنة، ومن إغبرت قدماه في سبيل الله حرمتا على النار، فمنزلة الجهاد بعد الإيمان بالله وبر الوالدين أعلى من الصوم والصلاة.

وقد عضد من هذا القول: القضاء والقدر في الإسلام، فكل حدث حسب القرآن الكريم مكتوب من الأزل، لذلك لا يمكن للإنسان تلافي قدره المحتوم عليه فلا يستطيع الإنسان أن يقدّم ولا أن يؤخّر في لحظة موته، وإذا جاءت ساعته لحقه ملاك الموت سواء كان بفراشه أم في ساحة المعركة ـ وهذا هو الخيار للإنسان في قدره ـ.

وبهذا انتقل الإسلام في المدينة من عموميات الغيرية الدينية إلى خصوصية الدعوة الواقعية بالسيف، فقبل العرب ذلك بما يتلاءم مع عاداتهم، وفضائل الواقعية التي يفرضها العيش وتفرضها حياة الصحراء، فلا اختلاف تفسير حول هذا الأمر، الذي يستدعي انضواءهم تحت علم الرسول ﷺ، الذي بدوره لم يشجّع العنف الأعمى(*)،

الإسلام كان يومئذٍ كما هو اليوم وكما كان دائماً، ينكر حرب الاعتداء: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]. وإذا كان لدى المهاجرين يومئذ ما يبيح لهم اقتضاء ما حجزت قريش من أموالهم عند هجرتهم فإن دفع فتنة المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله ورسوله، وكان الغاية الأولى التي شرع من أجلها القتال.

سرية عبد الله بن جحش

والحجة على ذلك ما نزل من الآيات في سرية عبد الله بن جحش الأسدي، فقد بعثه رسول الله في رجب من تلك السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين، ودفع إليه كتاباً وأمره الا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، فيمضي لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً. وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة (بين مكة والطائف) فترصَّد بها قريشاً وتعلَّم لنا من أخبارهم». وعلم أصحابه بالأمر وبانه لا يستكره أحداً منهم، فمضوا معه جميعاً خلا سعد بن أبي وقّاص الزُّهري وعُتبة بن غزوان اللذين هبا يطلبان بعيراً لهما ضل فاسرتهما قريش. وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا نخلة. هناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي؛ وكان يومئذ آخر شهر رجب. وذكر عبد الله بن جحش ومن معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم، وتشاوروا وقال بعضهم لبعض: «والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنَّ الحرم فليمتنِعُنَّ منكم به. ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام». وترددوا وهابوا الإقدام، ثم

(*) سواء في مكة المكرمة أو المدينة المنورة سواء بسواء.

فالذين لا يريدون الانضواء تحت راية الإسلام لهم فسحة دفع الجزية، خضوعاً لقوانين الغلبة في الوجود.

وهنا نلمح أول مؤشّرات تحويل هذه القوانين إلى ما يتلاءم مع الطموح الإسلامي الواقعي، لذلك عاد الرسول ﷺ ليوظف أموال الجزية لتوسيع إرادة الفتح، فأنفقها من أجل نشر الإيمان.

ولعل أوّل توجّه شبه حربي وظف به محمد ﷺ هذه المشاعر التي ذكرناها، كان ضد قوافل «مكة»، وقد قاد بنفسه ﷺ ثلاث بعثات حربية لهذا الغرض دون أن يظفر بهذه القوافل، أما الرابعة فكانت بقيادة «عبد الله بن جحش الأسدي» مع سرية صغيرة من ثمانية أو عشرة أشخاص على الطريق الجنوبي للقوافل، في شهر «رجب» وهو من الأشهر الحرم، ومعه أوامر مختومة لا تفتح إلا في اليوم الثالث من مسيره، ولما فض «ابن جحش» الرسالة فإذا فيها: «إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل «نخلة»، بين مكة والطائف، فترصد لنا قريش وتعلم من أخبارهم»، وهي نفس المكان الذي نزلت فيه سورة الجنّ، ففهم «عبد الله» المعنى الأساسي الحقيقي من الرسالة وانطلق لينفذها، ولما وصل إلى وادي «نخلة» مرت به قافلة عير لقريش بها زبيب وأدم ـ جلد ـ وتجارة، ويقودها أربعة رجال، فلحقها من بعيد ثم أرسل أحد رجاله بزي الإحرام، فظن

شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من قريش.

الفتنة أكبر من القتل

وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينة على الرسول وحجز القوم لمحمد من مغنمهم الخمس. فلما رآهم قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام؛ ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. وأسقط في يد عبد الله بن جحش وأصحابه، وعنّفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا. وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية ونادت في كل مكان: إن محمداً وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدّم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال. وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة أن إخوانهم في الدين من المهاجرين إلى المدينة إنما أصابوا في شعبان. ودخلت اليهود تريد إشعال نار الفتنة، إذ ذاك نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: 217].

وسُري عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر، وقبض النبي العير والأسيرين فافتدتهما

القرشيون أن أتباعه حجاج مثله يتجهون إلى «مكة» وخاصة وأن رجب من الأشهر الحرم الذي يمكن السفر فيه بأمان في الصحراء - وتفضل القوافل التحرك بالأشهر الحرم - فتوقفوا فلحق بهم «عبد الله» ورفاقه وقتلوا أحدهم وأسروا اثنين وفر الرابع، ثم عاد المنتصرون إلى المدينة بغنائمهم.

لكن «المدينة» كان قد وصلها هذا الأمر في الأشهر الحرم وعيرت به، فبدا على الرسول ﷺ الغضب من «عبد الله» ورفض الخمس من الغنائم الذي قدمه إليه، مؤكداً أن تعليماته التي كانت غامضة على «عبد الله» لا تتضمن أي أمر له إراقة الدماء، أو ممارسة أي عنف في الأشهر الحرم.

وتصاعد الخبر بين الناس بصدى من «مكة» وأكثر الناس في ذلك فنزلت الآية التالية:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله... والفتنة أكبر من القتل(15).

وبنزول التوضيح الإلهي لهذا العمل لم يعد الرسول ﷺ ليتردد بأخذ خمسه من الغنائم، وإفتُدِي أحد الأسرى، واعتنق الباقون منهم الإسلام.

وعلى الرغم من قداسة هذه الآية القرآنية السابقة عند المؤمنين، إلا أن الواقعة ككل حطت من قدر النبي ﷺ بعين خصومه(16)!! مما جعل من بعثة «عبد الله بن

منه قريش؛ فقال: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعني سعد بن أبي وقّاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. وقدم سعد وعُتبة وافداهما النبيّ من الأسيرين. فأما أحدهما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام بالمدينة. وأما الآخر فرجع إلى مكة وظل بها حتى مات على دينه ودين آبائه.

جدير بنا أن نقف عند سرية عبد الله بن جحش هذه والآية الكريمة التي نزلت فيها؛ فهي في رأينا مفترق طرق في سياسة الإسلام. هي حادث جديد في نوعه يدل على روح قويّ في سموه، إنسانيّ في قوّته، ينتظم نواحي الحياة المادية والمعنوية والروحية كاشد ما يكون النظام قوة ورفعة وتوجهاً إلى الكمال. فالقرآن يجيب المشركين عن سؤالهم عن القتال في الشهر الحرام أهو من الكبائر، ويقرّهم على أنه كذلك أمر كبير. لكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر. فالصَّدُّ عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام والقتل فيه. وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء

جحش» صورة قاتمة عن ممارسة القوة في الدين بنظر العرب، حيث اعتبروا الأمر لا يخرج عن كونه ممارسة ثأر بررته آيات إيمانية ضد أعداء الإيمان الجديد، لذلك ظهر التذمر من خرق الأشهر الحرم المقدسة منذ القدم والمكرسة ضد العنف وإراقة الدماء، والذي بدأه الرسول ﷺ.

والتعذيب أكبر من القتل في الشهر الحرام وفي غير الشهر الحرام. وقريش والمشركون الذين ينعون على المسلمين ما قتلوا في الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردّوهم عن دينهم إن استطاعوا. فإذا كانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعاً، فيصدّون عن سبيل الله ويكفرون به ويخرجون أهل المسجد الحرام منه ويفتنونهم عن دينهم، فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم في الشهر الحرام، وإنما الكبيرة أن يقاتل في الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزار وزراً.

الباب السابع عشر

الفصل الأول

معركة بدر

في السنة الثانية للهجرة وصل إلى الرسول ﷺ خبرٌ بأن «أبا سفيان» خصمه العنيد، يقود قافلة من ألف جمل محملة بالبضائع من سورية، وبحراسة ثلاثين فارساً، وسيمرون بالجبال التي تقع المدينة فيها، لكن بين سلاسل الجبال والبحر، فقرر الرسول ﷺ مفاجأتهم في منتصف شهر رمضان، فقاد قوة من ثلاثمئة وأربعة عشر رجلاً، منهم ثلاثة وثمانون مهاجراً، وواحد وستون «أوسياً» ومئة وسبعون «خزرجياً»، وكان لكل جماعة

قال ابن كثير:

وفي رواية عنه بهذا الإسناد «مُرْدِفين» بعضهم على أثر بعض وكذا قال أبو ظَبْيان والضحاك وقتادة.

وقد روى علي بن أبي طلحة الوالبيّ عن ابن عباس قال: وأمدَّ الله نبيَّه والمؤمنين بألف من الملائكة، وكان جبريل في خمسمائة مجنِّبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة، وهذا هو المشهور.

ولكن قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران عن الرَّبعي، عن أبي الحويرث عن محمد بن جبير، عن علي، قال: نزل جبريل في ألفٍ من الملائكة على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة على ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة.

ورواه البيهقي في الدلائل، من حديث محمد بن جبير، عن علي، فزاد: ونزل إسرافيل في ألف من الملائكة.

وذكر أنه طعن يومئذٍ بالحربة حتى اختضبت ابطه من الدماء فذكر انه نزلت ثلاثة آلاف من الملائكة.

وهذا غريب وفي إسناده ضعف، ولو صح لكان فيه تقوية لما تقدم من الأقوال. ويؤيدها قراءة من قرأ: «بألف من الملائكة مردفين» بفتح الدال. والله أعلم.

منهم علمهم الخاص، ولم يكن في هذا الجيش الصغير سوى حصانين فقط، ـ لأن العرب لم يكونوا كثيري الخيل سوى في ما بين النهرين وسورية ـ لكن كان معهم سبعون جملاً يتعاقب الجيش على ركوبها لكي يسرعوا السير دون عناء شديد.

في هذه الفترة كان «عثمان بن عفان» رضي الله عنه صهر الرسول ﷺ قد عاد مع زوجته «رقية» رضي الله عنها بنت الرسول ﷺ من الحبشة لكنه لم يشارك في الخروج لأن «رقية» رضي الله عنها كانت تعاني من سكرات الموت فأجبر على البقاء معها في المدينة.

وانطلق الرسول ﷺ بقواته باتجاه «مكة» ثم سار بهم بعد مسافة إلى جهة اليسار نحو البحر الأحمر ودخل في وادي «بدر» الخصيب، ثم نزل بقواته بجانب «غدير بدر»

قال هيكل:

كانت سرية عبد الله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام، فيها رمى واقد بن عبد الله التميميّ عمرو بن الخضرمي بسهم فقتله، فكان أول دم أراق المسلمون. وفيها نزلت الآية التي قدّمنا؛ وعلى اثرها شُرع قتال الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدّون عن سبيل الله. وكانت هذه السرية مفترق طرق كذلك في سياسة المسلمين إزاء قريش، أن جعلت الفريقين يتناظران بأساً وقوّة. فقد جعل المسلمون يفكرون من بعدها تفكيراً جدّياً في استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم. ذلك بأن قريشاً حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه أن قتلوا في الشهر الحرام؛ حتى لقد أيقن محمد أن لم يبق في مصانعتهم أو في اتفاق معهم رجاء. وقد خرج أبو سفيان في أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة يقصد الشام، وهي التجارة التي أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبي عليه الصلاة والسلام إلى العُشَيْرة. لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبي سفيان قد مرّت بها ليومين من قبل وصولهم إليها؛ إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها في عودتها. ولما تحيَّن محمد انصرافها من الشام بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ينتظران خبرها، فسارا حتى نزلا على كَشْدٍ الجهني بالحوراء وأقام عنده في خباء حتى مرّت العير، فأسرعا إلى محمد ليُفضيا إليه بأمرها وما رأيا منها.

على أن محمداً لم ينتظر رسوليه إلى الحوراء وما يأتيان به من خبر العير؛ فقد ترامى إليه أنها عير عظيمة، وأن أهل مكة جميعاً اشتركوا فيها، لم يبق أحد منهم من الرجال والنساء استطاع أن يساهم فيها بحظ إلا فعل، حتى قُوّم ما فيها بخمسين ألفاً من الدنانير. ولقد خشي إن هو انتظرها أن تفوته العير في عودتها إلى مكة كما فاتته في ذهابها إلى الشام. لذلك ندب المسلمين وقال لهم: هذه عير قريش؛ فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها وخفّ بعض الناس وثقل بعض، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا طمعاً في الغنيمة، فأبى محمد عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله.

حيث ستمر القوافل وتتوقف هناك عادة، وجعل قواته تحفر خندقاً تجر إليه ماء الغدير ليشربوا منه ويبعدوا الماء عن عدوهم.

ولما علم «أبو سفيان» بذلك وأن الرسول ﷺ بانتظاره بقوات متفوقة عليه، أرسل رسولاً اسمه «عمير» على وجه السرعة لطلب النجدة من قريش بمكة، فوصل رسوله إلى الكعبة مقطوع الأنفاس، فتسلق أبو جهل البيت المقدس وأطلق صيحة التحذير، مما أوقع بكل سكان مكة الاضطراب، فما كان من «هند» زوجة «أبي سفيان» المرأة ذات الشدة والقسوة إلا أن دعت والدها «عتبة» وأخاها «الوليد» وعمها «شيبة» مع كل محاربيهم لحمل السلاح ونجدة زوجها، مع إخوان من قتلهم «عبد الله بن جحش» من قريش في وادي «نخلة» ليثأروا لقتلاهم، وهكذا اختلطت دوافع الثأر مع دوافع المصلحة المادية لمن له أموال في القافلة من معظم عشيرة قريش، وبذلك تشكلت قوة من مئة فارس وسبعمئة راكب جمل وتحركت بسرعة نحو طريق الشام، بقيادة «أبي جهل» المحارب الصحراوي الجاهلي الذي لا زال كما لو كان شاباً يشتعل بحماس القتال رغم تقدم عمره.

وبينما كان «أبو جهل» يسرع بقواته جهة الشام، كان «أبو سفيان» قد غير مساره

رسول أبي سفيان إلى قريش

أما أبو سفيان فكان قد اتصل به خروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن ربحت تجارته، وجعل ينتظر أخبارهم. وكان الجهنيّ الذي نزل عليه رسولا محمد بالحوراء بعض من سأل. ومع أن الجهنيّ لم يصدقه الخبر فقد بلغه من أمر محمد والمهاجرين والأنصار معه مثل ما ترامى إلى محمد من خبره؛ فخاف عاقبة أمره إن لم يكن من قريش في حراسة العير إلا ثلاثون أو أربعون رجلاً. عند ذلك استأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفاري فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه. ووصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادي فقطع أُذُني بعيره وجدع أنفه وحوّل رحله ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح. يا معشر قريش! اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث! وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم. وكان أبو جهل رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النُّظر. ولم تكن قريش في حاجة إلى من يستنفرها، وقد كان لكل منهم في هذه العير نصيب.

على أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظلمت قريش المسلمين من أهلها حتى أكرهتهم على الهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألا يصيب العير مكروه. وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشاً وكنانة بينهما

نحو مكة مبتعداً عن مكمن الخطر وهو يتتبع كل علامة ودليل يبعده عنه، وعندما عثر على آثار أقدام جيش الرسول ﷺ استطاع أن يقدّر عددهم وعرفهم من بقايا نوى نخل المدينة التي فضلت عن الجنود والمشهورة بصغر حجمها، والعرب كانت معروفة بمعرفتها بتتبع الأثر في الصحراء. وبعد أن تأكد «أبو سفيان» من الطريق الذي اتخذه الرسول ﷺ غير اتجاهه نحو البحر الأحمر بعيداً عن الخطر، ثم أرسل رسوله لإخبار قريش بسلامة قافلتهم وزوال الخطر، عسى أن يعودوا ويتجنبوا اللقاء ويعودوا إلى مكة.

ووصل رسول أبي سفيان مع تحرك قوات قريش، الذين بمجرد أن سمعوا بزوال الخطر عقدوا مجلساً، وكان منهم من يحبذ الاستمرار بالمسير لمعاقبة محمد ﷺ وأتباعه، ومنهم من أراد العودة، ولحل هذا الإشكال أرسلو قوة استكشاف لتقدر لهم قوات عدوهم، وعاد الكشافة برقم الثلاثمئة مما زاد من حماس الذين يريدون التأديب، وعارضهم الآخرون بأن خصومهم مستقتلون ليس لديهم ما يخسرونه سوى سيوفهم، فلن يسقط أحد منهم إلا هو وخصمه، إضافة إلى وجود أقاربٍ لهم معهم، وإذا هزمناهم: كما راحوا يؤكدون لبعضهم، لن نتمكن من رفع رؤوسنا نحو بعض، فما

ثار في دماء تبادل الفريقان إراقتها. فإذا هي خفت إلى لقاء محمد لمنع عيرها منه خافت بني بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها. وكادت هذه الحجة ترجح وتؤيد رأي القائلين بالقعود لولا أن جاء مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا لكم جار من أن تاتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه. إذ ذاك رجحت كفة أبي جهل وعامر بن الحضرمي والدعاة إلى الخروج لدفع محمد والذين معه، ولم يبق لكل قادر على القتال عذر في التخلف أو يرسل مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان جحد حق له باربعة آلاف درهم كانت له عليه افلس بها. وكان امية بن خلف قد أجمع على القعود، وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً. فاتاه بالمسجد عُقبة بن أبي مُعَيْط وأبو جهل، ومع عقبة مِجْمَرَة فيها بخور ومع أبي جهل مَكْحُلة ومِروَد فوضع عقبة المجمرة بين يديه وقال: يا أبا علي استجمر فإنما انت من النساء. وقال أبو جهل: اكتحل أبا علي فإنما أنت امرأة. فقال أمية: ابتاعوا لي افضل بعير في الوادي، وخرج معهم؛ فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال.

مسيرة جيش المسلمين

أما النبي عليه السلام فقد خرج في أصحابه من المدينة، لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وجعل عمرو بن أم مكتوم فيها على الصلاة بالناس، وردّ أبا لبابة من الرُّوحاء واستعمله على المدينة. وكانت أمام المسلمين في مسيرتهم رايتان سوداوان، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعتقبونها، كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيراً، وكان حظ محمد في هذاكحظ سائر أصحابه، فكان هو وعليّ بن أبي طالب ومَرْثد بن أبي مَرْثَد

الفخر في قتل الأقارب، وكادت هذه الحجة تغلب لولا إخوة من قتلوا من قريش في وادي «نخلة» الذين تصايحوا مع «أبي جهل» بطلب الثأر.

إلى الأمام

لنشرب من غدير بدر كأس سلامة القافلة: تلك كانت كلمات «أبي جهل»، وهكذا تقدمت معظم القوات رافعة علمها ومتابعة سيرها، رغم أن عدداً لا بأس به منها قد عاد إلى «مكة».

أما كشافة الرسول ﷺ فقد أخطروه بتقدم هذه القوات، مما أخاف بعض قواته التي ما جاءت لتحارب في معركة كبيرة، وتذمّروا من هذا العدد الكبير الذي سيواجهونه، لولا أن رفع الرسول ﷺ معنوياتهم بتأكيده لهم أن الله معهم والنصر موعود وقريب.

وتمركز المسلمون على أرض مرتفعة يجري الماء تحتها، ووضعوا قيادة الرسول ﷺ تحت خيمة صنعوها سريعاً من غصون الشجر، وبجانبها جمل سريع للكر والفر في القتال.

وبوصول أول كوكبة عطشى من العدو للسهل مسرعة لتشرب من الغدير، انقض «حمزة» رضي الله عنه عم «الرسول» ﷺ عليها مع عدد من رجاله ومزقها وقتل قائدها بيديه رضي الله عنه، ولم ينج منهم إلا رجل واحد أسلم فيما بعد.

الغَنَوي يعتقبون بعيراً. وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً وكانت عدّة من خرج مع محمد إلى هذه الغزوة خمسة وثلثمائة رجل، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج. وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبو سفيان منهم، وهم يحاولون حيثما مرّوا أن يقفوا على أخباره. فلما كانوا بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً. وانطلقوا حتى اتوا وادياً يقال له ذَفِران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بان قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم. إذ ذاك تغيَّر وجه الامر. لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجرون والانصار أمام أبي سفيان وعيره والثلاثين أو الاربعين رجلاً معه، لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه؛ بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها. فهب المسلمين ادركوا ابا سفيان وتغلبوا على رجاله وأسروا منهم من اسروا واقتادوا إبله وما عليها، فلن تلبث قريش أن تدركهم، يحفزها حرص على مالها والدفاع عنه وتؤازرها كثرة عديدها وعددها، وأن توقع بهم وأن تسترد الغنيمة منهم أو تموت دونها. ولكن إذا عاد محمد من حيث أتى طمعت قريش وطمعت يهود المدينة فيه، واضطر إلى موقف المصانعة، واضطر اصحابه إلى أن يحتملوا من اذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من اذى قريش بمكة. وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلو كلمة الحق وأن ينصر الله دينه.

ثم أعقبهم بقية القوات بطبولها وزمورها يتقدمهم ثلاثة من محاربيهم الأشداء، ليتحدوا أندادهم من المسلمين بمبارزة تسبق المعركة، أحدهم عم أبي سفيان «عتبة»، و«الوليد صهره مع أخيه شيبة»، الذين أثارتهم «هند» لينتقموا لقتلى مكة «بنخلة». وكلهم من وجوه عشائرهم.

وإزاءهم خرج ثلاثة محاربين من المدينة يقبلون تحديهم، فرفضوهم قائلين: ليخرج لنا أكفاؤنا من مكة ويتقدموا إذا جرؤوا على ذلك؟ فخرج لهم: «حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث» رضي الله عنهم، وبعد صراع رهيب قتل «حمزة وعلي» رضي الله عنهما أكفاءهما، ثم أعانا «عبيد» رضي الله عنه الذي أثخن بالجراح وكاد «عتبة» أن يقتله، فقتلا خصمه القريشي وسحباه من الساحة وما كادا حتى لفظ أنفاسه رضي الله عنه.

ثم بدأتِ المعركة، حيث وقف المسلمون بموقف الدفاع عن الهضبة بسبب قلة

مقالة الانصار

استشار الناس وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش؛ فادلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»، وسكت الناس. فقال الرسول: أشيروا عليَّ أيها الناس. وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم. فلما أحس الأنصار أنه يريدهم، وكان سعد بن مُعاذ صاحب رايتهم التفت إلى محمد وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال سعد: لقد آمنا بك، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا. على السمع والطاعة؛ فامض لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً. إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء ـ لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله». ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه محمد بالمسرة وبدا عليه كل النشاط وقال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وارتحلوا جميعاً، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العرب وسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، ومنه عرف أن عير قريش منه قريب.

إذ ذاك عاد إلى قومه، فبعث عليّ بن أبي طالب والزُّبير بن العوّام وسعد بن أبي وقّاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتلمّسون له الخبر عليه. وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف محمد منهما أن قريشاً وراء الكثيب بالعدوة القصوى. ولما أن أجابا أنهما لا يعرفان عدّة

عددهم، يمطرون عدوهم بالنبال ويبعدونهم عن الغدير وهم عطاش، وظل الرسول ﷺ تحت مظلته على الهضبة مع «أبي بكر» رضي الله عنه يدعو الله ويتضرع، فنزل عليه الوحي أثناء المعركة، وما إن أفاق حتى بشر أصحابه بالنصر الموعود من الله تعالى، ثم انطلق من تحت مظلته وأخذ حفنة من الحصباء ورماها باتجاه قريش وهو يقول: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها، ثم أمر قواته بالنزول من الهضبة للهجوم وهو يقول لهم ﷺ: «قاتلوا في سبيل الله ولا تهنوا إن الجنة تحت ظلال السيوف»، فتقدم منهم من نال هذه المنزلة.

وبينما كان «أبو جهل» يدفع بقواته إلى قلب المعركة على ظهر حصانه، وصلتْهُ طعنة رمح وهو في خضم القتال فسقط عن حصانه، فوضع «عبد الله بن مسعود» رضي الله عنه رجله على صدره وحز رأسه وهو يطلق اللعنات على الرسول كآخر ما تلفظ به ـ «لعنه الله» ـ.

وبموته انهزمت قريش تاركة سبعين قتيلاً في ساحة المعركة، وعدداً مشابهاً من الأسرى، مقابل أربعين شهيداً مسلماً سجلت أسماؤهم كأول شهداء الإسلام.

أما المؤرخون المسيحيون فقد أرجعوا هذا النصر الأول للإسلام إلى أسباب

قريش، سألهما محمد كم ينحرون كل يوم؟ فأجابا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فاستنبط النبي من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف. وعرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش جميعاً خرجوا لمنعه؛ فقال لقومه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» إذاً فلا بدَّ له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم في العدد ثلاثة أضعاف أن يشحذوا عزائمهم، وأن يوطِّنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه.

وكما عاد عليٌ ومن معه بالغلامين وبخبر قريش معهما ذهب اثنان من المسلمين حتى نزلا بدراً، فأناخا إلى تلٍّ قريب من الماء وأخذا وعاء لهما يستقيان فيه. وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جاريةً تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد، فأعمل لهم ثم أقضيه لك. وعاد الرجلان فأخبراً محمداً بما سمعا. فأما أبو سفيان فسبق العير يتنطَّس الأخبار حذر أن يكون محمد قد سبقه إلى الطريق. فلما ورد الماء وجد عليه مَجْدِيُّ بن عمرو، فسأله: هل قد رأى أحداً؟ وأجاب مَجْدِيُّ بأنه لم ير إلا راكبين أناخا إلى هذا التلِّ، وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين. فأتى أبو سفيان مناخهما فوجد في روث بعيريهما نوى عرفه من علائف يثرب، فأسرع عائداً إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مُساحلاً البحر مسرعاً في مسيره، حتى بَعُد ما بينه وبين محمد، ونجا.

وأصبح الغد والمسلمون في انتظار مروره بهم، فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم أن مقاتلة قريش هم الذين ما يزالون على مقربة منهم؛ فيذوي في نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من

طبيعية، وأهمها أن المسلمين لم يكونوا عطاشاً، ولهم ميزة الأرض المرتفعة والامداد المائي، بينما كان القرشيون متعبين بالسفر، مجهدين بالعطش ومشتتي القوة بسبب من رجع منهم، بينما أرجع المؤرخون المسلمون هذا النصر لتدخل قوى فوق طبيعية، بعد أن ذر الرسول ﷺ الحصباء في الهواء، فقالوا: بنزول ألف أو ثلاثة آلاف ملك محارب بيض اللباس صفر العمائم، يخطفون الأبصار بزيهم، ويركبون مهوراً بيضاء وسوداء، عصفوا بالقريشيين أمامهم. وقد عضد هذه الشهادة التاريخية للمؤرخين المسلمين راع وثني كان مع غنمه على التلة المقابلة، حيث قال: كنت وابن عم لي أرقب المعركة من الطرف المقابل على جبل، على أمل النزول لأخذ الغنائم بعدها، وفجأة تقدمت نحونا غيمة عظيمة، ومنها يسمع صرير الحديد وأصوات زمور الحرب، ونزل منها جيش من

أمل الغنيمة، ويجادل بعضهم النبي كي يعودوا إلى المدينة ولا يلقوا القوم الذين جاؤوا من مكة لقتالهم. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: 7].

وقريش هم أيضاً، ما حاجتهم إلى القتال وقد نجت تجارتهم؟ أليس خيراً لهم أن يعودوا من حيث أتوا، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بخفَّيْ حنين؟ كذلك فكر أبو سفيان وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم: إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجّاها الله فارجعوا، ورأى من قريش رأيه عددٌ غير قليل. لكن أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح: والله لا نرجع حتى نرد بدر فنقيم عليه ثلاثاً ننحر الجزر، ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. ذلك أن بدراً كانت موسماً من مواسم العرب، فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب، فيما رأى أبو جهل، بخوفهم من محمد وأصحابه، مما يزيد محمداً شوكةً ويزيد دعوته انتشاراً وقوة وخاصة بعد الذي كان من سَرِيَّة عبد الله بن جحش وقتل ابن الحضرمي وأخذ الأسرى والغنائم من قريش.

نزول المسلمين بدراً

وتردد القوم بين أتباع أبي جهل مخافة أن يُتَّهموا بالجبن، وبين الرجوع بعد أن نجت عيرهم، فلم يرجع إلا بنو زُهرة الذين اتبعوا مشورة الأخنس بن شريف، وكان فيهم مطاعاً. واتبعت سائر قريش أبا جهل حتى ينزلوا منزلاً يتهيئون فيه للحرب ثم يتشاورون بعد ذلك. ونزلوا بالعدوة القُصوى خلف كثيب من الرمل يحتمون به. أما المسلمون الذين فاتتهم الغنيمة فقد أجمعوا أن يثبتوا للعدو إذا أجمع على محاربتهم، لذلك بادروا إلى ماء بدر، ويسر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتهم إليها. فلما جاؤوا أدنى ماء منها نزل محمد به. وكان الحباب بن المنذر بن الجموح عليماً بالمكان؛ فلما رأى حيث نزل النبي قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال محمد:

الملائكة يقول زعيمهم: أن أسرع «يا حيزوم» بصوت أوقع الرعب بقلب صاحبي فسقط ميتاً، وكدت أن أشاركه مصيره.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: 9].

وعندما انتهت المعركة جاء «عبد الله بن مسعود» رضي الله عنه برأس «أبي جهل» إلى الرسول ﷺ، فنظر إليه قائلاً: «لقد كان هذا الرجل فرعون هذه الأمة»، واسم «أبي جهل» الحقيقي هو «عمرو بن هشام»، وأعطاه القرشيون لقب «أبو الحكم» لظن رجاحة عقله، وعكسها المسلمون بالجهل «بأبي الجهل» فعرف بهذا الاسم تاريخياً وأضافوا اللعنة عليه.

ودفن المسلمون ممن سقط بالمعركة حسب الشرع، وكرموا بمدافن خاصة، بينما

بل هو الراي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى تأتي ادنى ماء من القوم فتنزل ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب - بكبسها بالتراب حتى ينضب ماؤها - ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. ولم يلبث محمد حين راى صواب ما اشار به الحباب أن قام ومن معه واتبع راي صاحبه، معلناً إلى قومه أنه بشرٌ مثلهم وأن الراي شُورَى بينهم وأنه لا يقطع برأي دونهم، وأنه في حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم.

بناء العريش للنبي

ولما بنوا الحوض أشار سعد بن معاذ قائلاً: «نبي الله، نبني لك عريشاً تكون فيه وتعد عندك ركائبك ثم نلقى عدوّنا؛ فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلّف عنك أقوام يا نبيّ الله ما نحن باشد لك حباً منهم، ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك». واثنى محمد على سعد ودعا له بخير، وبنى العريش للنبي، حتى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب اصحابه لم يقع في يد عدوّه واستطاع اللحاق باصحابه في يثرب.

هنا موضع لوقفة إعجاب بصدق وفاء المسلمين وعظيم محبّتهم لمحمد وإيمانهم برسالته. فها هم أولاء يعلمون أن قريشاً تفوقهم في العدد وأنها ثلاثة أمثالهم، ومع ذلك اعتزموا الوقوف في وجهها وقتالها. وها هم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصبح الكسب المادي هو الذي يحفزهم للقتال، ومع ذلك قاموا إلى جانب النبي يؤيدونه ويعزّزونه. وها هم أولاء تتردّد نفوسهم بين الطمع في النصر وخوف الهزيمة. ومع ذلك فكروا في حماية النبي وتوقيته أن يظفر به عدّوه، ومهدوا له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينة. فأيّ موقف أدعى للإعجاب من هذا الموقف؟ وأي إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان!

دفن كفار قريش بحفرة واحدة حفرت لهم جميعاً ـ القليب ـ أما الأسرى فقد رأى «عمر» رضي الله عنه ضرورة قطع رؤوسهم، ونصح «أبو بكر» رضي الله عنه بضرورة أخذ فدية عنهم، فلاحظ «محمد» ﷺ أن «عمر» رضي الله عنه كان مثل «نوح» عليه السلام يريد أن يغرق المشركين بالطوفان، وأبو بكر رضي الله عنه كإبراهيم عليه السلام شفيع المدانين، ومال الرسول ﷺ لجانب الرأفة بهم، رغم أن اثنين منهم قتلا صبراً، أولهم «عقبة بن أبي معيط» الذي كان من المشاركين بالهجوم على الرسول ﷺ في الكعبة حين أنقذه منهم أبو بكر رضي الله عنه، وهو الذي تفل في وجه الرسول ﷺ كذلك فعل عدو الله[17] وثانيهم «النضر بن الحارث» الذي كان يجلس لقريش ويدعي أنه يستطيع أن يقلد القرآن، ويأتي بأحسن منه[18] وهو أول من ادعى أن القرآن من تعليم «الفرس». أما الباقون من فقراء مكة فقد أطلقوا بعد أخذ عهدهم بأن لا يشهروا سلاحاً على الرسول ﷺ وأصحابه، واحتفظ المسلمون بآخرين طلباً للفدية من ذويهم.

وكان من أهم هؤلاء الأسرى العباس عم الرسول ﷺ الذي أسره رجل عادي من المسلمين اسمه «أبو ياسر»، وادعى «العباس» أنه استسلم لفارس ضخم يركب مهراً لم

حمزة يقتل ابن عبد الأسد

ونزلت قريش منازل القتال، ثم بعثوا من يقصّ لهم خبر المسلمين فجاءهم بأنهم ثلثمائة أو يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولا كمين لهم ولا مورد؛ ولكنهم قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلاً مثله. ولما كانت صفوة قريش قد خرجوا في هذا الجيش، خشي بعض ذوي الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكانة. لكنهم خافوا حدّة أبي جهل ورميه إياهم بالجبن والخوف، وإن لم يمنع ذلك عُتبة بن ربيعة من أن يقف بينهم قائلاً: «يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب؛ فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرّض منه لما تكرهون». فلمّا بلغت أبا جهل مقالة عتبة استشاط غيظاً وبعث إلى عامر بن الحضرميّ يقول له: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد مقتل أخيك». وقام عامر فصرخ: واعمراه! فلم يبق بعد ذلك من الحرب مفرّ. وأعجل القتال أن اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوا؛ فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إني ظهره تشخب رجله دماً، ثم اتبعها حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض. ولا شيء أرهف لظُبا السيوف من منظر الدم: ولا شيء أشد إثارةً لعواطف القتال والحرب في الإنسان من مرأى رجل مات بيد العدوّ وقومه وقوف ينظرون.

ير مثله، ولم ينقذ ماء وجهه إلا تفسير الرسول ﷺ لذلك بأن «جبريل» قد ساعد «أبا ياسر» بالقبض عليه.

ثم ادعى العباس تهرباً من دفع الفداء أنه كان في قلبه يميل إلى الإسلام وأنه لم يشترك بالمعركة إلا مجبراً، ولكن دعواه لم تقبل، وقال البعض إنه كان يعمل كعين سراً للمسلمين بين قريش بتكليف من الرسول ﷺ قبل ثم بعد معركة «بدر».

كذلك وقع بيد المسلمين أسير مهم آخر هو «أبو العاص» صهر الرسول ﷺ من ابنته «زينب» رضي الله عنها، ولم تُجْدِ أي محاولة لإمالة قلبه للإسلام وظل على عناده الجاهلي، آن ذاك شرط الرسول ﷺ إطلاق سراحه مقابل إعادة ابنته ﷺ له من «مكة»، فوافق هذا المشرك، وذهب «زيد» خادم رسول الله ﷺ مع مجموعة من المؤمنين إلى «مكة» لإحضارها، وظل زوجها رهن الاعتقال إلى أن تطلق رضي الله عنها وينفذُ الاتفاق.

وكان القرار حول الغنائم قد بت به قبل عودة الجيش إلى المدينة، رغم فرار قافلة «أبي سفيان»، فكانت الغنائم من سلاح الأعداء ومطاياهم التي أخذت من ساحة القتال، وقيمة الفدية الضخمة على الأسرى، فقرر الرسول ﷺ توزيع كل هذا بالتساوي على المحاربين المسلمين، ولم يقرر لنفسه منها إلا كحصة مجاهد واحد فقط، رغم أن العادة العربية تقضي إعطاء القائد الربع من كل الغنائم، والجدير بالذكر أنه كان من بين الغنائم السيف الشهير «ذو الفقار»، الذي ظل الرسول ﷺ بعد ذلك يحمله دوماً في المعارك،

وما إن سقط الأسود حتى خرج عُتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة. وخرج إليه فتيةٌ من أبناء المدينة. فلما عرفهم قال لهم: ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا. ونادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب وعُبيدة بن الحارث. ولم يمهل حمزة شيبة ولا أمهل عليٌّ الوليد أن قتلاهما، ثم أعانا عُبيدة وقد ثبت له عُتبة. فلما رأت قريش من ذلك ما رأت، تزاحف الناس، والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبع عشر خلت من شهر رمضان.

دعاء محمد وابتهاله

وقام محمد على رأس المسلمين يعدل صفوفهم. فلما رأى كثرة قريش وقلّة رجاله وضعف عُدتهم إلى جانب عدة المشركين عاد إلى العريش ومعه أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير ذلك اليوم، وأشد ما يكون إشفاقاً مما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر. واستقبل محمد القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه، وجعل ينشده ما وعده ويهتف به أن يتم له النصر. وبالغ في التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول: «اللهم هذه قريش

والذي ورثه من بعده علي رضي الله عنه ويقال إنه سيف تركته الملائكة بعد المعركة لهذا الغرض.

ولأن العرب لم تعتد المساواة في الغنائم، فالمشارك بالمعركة الفعال فيها لا يرضى أن تكون غنيمته مثل خط الدفاع الثاني الذي ربما لم يشارك وفيه كبار السن، فظهر بعض التذمر، وهو أمر يجب أن يحسمه الرسول ﷺ لأنه سيحصل في كل معركة قادمة، خاصة وأن قوانين من سبقه من الأنبياء وخاصة «داوود» عليه السلام لم تكن تعطي إلا المشاركين بالقتال فعلياً، وهذا ما حددته بعد ذلك سور القرآن الكريم بوحي إلى الرسول ﷺ بعد عودته.

تلك كانت معركة «بدر» الشهيرة أول نصر لسيف الإسلام، ومنها ظهر هذا السيف تحت لواء الرسول ﷺ، ورغم عدم ضخامتها كموقعة كبرى إلا أنها كانت عظيمة وكبيرة النتائج، فقد كانت فاتحة النصر الإسلامي الذي سيغير مصير كل العالم.

قد أتت بخُيلائها تحاول أن تكذِّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد». وما زال بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه؛ وجعل أبو بكر من ورائه يرد على منكبيه رداءه ويُهيب به؛ يا نبي الله، بعض مناشدتك ربَّك؛ فإن الله منجزٌ لك ما وعدك. ولكن محمداً ظلَّ فيما هو فيه أشدَّ ما يكون توجهاً وأشد ما يكون تضرُّعاً وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذي لم يتوقعه المسلمون ولم يتخذوا له عُدته، حتى خفق خفقة من نُعاس رأى خلالها نصر الله، وانتبه بعدها مستبشراً، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

الباب الثامن عشر

الفصل الأول

استعادة ابنته ﷺ زينب رضي الله عنها

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة بنصره من أول معركة يخوضها محملاً بالغنائم والأسرى، ليدهش من شيوع الحزن فيها على ابنته «رقية» التي عادت لتوها من الغربة لتموت بغيابه، فرسل استقباله منتصراً تلاقوا مع مشيعيها من أهل المدينة وهم يحملون جثمانها إلى مثواها الأخير رضي الله عنها.

قال ابن كثير:

أن رجلاً من بني محارب يقال له «غورث» قال لقومه من غطفان ومحارب:

الا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به.

قال: فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس، وسيف رسول الله ﷺ في حجره. فقال: يا محمد، انظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم. فأخذه ثم جعل يهزه ويهمّ، فكبته الله. ثم قال: يا محمد، أما تخافني؟ قال: لا، ما أخاف منك؟ قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يمنعني الله منك. ثم عمد إلى سيف النبي ﷺ فردّه عليه.

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمَّ قومٌ أن يَبْسُطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [المائدة].

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، أنها إنما أنزلت في عمرو بن جحّاش أخي بني النضير وما همّ به.

*** * ***

هكذا ذكر ابن إسحاق قصة غورث هذا عن عمرو بن عبيد القدري رأس الفرقة الضالة، وهو وإن كان لا يتهم بتعمد الكذب في الحديث إلا أنه ممن لا ينبغي أن يُرْوَى عنه لبدعته ودعائه إليها.

فقد أورد الحافظ البيهقي ها هنا طُرقاً لهذا الحديث من عدة أماكن، وهي ثابتة في

ولم يخفف عن الرسول ﷺ إلا وصول ابنته الأخرى «زينب» رضي الله عنها من مكة بصحبة «زيد» رضي الله عنه، حيث لاقت مَهَمَّته صعاباً كثيرة بسبب التوتر الذي أحدثته الهزيمة ببدر لسكان مكة، وما أعقبها من ضرورة فدية أبنائهم الباقين على قيد الحياة، مما أبقى «زينب» رضي الله عنها خارج أسوار «مكة» ليرسل «الكنانة» أخى «أبي العاص» ويبلغه الاتفاق الذي جرى مع أخيه، ويحدد موعداً لتسليم «زينب» رضي الله عنها له، وفي الموعد المحدد وبينما كان «كنانة» برفقتها رضي الله عنها كمن له مجموعة من القريشيين لمنعه من تسليم ابنة محمد ﷺ له إلى حد أن «هبار بن أسود» طعن هودجها برمحه الذي كاد يقتل «زينب» لولا أن رده عنها «كنانة»، مما جعل «أبا سفيان» يتدخل لوقف هذا الشغب ويقنع «كنانة» بعدم إرسال ابنة محمد ﷺ علناً، فعادت «زينب» كسيرة الخاطر إلى منزلها، ليعود «كنانة» ويسلمها لزيد رضي الله عنه سراً، في الليلة التالية.

وقد غضب الرسول ﷺ جداً من سماع نبأ الهجوم على ابنته رضي الله عنها، وفي

الصحيحين من حديث الزهري عن سنان بن أبي سنان وأبي سلمة عن جابر، أنه غزا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ أدركته القائلة في وادٍ كثير العضاه[7]، فتفرق الناس يستظلون بالشجر، وكان رسول الله ﷺ تحت ظل شجرة فعلّق بها سيفه.

قال جابر: فنمنا نومةً فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فأجبناه، وإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فشام السيف وجلس. ولم يعاقبه رسول الله ﷺ وقد فعل ذلك.

وقد رواه مسلم أيضاً، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان، عن أبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرِّقاع، وكنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاءه رجل من المشركين، وسيفُ رسول الله ﷺ معلّق بشجرة، فأخذ سيف رسول الله ﷺ فاخترطه وقال لرسول الله ﷺ: تخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله يمنعني منك. قال: فهدده أصحاب رسول الله ﷺ، فأغمد السيف وعلقه.

قال: ونودي بالصلاة، فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين. قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان.

وقد علقه البخاري بصيغة الجزم عن أبان به.

قال البخاري: مُسدَّد عن أبي عوانة عن أبي بشر، إن اسم الرجل غورث بن الحارث.

وأسند البيهقي من طريق أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سليمان بن قيس، عن جابر قال:

ثورة غضبه ﷺ قال: «من ظفر منكم بهبار فليحرقه حياً»، ثم عاد وعدل عن أمره هذا وأمر ﷺ بقتله فقط، مؤكداً أنه: «لا يحرق بالنار إلا رب النار وحده».

هكذا أصيبت قريش بمأتم عام من نصر الرسول ﷺ المفاجئ لها ببدر، فهؤلاء المهاجرون والنازحون عنهم حديثاً، صاروا ببرهة وجيزة قوة لا يستهان بها، أطاحوا بعدد من رجال قريش الشجعان وذوي المراكز الهامة، وأسروا ذؤابة القوم ليضعوا عليهم الفدية المهينة، وجاء وقع النبأ محزناً بصورة خاصة على «أبي لهب» عم الرسول ﷺ وخصمه المعاند الذي لم يشترك بالمعركة لمرضه، مما زاده الله مرضاً فهلك بعد عدة أيام من سماع الخبر، وقد أرجع المؤرخون المسلمون هذا إلى لعنة الله عليه حين رفع يده بالحجر على الرسول تبت يده، يوم الصفا. وقد طالت هذه اللعنة ابنه «عطوة» الذي شارك بإرجاع «رقية» رضي الله عنها ابنة الرسول ﷺ وعدم تسليمها لزيد فدعا عليه: «بأن يسلط عليه كلباً من كلاب الله»، فمزقه أسد أمام قافلة تجارية كان يتجه معها إلى سورية، وبمرأى من الجميع.

قاتل رسول الله ﷺ محارب وغطفان بنخل، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف وقال: من يمنعك مني؟ قال: الله. فسقط السيف من يده.

فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال: من يمنعك مني؟ فقال: كن خير.

وقال ابن كثير:

قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر حين سوَّينا على رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه قد احتبس عندها يمرِّضها بأمر رسول الله ﷺ، وقد ضرب له رسول الله بسهمه وأجره في بدر.

قال أسامة: فلما قدِم أبي زيد بن حارثة جئته وهو واقف بالمصلى وقد غشيه الناس وهو يقول: قُتل عتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وأمية بن خلف، ونُبيه ومُنَبِّة ابنا الحجاج. قال: قلت: يا أبة أحقٌّ هذا؟ قال: إي والله يا بني.

وقال:

قال ابن إسحاق: ولما رجع أبو العاص إلى مكة وقد خلِّي سبيله، يعني كما تقدم، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها فتأتياني بها. فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر.

فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت تجهز.

ورغم أن أبا سفيان قد استطاع أن يوصل القافلة سليمة إلى مكة، فقد كان وقع الهزيمة قوياً عليه، من الرجل الذي لا يطيقه، وقد ألحق ببيته على وجه الخصوص كارثة تجلت بنحيب «هند» زوجته على أبيها وعمها وأخيها، تصرخ ليل نهار طلباً للثأر من علي رضي الله عنه وحمزة رضي الله عنه اللذين أطاحا بهم.

فزود «أبو سفيان» مئتي فارس وانطلق بهم بثورة غضب عبر عنها كغيره من العرب بمثل هذه الحالة بالقسم بأن لا يغسل شعره وأن لا يدهن رأسه، وأن لا يطأ امرأة حتى يأخذ بثأره، واتجه بهم نحو المدينة، وعلى بعد ثلاثة أميال منها، قتل اثنين من أتباع الرسول ﷺ، ودمر المحصول وأحرق بعض أشجار النخيل.

فخرج الرسول ﷺ للقائه بقوة أكبر، أنست أبا سفيان قسمه، فقفل هارباً من وجهه ﷺ، يلحقه أتباعه وهم يرمون مؤنهم ليخففوا عن خيولهم، فسميت غزوتهم هذه بغزوة السويق ـ الزاد ـ.

ويذكر المؤرخون المسلمون مخاطر تعرض لها الرسول ﷺ بينما كان في مواقع

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر، قال: حدُثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا اتجهز لقيتني هند بنت عتبة فقالت: يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ قالت: فقلت: ما أردت ذلك. فقالت: أي ابنة عم، لا تفعلي، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك فلا تنقبضي منّي فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.. قالت: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. قالت: ولكني خفتها فأنكرت أن اكون أريد ذلك.

قال ابن إسحاق: فتجهزت، فلما فرغت من جهازها قدّم إليها اخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها يقود بها نهاراً وهي في هودج لها، وتحدَّث بذلك رجالٌ من قريش، فخرجوا في طلبها حتى ادركوها بذي طوى، وكان أول من سبق إليها هبّار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى الفهري، فروّعها هبار بالرمح وهي في الهودج، وكانت حاملاً فيما يزعمون فطرحت، وبرك حموها كنانة ونثر كنانته، وقال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً. فتكركر الناس عنه.

واتى ابو سفيان في جلّة من قريش فقال: يا أيها الرجل كفّ عنا نبلك حتى نكلمك. فكف، فاقبل ابو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانيةً على رؤوس الناس من بين أظهرنا، أن ذلك عن ذل أصابنا. وأن ذلك ضعف منا ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها من أبيها من حاجة وما لنا من ثورة، ولكن ارجع بالمرأة حتى

الغزوات، فقد كان نائماً بظل شجرة في يوم من هذه الأيام ـ خلال غزوة «غطفان» ـ وهو ﷺ بعيد عن مخيم جنده، فأيقظته جلبة الإغارة، وما أن أفاق حتى وجد أحد المغيرين على مخيمه ورئيس بني «ثعلبة ومحارب» المقاتل الضخم: «دعثور بن الحارث المحاربي»[19] يقف فوق رأسه ﷺ شاهراً سيفه قائلاً: من يمنعك مني الآن؟!

أجاب رسول الله ﷺ: الله!! بكل ثقة وحزم.

فسقط سيف «دعثور» من يده رهبة، والتقطه الرسول ﷺ بسرعة وقال:

ـ والآن من يمنعك مني؟!

ـ لا أحد أجاب المحارب الضخم!!

إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد رددناها فسلّمها سراً والحقها بأبيها. قال: ففعل.

وقد ذكر ابن إسحاق أن أولئك النفر الذين ردوا زينب لما رجعوا إلى مكة قالت هند تذمهم على ذلك:

أفي السلم أعياراً جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك[8].

وقد قيل: إنها قالت ذلك للذين رجعوا من بدر بعدما قتل منهم الذين قتلوا.

قال ابن إسحاق: فقامت ليالي، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها ليلاً على رسول الله ﷺ.

قال هيكل:

بكاء قريش قتلاها هند وأبو سفيان

لم يهوّن ذلك على قريش مصابها، ولا هو دعاها إلى أن تهادن محمداً أو أن تنسى هزيمتها؛ بل ناحت نساء قريش من بعد ذلك على قتلاها شهراً كاملاً، فجززن شعر رؤوسهن، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحنّ حولها؛ ولم يخالف في هذا إلا هند بنت عُتبة زوج أبي سفيان. ولقد مشى نساء منهن يوماً إليها فقلن: ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟ فقالت: أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء الخزرج، لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه! والدُّهن عليّ حرام حتى نغزو محمداً! والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثاري بعيني من قَتَلَة الاحبة. ومكثت لا تقرّب الدهن ولا تقرّب فراش أبي سفيان وتحرض الناس حتى كانت وقعة أحد. أما أبو سفيان فنذر بعد بَدْر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً.

وقال ابن كثير:

[في] غزوة السَّويق في ذي الحجة منها، وهي غزوة قَرْقَرة الكُدْر.

قال السهيلي: والقرقرة: الأرض الملساء. والكُدْر: طير في ألوانها كُدرة.

ـ تعلّم إذاً معنى الرحمة مني؟! قالها الرسول ﷺ وهو يعيد إليه سيفه؟! فكانت بينة له فتحت قلبه للإيمان فنطق فوراً بالشهادة وأن الذي يفعل هذا هو حتماً رسول الله.

وقد أرجع بعض المؤرخين المسلمين إلى «جبريل» دفع السيف من يد «دعثور» الذي شعر بضربة خفية على صدره لما شهر سلاحه أوقعت السيف من يده.

قال ابن إسحاق: وكان أبو سفيان كما حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ويزيد بن رومان، ومن لا أتهم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان من أعلم الأنصار، حين رجع إلى مكة ورجع فَلُّ قريش من بدر، نذر ألا يمسَّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزوَ محمداً.

فخرج في مائتي راكب من قريش لتبر يمينه، فسلك النَّجْدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نَيْب من المدينة على بريد أو نحوه.

ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل فأتى حُيَيّ بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه، فانصرف عنه إلى سلاَّم بن مِشْكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطَّن له من خبر الناس.

ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث رجالاً من قريش، فأتوا ناحية منها يقال لها العُرَيض فحرقوا في أصوار من نخلٍ بها، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وانصرفوا راجعين.

فنذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة أبا لُبابة بشير بن عبد المنذر.

قال ابن إسحاق: فبلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه.

ووجد أصحاب رسول الله ﷺ أزواداً كثيرة قد ألقاها المشركون يتخفّفون منها وعامّتها سويق، فسمِّيت غزوة السويق.

الفصل الثاني

بعثة قريش إلى الحبشة

أرادت قريش في هذا الوقت وضع يدها على من لجأ منها من المسلمين إلى الحبشة للمقايضة بهم بأسرى «بدر»، ولما كان هؤلاء تحت حماية «النجاشي» ملك الحبشة، أرسلوا له وفداً كي يعيد إليهم اللاجئين، ومن ضمن هذا الوفد كان «عمرو بن العاص» و«عبد الله بن ربيعة». وقد مهد «عمرو» لمهمته بأرجوزة ليهاجم الرسول ﷺ بها أمام الملك، أظهر فيها تمكنه من الشعر وذكائه ونضجه في الدهاء، ودقة الهجاء بموهبة شعرية جيدة، وكان وقتها على عدائه للإسلام، الذي تحول بعد ذلك لولاء أفاده

قال ابن كثير:

قال المسلمون: يا رسول الله أنطمع أن تكون هذه لنا غزوة؟ قال: نعم.

قال ابن إسحاق: وقال أبو سفيان فيما كان من أمره هذا، ويمدح سلاَّم بن مِشْكم اليهودي:

وإنّي تخيرتُ المدينةَ واحداً ... لِحلفٍ فلم أندَمْ ولم أتلوَّمِ
سَقاني فروّاني كُميْتاً مُدامةً ... على عجل مني سَلاَم بن مِشْكم
ولما تولّى الجيشُ قلت ولم أكن ... لأفرحه: أبْشِرْ بعزٍّ ومغنمِ
تأمّلْ فإنّ القومَ سِرٌّ وإنهم ... صريحُ لؤيٍّ لا شَماطيط جُرْهم
وما كان إلا بعض ليلة راكبٍ ... أتى ساعياً من غير خَلَّة مُعْدمِ

في دخول علي بن أبي طالب رضي الله عنه على زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ

ذلك في سنة ثنتين بعد وقعة بدر، لما رواه البخاري ومسلم من طريق الزهري، عن علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب قال: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ اعطاني شارفاً مما أفاء الله من الخمس يومئذ، فلما أردت ابتني فاطمة بنت النبي ﷺ واعدت رجلاً صَوَّاغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فناتي بإذخر، فأردت أن أبيعه من الصَّوَّاغين فاستعين به في وليمة عُرْسي، فبينا أنا أجمع لشارفيَّ من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مُناختان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفيَّ قد أُجِبَّت أسنمتهما وبُقرت خواصرهما وأخذ من أكبادهما، فلم أملك

إلى أبعد الحدود يعززه بجرأته المتناهية وبطولاته في الدين.

وكالعادة في الشرق قدمت البعثة الهدايا النفيسة للملك، ثم طلبوا منه باسم السلطة في قريش بمكة تسليمهم المهاجرين، لكن «النجاشي» كان رجل عدل وحزم، لذلك أحضر المسلمين ليمثلوا أمامه ويوضحوا تهمة الهرطقة التي تتهمهم بها قريش، وكان من بينهم «جعفر بن أبي طالب» أخو «علي» رضي الله عنهما، وابن عم الرسول ﷺ، وكان رجلاً بهي الطلعة دقيقاً وفخم العبارة، فوقف وشرح النظرية الإسلامية بقوة ودقة وحماس، ولما كان الملك من المسيحيين النساطرة(*) وجد هذه النظرية قريبة من دينه بنواح عديدة، وهي ضد الوثنية المتفشية بقريش، لذلك لم يسلم المهاجرين للبعثة، وزاد في تقريبهم منه وحمايته لهم، ثم أعاد إلى «عمرو وعبد الله» الهدايا التي أحضروها مع وفدهم، وطردهم من مجلسه.

عيني حين رأيت المنظر، فقلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت وهو في شرب من الأنصار وعنده قينته وأصحابه، فقالت في غنائها:

* ألا يـا حَـمْـز لـلـشُّـرُف الـنِّـواءِ *

فوثب حمزة إلى السيف فاجبَّ اسنمتها وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما.

قال علي: فانطلقت حتى أدخل على النبي ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فعرف النبي ﷺ الذي لقيت، فقال: مالك؟ فقلت: يا رسول الله ما رأيت كاليوم! عدا حمزة على ناقتيَّ فأجبَّ أسنمتهما وبقر خواصرهما، وها هو ذا في البيت معه شِرْب.

فدعا النبي ﷺ بردائه فارتداه، ثم انطلق يمشي واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء البيت الذي فيه حمزة فاستأذن عليه فأذن له، فطفق النبي ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثملٌ محمرَّة عيناه، فنظر حمزة إلى النبي ﷺ ثم، صعَّد النظر فنظر إلى ركبتيه ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال حمزة: وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي!

فعرف النبي ﷺ أنه ثملٌ، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى فخرج وخرجنا معه.

هذا لفظ البخاري في كتاب المغازي، وقد رواه في أماكن أخر من صحيحه بألفاظ كثيرة.

(*) غير مؤكد نسطوريته.

الباب التاسع عشر

الفصل الأول

إهانة محصنة عربية

غيرت وقعة «بدر» موقع الرسول ﷺ نهائياً بالنصر الذي أحرزه فيها ومكنه من أن يصبح قائداً لقوة متنامية. فقد كان سهلاً على القبائل العربية أن تفهم أنها إذا لفظت الشهادتين تعود إلى دين آبائها الأولي البسيط، وتكسب من هذا كل الغنائم المتاحة، خاصة وأن بعثات الرسول ﷺ قبل قدومه إلى المدينة قد مكنته من ترسيخ دينه بها كلها، لذلك انطلق لسان الرسول ﷺ لوضع التشريعات، وبها ظهر أول دليل على تحوله ﷺ

قال هيكل:

قتل المسلمين أبا عفك وعصماء

وكان المسلمون إلى حين نصرهم الله ببدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة، فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدي على مسلم منهم. فلما عادوا منتصرين أخذ سالم بن عُمَيْر نفسه بالقضاء على أبي عفك (أحد بني عمرو بن عوف)؛ لأنه كان يُرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين، ويحرّض بها قومه على الخروج عليهم؛ وظل كذلك بعد بدر يُغري بهم الناس. فذهب إليه سالم في ليلة صائفة كان أبو عفك نائماً فيها بفناء داره، فوضع سالم السيف على كبده حتى خشّ في الفراش. وكانت عَصْماء بنت مروان (من بني أمية بن زيد) تعيب الإسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه، وظلت كذلك إلى ما بعد بدر فجاءها يوماً عُمير بن عوف في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفرٌ من ولدها نيام ومنهم من ترضعه؛ وكان عمير ضعيف البصر، فجسّها بيده فوجده الصبي ترضعه فنحّاه عنها، ثم وضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها. ورجع عمير من عند النبي بعد أن أخبره الخبر، فوجد بنيها في جماعة يدفنونها، فأقبلوا عليه فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ قال: «نعم! فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون. فوالذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي حتى أموت أو أقتلكم». وقد كان من أثر جرأة عمير هذه أن ظهر الإسلام في بني خطمة، وكانت عصماء زوج رجل منهم، فأظهر منهم من كان يخفي إسلامه وانضم إلى صف المسلمين وسار معهم.

عن اليهود بالمدينة الذين كانوا يتمركزون بثلاثة أفخاذ أسرية قوية.

فكل ما وعاه ﷺ من هؤلاء من سلالة المتعنتين المتعصبين، أثبت عدم جدواه معهم، فعنادهم لم يتوقف على التمسك بدينهم، بل امتد إلى الهزء منه ومن نظريته ككل، فقد كتبت «أسماء ابنة مروان» الشاعر اليهودي رجزاً يهزأ به، فقتلها أحد أتباعه المتحمسين، كما قُتِلَ أحد اليهود المعمرين لأنه كان يهاجم الرسول ﷺ، وذهب «كعب بن أشرف» إلى قريش ليقول الشعر ضد الرسول ﷺ بعد معركة «بدر» مباشرة، وراح يحرض القريشيين بشعره للثار من المسلمين، معدداً مآثر وفضائل من سقط منهم «ببدر»، ووصلت به الجرأة والحماس إلى حد إلقاء هذه الأشعار على الناس عامة، ثم عاد بكل جرأة إلى المدينة ليعيد أشعاره على أقرباء هؤلاء المقتولين، لذلك تساءل الرسول ﷺ بغضب في أحد الأيام قائلاً: من يخلصني من ابن الأشرف؟! وهكذا دفع «كعب» حياته ثمناً لكل هذا بعد أيام قليلة، إذ قتله أنصاري متحمس من قبيلة «الأوس».

أما الحدث الذي أثار الرسول ﷺ ضد اليهود ككل ليعلن ﷺ عداءه العلني لهم، فكان بسبب امرأة من قبيلة بدوية كانت تحضر اللبن للمدينة، وكانت تبيع لبنها في أحد الأيام بالحي اليهودي الذي يسكنه بنو «قينقاع» أبناء «قيانوقا» أحد أفخاذ اليهود الرئيسية في المدينة، فالتف حولها عدد من الشبان اليهود الذين سمعوا بجمالها، وحاولوا إزالة خمارها عن وجهها، ولأن هذا يتعارض مع قوانين شعبها بالنسبة للمرأة الحرة رفضت

مقتل كعب بن الأشرف

ويكفي أن نضيف إلى هذين المثلين مصرع كعب بن الأشرف، وهو الذي قال حين علم بمقتل سادات مكة: «هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبَطْنُ الأرض خير من ظهرها». وهو الذي ذهب إلى مكة لما تيقن الخبر يحرّض على محمد وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب؛ وهو الذي رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يشبِّب بنساء المسلمين. وأنت تعرف طبائع العرب وأخلاقها، وتعرف مبلغ تقديرهم للعرض وثورتهم من أجله. وقد بلغ غيظ المسلمين أنهم أجمعوا على قتل كعب، واجتمع في ذلك عدة منهم؛ وذهب إليه أحدهم يستدرجه بالطعن على محمد إذ يقول له: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءً من البلاء، عادتنا العرب ورمونا على قوس واحدة، وقُطعت عنا السُبُل حتى ضاع العيال وجُهدت الأنفس. ولمّا أنس إلى كعب وأنس إليه كعب طلب إليه مالاً لنفسه ولجماعة من أصحابه على أن يرهنوه دروعهم؛ ورضي كعب على أن يجيئوه من بعدُ. وإنه لفي داره على بعد من المدينة إذ ناداه صَدْرَ الليل أبو نائلة (أحد المؤتمرين به) فنزل إليه على رغم تحذير عروسه إيّاه النزول في مثل هذه الساعة من الليل. وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبي نائلة وكعب آمن لا يخافهم.

ذلك، لكنها حين جلست، ثَبّتَ أحد الشبان الذين يعملون بالصياغة كل ردائها حيث كانت تجلس دون أن تشعر، بشكل أنها حين تقف ستسقط كل حلتها عنها، وحين حصل ذلك بدأ الإسرائيليون بالضحك والهزء منها وهم يحيطون بها من كل جانب، مرتبكة لا تعرف ماذا ستفعل، وصدف مرور أحد المسلمين الذي أعاد عليها خمارها وامتشق سيفه وأطاح بالصائغ، فقتله الإسرائيليون فوراً، وبوصول النبأ تراكض المسلمون من الأحياء المجاورة لسلاحهم، وكذلك فعل بنو «قينقاع» ولقلة عددهم لجؤوا لحصن قريب لهم، وتدخل الرسول ﷺ لتهدئة الأمر بأن يكون للكل قانون واحد هو الإسلام، لذلك على كل القبيلة أن تسلم لأنها خرجت من الذمة بعد أن نقضت العهد الذي أبرمته معه حين دخل المدينة، بأن يتركهم ودينهم شرط عدم إيذائه، ورفض بنو «قينقاع» في أول الأمر الخضوع وظلوا مغلقين حصنهم على أنفسهم، إلى أن أجبرتهم المجاعة على التسليم، وكان «عبد الله ابن أبي سلول» الخزرجي حامي ذمة هؤلاء يميل إليهم، فمنع وضعهم للسيف، لكنه لم يستطع أن يمنع أخذ أموالهم كغنيمة وطردهم إلى سورية، وكان عددهم سبعمئة رجل.

وقد ساعد ما غنمه الرسول ﷺ وأتباعه من هؤلاء بشن مزيد من حروب نشر الإيمان، وجدير بالذكر أن حصة الرسول ﷺ من هذه الغنائم كانت ثلاثة سيوف هي: المطهم والبتار والحتف، ورمحين ودرعاً مفضضاً يقال إنها من السلاح الذي كان عند «داوود» عليه السلام. كذلك حصل الرسول ﷺ على قوس مشهور بصلابته وقوته، وهو

وخرج القوم يتماشون حتى مشوا ساعة بعدُوا بها عن دار كعب وهم يتجاذبون أطراف الحديث، ويذكرون من حالهم وما وصولوا إليه من شدّة ما يزيد في طمأنينة كعب. وفيما هم يسيرون كان أبو نائلة يضع يده في رأس كعب ويشمُّها ويقول: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قطُّ. ولما لم تبق لدى كعب شبهة فيهم، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم أخذ بفوديه وقال: اضربوا عدوَّ الله فضربوه بأسيافهم حتى مات.

مخاوف اليهود وعدوانهم

زاد هذا الحادث في مخاوف اليهود، فلم يبق منهم إلا من يخاف على نفسه. ومع ذلك لم يسكتوا عن محمد ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أي فيض. قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بني قَيْنُقَاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى، فجاء يهودي من خلفها في سرّ منها فاثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت؛ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ، وكان يهودياً، فقتله وشدَّدت اليهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم

حين أوتره ﷺ بأول معركة بعد ذلك وأصلاه تحطم بين يديه ﷺ، لذلك كان يستخدم بصورة عامة الأقواس العربية وما يلائمها من السهام والنصال، وكان يمنع أتباعه من استعمال تلك المصنوعة عند «الفرس».

وبعد هذا لم يعد الرسول ﷺ يفكر بمهادنة اليهود، بل على العكس من ذلك صاروا هدفاً لعدائه الديني، إذ كان قد تحول المسلمون عن «القدس» كقبلة لهم، واتجهوا إلى مكة المكرمة، والتي ظلت قبلتهم منذ ذلك الوقت، يتجهون نحوها للصلاة كل يوم[20].

كذلك أثر موت رقية رضي الله عنها ابنة الرسول ﷺ «بعثمان» زوجها، ولكي يعوضه ويواسيه رفيقه عمر رضي الله عنه عرض عليه الزواج من ابنته «حفصة» رضي الله عنها أرملة «خنيس» الذي مات عنها وهو في الثامنة عشرة وكانت ذات جمال أخاذ، ومع ذلك لم يبادر «عثمان» رضي الله عنه إلى عرض رفيقه بالسلاح، مما أساء لعمر رضي الله عنه فتشكى لرسول الله ﷺ، فأخبره رسول الله ﷺ بأن الله سيزوج عثمان بأحسن

المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. وطلب محمد إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش. فاستخفّوا بوعيده وأجابوه: «لا يغرّنّك يا محمد انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس». لم يبق بعد ذلك إلا مقاتلتهم أو يتعرضّ المسلمون ويتعرّض سلطانهم بالمدينة للتداعي، ثم يصبحوا أحدوثة قريش وقد جعلوا قريشاً بالأمس أحدوثة العرب.

حصار بني قينقاع

وخرج المسلمون فحاصروا بني قينقاع في دورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد، حتى لم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه. وسلموا، فقرّر محمد، بعد مشورة كبار المسلمين، قتلهم جميعاً فقام إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً، قال: يا محمد أحسن في مواليّ.

فابطأ عليه النبي فكرّر الطلب، فاعرض النبي عنه فأدخل يده في جيب درع محمد، فتغيّر محمد وقال له: أرسلني؛ وغضب حتى رأوا لوجهه ظُلَلاً، ثم أعاد وأثر الغضب في نبرات صوته: «أرسلني ويحك!». قال ابن أبي: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ! اربعمائة حاسر وثلثمائة دراع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة! إني والله امرؤ أخشى الدوائر. وكان عبد الله لا يزال ذا سلطان في المشركين من الأوس والخزرج، وإن كان هذا السلطان ضعف بقوة المسلمين. فرأى النبي في إلحاحه ما جعله يعود إلى سكينته، وخاصة بعد إذ جاء عبادة بن الصامت يحدثه بحديث ابن أبيّ؛ إذ ذاك رأى أن يُسدي هذه اليد إلى عبد الله

منها، وسيزوجها بأحسن من عثمان، وهكذا زوج الرسول ﷺ ابنته الثانية «أم كلثوم» «لعثمان» رضي الله عنهما وتزوج هو ﷺ من «حفصة» رضي الله عنها، وصارت «حفصة» رضي الله عنها من نسائه المفضلات بعد «عائشة» رضي الله عنها وهي التي أودع الرسول ﷺ عندها نسخة القرآن الأساسية كما أنزلت عليه ﷺ وهذا يدل على مدى ثقته ﷺ بها(*).

وإلى المشركين موالي يهود جميعاً حتى يصبحوا مدينين لإحسانه ورحمته؛ على أن يجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاءً لهم على صنيعهم. وقد حاول ابن أبي أن يتحدَّث مرة أخرى إلى محمد في بقائهم ومقامهم. ولكن أحد المسلمين حال دون ابن أبي ولقاء محمد واشتجرا حتى شجَّ عبد الله. فقالت بنو قينقاع: والله لا نقيم ببلد نشجُّ فيه يابن أبي، ولا نستطيع عنك دفاعاً. وعلى ذلك سار بهم عبادة بعد الذي كان من تسليمهم وإذعانهم تاركين المدينة، تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب الذي كانوا يصوغون، حتى بلغوا وادي القرى. هناك أقاموا زمناً، ومن هناك احتملوا ما معهم، وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات على حدود الشام، وبها أقاموا.

(*) ومن هذه النسخة استنسخ مصحف عثمان، القرآن الكريم المتداول.

الباب العشرون

الفصل الأول

معركة أحد

وكلما ازدادت قوة الرسول ﷺ في المدينة زاد العداء القرشي في مكة، وعندما صارت القيادة شبه كاملة لأبي سفيان في المدينة المقدسة زاد إلحاح زوجته «هند» عليه، بحثها له على القتال، ولم تهدأ في هذا الإلحاح الذي تحركه روحها الانتقامية الرهيبة ضد من ذَبَحَ أباها وأخاها، وكذلك كان من المحرضين أيضاً «عكرمة بن أبي جهل»

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن الفضل بن عيَّاش بن ربيعة بن الحارث، عن سليمان بن يسار، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْري، قال: خرجت أنا وعُبيد الله بن عدي بن الخِيَار، أحد بني نوفل بن عبد مناف في زمان معاوية، فأدربنا مع الناس، فلما مررنا بحمص وكانَ وحشيٌ مولى جُبير قد سكنها وأقام بها، فلما قدمناها قال عبيد الله بن عدي: هل لك في أن نأتي وحشيًا فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله؟ قال قلت له: إن شئت.

فخرجنا نسأل عنه بحمص، فقال لنا رجل ونحن نسأل عنه: إنكما ستجدانه بفناء داره، وهو رجل قد غلبت عليه الخمر، فإن تجداه صاحياً تجدا رجلاً عربياً وتجدا عنده بعض ما تريدان وتصيبا عنده ما شئتما من حديثٍ تسألانه عنه، وإن تجداه وبه بعض ما به فانصرفا عنه ودعاه.

قال: فخرجنا نمشي حتى جئناه، فإذا هو بفناء داره على طنفسة له، وإذا شيخٌ كبير مثل البُغَاث، وإذا هو صاحٍ لا بأس به، فلما انتهينا إليه سلَّمنا عليه.

فرفع رأسه إلى عبيد الله بن عدي فقال ابنٌ لعدي بن الخِيَار أنت؟ قال: نعم. قال: أما والله ما رأيتك منذ ناولتك أمك السَّعدية التي أرضعتك بذي طُوًى، فإني ناولتكها وهي على بعيرها فأخذتك بعرضيك فلمعت لي قدماك حتى رفعتك إليها، فوالله ما هو إلا أن وقفت عليَّ فعرفتهما!

قال: فجلسنا إليه فقلنا: جئناك لتحدِّثنا عن قتل حمزة، كيف قتلته؟

فقال: أما أني سأحدثكم كما حدثت رسول الله ﷺ حين سألني عن ذلك.

الذي ورث عن أبيه كره الرسول ﷺ. وفي السنة التي أعقبت «بدراً» أي السنة الثالثة للهجرة تحرك «أبو سفيان» نحو معركة أخرى بقيادة ثلاثة آلاف رجل معظمهم من قريش مع بعض عرب «كنانة» و«تهامة» وعبيدهم، منهم سبعمئة دارع ومئتا فارس، وكان «عكرمة» أحد القواد النقباء، وكذلك «خالد بن الوليد» المحارب الذي لا يؤمن جانبه والذي نال شهرة غالبة بعد ذلك، وحمل العلم فرع قريش من «عبد الدار» الذي لهم كان حق الاستشارة وحق التقدم بالمعارك ويعبرون عن ذلك بحمل العلم والتقدم في مقدمة الجيش.

أما بمؤخرة الجيش فكانت «هند» مع خمس عشرة ممن أثكلتهم موقعة «بدر» يملأن الجو بالنحيب على قتلاهن في أحيان، وبأحيان أخرى يضربن الطبول وينشدن الأغاني الحماسية لإثارة المشاعر، وحين وصلوا «الأبواء» حيث مدفن أم الرسول ﷺ رُدت هند بصعوبة عن إخراج رفاتها انتقاماً.

أما العباس عم الرسول ﷺ الذي كان لا يزال مقيماً بمكة، ولهول ما رأى من هذه

كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طُعَيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمِّي فأنت عتيق.

قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلَّ ما أُخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأوْرَق يهدُّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سِبَاع بن عبد العزي، فلما رآه حمزة قال: هلم إليَّ يابن مقطِّعة البُظور. قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه، قال: وهززت حربتي حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه فوقعت في ثُنَّته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغُلب، وتركته إياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي ثم رجعت إلى العسكر وقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق.

فلما قدمت مكة عتقت، ثم أقمت، حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسْلموا تعيَّت عليَّ المذاهب، فقلت: ألحقُ بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد، فوالله إني لفي ذلك من همِّي إذ قال لي رجل: ويحك! إنه والله لا يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وشهد شهادة الحق.

قال: فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فلم يَرُعْه إلا بي قائماً على رأسه أشهد شهادة الحق، فلما رآني قال لي: أوحشيٌّ أنت؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: اقعد فحدِّثني كيف قتلت حمزة؟

القوة الضاربة أرسل سراً إلى الرسول ﷺ ينبئه بهذا الخطر القادم، ووصل رسول العباس والرسول ﷺ في وادي «قباء» وبمجرد إخباره ﷺ بالأمر قفل راجعاً إلى المدينة ليعقد مجلساً مع مؤيديه فيها، ويعرض عليهم عدم كفاية قواته بساحة مثل هذه المعركة، واقترح انتظار ملاقاتهم بالمدينة حيث سيساعدهم كل السكان من منزل لمنزل ليقذفوا الغزاة بالحجارة، وشاركه بهذا الرأي كبار السن، وخالفه الشباب القليلو الخبرة كعادتهم دائماً وفي كل العصور، ممن أسكرتهم نشوة النصر الأخيرة ببدر، فتصايحوا للقاء فروسي في حقل معركة مفتوح.

وخضع الرسول ﷺ لمطلبهم، رغم أن كل قوته ما كانت لتزيد عن ألف مقاتل، بينهم مئة دارع فقط وحصانان؟! ثم دخل عليه السلام بيته ومعه صاحباه... فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، فَرِدوا الأمر

قال: فحدثته كما حدَّثتكما، فلما فرغت من حديثي قال: ويحك غيِّب عني وجهك فلا أرينَّك!

قال: فكنت أتنكَّب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله عز وجل.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة قائماً وبيده السيف، وما أعرفه، فتهيأت له وتهيَّأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده، فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه، وشدَّ عليه الأنصاري بالسيف، فربُّك أعلم أيُّنا قتله، فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقتلت شرَّ الناس!

قلت: الأنصاري هو أبو دُجانة سِمَاك بن خَرَشة.

وقال الواقدي في الردَّة: هو عبد الله بن زيد بن عاصم المازني. وقال سيف بن عمرو: هو عدي بن سهل. وهو القائل:

ألم ترَ أني ووحشيِّهم — قتلتُ مسيلمة المُفْتَتَنْ
ويسألُني الناسُ عن قتله — فقلتُ: ضَربتُ وهذا طَعَنْ

والمشهور أن وحشيًّا هو الذي بدره بالضربة وذفَّف عليه أبو دُجانة، لما روى ابن إسحاق، عن عبد الله بن الفضل، عن سليمان بن يسار، عن ابن عمر قال: سمعت صارخاً يوم اليمامة يقول: قتله العبد الأسود.

وقال ابن كثير:

وقال أبو الأسود، عن عروة بن الزبير قال: كان أبي بن خلف أخو بني جُمَح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ. فلما بلغت رسول الله ﷺ حِلْفَتَه قال: بل أنا أقتله إن شاء الله.

فلما كان يوم أحد أقبل أبيٌّ في الحديد مقنَّعاً وهو يقول: لا نجوتُ إن نجا محمد. فحمل

إليه، فخرج ﷺ وقد لبس لامته وتقلد السيف، فندموا جميعاً على ما صنعوا فقالوا: ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما شئت، فقال: لا!!

ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، ثم قاد جيشه الذي كان به بعض المنافقين من اليهود والخزرج بقيادة «عبد الله بن أبيّ» لكن الرسول ﷺ رفض مرافقة اليهود له ما لم يسلموا، وعندما رفضوا الإسلام أعادهم إلى المدينة، فعاد معهم «عبد الله» حاميهم مع جماعة من الخزرج، مما أنقص الجيش إلى حدود السبعمئة تقريباً.

وبهذه القوة الصغيرة تمركز الرسول ﷺ بجبل «أحد» الذي يبعد عن المدينة حوالي

على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبيّ بن خلف من فُرجة بين سابغة الدِّرع والبيضة فطعنه فيها بالحربة فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم.

فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور فقالوا له: ما أجزعك! إنما هو خدش.

فذكر لهم قول رسول الله ﷺ أنا أقتل أبيًّا، ثم قال: والذي نفسي بيده، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون.

فمات إلى النار، فسُحقاً لأصحاب السعير!

وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه، عن الزهري، عن سعيد بن المسيِّب نحوه.

وقال ابن إسحاق: لما أسند رسول الله ﷺ في الشِّعب، أدركه أبيّ بن خلف وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ.

فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه.

وقال ابن هشام: حدثنا أبو عبيدة، أن أبا سفيان بن حرب لما انصرف يوم أحد أراد الرجوع إلى المدينة، فقال لهم صفوان بن أمية: لا تفعلوا، فإن القوم قد حَرِبوا، وقد خشينا أن يكون لهم قتالٌ غير الذي كان، فارجعوا. فرجعوا.

فقال النبي ﷺ وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم همُّوا بالرَّجعة: «والذي نفسي بيده لقد سُوِّمت لهم حجارة لو صُبِّحوا بها لكانوا كأمس الذاهب!».

قال: وأخذ رسول الله ﷺ في وجهه ذلك قبل رجوعه المدينة، معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، جد عبد الملك بن مروان لأمه عائشة بنت معاوية، وأبا عزَّة الجمحي، وكان رسول الله ﷺ قد أسره ببدر ثم منَّ عليه فقال: يا رسول الله أقلني، فقال: لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعت محمداً مرتين. اضرب عنقه يا زبير. فضرب عنقه.

قال ابن هشام: وبلغني عن ابن المسيَّب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن لا يُلْدَغ

ستة أميال، محمياً من خلفه بالصخور، ومن أمامه بالمنحدر، حيث وضع النبالة عليه ليحموا الجيش من أمامه ومن أي هجوم محتمل من خلف الجبل قد تقوم به الخيالة، وكان ﷺ يلبس البيضة ـ الخوذة ـ وقميصين من الزرد، ويتقلد سيفه الذي كتب عليه: العار بالخوف والعز بالإقدام، والجبن لا يؤخر القدر. ولأنه ﷺ لن يشترك بالمبارزة أعطى هذا السيف لمحارب شجاع اسمه «أبو دجانة» الذي أقسم على حمله طالما به حد ماضٍ، أما الرسول ﷺ وكما يقضي عرف القتال فعليه أن يقف بموقع القيادة الذي يطل ويكشف ساحة المعركة.

ولثقة المشركين بعددهم تسلقوا التلة سيراً على الأقدام يتقدمهم علمهم خافقاً، بينما كان وسط الجيش بقيادة «أبى سفيان»، والميسرة بقيادة «عكرمة بن أبي جهل» والميمنة بقيادة «خالد بن الوليد»، ومع تقدم هذه القوات كانت «هند» تضرب الطبول

من جحر مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت، فضرب عنقه.

وذكر ابن هشام: أن معاوية بن المغيرة بن أبي العاصم استامن له عثمان على ألا يقيم بعد ثلاثٍ، فبعث رسول الله ﷺ بعدها زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وقال: ستجدانه في مكان كذا وكذا فاقتلاه. ففعلا رضي الله عنهما.

* * *

قال ابن إسحاق: ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان عبد الله بن أبيّ كما حدثني الزهري له مقام يقومه كل جمعة لا يُنْكَر له شرفاً في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزّزوه واسمعوا له وأطيعوا. ثم يجلس.

حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدوَّ الله، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت.

فخرج يتخطّى رقاب الناس وهو يقول: والله لكانما قلت بُجْراً أن قمتُ أشدِّد أمره!

فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إليّ رجال من أصحابه يجبذونني ويعنفونني، لكانما قلت بُجراً أن قمت أشدد أمره.

قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ. قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي.

وقال هيكل:

وبلغ الغفاري الذي بعثه العباس بن عبد المطلب بكتابه المدينة، فوجد محمداً بقُباء، فذهب إليه فالفاه على باب المسجد هناك يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبي بن كعب،

والزمر وتغني الأغاني الحماسية مع صويحباتها، وتذكر بأسماء من سقط «ببدر» وهي تنشد:

ويــهــا بــنــي عــبــد الــدار ويــهــا حــمــاة الأدبــار
ضــربــاً بــكــل بــتــار

ان تــقــبــلــوا نــعــانــق ونــفــرش الــنــمــارق
أو تــدبــروا نــفــارق فــراق غــيــر وامــق

وبالمقابل هدأ الرسول ﷺ من نفاذ صبر أصحابه وأمرهم أن لا يبدأوا الهجوم ولا يتركوا الأرض المرتفعة، وأن لا يترك النبالة مواقعهم تحت أي سبب كان، خوفاً من أن تأخذ الجيش خيالة العدو من الخلف.

وعندما حاولت فرسان عكرمة أخذ المسلمين من الجهة اليسرى، ردهم النبالة وتراجعوا بدون أي نظام، فأطلق «حمزة» رضي الله عنه صرخة الموت: أن أمت ـ يا الله ـ أن أمت. واندفع بقواته إلى قوات الوسط وعلى يمينه «أبو دجانة» وقد عصب رأسه

فاستكتمه محمد ما فيه وعاد إلى المدينة فقصد إلى سعد بن الربيع في داره فقصّ عليه ما بعث العباس به إليه واستكتمه أيضاً إيَّاه. على أن زوج سعد كانت بالمنزل وكانت تسمع ما دار فلم يبق سرّاً. وبعث محمد ابني فَضَالَة انساً ومُضنِساً يتنطسان خبر قريش، فالفياها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها. وبعث محمد من بعدهما الحُبَاب بن المنذر بن الجموح. فلما جاءه من خبرهم بالذي أخبره العباس أخذته عليه السلام الحيرة. وخرج سلمة بن سلامة، فإذا طليعة خيل قريش تقارب المدينة وتكاد تدخلها، فعاد فخبَّر قومه بما رأى. فخشي الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعاً عاقبة هذه الغزوة التي أعدّت لها قريش خير ما أعدت في تاريخ حروبها، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبي، وحُرِسَت المدينة كلها طيلة الليل. فلما أصبحوا جمع النبي أهل الرأي من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام ـ أو المنافقين على ما كانوا يُدْعون يومئذ وما نعتوا في القرآن وجعلوا يتشاورون؛ كيف يَلْقَوْن عدوّهم.

القائلون بالتحصن بالمدينة

رأى النبي عليه السلام أن يتحصَّنوا بالمدينة وأن يدعو قريشاً خارجها، فإذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلب عليهم. ورأى عبد الله بن أبي بن سلول رأى النبي وقال: «لقد كنَّا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصَّياصي ونجعل معهم الحجارة، ونشبك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية، فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقابلناه بأسيافنا في السكك. إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما

بعصابة الموت الحمراء وبيده سيف الرسول ﷺ وهو يرجز:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر من الكيولِ أضرب بسيف الله والرسول[21]

فأوقعت هذه الصدمة الذعر بالعدو، و«أبو دجانة» رضي الله عنه يضرب بهم يميناً ويساراً، فسقط سبعة من حملة الأعلام واحداً بعد الآخر وتضعضع الوسط. فظن النبالة المسلمون أن النصر قد أحرز، ونسوا أوامر الرسول ﷺ فتركوا مواقعهم طلباً للغنائم، فاغتنم الفرصة «خالد» وأخذ مواقعهم بخيله ثم هاجم المسلمين من الخلف، فهرب بعضهم وعمت الفوضى صفوفهم، وبينما هم مختلطون بالفرسان من كل جانب، تقدم «أبيّ بن خلف أخو بني جمح» في الحديد مقنعاً وهو على حصانه يقول: «لا نجوت إن نجا محمد» حاملاً على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير، فَقَتَلَ مصعب، وأبصر رسول الله ﷺ فرجة بين سابغة الدرع والبيضة فطعنه فيها بالحربة فوقع على الأرض عن فرسه، وهكذا نفق عدو الله كما ذكر الجنابي مذكراً بأن هذا المشرك

فُضَّت علينا قطّ، وما دخل علينا عدوّ فيها إلا أصبناه، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلا أصاب منا، فدعهم يا رسول الله وأطعني في هذا الأمر؛ فإني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم».

والقائلون بالخروج للقاء العدو

وكان كلام ابن أبيّ هذا هو رأي الأكابر من أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار، كما كان رأي الرسول عليه السلام. لكن فتياناً ذوي حميّة لم يشهدوا بدراً، ورجالاً شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملأ الإيمان قلوبهم أن ليس لقوة أن تغالبهم أو تتغلب عليهم، أحبّوا الخروج إلى العدوّ وملاقاته حيث نزل، مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج وتحصّنوا بالمدينة جُبناً عن لقائه. ثم إنهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا ببدر لا يعرف أهلوهم من أمرهم شيئاً. قال قائل منهم: «إني لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمداً في صَيَاصي يثرب وآطامها فتكون هذه مُجرِّئةٌ لقريش. وها هم هؤلاء قد وطئوا سَعَفَنَا فإذا لم نَذُبّ عن عِرضنا لم يزرع، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومَنْ تبعها من أحابيشها، ثم جاؤونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا أفيحبسوننا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا! لئن فعلنا لازدادوا جراءةً، ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا، ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا، ثم لقطعوا الطريق علينا». وتعاقب الدُّعاة إلى الخروج يتحدث كل حديثه، ويذكرون جميعاً أنهم إذا أظفرهم الله بعدوهم فذلك الذي أرادوا. وذلك الذي وعد الله ورسوله بالحق، وإن هم انهزموا واستشهدوا كانت لهم الجنة.

كان قد حلف بأن سيجد محمداً ﷺ في يوم من الأيام ليقتله. وعبر هذا الاختلاط أصاب الرسول ﷺ حجر من مقلاع يد(*)، بفمه ﷺ قطعت شفته ﷺ به وكسر رباعيته، أعقبه جرح سهم في الوجه من نبال قريب، وبقي رأس السهم داخل الجرح. كذلك سقط «حمزة» رضي الله عنه غدراً بينما كان يوقع بصفوف المشركين، برمح العبد الحبشي «وحشي» الذي وعده أبناء أسياده الذين قتلهم «حمزة» رضي الله عنه ببدر بالحرية إذا غدر به، كذلك سقط «مصعب» كما ذكرنا معه علم الرسول ﷺ، لكن «علي» رضي الله عنه أخذ العلم وظل يرفعه بالرغم من عصف السلاح بكل جانب.

ولأن «مصعب» كان قريباً من الرسول ﷺ بعلمه حين سقط صرخ أعداء الرسول ﷺ أن محمداً قد قتل»؟! فكثف المشركين من رماياتهم وانتشوا بالخبر، وفر المسلمون يائسين، يحملون معهم أبا بكر رضي الله عنه و«عمر» رضي الله عنه الجريحين، ولما وجد كعب بن مالك «الشاعر» الرسول ﷺ مع الجرحى مستلقياً بخندق وقد عرفه من دروعه، نادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله، فأشار إليه رسول الله أن اصمت[22] فلما عرفه المسلمون لاذوا به، ونهضوا به إلى الشعب على التلة وحموه خلف صخرة مستميتين في الدفاع عنه ﷺ. ولأن القريشيين كانوا شبه متأكدين من أن الرسول ﷺ قد قتل، لم يتعبوا أنفسهم بملاحقتهم، وراحوا يمتعون أنفسهم بسلب غنائم القتلى والتمثيل بهم[23]، وقد كانت «هند» أكثرهم بربرية ووحشية في ممارسة هذا الانتقام برفقة صويحباتها، حيث شقت قلب حمزة رضي الله عنه ولاكت كبده، بينما كان رمح أبي سفيان يعبث بالجثة بعد أن نزل من الشعب منتصراً، وهو يقول: للحرب صروف فيوم أحد بيوم بدر؟!

وهز حديث الشجاعة وحديث الاستشهاد القلوب، واستنفر روح الجماعة الأنفس لتجري كلها في هذا التيار، ولتتحدث كلها على هذه النغمة، فلم يبق تلك اللحظة أمام الجمع الماثل في حضرة محمد الممتلئ القلب بالإيمان بالله ورسوله وكتابه وحسابه، إلا صورة الظفر بهذا العدوّ المعتدي تفرّقه سيوفهم أيدي سبا، ويبعثه باسهم بدداً شذر مذر، وتستولي أيديهم على مغانمه ومحارمه، وصورة الجنة أعدّت للذين قُتلوا في سبيل الله، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين يلقون فيها أحبتهم الذين شهدوا بدراً واستشهدوا فيها، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 25 ـ 26].

(*) أصابه به ﷺ «عتبة بن أبي وقاص»، ودعى عليه الرسول بأن لا يحول عليه الحول، فمات قبل نهاية السنة كافراً.

الفصل الثاني

الحزن على حمزة رضي الله عنه

وبعد أن روى المشركون غلهم انسحبوا، فنزل الرسول ﷺ من وراء الصخرة إلى ساحة المعركة، وما إن رأى جثة عمه وقد مثل بها بهذا الشكل الوحشي حتى حلف ليأخذن به سبعين مشركاً[24]، لكن «جبريل» خفف عنه كما يخبرنا الرواة، وأكد له أنه

قال هيكل:

قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة: «عسى الله أن يُظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهادة. لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصاً، حتى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه فرُزِق الشهادة. وقد رأيت ابني البارحة في النوم وهو يقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة؛ وقد كبرت سني ورقّ عظمي وأحببت لقاء ربي» فلما ظهرت الكثرة واضحة في جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدوّ وملاقاته قال لهم محمد: إني أخاف عليكم الهزيمة؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج. فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم. وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياة، فلم يكن يتفرد بأمر إلا ما أوحي إليه من عند الله.

وكان اليوم يوم جمعة، فصلّى النبي بالناس، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم. ودخل محمد بيته بعد صلاة العصر ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه درعه وتقلّد سيفه، والناس أثناء غيبته هذه في جدل يتحاورون. قال أسيد بن حُضير وسعد بن مُعاذ، وكانا ممن أشاروا بالتحصن بالمدينة، للذين رأوا الخروج منها: «لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة، فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره، فردّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه». ولأن الداعون للخروج لما سمعوا، وحسبوا أنهم خالفوا الرسول إلى شيء قد يكون لله فيه آية. فلما خرج النبي إليهم لابساً درعه متقلداً سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك؛ والأمر إلى الله ثم إليك». قال محمد: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم. وما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما آمركم به فاتّبعوه، والنصر لكم ما صبرتم». وكذلك وضع محمد إلى جانب مبدأ الشورى أساس النظام. فإذا تم للكثرة رأي بعد بحث، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو

يسكن السماء السابعة ولقبه: «أسد الله ورسوله». فدفنت جثث القتلى اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة معاً حيث صالوا وحيث جالوا، وقد منع الرسول ﷺ أصحابه من قص شعورهم وتمزيق ثيابهم، كما كانت العرب تفعل في الحزن الشديد، دون أن يمنعهم من البكاء على أمواتهم لأن العبرات تخفف عن القلوب.

ولم تمر الليلة التي أعقبت المعركة بهدوء، إذ أن أحداً لم يكن يعرف عما إذا كان

لغاية، بل يجب أن ينفذ الأمر على أن يُحسن من يتولى تنفيذه ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحه.

وتقدّم محمد بالمسلمين متجهاً إلى أُحد، حتى نزل الشيخين. وهناك بَصُر بكتيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها فقيل: هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود قال عليه السلام: لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة. إذ ذاك جعل حلفاء ابن أبي يقولون له: لقد نصحته وأشرت عليه برأي من مضى من آبائك فكان رأيه مع رأيك، ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه. وصادف حديثهم هوى من نفس ابن أبيّ، فلما أصبحوا انخذل مع كتيبة من أصحابه. وبقي النبي ومعه المؤمنون حقاً وعدّتهم، سبعمائة، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشي من أهل مكة كلهم موتور من يوم بدر، وكلهم على ثأره حريص.

استماتة المؤمنين في الدفاع عن الرسول

وفي لحظة قاموا كان قد اجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا في الدفاع عن رسول الله استماتة لا يُقهر صاحبُها أبداً. كانت أم عمارة الأنصارية قد خرجت أول النهار ومعها سِقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تسقي منهم من استسقى. فلما انهزم المسلمون القت سِقاءها واستلّت سيفاً وقامت تباشر القتال تذبّ عن محمد بالسيف وترمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليها. وترّس أبو دُجانة بنفسه دون رسول الله، فحنى ظهره والنبل يقع فيه. ووقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب محمد يرمي بالنبل دونه ومحمد يناوله النبل ويقول له: ارم فِداك أبي وأمي. وكان محمد قبل ذلك يرمي بنفسه عن قوسه حتى اندقت سِيتُها. هذا، فأما الذين ظنوا محمداً قد مات ومن بينهم أبو بكر وعمر فانتحوا الجبل وألقوا بأيديهم. فرآهم أنس بن النضر فقال: ما يجلسكم قالوا: قتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعد! قوموا فموتوا على ما مات عليه؛ ثم استقبل القوم فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاء منقطع النظير، حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه.

زعم قريش موت النبي

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت محمد، فراح أبو سفيان يتفقده في القتلى، ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه عليه السلام لم يكذّب أحد منهم خبر قتله إطاعة لأمره حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه. على أن كعب بن مالك أقبل إلى ناحية أبي دُجانة ومن معه فعرف محمداً حين رأى عينيه تَزْهَران تحت المِغْفر فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله؛ فأشار النبي إليه ليسكت. لكن المسلمين ما لبثوا حين عرفوا أن نهضوا بالنبيّ

القريشيون سيقومون بهجوم ثانٍ، أو أنهم سيفاجئون أهل المدينة صبحاً، لذلك سار الرسول ﷺ في صباح اليوم التالي متجنباً العدو القريب، ومع حلول الليل أمر بإشعال نيران كثيرة، كما أن «أبا سفيان» استطاع أن يعرف من مخبريه أن محمداً ﷺ لا زال حياً، ولم يشعر بقوة في مهاجمة «المدينة» ومحمد ﷺ غائب عنها، فقد يحضر

ونهض هو معهم نحو الشعب، ومن حوله أبو بكر وعمر وعليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام ورهط وغيرهم. وكان لصيحة كعب عند قريش كذلك أثرها. صحيح أن أكثرهم لم يصدّقها وحسبها صيحة أريد بها شدّ عزائم المسلمين. إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد والذين ساروا معه. وقد أدركهم أبيّ بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا! فطعنه الرسول بحربة الحارث بن الصّمة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجه ليموت في الطريق. فلما انتهى المسلمون إلى فم الشعب خرج عليٌّ فملأ درقته ماء، فغسل محمد به الدم عن وجهه وصبَّ منه على رأسه؛ ونزع أبو عبيدة بن الجراح حلقتي المِغْفَر من وجه الرسول فسقطت ثنيتاه. وإنهم لكذلك إذ علا خالد بن الوليد على رأس فرسان معه الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من أصحاب الرسول فردُّوهم. وازداد المسلمون في الجبل تصعيداً وقد نهكهم التعب وهدَّهم الجهد، حتى صلى النبي الظهر قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

التمثيل بقتلى المسلمين

فأمّا قريش فطارت بنصرها سروراً، وحسبت نفسها انتقمت لبدر أشدّ الانتقام؛ حتى صاح أبو سفيان: «يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل». وأما هند بنت عُتبة زوجه فلم يكفها النصر، ولم يكفها قتل حمزة بن عبد المطلب، بل انطلقت هي والنسوة اللاتي معها يمثّلن بالقتلى من المسلمين يجدعن الآذان والأنوف، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطاً، ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعلت النسوة ممن معها، بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع، أن تبرأ أبو سفيان من تبعتها، وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه، بل قال يخاطب أحد المسلمين: «إنه قد كان في قتلاكم مثل، والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت».

حزن محمد على حمزة

وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها؛ وعاد المسلمون إلى الميدان لدفن قتلاهم. وخرج محمد يلتمس عمه حمزة. فلما رآه قد بُقِرَ بطنه ومُثِّل به حزن من أجله أشد الحزن وقال: «لن أصاب بمثلك أبداً. ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا». ثم قال: «والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب». وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۞ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 126 ـ 127] فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة، وسجّى حمزة ببُرده وصلى عليه. وجاءت أخته صفية بنت عبد المطلب، فنظرت إليه وصلت عليه واستغفرت له. ودُفن حمزة، وأمر النبي بالقتلى فدفنوا حيث لقوا مصارعهم.

الرسول ﷺ تعزيزات فيجد نفسه محصوراً بين المقاومين وتعزيزات الرسول ﷺ، لذلك اكتفى بنصره الأخير وما ناله من ثأر، فصالح المسلمين لمدة سنة، وقفل راجعاً إلى مكة منتصراً.

وانصرف المسلمون إلى المدينة ومحمد على راسهم، تاركين وراءهم سبعين من القتلى، يحزّ في نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة من بعد نصر، ومن مذلة وهوان بعد ظفر لا ظفر مثله؛ وذلك كله لعصيان الرُّماة أمر النبي واشتغال المسلمين عن العدو بغنائمه.

ودخل النبي إلى بيته وجعل يفكر. ها هم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يظهرون السرور أشد السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه. وهذا سلطان المسلمين بالمدينة كان قد استقر فلم يبق لأحد أن ينازع فيه، وها هو يوشك أن يضطرب ويتزعزع. وهذا عبد الله بن أبيّ بن سلول قد خرج على الجماعة وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعوى أن محمداً لم يسمع رأيه، أو أن محمداً غضب على مواليه من اليهود. فلو أن هزيمة أحد بقيت الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لهان أمر محمد وأصحابه على العرب، ولتضعضع سلطانهم بيثرب، ولكانوا عرضة لاستخفاف قريش بهم وإرسالها دعاية السخر والاستهزاء منهم في أنحاء شبه الجزيرة جميعاً. ولئن حدث هذا لجاء في أثره اجتراء المشركين وعُبَّاد الأوثان على دين الله فتكون الطامة الكبرى. فلا بد إذاً من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحد وترد إلى المسلمين قوتهم المعنوية، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الرهبة وتعيد إلى محمد وأصحابه سلطانهم بيثرب قوياً كما كان.

الخروج في الغد إلى العدو

فلما كان الغد من يوم أحد، وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذّن مؤذن النبي في المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته، على ألا يخرج إلا من حضر الغزوة. وخرج المسلمون، فوقع في روع أبي سفيان أن أعداءه جاؤوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم. وبلغ محمد حمراء الأسد، وكان أبو سفيان وأصحابه بالرَّوحاء فمر به معبد الخزاعي، وكان قد مرَّ بمحمد ومن معه، فسأله عن شأنهم فأجابه معبد ـ وكان لا يزال على الشرك ـ: «إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً ومنكم للثار طلباً». على أن أبا سفيان فكر فيما يكون لفراره من محمد ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه بأحد من الأثر. أفلا تقول العرب في قريش ما كان يود هو أن تقوله في محمد وأصحابه؟ ولكن هبه رجع إلى محمد فهزمه المسلمون، إذاً ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً. فلجأ إلى الحيلة، فبعث مع ركب من عبد القيس يقصدون المدينة أن يبلغوا محمداً أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم. فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ولم تهن قوّته، بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة، ليدل قريشاً على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم. وأخيراً تزعزعت همَّة أبي سفيان

وجمعت بنو أسد حلفاً متشجعة من هزيمة أحد ليقصدوا حرب النبي ﷺ، فأرسل لهم سرية بقيادة «أبي سلمة بن عبد الأسد» الذي كان قد برأ لتوه من جرح في عضده بأُحد، فنزل «قطن» وهو ماء لبني أسد، فتفرقوا هم وأحلافهم، فأسر منهم ثلاثة ووزع الغنائم، ثم انتقض جرحه وتوفي، واعتدت «أم سلمة» وأسمها «هند ابنة أمية» أربعة أشهر وعشراً، وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها وذات جمال، فخطبها أبو بكر رضي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه فلم تقبل ثم خطبها الرسول ﷺ، فاحتجت بكبر عمرها وأن لها ولداً وأنها غيورة، ورد عليها الرسول ﷺ أنه أكبر منها، وأنه سيكون كأب لابنها، وأنه سيدعو الله أن يزيل الغيرة من قلبها.

وكان عرسها في المسجد، وجهازها كما ذكر المؤرخون المسلمون، كيس من الشعير وطاحونة يدوية، وصحن من الزبدة، حسب إمكانات الرسول ﷺ الذي لم يكن يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم، وتلك كانت عادة الكرام من العرب ببساطة العيش التي فاقهم فيها ﷺ جميعاً.

وقريش، وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة. ورجع محمد إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانة تزعزعت على أثر أحد، وإن كان المنافقون قد بدؤوا يرفعون رؤوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم: إذا كانت بدر آية من الله برسالة محمد فماذا عسى أن تكون آية أحد وماذا تكون دلالتها؟!

الباب الحادي والعشرون

الفصل الأول

إجلاء اليهود

هكذا رأينا كيف جرأت هزيمة «أحد» بعض القبائل العربية على الرسول ﷺ، وكذلك قبائل اليهود، كما بدا واضحاً من بعض خيانات العهود المتكررة التي ظهرت منهم، فسكان «قارة» و«هذيل» أرسلو وفداً ليعلنوا إسلامهم ويطلبوا أن يرسل لهم من يعلمهم الدين، فأرسل لهم ستة من صحابته ﷺ، ولكنهم قتلوا أربعة منهم في الطريق

قال ابن كثير:

قال: وخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا في ظلّ هو فيه، وكان مع العامريين عهد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالا: من بني عامر. فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما وقتلهما وهو يرى أن قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ.

فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ أخبره بالخبر فقال رسول الله ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما» ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبي براء، وقد كنت لهذا كارهاً متخوّفاً».

فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه، وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره.

قلت: هكذا ذكر ابن إسحاق كما تقدم، فإنه بعد ذكره بئر معونة ورجوع عمرو بن أمية وقتله ذينك الرجلين من بني عامر، ولم يشعر بعهدهما الذي معهما من رسول الله ﷺ ولهذا قال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين لأدينَّهما».

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية، للعهد الذي كان ﷺ أعطاهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف، فلما أتاهم ﷺ قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه. ورسول الله ﷺ

وسلموا قريش اثنين منهم فقتلا صبراً بأسيرين من هذيل كانا بمكة.

كذلك مارس سكان «نجد» خيانات مشابهة، حين ادعوا أنهم مسلمون لكي ينالوا من المسلمين لحساب أعدائهم، فأرسل لهم الرسول ﷺ جماعة من صحابته، فهاجمتهم

إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه.

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به.

قال الواقدي: فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ: أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود.

فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.

قال هيكل:

عاد أبو سفيان من أحد إلى مكة، وقد سبقته إليها أخبار النصر، ممتلئ النفس غبطة وسروراً بما زال عن قريش من عار بدر. ولم يلبث حين بلغها أن قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته، وبها رفع إلى كبير آلهتهم هبل آي الثناء والحمد؛ ثم حلق لمَّته ورجع إلى داره موفياً نذره ألا يقرب زوجه حتى ينتصر على محمد. أما المسلمون فالفوا المدينة وقد تنكَّر لهم الكثير من أمرها، على رغم مطاردتهم عدوهم وثباتهم له ثلاثة أيام سوياً من غير أن يجترئ على الرجعة إليهم وهو المنتصر قبل أربع وعشرين ساعة عليهم. ألفوا المدينة وقد تنكَّر لهم الكثير من أمرها وإن بقي سلطان محمد فيها السلطان الأعلى، وشعر عليه السلام بدقة الموقف وحرج المركز، لا في المدينة وحدها، بل كذلك عند قبائل العرب ممن كان الرعب منه قد داخل نفوسها؛ فقد ردّت أحد إليها من السكينة ما سمح لها أن تفكر في معارضته ومناوأته. لذلك حرص على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار العرب جميعاً، على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبتهم في النفوس.

سرية أبي سلمة بن عبد الأسد

وكان أول ما بلغه بعد شهرين من أحد أن طليحة وسلمة ابني خويلد، وكانا على رأس بني أسد، يحرّضان قومهما ومن أطاعهما يريدان مهاجمة المدينة والسير إلى محمد في عقر داره ليصيبوا من أطرافه وليغنموا من غنم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطة بمدينتهم.

«بنو سليم» قرب بئر «معونة» على مسيرة أربعة أيام من المدينة، وقتلوهم جميعاً، ولم يفر منهم سوى الصحابي «عمرو بن أمية» إلى المدينة عائداً، وفي طريقه إليها لاقاه اثنان من يهود «بني عامر» فأخطأهما على أنهما من أعدائه، وبثورة غضب قتلهما، ولأن قبيلتهم في سلام مع الرسول ﷺ طلبت الفدية، وتوسط في الأمر «بنو النضير» القبيلة

وإنما شجعهم على ذلك اعتقادهم أن محمداً وأصحابه لا يزالون مضعضعين من اثر أحد. فما لبث النبي حين اتصل به الخبر أن دعا إليه أبا سلمة بن عبد الأسد وعقد له لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين. ومنهم أبو عبيدة بن الجرّاح، وسعد بن أبي وقّاص، وأسيد بن حُضير، وأمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً وسلوك طريق غير مطروق حتى لا يطلع أحد على خبرهم، فيفجئوا العدو بالإغارة عليه على غرة منه. ونفّذ أبو سلمة ما أُمر به حتى جاء القوم ولم يستعدوا لنضال، فأحاط بهم في عماية الصبح، وحضّ رجاله وحرضهم على الجهاد؛ فلم يستطع المشركون أن يثبتوا لهم، فوجه لواءين في طلبهم وطلب الغنيمة، وأقام هو ومن معه حتى عاد المطاردون بما غنموا، فنحُّوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل، واقتسموا الباقي ورجعوا إلى المدينة ظافرين وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً مما ضيعت أحد. على أن أبا سلمة لم يعش بعد السرية طويلاً؛ فقد كان جرح بأحد ولم يكن التئام جرحه إلا ظاهراً. فلما جهد نفسه نغر الجرح وظل به حتى قضي عليه.

سرية عبد الله بن أنيس

واتصل بمحمد من بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نُبيح الهذلي مقيم بنخلة أو بعُرنة، وأنه يجمع الناس ليغزوه؛ فدعا إليه عبد الله بن أنيس وبعثه يتجسس حتى يقف على جلية الخبر، وسار عبد الله حتى لقي خالداً وهو في ظُعن يرتاد لهن منزلاً. فلما انتهى إليه سأله خالد: من الرجل؟ فأجابه: أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك. فلم يُخْفِ خالد أنه يجمع الجمع ليغزو المدينة. ولما رآه عبد الله في عزلة من الرجال وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للمسير معه، حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله، ثم ترك ظعائنه منكبّات عليه يبكينه، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر. وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمناً، ثم فكرت تحتال لتثأر له.

يوم الرجيع (سنة 625م)

في هذا الحين وفد رهط من قبيلة تجاورهم إلى محمد يقولون له: إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن. وكان محمد يبعث من أصحابه كلما دعي إلى ذلك ليؤدوا هذه المهنة الدينية السامية، وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحق، وليكونوا لمحمد وأصحابه عوناً على خصومهم وأعدائهم، على نحو ما رأيت من ذلك كله، فيمن بعثهم إلى المدينة على اثر العقبة الكبرى. لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط وساروا معهم. فلما كانوا جميعاً على ماء لهذيل بالحجاز بناحية تدعى الرجيع، غدروا بهم واستصرخوا

اليهودية الغنية والقوية ذات القلاع والقصور وذهب إليهم الرسول ﷺ يستعينهم ليعينوه على دفع دية ذينك القتيلين، ولما أتاهم في قلعتهم البعيدة عن المدينة حوالي الميلين لأن بينه وبينهم عهداً منذ أن وصل مهاجراً إلى المدينة، على أن يكونوا وسطاء بينه وبين خصومه، دعاه زعيمهم كوسيط ليلقى الطرف الآخر، وكان برفقته ﷺ أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وبعض الصحابة، ومُدَ البساط في الهواء الطلق أمام منزل هذا

عليهم هُذيلاً. ولم يرع المسلمين الستة وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم؛ فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا. لكن هُذيلاً قالت لهم: إنا والله ما نريد قتلكم؛ ولكنا نريد أن نصيب لكم مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكة فُرادَى إنما هو المذلة والهوان وما هو شر من القتل، فأبوا ما وعدت هذيل، وانبروا لقتالها، وهم يعلمون أنهم في قلة عددهم لا يطيقونه. وقتلت هذيل ثلاث منهم ولان الثلاثة الباقون، فامسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرى، وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها. فلما كانوا في بعض الطريق انتزع عبد الله بن طارق أحد المسلمين الثلاثة يده من غُلّ الأسر ثم أخذ سيفه؛ فاستأخر عنه القوم وطفقوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه أما الأسيران الآخران فقدمت بهما هذيل مكة وباعتهما من أهلها. باعت زيد بن الدثنة لصفوان بن أمية الذي اشتراه ليقتله بأبيه أمية بن خلف؛ فدفع به إلى مولاه نسطاس ليقتله. فلما قدم سأله أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال زيد: والله ماأحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي! فعجب أبو سفيان وقال: ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً. وقتل نسطاس زيداً، فذهب شهيد أمانته لدينه ولنبيه، أما خبيب فحبس حتى خرجوا به ليصلبوه؛ فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا؛ فأجازوه فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم وقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. ورفعوه إلى خشبة؛ فلما أوثقوه إليها نظر إليهم بعين مغضبة وصاح: «اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً»، فأخذت القوم الرجفة من صيحته، واستلقوا إلى جنوبهم حذر أن تصيبهم لعنته، ثم قتلوه. وكذلك استشهد خُبيب كما استشهد زيد في سبيل بارئه وسبيل دينه ونبيه. وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران وكان في استطاعة صاحبيهما أن يستنقذهما من القتل إن رضيا الردة عن دينهما لكنهما في يقينهما بالله بالروح وبيوم البعث، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ولا تزر وازرة وزر أخرى، رأيا الموت، وهو غاية كل حيّ، خير ما يكون غاية للحياة في سبيل العقيدة وفي سبيل الإيمان بالحق؛ ولكنهما آمنا بأن دمهما الزكيّ الطهور الذي أريق على أرض مكة سيدعو إليها إخوانهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطمون أصنامها، ويطهرونها من رِجْس الوثنية والشرك، ويردون فيها إلى الكعبة بيت الله ما يحب لبيت الله من تقديس وتنزُّه عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله.

الزعيم، لكن الرسول ﷺ كان قد علم بأنهم سيلقون عليه رحى طاحون وهو جالس على البساط من الشرفة المطلة، ودون أن يظهر معرفته بالأمر ترك المكان فوراً وعاد مسرعاً إلى المدينة غاضباً على بني النضير كلهم، مما جعله يصدر أمره لهم بمغادرة البلاد خلال عدة أيام أو سيواجهون الموت المحتم، وكادوا يفعلون لولا أن أقنعهم «عبد الله بن أبيّ» الخزرجي المنافق سراً بأنه يعدهم بالمساعدة إذا هم بقوا، ولما فشل في

ولا يقف المستشرقون من هذا الحادث وقوفهم عند أسيري بدر اللذين قتلهما المسلمون، ولا يحاولون أن يستنكروا هذا الغدر برجلين بريئين لم يؤخذا في حرب وإنما أخذا خداعاً، وسارا بأمر الرسول ليعلّما من غدروا بهما ومن أسلموهما إلى قريش بعد أن قتلوا زملاءهم غيلة وبغياً. وهم لا يستنكرون ما صنعت قريش بالرجلين الأعزلين، مع أن ما صنعته بهما شرّ مثل للجبن وللعدوان الدنيء. ولقد كانت أول مبادئ الإنصاف تقتضي المستشرقين، الذين انكروا ما فعل المسلمون بأسيري بدر، أن يكونوا أشد استنكاراً لغدر قريش وغدر الذين أسلموا إليها الرجلين لقتلهما، بعد أن قتلوا الأربعة الرجال الذين جاؤوا وإياهم إجابة لطلبهم ليدلوهم على الحق ويفقهوهم في الدين.

حزن المسلمون وحزن محمد لما أصاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا في سبيل الله بغدر هذيل بهم، وأرسل حسان بن ثابت أشعاره يرثي فيها خبيباً وزيداً أحرّ الرثاء. وازداد محمد تفكيراً في أمر المسلمين وخشي إن تكررت مثل هذه الأمور أن تستخف العرب بشأنهم. ولا شيء أقتل لهيبتك من استخفاف غيرك بشأنك. وإنه لفي تفكيره إذ قدم عليه أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة؛ فعرض محمد عليه أن يسلم فلم يقبل، ولكنه لم يظهر للإسلام عداوة، بل قال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوالك. فخاف محمد على أصحابه من أهل نجد وخشي أن يغدروا بهم كما غدرت هذيل بخبيب وأصحابه. ولم يقتنع ولم يجب طلب أبي براء، حتى قال: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك. وكان أبو براء رجلاً مسموع الكلمة في قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه. وبعث محمد المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في أربعين رجلاً من خيار المسلمين. فساروا ونزلوا بئر مَعُونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، ومن هناك بعثوا حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب محمد فلم ينظر عامر الكتاب بل قتل الرجل واستصرخ بني عامر كي يقتلوا المسلمين. فلما أبوا أن يخفروا ذمة أبي براء وجواره استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته وخرجت معه حتى أحاطوا بالمسلمين في رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم. لم ينج منهم إلا كعب بن زيد؛ إذ تركه ابن الطفيل وبه رمق، فعاش ولحق بالمدينة، وإلا عمرو بن أمية الذي أعتقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمه. ولقي عمرو رجلين في الطريق حين عودته بعد انطلاقه، فحسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وتابع مسيره حتى بلغ المدينة،فأخبر الرسول عليه السلام بما صنع فإذا الرجلان عامريان من قوم أبي براء، وإذا

تحقيق وعده، أغلقوا على أنفسهم حصنهم واعتصموا فيه، بينما حاصرهم الرسول ﷺ من الخارج، وراح يقلع نخلهم الذي يعتمدون عليه في معاشهم، وبعد ستة أيام استسلموا وسمح لهم بالمغادرة، كل بجمل واحد على قدر ما يحمل، فمنهم من ذهب إلى سورية، وآخرون إلى «خيبر»، المدينة اليهودية المحصنة القوية على مسافة عدة أيام سفر بالراحلة من المدينة، ولأن «بني النضير» كانوا أغنياء تركوا الكثير من الغنائم التي

معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدِّي ديتهما.

يهود المدينة ومنافقوها

وجد محمد لقتلى بئر معونة أشد الوجد، وحزن من أجلهم أعمق الحزن، وقال: هذا عمل أبي براء، لقد كنت كارهاً متخوفاً وشق على أبي براء إخفاء عامر بن الطفيل إياه، حتى لقد ذهب ابنه ربيعة فطعن عامراً بالرمح انتقاماً منه لأبيه. وبلغ من حزن محمد انه ظل شهراً كاملاً يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتلتهم. وتأثر المسلمون جميعاً لهذه الكارثة التي أصابت إخوانهم في الدين. وإن آمنوا بأنهم جميعاً استشهدوا، وبأنهم جميعاً لهم الجنة.

ووجد أهل المدينة من المنافقين واليهود فيما أصاب المسلمين بالرَّجيع وبئر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأحد، وما أنساهم نصر المسلمين على بني أسد، وما أضعف في نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه. وفكر النبي عليه السلام في هذه الحالة تفكير سياسي دقيق النظر بعيد مرامي الرأي. فليس شيء أشد على المسلمين يومئذ خطراً من أن تضعف في نفوس مساكنيهم بالمدينة هيبتهم، وليس شيء يطمع قبائل العرب فيهم مثل أن تشعر بهذا الانقسام الداخلي يوشك أن يثير حرباً أهلية إذا غزا المدينة غاز من جيرانها. ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر، فقدّر أن لا شيء خير من أن يستدرجهم لتتضح نياتهم. ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر، فقد ذهب إلى محلتهم على مقربة من قُباء، في عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعليّ، وطلب إليهم معاونتهم في دية القتيلين الذين قتل عمرو بن أمية خطأ، ومن غير أن يعلم أن محمداً أجارهما.

ائتمار اليهود بمحمد

فلما ذكر لهم ما جاء فيه أظهروا الغبطة والبشر وحسن الاستعداد لإجابته. لكنه ما لبث اثناء تبسط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون، ويذهب أحدهم إلى ناحية، ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف، ويدخل أحدهم (عمرو بن جِحاش بن كعب) البيت الذي كان محمد مستنداً إلى جداره. إذ ذاك رابه أمرهم، وزاده ريبةً ما كان يبلغه من حديثهم عنه وائتمارهم به. لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره. أما اليهود فقد اختلط عليهم الأمر ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب محمد ولا ما يصنعون بهم. فإن هم غدروا بهم فمحمد لا ريب منتقم منهم شرّ انتقام. وإن هم تركوهم فلعل ائتمارهم بحياة محمد وأصحابه لا يكون قد افتضح فيظل ما بينهم وبين المسلمين من عهد

أخذها الرسول ﷺ كلها ووضع عليها اليد لأنها من الغنائم التي لم يضرب بها سيف فهي عطاء من الله لينفقها رسوله على الأيتام والفقراء، وخاصة أيتام من طالتهم المعارك الأخيرة، وعلى ابن السبيل، وهكذا لم يبق الرسول ﷺ أياً من هذه الغنائم لنفسه، بل وزعها على هؤلاء ممن ثبت فقرهم ويتمهم وعوزهم.

وتبع ترحيل «بني النضير» عدة غزوات قام بها الرسول ﷺ، وصلت إحداها إلى

قائماً. وحاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون رابهم من غير أن يشيروا إلى شيء منه. لكن أصحاب محمد استبطئوه فقاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة عرفوا منه أن محمداً دخلها وأنه قصد توّاً إلى المسجد فيها، فذهبوا إليه، فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به وتنبهوا إلى ما كانوا رأوا، آمنوا بنفاذ بصيرة الرسول وما أوحي إليه. وبعث النبي يدعو إليه محمد بن مسلمة وقال له: «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي. لقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه». وأبلست بنو النضير، فلم يجدوا لهذا الكلام دفعاً ولم يحيروا عنه جواباً إلا أن قالوا لابن مسلمة: «يا محمد، ما كنا نرى أن يأتي بهذا الرجل من الأوس». وذلك إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبل في حرب الخزرج، فكان كل ما أجاب به ابن مسلمة: «تغيرت القلوب».

ابن أبي يحرّض اليهود

ومكث القوم على ذلك أياماً يتجهزون وإنهم لكذلك إذ جاءهم رسولان من عند عبد الله بن أبي يقولان: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم؛ فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم. وتشاورت بنو النضير في مقالة ابن أبي وهم أشد ما يكونون حيرة؛ فمنهم من لم يكن له بابن أبي أية ثقة. ألم يعد بني قينقاع من قبل مثل ما يعد بني النضير اليوم وهم يعلمون أن بني قريظة لا ينصرونهم لما بينهم وبين محمد من عهد. ثم إنهم إن جلوا عن ديارهم إلى خيبر أو إلى محلة قريبة، استطاعوا أن يعودوا حين يثمر نخيلهم إلى يثرب، يجنون ثمره ويعودون أدراجهم فلا يكونون قد خسروا كثيراً. قال كبيرهم حُييّ بن أخطب: كلا بل أنا مرسل إلى محمد: إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا، فليصنع ما بدا له، وما علينا إلا أن نرم حصوننا ندخل إليها ما شئنا، وندرب أزقتنا وننقل الحجارة إليها، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة، وماؤنا لا ينقطع، ولن يحصرنا محمد سنة كاملة. وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم.

حصار بني النضير

فأخذ المسلمون السلاح وساروا إليهم فقاتلوهم عشرين ليلةً، وكانوا أثناءها إذا ظهروا على الدرب أو الديار تأخر اليهود إلى الديار التي من بعدها بعد تخريبهم إياها. ثم أمر محمد أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يحرّقوه حتى لا تبقى اليهود في شدة تعلقها بأموالها

جوار «تبوك» على الحدود السورية، وكانت هذه الغزوات ذات مردود جيد بالغنائم التي بدأت تشغل بال المسلمين إلى حدود التنازع الذي كانت تحسمه الآيات القرآنية الكريمة.

ورغم أن الرسول ﷺ كان قد نجا من الكثير من محاولات الاغتيال كما رأينا، يصر خصومه على أنه كان يرد بمثلها لهم، وهذا يتنافى مع شخصيته وسلوكه بصورة عامة، فقد لفقوا له تهمة أنه أرسل «عمرو بن أمية» لاغتيال «أبي سفيان» بمكة ولما كشفت المؤامرة فر «عمرو» بصعوبة، وهذه مفتريات لم يؤيدها التاريخ.

تتحمس للقتال وتقدم عليه. وجزع اليهود ونادوا: يا محمد، قد كنت تنهي عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! وفي ذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5].

جلاء اليهود عن المدينة

وعبثاً انتظر اليهود نصر ابن أبي أو تقدم أحد من العرب لنجدتهم، حتى لم يبق لديهم ريبة في سوء مصيرهم إذا أصروا على متابعة القتال. فلما ملأ اليأس قلوبهم رعباً، سألوا محمداً أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة. فصالحهم محمد على أن يخرجوا منها، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب، وليس لهم غيره. واحتمل اليهود وعلى رأسهم حيي بن أخطب، فنزل خيبر منهم من نزل وسار آخرون إلى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلثمائة وأربعين سيفاً، ثم كان ما خلّت اليهود من الأرض التي كانوا يملكون خير ما غنم المسلمون. على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب، ولذلك لم تقسم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء. وقد قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار بعد أن استبقى قسماً خصصت غلّته للفقراء والمساكين. وبذلك أصبح المهاجرون في غنىً عن معونة الأنصار، وأصبح لهم مثل ثروتهم. ولم يشترك في القسمة من الأنصار إلا أبو دُجانة وسهل بن حُنَيف؛ فقد ذكرا فقراً فأعطاهما محمد كما أعطى المهاجرين. ولم يُسلم من يهود بني النضير غير رجلين أسلما على أموالهما فأحرزاها.

ليس من العسير أن يقدّر الإنسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بني النضير عن المدينة بعد الذي قدّمنا من تقدير الرسول عليه السلام لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رؤوسهم كلما أصاب المسلمين شر، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء. وفي جلاء بني النضير نزلت سورة الحشر، وفيها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۞ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ

الفصل الثاني

زينب بنت جحش رضي الله عنها

وشخصية محمد ﷺ التي أوقفت ضدها أعداء شديدي البأس هي نفس هذه الشخصية التي أوقفت إلى جانبها مخلصين بشكل متفانٍ مهما كانت الظروف، فعتيق الرسول ﷺ زيد رضي الله عنه كان من أوائل من آمن به ﷺ ومن أكثر من ضحوا في سبيله، ومحل ثقته ﷺ يستشيره في كل الظروف، ويكلفه بكل المهمات المحلية ويتصرف معه كأب نحو ابنه الذي يحبه، إلى حد أنه زوجه من ابنة عمته «زينب بنت جحش» وهي الأجمل من كل نساء قبيلتها وبها نزلت الآية القرآنية الكريمة ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة الأحزاب: 37]. فطلقها زيد دون أي حرج، وهذا التفاني لا يمكنه أن يفسر إلا بشخصية الرسول الفائقة ﷺ، لا من أجل مجرد إحداث تمييز قانوني شرعي بين الابن بالتبني والابن من الصلب فقط، وكتأكيدٍ لهذا الأمر فاق عرس زينب كل أعراس زوجات الرسول ﷺ، ففتحت الأبواب لكل قادم وقدمت لحوم الغنم مع خبز الشعير والعسل والفواكه، حتى لا يكون هناك أي عار في هذا الطلاق والزواج، بل على العكس تماماً

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: 11 ـ 13] وتجري السورة بعد ذلك بذكر الإيمان وسلطانه، الإيمان بالله وحده لا تعرف النفس الإنسانية التي تعرف قيمتها وكرامتها لغيره سلطاناً: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كان كاتب سر النبي، إلى حين إجلاء بني النضير عن المدينة، من اليهود؛ ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية ما يريده. فلما جلا اليهود خاف النبي أن يستعمل في أسراره غير مسلم، فأمر فتعلم زيد بن ثابت من شبّان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين، وأصبح كاتب سر النبي في كل شؤونه. وزيد بن ثابت هذا هو الذي جمع القرآن في خلافة أبي

كانت «زينب» تفخر على أزواج النبي ﷺ الأخريات فتقول: زوجكن أهليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات[25]، وهذا يدل على تفاني الصحابة من أجل الحق الذي جاء به الرسول ﷺ بشخصيته الفذة ويدل على صراحة الحق في الإسلام، بأن لا تبني في الإسلام، وأسطع دلالة على ذلك رضا زيد وزينب والرسول ﷺ بالأمر جميعاً.

بكر، وهو الذي عاد فراقب الجمع حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان، فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف.

اطمأنت المدينة بعد إجلاء بني النضير عنها، فلم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها واغتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود؛ واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم، وتنفسوا جميعاً الصعداء، وكانت فترة سكينة وهدوء وطمأنينة استراح إليها المهاجرون والأنصار جميعاً. وظلوا كذلك، حتى إذا استدار العام منذ أحد ذكر محمد عليه السلام قولة أبي سفيان: «يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل»، ودعوته محمداً للقائه ببدر مرة أخرى. وكان العام عام جدب. وكان أبو سفيان يود لو يؤجل اللقاء إلى عام آخر، فبعث نعيماً إلى المدينة يقول للمسلمين إن قريشاً جمعت جيشاً لا قِبَل لجيش في العرب بمواجهته لتحاربهم به حتى تقضي عليهم قضاء لا يُعَدُّ ما تم بأحد إلى جانبه شيئاً. وبدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطر، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر. لكن محمداً غضب لهذا الضعف والتراجع، وصاح بهم مقسماً أنه ذاهب إلى بدر ولو ذهب وحده.

الباب الثاني والعشرون

الفصل الأول

خيانة عبد الله بن أبيّ

كان من ضمن القبائل العربية التي شاركت بحمل السلاح ضد الرسول ﷺ بعد هزيمته بأحد، قبيلة «بني المصطلق» القوية التي تمتّ بنسب إلى قريش، وقد وصل إلى الرسول ﷺ خبر عن تجمعهم للحرب ضده برئاسة أميرهم «الحارث»(*)، قرب بئر «المرَيسِيع» البعيد حوالي خمسة أميال عن البحر الأحمر، وقد وصل الرسول ﷺ إلى ساحة المعركة مع مجموعة مختارة من المؤمنين، وكانت قيادة الخزرج لعبد الله بن أبيّ، وبحركة سريعة فاجأ الرسول ﷺ العدو فَقُتِلَ زعيمهم بسهم موجّه، مما أوقع الذعر بين صفوفهم فلم يصمدوا إلا قليلاً، فوقع معظمهم بالأسر وكانوا حوالي ألفين من الأسرى وعدد قليل من القتلى، أما الغنائم فكانت خمسة آلاف رأس من الغنم وألف جمل نتيجة هذا النصر السهل السريع، وكان من ضمن الأسرى «جويرية بنت الحارث» أو «برة» زوجة أحد أتباع والدها، فجاءت غنيمة «لثابت بن قيس»[26] الذي طلب فدية غالية فيها، فتشكت إلى الرسول ﷺ لتخفيف فدائها، فاتخذها ﷺ لنفسه ودفع فداءها «لثابت»، مما جعل المسلمين يعتقون عائلتها، تلك العائلة التي دخل نتيجة ذلك معظمها

قال ابن كثير:

قال البخاري: وهي غزوة المريسيع. قال محمد بن إسحاق: وذلك في سنة ست. وقال موسى بن عقبة سنة أربع. وقال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع. هكذا رواه البخاري عن مغازي موسى بن عقبة أنها كانت في سنة أربع. والذي حكاه عنه وعن عروة أنها كانت في شعبان سنة خمس. وقال الواقدي: كانت لليلتين من شعبان سنة خمس في سبعمائة من أصحابه.

(*) الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية التي تزوجها رسول الله ﷺ.

في الإسلام، وعادت «برة» معهم إلى المدينة زوجة للرسول ﷺ.

وعندما عاد المقاتلون باتجاه المدينة وعلى بئر «المريسيع» حصل خلاف بين بعض المهاجرين وبعض الأنصار ضُرِب نتيجته أحد «الخزرج» فاستغل «عبد الله بن أبيّ» الحادث شأنه في كل مناسبة للتحريض على الرسول ﷺ، الذي تزداد سلطته على حساب سلطته هو، لذلك قال لأتباعه: «هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم... فوالله لو عدنا إلى المدينة ليخرجن منها الأعز الأذل؟!» فسمع بذلك «زيد بن أرقم» فمشى إلى الرسول ﷺ وأخبره؟! وعندها اقترح عمر رضي الله عنه القضاء على «عبد الله» هذا، لكن الرسول ﷺ حسم هذا التمرد بالمسير فوراً رغم حرارة النهار، ولم يتوقف في الليل حتى ظهر اليوم التالي إلى الحد الذي لم يعد يهم الناس أي شيء سوى التوقف للراحة!!

وبوصوله ﷺ إلى المدينة دعا «عبد الله بن أبيّ» ليبرر قولته هذه فأنكرها متهماً من نقل عنه هذا الكلام: بالكاذب، فنزلت آية من السماء تؤكد أنه إنما كان هو الكاذب بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المنافقون: 8].

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، بعدما أورد قصة ذي قَرد: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجب، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري ويقال نُميلة بن عبد الله الليثي.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ومحمد بن يحيى بن حبَّان، كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث بن أبي ضرار، أبو جُويرية بنت الحارث التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد هذا، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحم الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم، ونقل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه.

قال ابن إسحاق: فبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبيّ بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا! والله ما أعدُّنا وجلابيب قريشٍ هذه إلا كما قال الأول: «سمِّن كلبك يأكلك»، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم،

ونتيجة ذلك ذهب بعض أتباع «عبد الله» إلى الطلب منه أن يذهب إلى الرسول ﷺ ويطلب منه العفو، فأجابهم: «لقد طلبتم مني أن أقدم لهذا الرجل عوني وصداقتي، والآن تريدون مني أن أضع نفسي تحت قدميه»؟!

إذ لا شيء يمكنه أن يقنعه أن محمداً ﷺ ليس وثنياً في قلبه، وأن مسألة الوحي الذي ينزل عليه ليست سوى خداع، لذلك كان ينظر له على أنه مزاحم له، عليه أن يجرحه ويؤذيه بكل الطرق الممكنة، ولأجل هذا الغرض لفق بعد ذلك قصة «الأفك» على السيدة «عائشة» رضي الله عنها لأنها الزوجة المفضلة للرسول ﷺ ليتجنى عليه بفضيحة.

احللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، اما والله لو امسكتم عنهم ما بايديكم لتحوّلوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عبّاد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها. فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به. وكان في قومه شريفاً عظيماً، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حدباً على ابن أبيّ ودفعاً عنه.

الفصل الثاني

التجني بالإفك

لقد كان من عادة الرسول ﷺ اصطحاب إحدى زوجاته رضي الله عنهن في غزواته، ليرافقنه ويقمن على أمره أثناءها، مستعملاً القرعة في ذلك، وقد وقعت القرعة على «عائشة» رضي الله عنها التي حملت على «هودج» على ظهر جمل يقوده أحد الخدم، وعندما عاد الجيش من الغزوة توقف الجيش ليجد الخادم أن هودجها رضي الله عنها فارغ، وقبل أن يبدأ التساؤل عنها ظهرت على ظهر جمل يقوده «صفوان بن المعطّل». وحين علم «عبد الله بن أبيّ» بهذه الحادثة، شهر بالأمر بعد عودته إلى

وعن حديث الإفك قال ابن كثير:

قالت: وكان كِبْرُ ذلك عند عبد الله بن أبيّ بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مِسطح وحَمْنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ولم تكن امرأة من نسائه تناصبني في المنزلة عنده غيرها. فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حَمْنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارُّني لأختها فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أُسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك، فوالله إنهم لأهلٌ أن تضرب أعناقهم.

قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحاً فقال: كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد بن حضير: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر.

ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليّ فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى خيراً وقاله، ثم قال: يا رسول الله أهلك وما نعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل. وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بُرَيرة يسألها. قالت: فقام إليها عليّ فضربها ضرباً شديداً ويقول: أصدقي رسول الله ﷺ. قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب

المدينة مدعياً أن عائشة رضي الله عنها مدانة بعلاقة مع هذا الشاب.

وتناقل الناس هذه الشائعة وأضرمت من نارها «حمنة» أخت زوجة الرسول ﷺ «زينب» رضي الله عنها التي تزوجها حديثاً، على ظن أنها تفيد بذلك أختها إذا هي أساءت لعائشة وأذلتها بعين الرسول ﷺ، وردد صدى هذه الشائعة أحد عبيد أبي بكر رضي الله عنه ووضع «حسان بن ثابت» أبياتاً من الشعر احتفاءً بفضيحة «عائشة» المزعومة هذه(27).

على عائشة إلا اني كنت أعجن عجيني فآمرها ان تحفظه فتنام عنه فتاتي الشاة فتأكله!

قال هيكل:

فتنة عبد الله بن أبىّ

وكان لعمر بن الخطاب في الجيش أجير يقود فرسه، فازدحم بعد انتهاء الموقعة مع أحد رجال الخزرج على الماء فاقتتلا فتصايحا، يقول الخزرجي: يا معشر الأنصار، ويقول أجير عمر: يا معشر المهاجرين. وسمع عبد الله بن أبىّ النداء، وكان قد خرج مع المنافقين في هذه الغزوة ابتغاء الغنيمة، فثار ما في نفسه على المهاجرين وعلى محمد من حفيظة، وقال لجلسائه: «لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا والله ما أعُدُّنا وإياهم إلا كما قال الأول: «سمِّن كلبك يأكلك». أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». ثم قال لمن حضر من قومه: «هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم». ومشى بحديثه هذا ماشٍ إلى رسول الله بعد فراغه من عدوِّه، وكان عنده عمر بن الخطاب، فهاج عمر لما سمع وقال: مر به بلالاً فليقتله. هنا ظهر النبي كدأبه مظهر القائد المحنَّك والحكيم البعيد النظر. إذ التفت إلى عمر وقال: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه؟

لكنه قدر في الوقت نفسه أنه إن لم يتخذ خطة حازمة فقد يستفحل الأمر. لذلك أمر أن يؤذن في الناس بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها، وترامى إلى ابن أبىّ ما بلغ النبي عنه، فاسرع إلى حضرته ينفي ما نُسب إليه، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به. ولم يغير ذلك من قرار محمد الرحيل شيئاً، بل انطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسوا، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا، وصدر يومهم الثاني آذتهم الشمس. فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مسَّت جنوبهم الأرض أن وقعوا من فرط تعبهم نياماً، وأنسى التعب الناس حديث ابن أبي وعادوا بعد ذلك إلى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم بني المصطلق وأسراهم وسبيهم، ومعهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار قائد الحي المهزوم وزعيمه.

حقد ابن أبىّ على النبي

بلغ المسلمون المدينة، وأقام ابن أبىّ بها، لا تهدأ له نفس حسداً لمحمد وللمسلمين، وإن

ومضى وقت طويل قبل أن تعلم «عائشة» رضي الله عنها بهذه الشائعة الدائرة حولها بين الناس وهي بينهم، لأنها كانت مريضة وهي بطريق عودتها مع الجيش إلى المدينة، فلم يجرؤ أحد على إخبارها رضي الله عنها لكنها لاحظت امتعاض النبي ﷺ وصمته، وعدم معاملته لها بعطفه المعهود ﷺ. وعندما تماثلت للشفاء أصغت باهتمام إلى التهمة الموجهة ضدها لتعلن براءتها منها، وفيما يلي ننقل عنها رضي الله عنها تفاصيل هذه

تظاهر بالإسلام بل بالإيمان؛ وإن أصر على إنكار ما نُقِل عنه لرسول الله عند المريسيع. أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 7 - 8].

مأساة نفسية بالغة

هناك حسب قوم أن في هذه الآيات قضاء على ابن أبيّ، وأن محمداً لا ريب آمر بقتله. فذهب عبد الله بن عبد الله بن أبيّ، وكان مسلماً حسن الإسلام، فقال: «يا رسول الله، إنه بلغني إنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني. وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار». كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ لمحمد. وما أحسب عبارة من عبارته على إيجازها في قوة التعبير عن حالة نفسية تضطرب فيها أقوى العوامل في النفس أثراً: تضطرب فيها عوامل البرّ بالآب وصدق الإيمان والنخوة العربية والحرص على سكينة المسلمين حتى لا تتواتر الثارات بينهم! فهذا ابن يرى أباه سيقتل، فلا يطلب إلى النبي ألا يقتله، لأنه يؤمن بأن النبي إنما يصدع بأمر ربه، ويوقن بكفر أبيه. وهو، من خيفة ما يقتضيه البر بأبيه وما تقتضيه الكرامة والنخوة أن يثأر له ممن قتله، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه، وأن يحمل هو بنفسه إلى النبي رأسه، وإن قطع قلبه وفرى كبده! وهو يجد في إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذي يكلف نفسه، مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذي يأمره النبي بقتل أبيه. اي جلاد بين الإيمان والعاطفة والخُلُق أشد من هذا الجلاد! وأية مأساة مأساة نفسية أفتك بصاحبها من هذه المأساة! أفتدري بم أجاب النبي عبد الله بعد أن سمع قوله: «إنّا لا نقتله بل نترفّق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا».

عفو النبي عن ابن أبيّ

يا لروعة العفو وجلاله! محمد يترفّق بهذا الذي يؤلب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه، فيكون رفقه ويكون عفوه أبعد من عقوبته لو أنه أنزلها به. فقد كان عبد الله بن أبيّ بعد ذلك إذا أحدث الحدث يعاتبه قومه ويعنفونه ويشعرونه أن حياته بعض هبات محمد له. وتذاكر النبي مع

القصة المؤلمة التي كان كل من دخل في حديثها يحدث بعضهم ما لم يحدث صاحبه، قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كان غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي ﷺ. قالت: وكانت النساء إذ ذاك يأكلن العلق ـ قليل الطعام ـ لم يهجهن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رُحِلَ لي بعيري جلست في هودجي... فيرفعونه ويضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحبال، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به. قالت:

عمر يوماً شؤون المسلمين وجاء ذكر ابن أبى وما يعاتبه قومه وما يعنفونه؛ فقال محمد: كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

عائشة مع النبي في بني المصطلق

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ومعهم ما معهم من السَّبي والغنائم. على أن أمراً حدث لم يترك بادئ الرأي أثراً، كان له بعد ذلك حديث طويل. ذلك أن النبي كان إذا غزا أقرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه. وخرج سهم عائشة غزوة بني المصطلق فخرج بها. وكانت عائشة نحيفة خفيفة، فكانوا إذا جاؤوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه فأخذ الرجال به فشدّوه إلى البعير وهم لا يكادون يشعرون بها لخفّة زنتها. ولما فرغ النبي من سفره وسار ومن معه مسيرتهم الطويلة المضنية التي ذكرنا، اتجه بعد ذلك إلى المدينة، حتى إذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات به بعض الليل ثم أذّن في الناس بالرحيل وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبي لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمة في انتظار دخولها فيه. وكان لعائشة عقد انسل من عنقها وهي بعض حاجتها، فلما قامت عائدة إلى الرحيل التمست العقد فلم تجده فرجعت أدراجها تبحث عنه. ولعلها بحثت عنه طويلاً حتى وجدته. ولعلها أغفت أثناء ذلك لفرط ما نالها من التعب بعد مسيرتهم المجهدة. ورجعت إلى المعسكر لتستقلَّ هودجها، فإذا القوم قد شدّوه إلى ظهر البعير وهم يحسبونها فيه، وارتحلوا وهم يحسبون أنهم حملوا معهم أشد أمهات المؤمنين حظوة عند النبي. ولم تجد هي في المعسكر داعياً ولا مجيباً. فلم يساورها الخوف وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها، فخيّر لها أن تبقى مكانها من أن تضرب في الصحراء على غير هدى فتضلّ السبيل. ولم يساورها الخوف فالتفّت في جلبابها واضطجعت مكانها منتظرة دعوة الباحث عنها. وإنها لفي ضجعتها إذ مر بها صفوان بن المعطل السلمي، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته وكان يراها قبل أن يضرب الحجاب على نساء النبي، فلما بصر بها على هذه الحال تراجع دهشاً وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعينة رسول الله ﷺ! ما خلفك رحمك الله؟ فلم تجبه فقرّب هو لها البعير واستأخر عنه وقال: اركبي، فركبت، وانطلق بالبعير سريعاً يطلب الناس فلم يدركهم، أن كانوا

فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفار ـ خرز اليمن ـ فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه ألتمسه في عنقي فلم أجده وقد أخذ الناس في الرحيل... حتى وجدته... فأخذوا الهودج وهم يظنون أني

يعجلون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذي أمر به رسول الله إطفاءً للفتنة التي كادت تقوم بسبب حديث ابن أبي. ودخل صفوان المدينة في وضح النهار بأعين الناس وعائشة على ظهر بعيره. حتى إذا كانت عند منزلها بين منازل نسوة الرسول دلفت إليه. ولا يجول بخاطر أحد أن يحدث في أمرها قولاً أو يثير حول تأخرها عن الركب شبهة، ولا يدور بخاطر الرسول ظِنَّة سوء في ابنة أبي بكر أو في صفوان المؤمن الحسن الإيمان.

وما كان لحديث أن يدور، وها هي ذي تدخل المدينة بأعين الناس في أعقاب العسكر الذين جاؤوا لم يمض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظِنَّة أو يبعث إلى نفس ريبة؛ وها هي تدخل بأعين الناس صافية الجبين مشرقة الوجه، ليس في شيء من مظهرها ما يريب. فلتجر إذاً شؤون المدينة كما هي وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسبايا مما أسروا من بني المصطلق، ولينعموا بهذه الحياة الرخية التي تزداد على الأيام رخاء كلما زادهم إيمانهم على عدوّهم عزاً، وكلما أظفرتهم به عزيمتهم الصادقة واستهانتهم بالموت في سبيل الله وفي سبيل دينه وفي سبيل حرية العقيدة، حرية كان العرب من قبل يأبونها عليهم.

جويرية بنت الحارث

وكانت جويرية بنت الحارث من سبايا بني المصطلق، وكانت امرأة حلوة مُلاحة وقد وقعت في سهم أحد الأنصار، فأرادت أن تفتدي نفسها منه، فأغلى الفداء علماً منه بأنها ابنة زعيم بني المصطلق، وأن أباها على أداء ما طلب قدير. وخشيت جويرية أثر شططه، فذهبت إلى النبي وكان في دار عائشة فقالت: «أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في سهم فلان فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي». قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: أقضي كتابك وأتزوجك. فلما بلغ الناس الخبر أطلقوا من بأيديهم من أسرى بني المصطلق إكراماً لصهر رسول الله إياهم، حتى لكانت عائشة تقول عن جويرية: ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركةً منها.

هذه رواية، وتجري رواية أخرى بأن الحارث بن أبي ضرار جاء إلى النبي بفداء ابنته، وأنه أسلم بعد أن آمن برسالة النبيّ، وأنه أخذ ابنته جويرية فأسلمت كما أسلم أبوها فخطبها محمد إليه فزوّجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وفي رواية ثالثة: أن أباها لم يكن راغباً في هذا الزواج، بل لم يكن راضياً عنه، وأن أحد أقارب جويرية هو الذي زوّجها من النبي على غير إرادة أبيها.

فيه... ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع الناس إلي.

... إذ مر «صفوان بن المعطل السلمي»... فرأى سوادي فأقبل حتى وقف علي، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون!! ظعينة رسول الله ﷺ ما خلفك؟! فما كلمته... قال اركبي، واستأخر عني،

تزوّج محمد من جويرية، وبنى لها منزلاً إلى جانب منازل نسائه في جوار المسجد، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين. وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدؤوا يتهامسون: ما بال عائشة قد تأخرت عن المعسكر وجاءت مع صفوان على بعيره، وصفوان شاب وسيم الطلعة مكتمل فتوّة الشباب؟! وكانت لزينب بنت جحش أخت تدعى حمنة، وكانت تعلم ما لعائشة عند محمد من حظوة تقدمها على أختها فجعلت حمنة هذه تذيع ما يهمس به الناس من أمر عائشة، وكانت تجد من حسان بن ثابت عوناً، ومن علي بن أبي طالب سميعاً. فأما عبد الله بن أبي فوجد في هذا الحديث مرعى خصيباً لشفاء ما في نفسه من غل وجعل يذيعه جهد طاقته. ولكن جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة، وقد كانت مضرب المثل في الطهر وسموّ النفس وكاد الحديث يؤدي إلى فتنة في المدينة.

حيرة النبي

وبلغت هذه الأخبار محمداً فاضطرب لها. ماذا؟! عائشة هذه تخونه! هذا مستحيل. إنها الأنفة والإباء، وإن لها من حبه إياها وشدّة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن كهذا إثماً دونه كل إثم. نعم! ولكن أفّ للنساء! من ذا يستطيع أن يَسْبُرَ غورهنّ أو يصل إلى قرارة ما في نفوسهن! وعائشة بعد طفلة يافعة! وأي شيء هذا العِقْد الذي فقدته فذهبت تلتمسه جوف الليل؟ وما بالها لم تحدث له وهم ما يزالون في المعسكر من أمره ذكراً؟ وتقلب النبي على أشواك الحيرة، ما يدري أيصدّق أم يكذّب.

مرض عائشة وأذى الرسول من حديث الناس

أما عائشة فلم يجرؤ أحد على أن يبلّغها من كل هذا الذي يقول الناس شيئاً، وإن أنكرت من زوجها جفاء لم تعرفه منه ولم يتفق في شيء مع لطفه بها وحبه إياها. ثم إنها مرضت من بعد ذلك مرضاً شديداً، فكان إذا دخل عليها وأمها تمرضها لم يزد على قوله: «كيف تيكم؟». ووجدت عائشة في نفسها لما رأت من جفاء النبي إياها، وجعلت تحدّث نفسها: ألا تكون جويرية قد حلّت من قلبه محلها! وبلغ من ضيق ذرعها بجفاء محمد إياها إن قالت له يوماً: لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني! وانتقلت إلى أمها وفي نفسها من الدهشة لهذا التفريط في أمرها ما آذاها وآلمها. وظلت في مرضها بضعة وعشرين يوماً حتى نقهت، وهي لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئاً. أما محمد فقد بلغ من تأذّيه بترامي هذه الأخبار إليه أن قام يوماً في الناس يخطبهم فقال: «أيها الناس! ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عني غير الحق! والله ما علمت منهم إلا خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما

فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، وارتج العسكر ووالله ما أعلم بشيء من ذلك[28].

هكذا وصفت رضي الله عنها الحادث ووصفه صفوان أيضاً، فكان كافياً لأهلها ولأصدقائها، لكن «عبد الله بن أبي» سخر من هذا الوصف وراح المنافقون أمثاله يرددون صدى هذه السخرية لكي يجعلوا الناس تنقسم حول هذا الموضوع ولكي يعم الشك فيه، لذلك أغلقت «عائشة» رضي الله عنها على نفسها الباب رافضة كل طعام يقدم لها وهي تبكي الليل والنهار تعبيراً عن مرارة نفسها.

فاختلط على الرسول ﷺ الأمر فطلب مشورة «علي» رضي الله عنه الذي استخف بالأمر معتبراً أن كل هذا يمكن معالجته بصفقة واحدة، بطلاقها؟؟! فلم يقبل الرسول ﷺ بهذا الاقتراح، لكنه ظل لشهر لا يدخل على «عائشة» رضي الله عنها رغم

يدخل بيتاً من بيوتي إلا معي». فقام أُسيد بن حُضير فقال: يا رسول الله، إن يكونوا من إخواننا الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك. فوالله إنهم لأهل أن تُضرب أعناقهم. وردَّ عليه سعد بن عُبادة بأنه إنما تقدم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج، ولو كانوا من الأوس ما قالها. وتشاور الناس وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة الرسول وحسن مداخلته.

الخبر يبلغ عائشة

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشة، حدّثتها به امرأة من المهاجرين. فلما عرفته كاد يغشى عليها من هوله. وانطلقت تبكي لا يحبس دمعها حابس حتى شعرت كأن كبدها تتصدَّع. وذهبت إلى أمها وقد أثقل الهم كاهلها حتى كاد ينوء بها، وقالت لها والعَبْرة تخنقها: يغفر الله لك يا أماه! تحدَّث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! ورأت أمها الهم الذي بها، فحاولت تخفيف أثره في نفسها فقالت: أي بنية، خفّفي عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثُر الناس عليها. ولكن عائشة لم تتعزَّ بهذا القول، وزادها ألماً أن ذكرت جفاء النبي إياها بعد الذي كان من لطفه بها، وأن شعرت بأنه قد وقع في نفسه من هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبة. لكن ماذا عساها تستطيع أن تفعل؟! أتفاتحه في القول وتذكر له الخبر وتقسم له أنها بريئة؟! هي إذاً تتهم نفسها ثم تدفع التهمة بالإيمان والتوسلات. أفتعرض عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها؟ لكنه رسول الله هو قد اصطفاها على نسائه، وليس من ذنبه أن تحدث الناس عنها بسبب تأخرها عن العسكر وعودها مع صفوان. ربّاه؟ ألهمها في هذا الموقف الدقيق مخرجاً يتضح لمحمد معه الحق في أمرها ليعود إلى مثل ما كان حبّها والعطف عليها واللطف بها.

حبه لها، وخلال حزنه الطويل هذا ظهر له الوحي فنزلت سورة النور:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ * لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [سورة النور: 11 ـ 12].

وقال تعالى: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [سورة النور: 15].

هكذا تأكدت براءة «عائشة» رضي الله عنها البريئة البهية، وجُلِدَ مروجو الشائعة

محمد يشاور اسامة وعلياً

ولم يكن محمد خيراً منها مكاناً؛ فقد آذاه ما يتحدّث به الناس، حتى اضطر آخر الأمر إلى ان يتشاور مع خلصائه ماذا يصنع. فذهب إلى بيت أبي بكر ودعا إليه علياً واسامة بن زيد فاستشارهما، فاما أسامة فنفي كل ما نُسب إلى عائشة على انه الكذب والباطل، وأن الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبي إلا خيراً. وأما عليّ فقال: يا رسول الله، إن النساء لكثير. ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدقه. ودُعيت الجارية وقام لها عليّ فضربها ضرباً موجعاً وهو يقول: أصدقي رسول الله، والجارية تقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وتنفي عن عائشة قالة السوء. اخيراً لم يبق امام محمد إلا أن يواجه زوجه وأن يطلب إليها أن تعترف. ودخل عليها وعندها أبواها وامرأة من الانصار، وهي تبكي والمرأة تبكي معها. وقد هوى الأسى بنفسها إلى أعمق قرارات الحزن من هول ما ترى من ريبة محمد بها. من ريبة هذا الرجل الذي تحب وتقدّس؛ والذي به تؤمن وفيه تفنى. فلما رأته كفكفت دمعها وسمعت إليه وهو يقول: «يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقي الله إن كنت قد قارفت سوءاً مما يقولون، فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده». فما إن أتم حديثه حتى ثار في عروقها دمها، وجفّ من عينيها دمعها، وتلفّتت إلى ناحية أمها وإلى ناحية أبيها تنظر بما يجيبان. لكنهما سكتا فلم يَنْبِسا بكلمة. فازدادت ثورة نفسها وصاحت بهما: ألا تجيبان؟! وقالا: والله ما ندري بما نجيب. وعادا إلى وجومهما. وهنالك لم تملك نفسها دون النشيج بالبكاء؛ وساعفتها دموعها لتهدئ من الثورة المضطرمة بين ضلوعها تكاد تحرقها. ثم وجهت الكلام إلى النبي وهي تبكي فقالت: والله لا اتوب إلى الله مما ذكرت أبداً! إني لاعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني بريئة لاقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت لا تصدقونني. ثم سكتت هنيهة وعادت تقول: إنما أقول كما قال ابو يوسف: «صَبرٌ جَمِيلٌ والله المُسْتَعَانُ عَلَى ما تَصِفُون».

نزول الوحي ببراءة عائشة

فترة سكوت تلت هذه الثورة لم يعرف حاضروها أطالت أم قصرت. على أن محمداً لم يبرح مجلسه حتى تغشّاه من الوحي ما كان يتغشاه، فسجّي بثوبه ووُضعت وسادة من أدم

ورغم أن «عبد الله بن أبي» لم ينل ما يستحقه من الجلد لأن أتباعه تلقوه عنه حين دفعوا التهم عنه، وعاد إلى «حسان بن ثابت» رشده بقصيدة نقض فيها قصيدته السابقة، أما «حمنة» فقد شفع لها كونها امرأة، وقد اقتنع «علي» رضي الله عنه ببراءة «عائشة» رضي الله عنها من القرآن فقط، لذلك لم تنسَ ولم تغفر له أنه قد شك بها، وقد امتد هذا إلى مواقف كثيرة لها رضي الله عنها منه رضي الله عنه في أحداث مهمة ذات تأثير لاحق بحياته رضي الله عنه.

تحت رأسه. قالت عائشة: أما أنا فوالله ما فزعت ولا باليت حين رأيت من ذلك ما رأيت، فقد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي. وأما أبواي فما سُرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن نفساهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس. فلما سُري عن محمد جلس يتصبب عرقاً، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول: أبشري يا عائشة! قد أنزل الله براءتك. قالت عائشة: الحمد لله! وخرج محمد إلى المسجد فالقى على المسلمين هذه الآيات التي نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: 11 ـ 12]. إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي هذه المناسبة كذلك نزلت عقوبة رمي المحصنات: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 4].

وتنفيذاً لحكم القرآن امر بمسطح بن اثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن افصح بالفاحشة، فضرب كل منهم ثمانين جلدة. وعادت عائشة إلى مثل مكانها الاول من بيت محمد ومن قلبه.

يقول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته: «إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في إدحاض اية شبهة اثيرت حولها».

وقد استطاع حسان بن ثابت من بعد أن يعود إلى رضا محمد وعطفه عليه، كما طلب محمد إلى أبي بكر ألا يحرم مسطحاً عطفه الذي عوده إياه. ومن ثم انقضى هذا الحادث ولم يبق له في المدينة كلها اثر. واسرع النقه إلى عائشة وعادت إلى دارها من مساكن الرسول، وإلى مكانتها من قلبه، وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعاً. وبذلك فرغ النبي إلى رسالته وإلى سياسة المسلمين استعداداً لعهد الحُدَيبية يفتح الله به على المسلمين فتحاً مبيناً.

الباب الثالث والعشرون

الفصل الأول

غزوة الخندق

دفع القلق بزعيم قريش «أبي سفيان» إلى عقد عدة أحلاف مع قبائل الصحراء وخاصة «غطفان»، خلال سنوات الهدنة التي أعقبت معركة «أحد»، كذلك حالف بني «النضير» من اليهود الذين طردهم الرسول من المدينة، ومع انتهاء الهدنة سار مع هذه الأحلاف نحو المدينة، فكانت قوتهم المجتمعة كبيرة تقدر بعشرة آلاف محارب.

ونقول نحن:

إن اختلاف الرأي في تفسير الحوادث التاريخية بعد حصولها، لا يمكنه أن يكون وحده المنهج الفصل في كشف الحقيقة، فقد ذهب «إيرفينغ» بعيداً في تفسيراته التي ربط فيها بين مرض الرسول ﷺ الذي عزاه بعض المؤرخين إلى سحر اليهود له ﷺ وبين القضاء على بني «قريظة» باعتباره أن تنفيذ حكم «سعد بن معاذ» رضي الله عنه كان قاسياً، دون أن يشير إلى ما كان يمكن للأحزاب أن تفعله فيما لو نجح تحالفهم مع اليهود، ولدينا في التاريخ الحديث ـ كي لا نذهب بعيداً ـ أمثلة على ما فعلته تحالفات العرب مع اليهود بدءاً من مذبحة «دير ياسين» و«اللد والرملة» وانتهاء «بصبرا وشاتيلا» في لبنان أيام حربه الأهلية ثم مذبحة قانا، لذلك يمكننا القول مع «هيكل» أن دم بني قريظة في عنق ساستها أمثال «ابن أخطب» ونضيف كذلك في عنق ساسة العرب المتحالفين معها، وقد يكون دم بني إسرائيل القادم في عنق علاقة مشابهة إذا لم يكف اليهود عن علاقة الدم مع العرب والمسلمين. فلنر ما قاله «هيكل» حول هذا الشأن الهام الذي رسم تحديد علاقة إسرائيل معنا منذ ألف وخمسمئة سنة.

قال هيكل:

الغريزة العربية وحذر محمد

آن للمسلمين بعد إجلائهم بني النضير عن المدينة، وبعد بدر الآخرة، وبعد غزوتي غطفان ودومة الجندل، أن يركنوا إلى شيء من الطمانينة إلى الحياة بالمدينة. وذهبوا ينظمون عيشهم، وكان من بعد أقل شظفاً بما غنموا في غزواتهم هذه، وإن كانت قد صرفتهم في كثير عن الزرع

ووصلت أخبار تحركهم للرسول ﷺ الذي جعلته نكسة أحد حذراً من مثل هذا العدد بمعركة مكشوفة، خاصة وأنه ﷺ كان يخشى من أن يكون لهم حلفاء سريون في المدينة من المنافقين واليهود فيها ممن لا يثق بهم، فقوة «عبد الله بن أبيّ» كانت كبيرة ومخيفة.

لذلك وضعت الاستعدادات لمجابهة العدو في المدينة والدفاع عنها، وقد نصح «سلمان الفارسي» بحفر خندق أمام الأسوار من الجهة التي يتوقع هجوم العدو منها، وهذه طريقة في الدفاع غير معهودة عند العرب، تبناها المسلمون بحماس إلى حد مشاركة الرسول ﷺ شخصياً بالحفر، وقد عزا الكثير من المؤرخين المسلمين للرسول ﷺ الكثير من المعجزات أثناء ذلك، فقد أطعم في إحدى المرات عدداً كبيراً من المشاركين تمراً من سلة واحدة، وظلت مليئة بعد أن شبع الجميع، وفي مرة أخرى أولم لألف رجل خروفاً واحداً ورغيف خبز واحد، وبقي منهما الكثير، كذلك يذكرون تلك الضربة التي أطاحت بصخرة كبيرة من يده الشريفة مرة واحدة، مطلقة شرراً أضاء بكل اتجاه سيصله هذا الدين.

والتجارة. وكان محمد على طمأنينته حذراً دائماً من العدوّ، باثّاً دائماً عيونه وأرصاده في أنحاء شبه الجزيرة ينقلبون إليه من أخبار العرب وما يأتمرون به ما يمهد له دائماً فرصة الأهبة لدفاع المسلمين عن أنفسهم. ومن اليسير عليك أن تقدر ضرورة الحذر والحيطة بعد كل الذي رأيت من غَدَرات قريش وغير قريش بالمسلمين، ومن أن بلاد العرب كلها كانت في ذلك الحين، وكانت من بعد ذلك في أكثر أطوار تاريخها، أشبه بمجموعة جمهوريات مستقلة كل واحدة منها عن سائرها، تتخذ كل واحدة منها نظاماً هو أقرب ما يكون إلى نظام القبائل، وتضطر لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألَفها تصورنا في الأمم المنظمة. وكان محمد أشدّ ما يكون حذراً أن كان عربيّاً بقدر ما ركِّب في الغريزة العربية من الحرص على الثأر. وقد كانت قريش وكان يهود بني قَيْنُقَاع ويهود بني النضير وعرب غَطَفان وهذَيْل والقبائل المتاخمة للشام، تتربص كل واحدة منها بمحمد وأصحابه الدوائر، وتودّ كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لإدراك ثارها من هذا الرجل الذي فرق العرب في دينها شِيَعاً، والذي خرج من مكة مهاجراً لا حول له ولا قوّة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من الإيمان، وها هو ذا في خمس سنوات قد أصبح له من الحول ومن القوة ما جعله مرهوب الجانب من أشدّ مدائن العرب ومن أشدّ قبائلها حولاً وقوّة.

شدة خصومة اليهود

ولقد كان اليهود أبصر خصوم محمد بتعاليمه وبمصير دعوته، وكانوا أكثرهم تقديراً لما يصيبهم بانتصاره. فهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد، وكانوا ينافسون المسيحيين في سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم. ولعلهم كانوا على حق أن كانت الساميّة أميل بطبعها إلى فكرة التوحيد، على حين كان التثليث لمسيحيٍّ مما لا يسهل على هذه النفس الحاميّة

وما كاد المسلمون ينتهون من حفر الخندق حتى ظهر العدو بقوته الهائلة على التلال المجاورة، فترك ﷺ «ابن أم مكتوم» على المدينة ليراقب المنافقين فيها، وانطلق الرسول ﷺ بثلاثة آلاف على خط الدفاع هذا والخندق أمامهم، في الوقت الذي تقدم فيه «أبو سفيان» بكل ثقة بقواته المشتركة ـ الأحزاب ـ من قريش وغطفان ليفاجأ بالخندق غير المتوقع أمامه وبالنار التي يقذفها المسلمون على قواته من وراء الخندق، فتوقفت قواته لتخيم بالوادي وهي القوات القريشية، ووراءها على التلال قوات «غطفان»، وظل الجميع في مواقعهم لعدة أيام يتبادلون النبال والحجارة المتطايرة.

وفي هذه الأثناء وصلت للرسول ﷺ أخبار عن بني «قريظة» اليهود الذين بينه وبينهم حلف، أنهم قد اتفقوا مع العدو وهم معتصمون بحصنهم قرب المدينة، مما شكل صعوبة بالنسبة له ﷺ في سلامة خط خندقه الدفاعي الذي يصد به الهجوم القريشي، وكذلك لتأمين المدينة من المنافقين فيها مع أعوانهم من اليهود، لذلك أمر ﷺ بمجلس حرب ناقش فيه إمكان تحييد «غطفان» بإعطائهم ثلث محصول تمر المدينة، فقام «سعد بن معاذ» وقال: أهو أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟

مساغه. وهذا محمد من صميم العرب ومن صميم الساميين، يدعو إلى التوحيد بعبارات قويّة نفاذة تأخذ بمجامع الفؤاد، وتصل إلى أعماق القلب، وتسمو بالإنسان إلى ما فوق نفسه. وها هو ذا قد بلغ من القوّة حتى أخرج بني قينُقاع من المدينة، وحتى أجلى بني النُّضير عن ديارهم؟ فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشام وإلى وطنهم الأوّل بيت المقدس في أرض المَعَاد(*)، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه؟

رسل اليهود إلى قريش

كانت فكرة تأليب العرب هي الفكرة التي اختمرت في نفوس أكابر بني النُّضِير. وتنفيذاً لها خرج نفر منهم، ومن بينهم حُيَيُّ بن أَخْطَب وَسَلاَّم بن أبي الحُقَيْق وكنانة بن أبي الحُقيق، ومعهم نفر من بني وائل هَوْذَةُ بن قَيْس وأبو عَمَّار، حتى قدِموا على قريش مكة. فسأل أهلها حُيَيّاً عن قومه، فقال: تركتهم بين خَيْبَر والمدينة يتردَّدون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه. وسألوه عن قُرَيْظَة، فقال: أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد، حتى تأتوهم فيميلوا معكم. وتردَّدت قريش أتُقدِم أم تُحجِم؛ فليس بينها وبين محمد خلافٌ إلا على الدعوة التي يدعو إلى الله. أليس من الممكن أن يكون على حقّ ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموّاً؟! وقالت قريش لليهود: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن

(*) هذا كلا م غريب من هيكل؟!

قال: بل شيء أصنعه لكم. . . فقال سعد: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا، مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال النبي ﷺ: أنت وذاك، فتناول «سعد بن معاذ» الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا[29].

وأكد سعد موقفه الشجاع هذا عندما عبرت فرسان «عكرمة بن أبي جهل» و«عمرو» عم خديجة زوجة الرسول ﷺ الأولى من نقطة ضعف في الخندق، يلحقهم بعض أتباعهم من المشاة ليتحدوا أبطال خصومهم تمهيداً لمعركة، فكان «سعد» أول من قبل التحدي هو و«علي» رضي الله عنهما مع بعض رفاقهم، وبدأ «علي» رضي الله عنه المبارزة مع عكرمة على ظهور الخيل، ثم راجلان، ثم بالأيدي والقبضات مثيران النقع حولهما، إلى أن تمكن «علي» رضي الله عنه من خصمه ففر هارباً، وأعقب ذلك وقوع

ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟! قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وإلى ذلك يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾. [النساء: 51 ـ 52].

وفي موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنيّتهم على توحيد محمد يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب): «كان من واجب هؤلاء الاّ يتورّطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألاّ يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلاميّ ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم؛ لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدّة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نُكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتّى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين. هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبّاد الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام وبالوقوف منهم موقف الخصومة».

اليهود يؤلبون سائر العرب

لم يكفِ حُييّ بن أخطب واليهود الذين معه هذا الذي قالوا لقريش في تفضيل وثنيّتها على توحيد محمد حتى تنشط لمحاربته، وأن يأخذوا وإياهم لذلك بعد أشهر موعداً، بل خرج أولئك اليهود إلى غطفان من قيس عيلان، ومن بني مرة، ومن بني فزارة، ومن أشجع، ومن

صرعى من الجانبين، فأصيب «سعد» رضي الله عنه بعدة جروح، وانتهت المعركة بانسحاب القريشيين وهم يقفزون بخيولهم عائدين عبر الخندق، وأثناء ذلك عثر حصان «نوفل بن عبد الله القرشي» به وسقط في الخندق فهاجمه المسلمون بالنبال من حافته لكنه تحداهم بالمبارزة، فقفز «علي» رضي الله عنه فوراً إلى داخل الخندق ليسقط «نوفل» صريعاً بسيفه بعد مبارزة قصيرة، بعدها عاد رضي الله عنه ليشارك قواته بملاحقة فلول خصومه المنهزمة، وسميت هذه الوقعة بمعركة الخندق.

سُليم ومن بني سعد، ومن أسد، ومن كل من لهم عند المسلمين ثار، وما زالوا بهم يحرضونهم على الأخذ بثارهم ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد ويحمدون لهم وثنيَّتهم، ويعدونهم النصر لا محالة. وخرجت الأحزاب التي جمع اليهود لحرب محمد وأصحابه: خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان في أربعة آلاف مجند وثلثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتط بعيره. وعقد اللواء في دار الندوة لعثمان بن طلحة الذي قُتل أبوه وهو يحمل لواء قريش في أحد. وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها عيينة بن حصن بن حذيفة في رجال كثيرين وألف بعير. أما أشجع ومرة فجاء كل منهما في أربعمائة محارب، يتزعَّم الحارث بن عوف مرة، ويتزعَّم مسعر بن رُخيلة أشجع. وجاءت سليم أصحاب بئر معونة في سبعمائة رجل. واجتمع هؤلاء وانحاز إليهم بنو سعد وأسد، فصاروا في عشرة آلاف رجل أو نحوها، وساروا جميعاً تحت إمرة أبي سفيان قاصدين المدينة. فلما بلغوها تداول زعماء هذه القبائل الزعامة أثناء الحرب كل يوماً على التوالي.

فزع المسلمين وحفر الخندق حول المدينة

واتصل نبأ هذا السير بمحمد والمسلمين معه في المدينة ففزعوا. ها هي ذي العرب كلها قد أجمعت أمرها لتسحقنَّهم ولتقضين عليهم ولتستأصلنَّهم. وها هي ذي قد جاءت في عدة وعديد ما لها في حروب العرب جميعاً من قبل مثل. وإذا كانت قريش قد انتصرت في أحد عليهم لما خرجوا من المدينة وكانت دون هذه الأحزاب بمراحل في العدد والعدة، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلَّفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة؟ لم يكن

الفصل الثاني

الثأر من بني قريظة

ومع هذا لم يغامر الرسول ﷺ بمعركة مكشوفة مع العدو، فلم يكن بينهم قتال إلا مع فوارس من قريش، ولهذا أرسل الرسول ﷺ الصحابي «نعيم بن مسعود» رضي الله عنه الذي كان قد دخل حديثاً في الإسلام دون معرفة قومه إلى «غطفان» في معسكر «الأحزاب» ليرى ماذا يقررون، ماراً على «بني قريظة» الذين كان بينه وبينهم ود سابق ليلومهم على تورطهم بالتحيز لأحد بطون قريش ضد الآخر، مؤكداً لهم أنهم لن يفيدوا من هذا، لأن الأحزاب إذا هزمت لن تخسر سوى الانسحاب إلى «مكة» وحلفاؤه إلى

سبيل إلى غير التحصن بيثرب العذراء، على ما وصفها عبد الله بن أبيّ. ولكن أيكفي هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة؟ وكان سلمان الفارسي يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفاً في بلاد العرب، فأشار بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها. وسارع المسلمون إلى تنفيذ نصيحته، فحفر الخندق وعمل فيه النبي عليه السلام بيديه، فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين بذلك أعظم التشجيع، ويدعوهم إلى مضاعفة الجهد. وأخذ المسلمون آلات الحفر، من مساح وكرازين من قُريظة: اليهود الذين بقوا على ولائهم. وبهذا الدأب والجهد المتصل تمَّ حفر الخندق في ستة أيام. وفي هذه الأثناء كذلك حُصّنت جدران المنازل التي تواجه العدو والتي بينها وبين الخندق نحو فرسخين. وعند ذلك أخليت المساكن التي ظلت فيما وراء الخندق، وجيء بالنساء والأطفال إلى هذه المنازل التي حُصّنت ووُضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحاً يرمى به عند الحاجة إليه.

وأقبلت قريش وأحزابها وهي ترجو أن تلقى محمداً بأحد، فلم تجد عنده أحداً. فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق، فعجبت أن لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول لها. وبلغ منها الغيظ حتى زعمت أن الاحتماء وراءه جبن لا عهد للعرب به. وعسكرت قريش ومن تابعها بمجتمع الأسيال من رُومة، وعسكرت غطفان ومن اتبعها من اهل نجد بذَنَب نَقَمَى. أما محمد فخرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى هضبة سلع، وجعل الخندق بينه وبين أعدائه، وهناك ضرب عسكره ونُصبت له خيمته الحمراء. ورأت قريش والعرب معها أن لا سبيل إلى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل الترامي بالنبال عدّة أيام متتابعة.

وأيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلاً دون أن يستطيعوا

الصحراء، أما هم فسيتركون ليثأر منهم المسلمون، فلكي لا يفعلوا ذلك من الحكمة أخذ رهائن منهم لكي لا ينسحبوا قبل أن يدمروا قوة «محمد» ﷺ؟!

وبعد أن أوصل هذه الرسالة اتجه نحو «غطفان» و«قريش» ليحذرهم من مكر يهود بني قريظة وأنهم سيطلبون منهم رهائن للتحالف معهم، بينما هم فعلاً سيسلمون هؤلاء الرهائن إلى محمد ﷺ؟!

وهكذا أوقع عدم الثقة بين الأحزاب وبينهم، فأثر هذا على سير الأحداث، إذ أرسل «أبو سفيان» إلى بني قريظة يوم «الجمعة» طالباً منهم المشاركة معه بالمعركة الحاسمة في اليوم التالي، فأجابه اليهود أنه السبت ولا يقاتلون فيه، وأعلنوا أنهم لن يشاركوا بأي عمل عدائي ضد «محمد ﷺ» ما لم يرسل الأحزاب لهم رهائن تبقى عندهم إلى أن ينتهي القتال.

فأقنع هذا الرد «قريش وغطفان» بخيانة بني قريظة لهم، وأحبط همتهم بالمغامرة بمعركة حاسمة خوفاً من أن تقع قريظة عليهم من الخلف، وبينما هم كذلك هبت عليهم

اقتحامها. وكان الوقت آنئذ شتاءً قارساً برده، عاصفة رياحه، يُخشى في كل وقت مطره. وإذا كان من اليسير أن يحتمي أهل مكة وأهل غطفان من ذلك كله بمنازلهم في مكة وفي غطفان، فالخيام التي ضربوا أمام يثرب لا تحميهم منه فتيلاً. وهم بعد قد جاؤوا يرتجون نصراً ميسوراً لا يكلفهم غير يوم كيوم أحد، ثم يعودون أدراجهم يتغنُّون بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب. وماذا عسى أن يمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهي إنما اشتركت في الحرب لأن اليهود وعدتها متى تم النصر، ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وحدائقها، وها هي ذي ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق، وهو يحتاج من المشقة في هذا الفصل القارس إلى ما يُنسيها الثمار والحدائق! فأما انتقام قريش لنفسها من بدر ومما لحقها بعد بدر من هزائم، فأمره مدرك على الأيام ما دام هذا الخندق يحول دون إمساك محمد بالتلابيب، وما دامت، بنو قُريظة تمد أهل يثرب بالمؤونة إمداداً يطيل أمد مقاومتهم شهوراً وشهوراً. أفليس خيراً للأحزاب أن يعودوا أدراجهم؟! نعم! لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر الميسور. وقد استطاع اليهود، وحيي بن أخطب على رأسهم، أن يجمعوها هذه المرة للانتقام لأنفسهم من محمد وأصحابه عما أوقع بهم وببني قينقاع من قبلهم. فإن أفلتت الفرصة فهيهات هيهات أن تعود، وإن انتصر محمد بانسحاب الأحزاب فالويل ثم الويل لليهود.

خوف حيي من انسحاب الأحزاب

قدر حُييّ بن أخطب هذا كله، وخاف مغبته، ورأى أن لا مفر من أن يقامر بآخر سهم

ريح إعصارية باردة محملة بالأمطار مثيرة نقع الصحراء الذي أوقع خيامهم وأطفأ نارهم، فثارت الشائعات بينهم أنها بسبب دعوة الرسول ﷺ عليهم، وسيعقبها هجومه عليهم بقواته، فوقع بينهم الذعر والاضطراب فلم يجد «أبو سفيان» أي فائدة من ضبط الموقف، لذلك ركب جمله وأمر بالانسحاب، وكان انسحاباً عشوائياً من ساحة المعركة البعض نحو مكة من كل صوب، والآخرون نحو مضاربهم في الصحراء مذعورين.

ومن غضب «أبي سفيان» اللامجدي أرسل إلى الرسول ﷺ رسالة يتهمه فيها بالجبن والاحتماء بالخندق الذي لا تعرفه أساليب قتال العرب وفروسيتهم! مهدداً بالثأر في يوم آخر، يلتقون فيه بساحة القتال وجهاً لوجه، كما حصل بأحد التي ظل يحلم بها. وهكذا أدرك الرسول ﷺ أن الوقت يسير معه وسيأخذ المشركين وعبدة الأصنام بالهدنة والسلام في يوم قريب.

وبرحيل الأحزاب توجه الرسول ﷺ للثأر من بني قريظة الذين أغلقوا عليهم

عنده. فأوحى إلى الأحزاب أنه مقنع بني قُريظة بنقض عهد موادعتهم محمداً والمسلمين والانضمام إليهم، وأن قريظة متى فعلت انقطع المدد والميرة عن محمد من ناحية، وفتح الطريق لدخول يثرب من ناحية أخرى. وسُرَّت قريش وغطفان بما ذكر حيي، وسارع هو فذهب يريد كعب بن أسد صاحب عقد بني قريظة. وقد أغلق كعب دونه باب حصنه أول ما عرف مقدمه عليه، مقدّراً أن غدر قريظة بمحمد ونقضها عهده وانضمامها إلى عدوه قد يفيده ويفيد اليهود إذا دارت الدوائر على المسلمين، لكنه جدير بأن يمحوها محواً إذا هُزمت الأحزاب وانصرفت قواتها عن المدينة. غير أن حُيياً ما زال به حتى فتح له باب الحصن ثم قال له: «ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر وببحر طام. جئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه» وتردد كعب وذكر وفاء محمد وصدقه لعهده، وخشي مغبّة ما يدعوه حُييّ إليه. لكن حيياً ما زال به يذكر له ما أصاب اليهود من محمد وما يوشك أن يصيبهم منه إذا لم تنجح الأحزاب في القضاء عليه، ويصف له قوة الأحزاب وعُدتها وعددها، وأنها لم يمنعها غير الخندق أن تقضي في سويعة على المسلمين جميعاً، حتى لان كعب له، فسأله: وماذا يكون إذا ارتدّت الأحزاب؟ هناك أعطاه حُييّ موثقاً إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه في حصنه فيشركه في حظه. وتحركت في نفس كعب يهوديته فقبل ما طلب ونقض عهده مع محمد والمسلمين وخرج من حياده.

رسل محمد إلى قريظة

واتصل نبأ انضمام قريظة إلى الأحزاب بمحمد وأصحابه، فاهتزّوا له وخافوا مغبّته. وبعث محمد سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة بن جُبير ليقفوا على جلية الأمر، على أن يَلْحَنُوا به عند عودتهم إن كان حقاً حتى لا

حصنهم الذي حاصرهم فيه لعدة أيام، ولما نفذت مؤنهم أخيراً، طلبوا من أصحابهم وحماتهم من الأوس التوسط لهم، فطلب هؤلاء بدورهم من الرسول ﷺ معاملتهم معاملته لبني «قينقاع»، فصمت الرسول ﷺ لبرهة ثم ترك أمر مصيرهم لرئيس «الأوس» «سعد بن معاذ» فوافق القريظيون بسرور على ذلك من منطلق صداقته السابقة معهم، فاستسلموا وكانوا سبعمئة فسيقوا مكبلين إلى المدينة. ولسوء حظهم اعتبر «سعد» رضي الله عنه أن تعاونهم مع العدو خرقٌ لميثاقهم مع الرسول ﷺ بعداء لا مبرر له، وكان لا يزال يعاني من جراحه بالمعركة حيث كان يدعو الله أن لا يميته من هذه الجراح قبل أن يثأر من «بني قريظة»، وتلك كانت مشاعره عندما صار أمرهم إليه رضي الله عنه.

فتجالد ليركب على بغلته مدعماً بمخدة جلدية حتى وصل إلى ساحة الحكم، وقبل أن يترجل طلب عهداً من الحاضرين كي يخضعوا لحكمه، فقبل اليهود بإعطائه هذا العهد بكلام معسول، وبمجرد أن استطاع الترجل رفع يده ليعلن حكمه على رجالهم

يفُتّوا في اعضاد الناس. فلما اتى هؤلاء الرسل ألفوا قريظة على اخبث ما بلغهم عنهم. فلما حاولوا ردهم إلى عهدهم طلب كعب إليه أن يردوا إخوانهم يهود بني النضير إلى ديارهم. وأراد سعد بن معاذ، وكان حليف قريظة، أن يقنعها مخافة أن يحل بها ما حلَّ ببني النضير أو ما هو شرّ منه؛ فانطلقت اليهود ووقعوا في محمد عليه السلام: وقال كعب: من رسول الله!! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. وكان الفريقان يتشاتمان.

نفسية الاحزاب تقوى

رجع رسل محمد إليه بما رأوا. هنالك عظم البلاء واشتد الخوف، ورأى أهل المدينة طريق قُريظة وقد فُتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم. ولم يكن ذلك محض خيال ووهم، فهم رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم، ورأوا قريشاً وغطفان، منذ عاد حُيَيّ بن اخطب ينبئهم بانضمام قريظة إليهم، قد تغيُّرت نفسيتهم وأخذو يعدون انفسهم للقتال. وذلك أن قريظة استمهلت الاحزاب عشرة أيام تعد فيها عدتها على أن تقاتل الاحزاب المسلمين في هذه الأيام العشرة أشد القتال. وذلك ما فعلوا. فقد ألفوا ثلاثة كتائب لمحاربة النبيّ؛ فاتت كتيبة ابن الاعور السلميّ من فوق الوادي، واتت كتيبة عيينة بن حصن من الجنب، ونصب له أبو سفيان من قبل الخندق. وفي هذا الموقف نزلت هذه الآيات.

فزع أهل يثرب

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 10 ـ 13].

بالموت ونسائهم وأطفالهم بالسبي، وتقسيم غنائمهم على المقاتلين المسلمين الذين شاركوا بالخندق.

وحين اعترض هؤلاء المنهارون لم يستأنف حكمه، فسيقوا إلى ساحة عامة سميت منذ ذاك اليوم «بسوق قريظة» حيث حفر بها قبر جماعي كبير، لينزلوه واحداً بعد الآخر بدءاً بأميرهم «حُيَ بن أخطب» وتطيح فيه رؤوسهم وبذلك استجيب دعاء «سعد» بالثأر منهم حتى آخر واحد فيهم، وهو يراقب إعدامهم ويشعر بنكئ جرحه ليتوفى بعد ذلك بقليل.

ولأهل يثرب أبلغ العذر إن هم بلغ منهم الفزع وزُلزلت قلوبهم. ولمن قال منهم العذر في أن يقول: كان محمد يعدنا أن ناكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وللذين زاغت أبصارهم العذر في أن تزيغ. وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر في أن تبلغها. أليس هو الموت يرون آتياً بالشرر عينه، مصوّرة في بريق هذه السيوف تلمع في أيدي قريش وفي أيدي غطفان، وتدبُّ إلى القلب مخافته متسللة من منازل بني قريظة الغدرة الخائنين! ألا ويل لليهود! ما كان أجدر محمداً بأن يقضي على بني النَّضير وأن يستاصلهم بدل أن يذرهم يرتحلون موفورين، وأن يذر حُيياً والذين معه يؤلبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم. ألا إنها الطامة الكبرى والفزع الأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وسمت روح الأحزاب المعنوية، حتى دفعت بعض فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد وُدّ، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، أن يقتحموا الخندق، فتيمموا مكاناً منه ضيقاً فضربوا خيلهم فاجتازته فجالت بهم في السبخة بين الخندق، وسلع. وخرج عليّ بن أبي طالب في نفر من المسلمين فأخذوا عليهم الثغرة التي اقتحمت منها خيلهم، وتقدم عمرو بن عبد وُدّ ينادي. مَنْ يبارز؟ ولما دعاه ابن أبي طالب إلى النزال قال في صَلَف: لِمَ يابن أخي! فوالله ما أحبّ أن أقتلك. قال عليٌ: لكني أحب والله أن أقتلك. فتنازلا فقتله عليٌ؛ وفرت خيل الأحزاب منهزمة، حتى اقتحمت الخندق من جديد مولّية الأدبار لا تلوي على شيء. وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعد ما غربت الشمس يريد أن يجتاز الخندق، فهوى هو والفرس فيه فصُرِعا وتحطُما. وأرسل أبو سفيان يعرض دية جثته مائة من الإبل، فرفض النبي عليه السلام وقال: خذوه فإنه خبيثٌ خبيث الدّية.

استهانة قريظة بالمسلمين

وأعظمت الأحزاب نيرانها مبالغة في تخويف المسلمين وإضعافاً لروحهم، وبدأ المتحمسون من قُريظة ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم، يريدون إرهاب أهلها. كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان، فمرَّ بهم يهودي يطيف بالحصن. فقالت صفية مخاطبة حسان: إن هذا اليهودي يطيف يا حسان بالحصن كما ترى، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا

الفصل الثالث

خطبة ريحانة رضي الله عنها[30]

كانت غنائم بني قريظة من قلعتهم كثيرة، وخاصة ما فيها من مخازن السلاح والدروع والمواشي والجمال، حصل كل جندي راجل على سهم منها والفارس على اثنين، والخمس للرسول ﷺ ينفقه كعادته ﷺ على المؤمنين، كذلك حصل ﷺ على «ريحانة» بنت «عمرو» اليهودي الغني ذي النفوذ، والفائقة الجمال بين أقرانها، أخذها سرية لنفسه ﷺ بعد أن أسلمت.

من اليهود، ورسول الله وأصحابه قد شُغِلوا عنا، فانزل إليه فاقتله. قال حسان: يغفر الله لك يا بنة عبد المطلب! والله لقد عرفت ما انا بصاحب هذا. فأخذت صفية عموداً ونزلت من الحصن وضربت به اليهودي حتى قتلته. فلما رجعت قالت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. قال حسان: مالي يا بنة عبد المطلب بسلبه من حاجة!

وظل أهل المدينة في فزعهم وزلزال قلوبهم، على حين جعل محمد يفكر في الوسيلة إلى الخلاص، ولم تكن الوسيلة مواجهة العدو بطبيعة الحال. فلتكن الحيلة إذاً. فبعث إلى غطفان يَعِدها ثلث ثمار المدينة إن هي ارتحلت. وكانت غطفان قد بدأت تملُّ، فأظهرت امتعاضاً من طول هذا الحصار وما لقوا من العنت أثناءه لغير شيء إلا إجابة حييّ بن أخطب واليهود الذين معه. ثم إن نُعيم بن مسعود ذهب بأمر الرسول إلى قريظة، وكانت لا تعرف أنه أسلم، وكان لها نديماً في الجاهلية، فذكرهم بما بينه وبينهم من مودّة، ثم ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على محمد، وقريش وغطفان ربما لا تطيقان المقام طويلاً فترتحلان فتُخليان ما بينهم وبين محمد فينكل بهم، ونصح لهم ألا يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رهُناً بأيديهم حتى لا تتنحّى قريش وغطفان عنهم. واقتنعت قريظة بما قال. ثم ذهب إلى قريش فأسرَّ لهم أن قريظة ندموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد، وأنهم عاملون لاسترضائه وكسب مودّته بأن يقدموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهم. ولذلك نصح لهم إن بعثت إليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا منهم أحداً. وصنع نُعيم مع غطفان ما صنع مع قريش وحذّرهم مثل ما حذرهم. ودبّت الشبهة من كلام نُعيم إلى نفوس قريش وغطفان فتشاور زعمائهم، فأرسل أبو سفيان إلى كعب سيد بني قريظة يقول له: قد يا كعب طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل، وقد رأيت أن تعمدوا إليه في الغد ونحن من ورائكم فعاد رسول أبي سفيان إليه يقول

ورغم ذلك لم يعد يثق الرسول ﷺ بإيمان الرجال من اليهود، وظل ﷺ في حذر من محاولاتهم اغتياله ﷺ، وهذا ما تجلى في كتابات المؤرخين المسلمين الذين أرجعوا سبب مرضه الطويل ﷺ بعد ذلك إلى ما سحره به اليهود، هذا المرض الذي استعصى على كل علاج معروف آن ذاك، فوصفوا لنا التعويذة التي استخدمت ضده ﷺ والتي هيأها له يهودي يقطن الجبال بمساعدة بناته، اللواتي كن ماهرات أيضاً بهذا الفن الشيطاني، حيث نحتوا تمثالاً صغيراً من الشمع يمثل شكل الرسول ﷺ وغرزن بمكان الرأس شعراً مسروقاً من شعره ﷺ المقصوص كما غرزن أيضاً بالتمثال إحدى عشرة إبرة، ثم عقدن خيطاً اثنتي عشرة عقدة، وهن ينفخن بكل عقدة ويحوطن التمثال بها، وبعد أن انتهين ألقين التمثال ببئر ماء:

فوقع الرسول ﷺ بالذهول نتيجة ذلك، إلى أن أخبره «جبريل» بهذا العمل عبر رؤية رآها ﷺ، فلما أفاق أرسل «علياً» رضي الله عنه إلى مكان البئر حيث وجد هذا المشخص، فأحضره للرسول، وتقول الرواية: إن الرسول ﷺ قرأ على هذه العقد السورتين الأخيرتين(*) من القرآن الكريم اللتين وصلتاه بوحي قريب وهما تتألفان من إحدى عشرة آية(**) وتبدأ:

زعيم قريظة: إن غداً السبت، وإنا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت. فغضب أبو سفيان وصدق حديث نعيم، وأعاد الرسول يقول لقريظة: اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت، فإنه لا بد من قتال محمد غداً؛ ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لنبرأن من حلفكم ولنبدأنّ بكم قبل محمد. فلما سمعت قريظة كلام أبي سفيان كررت أنها لا تتعدّى السبت، وقد غضب الله على قوم منهم تعدوه فجعلهم قردةً وخنازير. ثم أشاروا إلى الرهائن حتى يطمئنوا لمصيرهم. فلما سمع ذلك أبو سفيان لم يبق لديه في كلام نعيم ريبة، وبات يفكر ماذا عسى أن يصنع؛ وتحدث إلى غطفان فإذا هي تتردّد في الإقدام على قتال محمد متأثرة بما كان قد بدأها به من وعدها ثلث ثمار المدينة وعداً لم يتم أن اعترضه سعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله.

العاصفة تقتلع خيام الأحزاب

فلما كان الليل عصفت ريح شديدة، وهطل المطر غزيراً، وقصف الرعد، ولمع البرق، واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب إلى نفوسهم، وخُيِّل

(*) قبل الأخيرة سورة الفلق.

(**) المعوذتان معاً إحدى عشرة سورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ السورة.

وبسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ السورة.

إليهم أن المسلمين انتهزوا فرصة ليعبروا إليهم وليوقعوا فيهم. فقام طُليحة بن خُويلد فنادى: إن محمداً قد بدأكم بشرّ فالنجاة النجاة. وقال أبو سفيان: «يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام. لقد هلك الكُرَاع (الإبل) والخف، وأخلفنا بنو قريظة وبلغنا منهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل».

فاستخفّ القوم ما استطاعوا حمله من متاع وانطلقوا وما تزال الريح تعصف بهم، وفرّوا وتبعتهم غطفان والأحزاب. وأصبح الصبح ولم يجد محمداً أحداً، فانصرف راجعاً إلى منازل المدينة والمسلمون معه، يرفعون أكفّ الضراعة إلى الله شكراً أن كشف الضرّ عنهم وأن كفى المؤمنين القتال.

غزوة قريظة

عاد محمد بعد رحيل الأحزاب يفكر في موقفه. لقد أذهب الله عنه عدوّه الذي كان يهدده. لكن اليهود قادرون على أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلاً من السنة غير الشتاءالقارس الذي كان من جند الله في هزيمة عدوّه. ثم إن قريظة لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع في صفوفهم من شقاق وانقسام، كانت على أهبة النزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة على استئصالهم. لا تقطعنّ إذاً ذَنَبَ الأفعى وتتركها. ولا بدّ من القضاء على بني قريظة بما فعلوا. وأمر عليه السلام مؤذناً فأذّن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة؛ وقدّم علياً برايته إليها. ومع ما كان عليه المسلمون من نصب بعد طول حصار قريش وغطفان إياهم، فقد خفّوا لهذا القتال الذي لم يكن لديهم أي شك في نتيجته. صحيح أن بني قريظة يقيمون في حصون محصنة كالتي كانت لبني النَّضير، لكن هذه الحصون إن أغنتهم في الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم في مهاجمة المسلمين. والميرة قد أصبحت في متناول أيدي أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها. لذلك خفّ المسلمون فرحين وراء عليّ، حتى أتوا بني قريظة، فإذا بهم ومعهم حييّ بن أخطب النَّضيري يقعون في محمد بأقبح مقالة، يكذّبونه ويطعنون عليه وينالون من أعراض نسائه. وإنما شعروا بعد انخذال الأحزاب عن المدينة بما هُيئ لهم. ولما جاء الرسول لقيه عليّ وطلب إليه ألاّ يدنو من حصون اليهود. فسأله محمد: ولم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم. قال رسول الله: لو رأوني لما قالوا من ذلك شيئاً. فلما دنا من حصونهم ناداهم: يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته! قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً. وجعل المسلمون بقية نهارهم يتوافدون على بني قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها، فأمرهم محمد بحصارها.

وبترديد هاتين السورتين كانت العقد تحل وتسقط الأبر المخفية فيها، ليبدأ الرسول ﷺ بالتعافي إلى أن تعافى كلية بنهاية السور.

وقد سميت هاتان السورتان بالمعوذتين وهما كافيتان لدرء كل وهم شيطاني وكل سحر وتعويذة، وبهما يظهر مدى ضعف كيد الشيطان في الإسلام وعدم الخوف منه.

ظلّ هذا الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض تراشق بالنبل والحجارة، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام طول مدة الحصار مرة واحدة، فلما جهدوا وأيقنوا أن لن تغني عنهم حصونهم من الهلاك شيئاً، وأنهم لا بد أن يقعوا في قبضة المسلمين وإن طال أمد الحصار، بعثوا إلى الرسول أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا. وكان أبو لبابة من الأوس حلفائهم. فلما رأوا قام إليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء، حتى رقّ لهم. فقالوا له: أترى يا أبا لُبابة أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم - وأشار بيده إلى حلقه - إنه الذبح إن لم يفعلوا. وقد ندم أبو لُبابة على إشارته هذه فيما روت السير. فلما انصرف أبو لبابة عنهم عرض كعب بن أسد أن يتابعوا محمداً على دينه وإن يُسلموا فيامنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم فرفض أصحاب كعب أن يسمعوا هذا الكلام منه وصاحوا به: لا نفارق حكم التوراة، ولا نستبدل به غيره. فعرض عليهم أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه رجلاً مُصلتين السيوف غير تاركين وراءهم ثقلاً حتى يحكم الله بينهم وبين محمد. فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلاً يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء، فرفضوا هذا العرض أيضاً قائلين: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم! قال لهم كعب: لم يبق إذاً إلا أن تنزلوا على حكم محمد وقد سمعتم ما أعدّ لكم. وتشاور القوم بينهم وقال قائل منهم: إنهم لن يكونوا أسوأ من بني النَّضير مصيراً، وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشرّ، وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا إلى أذرعات بالشام لم يجد محمد بأساً من قبول عرضهم.

تحكيم سعد بن معاذ وحكمه بقتل اليهود

وبعثت قريظة إلى محمد تعرض عليه الخروج إلى أذرعات تاركة وراءها ما تملك، فأبى ذلك عليها إلا أن تنزل على الحكم. فأرسلت إلى الأوس تقول لهم ألا تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم! فمشى جماعة من الأوس إلى محمد فقالوا: يا نبي الله، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج؟! قال محمد: يا معشر الأوس، ألا ترضون أن اجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم؟! قالوا: بلى. قال: فقولوا لهم فليختاروا من شاؤوا. فاختار اليهود سعد بن مُعاذ، وكأنما أعماهم القدر عما كتب لهم في لوح حظهم، فأنساهم مقدم سعد إليهم أول نقضهم عهدهم، وتحذيره إياهم، ووقوعهم في محمد أمامه، وسبّهم المسلمين بغير حق. وأخذ سعد المواثيق على الفريقين أن يُسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به. فلما أعطوه المواثيق، أمر بيني قريظة أن ينزلوا وأن يضعوا السلاح، ففعلوا، فحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة، وتقسم الأموال، وتسبى الذرية والنساء. فلما سمع محمد هذا الحكم قال: والذي نفسي بيده لقد رضي بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت. ثم خرج إلى سوق المدينة فأمر فحُفِرَت بها خنادق

وقبل أن تكشف هذه العقد كان الرسول ﷺ متردداً في قراراته الحربية ولم يكن كعادته ثاقب الذهن مصيباً للهدف، ويؤكد هذا، طلبه للسلم عندما كان مهدداً من الخارج والداخل في الخندق، لولا رأي «سعد بن معاذ» رضي الله عنه، كذلك رفضه العفو عن «بني قريظة» بقسوة لا تتلاءم مع دعوته ككل، أخذها عليه المؤرخون الغربيون بتلك المذبحة التي ذبح فيها اليهود بسوق المدينة، رغم أن سلوكه ﷺ ضد هؤلاء كان

ثم جيء باليهود ارسالاً فضربت أعناقهم، وفي هذه الخنادق دفنوا. ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم. بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ما صنع عبد الله بن أبيّ مع بني قينقاع. ولعل سعداً ذكر أن الاحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لما كان امام المسلمين إلا ان يستاصلوا وأن يُقتلوا وأن يمثل بهم. فآذاهم بمثل ما عرّضوا المسلمين له.

وقد اظهر اليهود من الجلد امام القتل ما تراه في حديث حُييّ بن اخطب حين قُدّم لضرب عنقه، فقد نظر إليه النبي وقال: ألم يُخزك الله يا حُيي، فأجاب حُيي: «كل نفس ذائقة الموت، ولي أجل لا أعدوه ولا ألوم نفسي على عداوتك»: ثم التفت إلى الناس فقال: «أيها الناس إنه لا بأس بامر الله، كتابٌ وقدرٌ وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل». ثم إن الزبير بن باطا القُرظيّ كان قد منّ على ثابت بن قيس يوم بُعاث بان خلّى سبيله بعد اسره، فاراد ثابت أن يجزيه، بعد حكم ابن معاذ على اليهود، عن يده، فذكر لرسول الله مِنّة الزبير عليه واستوهبه دمه، وأجاب رسول الله طلبته. فلما عرف الزبير ما فعل ثابت قال له: شيخ كبير مثلي لا أهل له، ولا ولد ماذا يصنع بالحياة؟! فاستوهب ثابت رسول الله دم امراته فوهبه له، ثم استوهبه ماله فوهبه له كذلك. فلما اطمأن الزبير إلى أهله وولده وماله سأله عن كعب بن أسد وعن حُييّ بن أخطب وعن عزّال بن سموءَل وعن زعماء بني قريظة، فلما علم انهم قُتلوا قال: إني اسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما بصابر الله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة. وكذلك ضربت عنقه بمشيئته. وكان المسلمون لا يقتلون في غزواتهم النساء والذّراري، ولكنهم يومئذ قتلوا امرأة طرحت الرّحا على مسلم فقتلته. وكانت عائشة تقول: والله ما انسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل. وأسلم يومئذ من اليهود أربعة فنجوا من القتل.

دم بني قريظة في عنق حيي بن أخطب

وفي رأينا أن دم بني قريظة معلّق في عنق حييّ بن أخطب وإن كان قد قُتل معهم. فهو قد حنث في العهد الذي عاهد قومه من بني النضير حين اجلاهم محمد عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه احداً. وهو بتأليبه قريشاً وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه. وهو الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشرّ شيء. وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن انفسهم بمقاتلتهم، ولو

مختلفاً عن سلوكه مع باقي القبائل والناس، حيث كان يفضل الرحمة واللين، ربما بسبب خياناتهم المتكررة، وتآمرهم المستمر على حياته وعلى دينه، وهي مسألة نراها تتعلق بقضايا أرضية لا سماوية لا بد أن تحكمها نبوة السيف لتعلقها بسياسة رد القسوة والخيانة.
ـ هذا رأي إيرڤينغ طبعاً ـ المترجم ـ

انهم نزلوا على حكم محمد منذ اليوم الاول واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم، لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم. لكن العداوة بلغت من التأصّل في نفس حُيَيّ وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حدّاً جعل سعد بن معاذ نفسه، وهو حليفهم، يؤمن بانهم إن أبقى على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلِّبوا الاحزاب من جديد، وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم. فالحكم الذي أصدره على قسوته إنماأصدره متأثراً بالدفاع عن النفس، معتبراً بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين.

قسمة أموال بني قريظة

وقسم النبي أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس. قسمها بأن كان للفارس سهمان، ولفرسه سهم، وللراجل سهم. وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرساً. ثم بعث سعد بن زيد الانصاريّ بطائفة من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زيادة في قوة المسلمين الحربية.

وكانت ريحانة إحدى سبايا بني قريظة قد وقعت في سهم محمد، فعرض عليها الإسلام فاصرّت على يهوديتها، وعرض عليها أن يتزوجها فقالت: بل تتركني في ملكك فهوأخفّ عليّ وعليك. ولعل حرصها على اليهودية ورفضها الزواج يرجعان إلى عصبيتها لقومها، وما كان باقياً في نفسها من كراهية للمسلمين ولنبيّهم. ولم يتحدث أحد عن جمال ريحانة ما تحدّثوا عن جمال زينب بنت جحش، وإن ذكر بعضهم أنها كانت جميلة وسيمة. وقد اختلفت السير فيها: أضُرِب عليها الحجاب كما ضرب على نساء النبي، أم أنها ظلّت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب. وبقيت ريحانة في ملكه حتى ماتت عنده.

وطّدت غزوة الاحزاب، ووطّد القضاء على بني قريظة، للمسلمين في المدينة، فلم يبق للمنافقين فيها صوت قطّ. وذهبت العرب كلها تتحدث بقوّة المسلمين وسلطانهم، وبمقام محمد وقوّته ورهبة جانبه. ولكن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعالم باسره. فما يزال على النبي وأصحابه إذاً أن يمهّدوا لكلمة الله، وأن يدعوا الناس لدينه الحق، وأن يصدّوا عنه كل معتد عليه. وهذا ما فعلوا.

الباب الرابع والعشرون

الفصل الأول

الإنذار بالغيب

مضت إلى الآن ست سنوات على هجرة الرسول ﷺ من مكة، المدينة المقدسة بنظره وبنظر كل العرب وقبلة حجهم، ولا زالت قريش تسدن الكعبة الشريفة، وتتعصب ضده ﷺ بكل مناسبة مع القبائل الوافدة لها، محاربة انتشار دعوته ﷺ والمهاجرون معه قد أضنتهم غربتهم عنها وكان إيمانهم ودينهم رهن حماتهم في غربتهم.

إضافة إلى صلة مكة المكرمة المهمة بالدين الإسلامي منذ القدم مع «إبراهيم» عليه السلام الدين الذي جاء محمد ﷺ لإعادة الناس إليه، وإصلاحهم في اعتناقه كما كان في نقائه وبساطته الأولى، وباقتراب شهر ذي القعدة دخل شهر الحج حيث الهدنة في الأشهر الحرم، التي تمكن الأعداء من التلاقي مع بعضهم بسلام في حدود مكة المقدسة، وقد جاءه ﷺ رؤية تؤكد له إمكان القدوم إليها بحماية العرف المتبع لزيارة الصرح القديم للعبادة الذي وضعه «إبراهيم» عليه السلام، فتلقى أتباعه ﷺ بابتهاج هذه الرؤية، فانطلق بهم في هذا الشهر الحرام من «المدينة» حاجاً إلى بيت الله وكانوا ألفاً وأربعمئة رجل من المهاجرين وبعضهم من الأنصار، ومعهم سبعون جملاً(*) كأضحية ليضحوها عند البيت العتيق، ولكي يؤكدوا تحركهم السلمي توقف الرسول ﷺ في ذي الحُلَيْفَة وهو وادٍ على مسيرة أيام من المدينة حيث رفع كل السلاح من أيدي أصحابه ما عدا السيوف في أغمادها ثم لبس لباس الإحرام وأحرموا وساروا إلى الحج.

وكانت بعثة من قريش قد زارت مخيمهم للتأكد من مقصدهم ومراقبتهم، ودهش رجال هذه البعثة من ولاء الصحابة له ﷺ: «فهو ﷺ لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروا

(*) هناك خلط في الترجمات الغربية بين كلمة بعير وحلال وهدي، لذلك لم يفرق «إيرڤينغ» بين الهدي والجمال.

وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه[31] كذكرى ثمينة، وحين لمست يد أحد أتباع البعثة لحية الرسول ﷺ قرعت يده أن: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ فعاد إلى قريش ليقول لهم «يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه»[32].

لكن القريشيون لم يكونوا ليسمحوا له ﷺ بدخول مدينتهم بكل هذه السلطة الهائلة على عقول وسلوك أتباعه، رغم كل البعوث التي أرسلها الرسول ﷺ لتؤكد هدفه السلمي من قدومه لزيارة الحرم، وكان صهره ﷺ «عثمان بن عفان» آخر هؤلاء، فتأخر بالعودة عدة أيام فأشيع بأنه رضي الله عنه قد قتل، فغضب الرسول ﷺ وكان جالساً تحت شجرة وحوله أصحابه حين وصول الشائعة، فطلب منهم البيعة ـ البيعة تحت الشجرة ـ بالقتال معه حتى الموت، وأن لا يتخلوا عن راية الإيمان مهما كان الثمن، وهذه البيعة قد عرفت عند المسلمين ببيعة «الرضوان تحت الشجرة»[33].

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذُكِر من أمر «عثمان» باطل، وبعدها وصل «عثمان» رضي الله عنه برفقه «سهيل بن عمرو» سفيراً عن قريش ليكتب معاهدة سلام، مع رجل تزداد قوته بصورة لن يعرفوا نتائجها، مطاع تلك الطاعة النادرة من أتباعه المستعدين لبذل كل شيء له ﷺ.

وكانت هذه المعاهدة لعشر سنوات، يمكن لمحمد وأتباعه دخول مكة كحجاج فقط، ليبقوا بها ثلاثة أيام فقط لممارسة الشعائر، فقُبِلَت هذه الشروط مباشرة، وطلب الرسول ﷺ من «علي» رضي الله عنه كتابة ميثاق المعاهدة التي أملى عليه عباراتها قائلاً: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم قال: فقال «سهيل»: لا أعرف هذا، ولكن أكتب باسمك اللهم. قال: فقال رسول الله ﷺ: أكتب باسمك اللهم. فكتبها. ثم قال اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك. قال: فقال: رسول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبةً مكفوفة ـ سر مطوي ـ وأنه لا إسلال ـ سرقة بالسر ـ ولا إغلال ـ خيانة ـ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل

في عقد قريش وعهدهم دخل فيه[34].

وأضاف «سهيل» إنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب: السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

وهكذا تحققت الرؤية التي رآها الرسول ﷺ بإمكان القدوم إلى مكة من خلال هذه المعاهدة التي ستتحقق حتماً في العام القادم، وهذا ما قبله الصحابة رضي الله عنهم وأتباع الرسول ﷺ وكان كافياً بالنسبة لهم، وهم بعد أن ضحوا وقاموا بالإحرام دون الحج، نقضوا خيامهم وعاد هؤلاء الحجاج وبعضهم يشعر ببعض الخيبة إلى المدينة.

الباب الخامس والعشرون

الفصل الأول

غزوة خيبر

أكدت بيعة «الرضوان» مدى إخلاص الصحابة وتكريسهم لخدمة دينهم، فمكن هذا الرسول ﷺ من تسيير الغزوات بعيداً عن مجرد طلب الغنيمة والمربح، حيث بدأت روح التضحية والحماس الديني أكثر التصاقاً بعلمه المرفوع.

ومدينة «خيبر» التي تقع على مسيرة خمسة أيام من «المدينة» مستقلة بمنطقتها التي تقطنها اليهود، الأثرياء دوماً بسبب التجارة، وهم هنا أثرياء أيضاً بسبب خصب هذه المنطقة، التي يزرعونها بالقمح بين أشجار الفواكه والنخيل، وتجوب بينها قطعان الماشية محاطة بعدد من القلاع الموجودة منذ القدم، ويؤكد المؤرخ العربي «أبو الفدا»، أن «موسى» عليه السلام بعد أن قطع البحر الأحمر أرسل جيشه ضد «مَدْيَن» في مدينتهم القوية «خيبر».

وقد ازدحمت منطقة خيبر بالنازحين اليهود الذين طردهم الرسول ﷺ من «المدينة» وجوارها، ومن كل الذين عرّضوا أنفسهم لثأره. هذه العوامل وسواها من تركز الثروة بأيدي اليهود اتصلت مع هدفه ﷺ الذي أعلنه بعد البيعة ـ تحت الشجرة ـ بإعلان الحرب على كل أعداء الإيمان.

قال ابن كثير:

وقال الحافظ البيهقي: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد المقري الأسفراييني، حدثنا الحسن بن محمد بن إسحاق، حدثنا يوسف بن يعقوب، حدثنا عبد الواحد بن ثابت بن غياث، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا عبيد الله بن عمر، فيما يحسب أبو سلمة، عن نافع عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء، ويخرجون منها، واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يُغيبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد.

ففي بداية السنة السابعة للهجرة تحرك الرسول ﷺ بغزوة ضد «خيبر» على رأس ألف ومئتين من المشاة، ومئتي فارس بصحبة «أبي بكر» رضي الله عنه و«علي» رضي الله عنه و«عمر» رضي الله عنه مع سواهم من قادته الأشاوس رافعاً علمين: الأول أحمر فاتحاً بلون الضياء، والثاني أسود به عقاب أصبح مشهوراً بعد ذلك كعلم لخالد بن الوليد.

وبمجرد أن دخلت قواته منطقة «خيبر» الزراعية بدأ بإخضاع الحصون المتفرقة فيها، والتي سقط البعض منها دون مقاومة، فاعتبرت من «الفيء» الذي يذهب ريعه إلى الرسول ﷺ ليوزعه كما سبق وذكرنا على المسلمين، أما الحاميات الأخرى الأكثر تحصيناً وعناداً فكان لا بد من العصف بها.

ثم تقدم الرسول ﷺ نحو مدينة «خيبر» بعد أن أسقط كل حصونها الجانبية، فوجد دفاعاً قوياً فيها، خاصة وأنه قد جرى تعزيز حصونها، وقلعتها المبنية على رأس صخرة شاهقة ملساء واسمها «القَموص» فهي آمنة من كل فتح، لدرجة أن «كنانة أو كهانة ابن ـ الرابي ـ أو الرابيع» رئيس أو ملك اليهود جعلها مستودعاً لكل كنوزه.

لقد كان حصار هذه المدينة أهم مشروع حربي يواجهه المسلمون لذلك حين نظر الرسول ﷺ أول قدومه إلى حصونها وقلعتها المبنية على هذه الصخرة الشاهقة، يقال إنه دعا الدعاء التالي:

«اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، إنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله»[35].

وهو يتضرع على صخرة عالية في مكان صخري يسمى «منصلة» حيث ظل فيه

فغيَّبوا مَسْكاً ـ كيس من الجلد ـ فيه مال وحُلى لحييّ بن أخطب، وكان احتمله معه إلى خيبر حين أُجليت النضير، فقال رسول الله ﷺ حينئذ: ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب. فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسّه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك دخل خربة، فقال: قد رأيت حُيياً يطوف في خربة هاهنا. فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة.

وقال ابن كثير:

فقتل رسول الله ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت أخطب بن كعب بن مالك، أن امرأة يهودية أهدت إلى رسول الله ﷺ شاة مصلية بخيبر، فقال: «ما هذه؟» قالت: هدية. وحَذِرت

طوال حصاره أمام المدينة، ثم بُني مسجد فوق هذه الصخرة بعد ذلك تخليداً لهذا الحدث، وما يزال مكان زيارة للمسلمين.

ولأن الحصار قد دام لبعض الوقت، كان اختباراً لمهارة وصبر محمد ﷺ وأتباعه، الذين لم يتمرنوا بعد على الهجوم على الأماكن المحصنة، مما جعل تموينهم يقل لأن العرب في معاركهم الخاطفة قليلاً ما يحملون أو يثقلون أنفسهم بحمل التموين، خاصة وأن اليهود حين رأوا تقدمهم دمروا المحصول من أمامهم، وقطعوا أشجار النخل حول عاصمتهم.

ان تقول صدقة فلا ياكل.

قال: فاكل وأصحابه ثم قال: «امسكوا» ثم قال للمرأة: «هل سمَمتِ؟» قالت: من أخبرك هذا؟ قال: «هذا العظم» لساقها وهو في يده، قالت: نعم. قال: «لم». قالت: أردت إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك. قال: فاحتجم رسول الله ﷺ على الكاهل وأمر أصحابه فاحتجموا ومات بعضهم.

قال الزهري: فاسلمت فتركها النبي ﷺ.

قال البيهقي: هذا مرسل، ولعله قد يكون عبد الرحمن حمله عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وذكر ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة، وكذلك موسى بن عقبة عن الزهري قالوا: لما

الفصل الثاني

حصار خيبر

قاد الرسول ﷺ المعركة بنفسه إزاء خندقٍ حَمى المحاصرون أنفسهم به، فاجتازه المهاجمون ومعهم رأس الكبش الذي تضرب به أبواب الحصون والمثبت على رأس عمود من الخشب تحميه دروع اسمها الكلي دبابة، تفتح ثغرات بالحصن، لكن كل محاولات الدخول باءت بالفشل لعدة أيام ورُدَّت، فقد هجم أبو بكر رضي الله عنه وهو يرفع علم الرسول ﷺ مرة، لكنه اضطر إلى التراجع بعد قتال جريء، وتبعه في اليوم الثاني «عمر» رضي الله عنه الذي قاتل حتى غياب الشمس دون نجاح أفضل، أما الهجوم الثالث فقد قاده «علي» رضي الله عنه حاملاً سيف الرسول ﷺ ذا الفقار، وبيده الأخرى العلم الإسلامي المقدس فوصفه الرسول ﷺ: «برجل يحبه الله ورسوله، لن يرجع حتى يفتح الله له».

ومن هذه المناسبة نرى فرصة لشرح الاعتبار التقليدي الذي دخل في تقاليد المسلمين حول شخصية وسلوك «علي» رضي الله عنه: فقد كان رجلاً مربوع القامة يميل إلى القصر، مكتنز العضل ذا قوة جسدية فائقة، حسن ملامح الوجه ووردي الوجنات، تغطيها لحية كثة، بادي الأنس، ثاقب الفكر، غيوراً على الإيمان، وبسبب شجاعته الفائقة كان يلقب: بأسد الله.

والمؤرخون العرب ذهبوا إلى تضخيم حدث فتح «خيبر» فضخموا بطلهم المختار لهذا الفتح فوصفوه: بأنه «رضي الله عنه» كان يرتدي قميصاً بنفسجياً فوقه الزرد

فتح رسول الله ﷺ خيبر وقتل منهم من قتل، أهدت زينب بنت الحارث اليهودية وهي ابنة أخي مرحب لصفية شاة مصلية وسمَّتها، وأكثرت في الكتف والذراع، لأنه بلغها أنه أحب أعضاء الشاة إلى رسول الله ﷺ.

فدخل رسول الله على صفية ومعه بِشْر بن البراء بن معرور، وهو أحد بني سلمة، فقدَّمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله ﷺ الكتف وانتهش منها، وتناول بشر عظماً فانتهش

المعقود، وهو يتسلق مع أتباعه الصخور الشاهقة الضخمة التي يقع الحصن بأعلاها، ثم ركز رايته على قمتها، مصمماً على عدم التراجع حتى تسقط القلعة. فخرج له اليهود لرد هجومه، واشتبكوا مع جماعته بقتال بالسلاح الأبيض، فقاتل «علي» رضي الله عنه قائدهم «الحارث» وصرعه، فتقدم أخوه ليثأر لقتله، وكان عملاقاً ضخماً يحمل سيفاً مزدوج النصل، وعلى رأسه بيضة ملفوفة بعمامتين تزينها في مقدمتها حجرة ثمينة، وعلى جانبيه سيفان إضافيان، ويحمل كذلك رمحاً ثلاثي النصال كالصولجان، فصال المحاربان أمام بعضهما يرتجزان كما هي عادة العرب في المبارزة:

قال اليهودي:

قد علمت خيبر أني مَرْحَبْ شاك سلاحي بطل مجربْ
إذا الليوث أقبلت تلهب واحجمت عن صولة المغلبْ

فقال «علي» رضي الله عنه:

أنا الذي سمتني أمي حيدره - الأسد القوي -
كليث غابات شديد القَضْورة
أكيلكم بالصاع كيل السَّنْدَرَة - غرفاً -

ونقل المؤرخون المسلمون أن المبارزة كانت قصيرة بالنسبة لأبهة هذا البطل اليهودي، حيث ضرب اليهودي «علياً» رضي الله عنه بصولجانه لكنه أخطأه، وقبل أن يسحب يده عالجه رضي الله عنه بضربة من «ذي الفقار» قسمت بيضة رأسه عبر العمامة المزدوجة إلى رأسه العنيد، وفلقت رأسه حتى أسنانه، فسقط العملاق منها بدون حراك على الأرض.

منه، فلما استرط رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر بن البراء ما في فيه، فقال رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أني نُعِيت فيها» فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمتك أن أُبغضك طعامك، فلما أسغت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها نعي. فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان وماطله وجعه حتى كان لا يتحول حتى يحول.

قال الزهري: قال جابر: واحتجم رسول الله ﷺ يومئذ، حجمه مولى بني بياضة بالقرن والشفرة، وبقي رسول الله ﷺ بعده ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي فيه فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عِدَاداً حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري».

فتراجع اليهود إلى القلعة، وتبعهم الهجوم الإسلامي العام، وبغمار المعركة طار درع «علي» رضي الله عنه من يده وصار جسده بدون حماية، فاقتحم باب القلعة ونزعه من مكانه وحمله كدرع له حتى نهاية المعركة، ويذكر «أبو رافع» مولى رسول الله ﷺ أنه: «لم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده رضي الله عنه، فلقد رأيتني في نفر معي سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب ما استطعنا أن نقلبه»[36].

وبعد سقوط القلعة نُقِبَ كل مكان فيها بحثاً عن الكنز الذي يقال إن «كهانة» أمير اليهود قد دفنه فيها، ولم يكتشف، وعندما سأله الرسول ﷺ عن مكان المال، ادعى أنه أنفقه في تجهيزات جيشه والتهيئة للدفاع. لكن أحد أتباعه الذين لم يعودوا يؤمنون باليهودية كشف مكان إخفاء الكنز الكبير، ولكنه لم يكن بحجم ما هو متوقع من وجوده، فَقُرِرَ «كهانة» لكي يعترف ببقية المكنونات المخبوءة، فلم يقر. فسُلم إلى أخي «محمود بن مسلمة» الذي ألقيت عليه رحى من حصن «ناعمة» غدراً فقتلته، فضربه بضربة أطاحت رأسه.

وبينما كان الرسول ﷺ في حصن خيبر تعرض لاغتيال اليهود ثأراً منه، حين قُدِمَ له كتف ضأن ليأكله، فشعر في اللقمة الأولى بطعم غريب فبصقها، ورغم ذلك أحسّ بألم معوي مباشر، لكن أحد أتباعه الذي تناول من الكتف أكثر تسمم، وبعد تحري الأمر تبين أن الذين طبخ الضأن امرأة اسمها «زينب» كانت أخت[37] «مرحب» المقاتل الذي صرعه «علي» رضي الله عنه، وهي من ضمن السبايا، واعترفت أمام الرسول ﷺ بأنها وضعت السم في عروق الضلع كثأر مبرر لها لما أصاب قومها منه ﷺ، فسألها ﷺ: «ما حملك على ما صنعت؟ قالت: أحببت ـ أو أردت ـ أن أختبر فإن كنت نبياً فإن الله سيطلعك عليه، وإن لم تكن نبياً أريح الناس منك. . . قالوا: ألا تقتلها؟ قال: لا؟!»

وذكر بعض المؤرخون الذين لا يريدون أن يمر حدث دون معجزة، أن كتف الشاة

فتوفى رسول الله ﷺ شهيداً.

* * *

وقال محمد بن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلاّم بن مِشْكم شاةً مصلية، وقد سألت أي عضوٍ أحبُّ إلى رسول الله ﷺ فقيل لها الذراع.

أخبرت محمداً ﷺ بالسم فيها، ورغم ذلك توفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة واحتجم النبي ﷺ، وظل فيه ﷺ عطب من أثر سمها إلى نهاية حياته، يظهر بشكل ألم معوي بعض الأحيان، حتى كان وجعه الذي توفي فيه ﷺ فقال: «ما زلت أجِدُ من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عداداً ـ معاودة للألم ـ حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري»[38] وهذا يعني أن الرسول ﷺ قد توفي شهيداً.

فأكثرت فيها من السم، ثم سمَّت سائر الشاة ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يُسِغها، ومعه بِشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم».

ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: بلغتَ من قومي ما لم يخفَ عليك، فقلت: إن كان كذاباً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر.

قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التي أكل.

الفصل الثالث:

صفية بنت حي بن أخطب النضرية

بعد أن أكل الرسول ﷺ من الضلع واحتجم، تلقى بعض العناية من «صفية أو صوفيا» التي من المفترض أن دافعها للثأر منه ﷺ أكبر من دوافع «زينب» لأنها كانت زوجة «كنانة» أو «كهانة» الذي تزوجته منذ مدة قصيرة، وقد قتل من أجل شحه بماله، كما أنها ابنة «حيي بن أخطب» أمير «بني قريظة» الذي قتل مع سبعمائة من أتباعه في ساحة المدينة كما سبق وأشرنا.

وقد اصطفى الرسول ﷺ «صفية» من الأسرى «بخيبر» بمجرد أن رآها ﷺ فأدخلها بحريمه لأنها: «لما زفت إلى زوجها ـ السابق ـ ومضى على ذلك ليالٍ، رأت في منامها كأن قمر السماء قد سقط في حجرها، فقصت رؤياها على ـ زوجها ـ فلطم وجهها وقال: أتتمنين مَلِك يثرب أن يصير بعلك؟!... ولما اصطفاها الرسول ﷺ... وجد أثر اللطمة في خدها، فسألها ما شأنها فذكرت له ما كانت رأت»[39]، وهذا ما أكده المؤرخون المسلمون كما أكدوا أنه خلال حصار «خيبر» عاودتها رؤية مشابهة بالشمس في حجرها، وأن الرسول ﷺ حقق رؤياها، ودخل بها بعد استبرائها بطريق عودته إلى المدينة في مكان اسمه «سد الصهباء» حيث توقف الجيش ثلاثة أيام، وكان «أبو أيوب الأنصاري» على حراسة القبة التي ابتنى الرسول ﷺ بها «بصفية»، وظلت صفية مدة أربعين سنة أرملة للرسول ﷺ بعد وفاته ﷺ.

وقال هيكل:

وقد اختلف الرواة، فذكر أكثرهم أن النبي عفا عن زينب وقدّر لها عذرها بعد الذي أصاب أباها وزوجها. وذكر بعضهم أنها قتلت في بشر الذي مات مسموماً.

زواج محمد صفية ابنة حييّ بن أخطب

وقد تركت فعلة زينب في نفوس المسلمين أعمق الأثر، وجعلتهم في أعقاب خيبر لا يثقون باليهود، بل يخشون غدرهم أفراداً بعد أن قُضي على جماعتهم القضاء الأخير. كانت صفية ابنة

وما أن عاد الرسول ﷺ إلى المدينة حتى بنى «بأم حبيب» العائدة أرملةً من الحبشة مع المهاجرين العائدين منها، وهي ابنة عدو الرسول ﷺ «أبي سفيان» الذي قد تؤدي صلة الزواج بينه وبينه إلى تخفيف عدائه كما يؤكد القرآن الكريم بين الذين بينهم عداوة ويدفعون بالتي هي أحسن يصيرون كالأولياء الحميمين ـ معنى الآية هنا فقط ـ.

ذكر البيهقي. . . عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ قال: هو تزويج النبي ﷺ بأم حبيب بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين[40].

لكن أبا سفيان حين بلغه هذا الأمر اتهم الرسول ﷺ بالغلمة حقداً منه عليه ﷺ، لقسوة في قلبه لا تلين.

حييّ بن أخطب النضيرية من بين السبايا اللائي أخذ المسلمون من حصون خيبر، وكانت زوجاً لكنانة بن الربيع، وكان عند كنانة مما يعرف المسلمون كنز بني النضير. فسأله النبي فأقسم لا يعرف مكانه. فقال له محمد: إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال نعم. وكان أحدهم قد رأى كنانة يطوف بخربة وذكر أمره للنبي، فأمر بالخربة فحُفرت فأخرج منها بعض الكنز، فقتل في إنكاره. فلما خلصت صفية إلى المسلمين وصارت بين الأسرى، قيل للنبيّ: «صفية سيّدة بني قُريظة والنضير لا تصلح إلا لك» فأعتقها وتزوجها مقتفياً بذلك أثر الفاتحين العظماء الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم. وقد خشي أبو أيوب خالد الأنصاري أن تتحرك في نفسها الضغينة على الرسول الذي قتل أباها وزوجها وقومها؛ لذلك بات حول الخيمة التي أعرس فيها محمد بصفية في طريق عودته من خيبر متوشحاً سيفه. فلما أصبح الرسول ورآه سأله: ما لك؟ قال: خفت عليك من هذه المرأة وقد قتلت أباها وزوجها وقومها وقد كانت حديثة عهد بكفر. على أن صفية أقامت على الوفاء لمحمد حتى قبضه الله إليه. وقد اجتمع نساؤه حوله في مرضه الأخير؛ فقالت صفية: أما والله نبيّ الله لوَدِدتُ أن الذي بك بي. فتغامز بها أزواج النبي. فقال لهن: مَضْمِضْن. قلن: من أي شيء يا نبيّ الله؟ قال: من تغامزكن بصاحبتكن، والله إنها لصادقة. وبقيت صفية بعد النبي حتى خلافة معاوية، وفيها توفيت ودُفنت بالبقيع.

الباب السادس والعشرون

الفصل الأول

رسائله ﷺ إلى الملوك

راح الرسول ﷺ خلال إقامته في المدينة يرسل صحابته الذين يثق بهم، من ذوي الدراية والخبرة الحربية في غزوات مختلفة، لإخضاع القبائل المختلفة. وبذلك شاعت آراؤه بشيوع الإسلام بينهم مما وسع من رقعة سلطته، وهكذا عمل الفتح على نشر الدين، ورغم ذلك لم يستغن عن السياسة أيضاً في نشر الإيمان بالطرق السلمية، لذلك أرسل البعوث أيضاً للأمراء والملوك المختلفين، مما وسع من أفق سلطته ﷺ عبر الحث على نشر الإسلام.

ومن أهم هذه البعوث للدعوة إلى الإسلام كانت بعوثه إلى «خسرو الثاني» ملك الفرس، و«هرقل» عظيم الروم، امبراطور روما الشرقية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى، وتوسع حدودها دوماً جهة الشرق من فترة لأخرى. وكانت لفترة قريبة تهز العالم الشرقي بحروبها، وتخضع الممالك لسلطتها، التي تنازعها فيها امبراطورية «الفرس»، فيختلفان بمد سلطتهما بالغزو والغزو المضاد، وحسب النصر والهزيمة لهذه

ونقول نحن:

إن «هرقل» كان في حرب مع الفرس بعد أن هزم «خسرو الثاني» وأخرجه من فلسطين ومصر وشمال افريقيا، واستعاد الصليب منه، وسورة الروم في القرآن الكريم التي تحققت فيها نبوءة الرسول ﷺ وربح أبو بكر الصديق رهانه فيها مع أحد المشركين لما كان الرسول ﷺ في «مكة»، والتي اشار إليها «إيرڤينغ» نفسه في الفصل الأول من الباب الحادي عشر في هذا الكتاب دليل على ذلك.

«فخسرو الثاني» صاحب الخمسين الف حربة ذهبية لم يكن في قمة انتصاراته عندما وصلته بعثة الرسول، ولا كان «هرقل» في قمة هزائمه، لكن واقع التاريخ يظهر أن قبضة «هرقل» على مستعمراته التي اخرج منها الفرس، لم تكن محكمة بدليل أن «المقوقس» كان شبه

القوى المتصارعة، وبين نصر وهزيمة تتغير الممالك. وخلال نزاع قريب، استطاع «خسرو» بجيوشه الثلاثة التي سميت بجيش الخمسين ألف حربةٍ ذهبية، أن يخضع فلسطين، و«كابادوكيا»، وأرمينيا، وغيرها من المناطق التي كانت تحت سيطرة الرومان، فجعل نفسه سيداً «للقدس» التي حمل منها الصليب المقدس إلى بلاد فارس، ومنها توجه لفتح أفريقيا ففتح مصر وليبيا، وامتد بفتوحاته حتى «قرطاج».

وخلال انتصاراته الكاسحة هذه، وصلته بعثة من المسلمين تحمل له رسالة من الرسول ﷺ فطلب «خسرو» مترجمه لترجمتها له وكان فيها ما يلي: «من محمد عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم فارس» فأغضبه حين بدأ رسول الله ﷺ بنفسه، وصاح وغضب ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه، ثم كتب إلى «باذام» نائبه على اليمن: «لقد علمت أن في المدينة مجنوناً من قبيلة قريش يدعي أنه رسول من الله، ارجعه إلى رشده، وإذا لم تقدر، أرسله لي مَيْتاً». فلما بلغ رسول الله ﷺ ما قال، قال: «مُزِقَ ملكه».

أما رسالة الرسول ﷺ إلى «هرقل» فقد تلقاها بشكل أفضل، لأنها ربما وصلت إليه وهو يتراجع أمام الفرس(*)، وكانت مختومة بالفضة وتدعو الامبراطور إلى ترك المسيحية واعتناق الإسلام، ويقال إن «هرقل» كرم رسول رسول الله ﷺ بتقريبه من مجلسه، وعامل الوفد بشكل مميز، وأرسلهم محملين بالهدايا، ولأنه كان مشغولاً

مستقل في مصر، لأن (المصريين في كل مكان كانوا يكرهون حكم «بيزنطة»)[41].

إن حماقة الملوك فقط هي التي دفعت «بخسرو» إلى تمزيق كتاب الرسول ﷺ كسبب جعله الباري تعالى سبباً بتمزيق ملكه، وتحقيق نبوءة رسوله بأنه: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده»[42]. وكل هذا درس للناس بأن الملك لله ولا ملكية في الإسلام.

أما لماذا توهم «إيرفينغ» أن كتاب الرسول ﷺ قد وصل إلى كسرى وهو في قمة انتصاراته، فسبب ذلك كما هو واضح الاسترسال الادبي بادعاء شطط الواقعية في تفسير الحدث التاريخي حتى لا يضطر الخروج عن منهاجه بالشك المطلق بتحقق النبوءات، مما يظهر لنا أن شطط الواقعية كشطط الغيبية في التفسير، يؤديان دوماً إلى الخطأ.

وقال ابن كثير:

فلما قدِم شجاعٌ على النبي ﷺ اخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه لكتاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «مزِّق كسرى ملكه».

(*) يوجد هنا خلط تاريخي غير دقيق عند المؤلف. أنظر: «ونقول نحن» في الصفحة السابقة.

بالحرب مع الفرس لم يلتفت كثيراً لهذا الأمر، الذي ربما ظنه غير مؤثّر، فلم ينتبه إلى أهمية قوة الرسول ﷺ العسكرية المتزايدة، التي كانت تبدو من الخارج كغيرها من صراعات القبائل البدوية العادية في صحراء العرب.

أما بعثة الرسول ﷺ «للمقوقس» حاكم مصر، الذي يعين أساساً من قبل «هرقل» لجمع الضرائب، والذي تمكن بسبب فوضى الحروب بين الروم والفرس من عدم

وروى محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبي سلمة، أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حُذافة [بكتابه] إلى كسرى. فلما قرأه مزّقه، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال: «مزّق مُلكه».

* * *

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثنا ابن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب قال: وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وادعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فإن تُسلم تَسلم وإن أبيتَ فإن إثم المجوس عليك».

قال: فلما قرأه شقّه وقال: يكتب إليّ بهذا وهو عبدي؟!

قال: ثم كتب كسرى إلى باذام وهو نائبه على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فلياتياني به.

فبعث باذام قهرمانه ـ وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس ـ وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له خرخرة، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يامره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال: لأبا ذويه: إيت بلاد هذا الرجل وكلّمه وائتني بخبره.

فخرجا حتى قدما الطائف، فوجدا رجلاً من قريش في أرض الطائف فسألوه عنه، فقال: هو بالمدينة. واستبشر أهل الطائف ـ يعني وقريشٌ ـ بهما وفرحوا. وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك، كُفِيتم الرجل!

فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ، فكلّمه أبا ذويه فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذام يامره أن يبعث إليك من ياتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفّه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مُهلكك ومهلك قومك ومخرِّب بلادك.

ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما، فكره النظر إليهما وقال: «ويلكما من أمركما بهذا؟!» قالا: أمرنا ربُّنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله ﷺ: «ولكن ربي

إرسالها، وإعلان شبه استقلال له في البلاد، رافضاً كل صلة ولاء له مع الامبراطور. فقد تلقى «المقوقس» هذه البعثة بالتكريم لكن جوابه على الدعوة لاعتناق الإسلام كان مباشراً بأنه أمر يحتاج إلى اعتبارات كثيرة، وفي الوقت الحالي اكتفى بإرسال الهدايا إلى الرسول ﷺ من المجوهرات والحرير المصري، والعسل الملكي والزبدة، مع بغل أبيضَ

امرني بإعفاء لحيتي وقصّ شاربي» ثم قال: «ارجعا حتى تأتياني غداً».

قال: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله قد سلَّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله.

قال هيكل:

رسول النبي إلى هرقل

ماذا فعل الله بالرسل الذين أوفدهم محمد إلى هرقل وكسرى والنجاشي وغيرهم من الملوك المحيطين ببلاد العرب؟! هل سافروا قبل غزوة خيبر، أو هل حضروها حتى تم النصر للمسلمين فيها ثم سافروا من بعدها كل إلى ناحيته؟ يختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كبيراً يصعب معه القطع في الأمر بقول: وأكبر ظننا أنهم لم يسافروا جميعاً في وقت واحد، وأن منهم من سافر قبل خيبر ومنهم من سافر بعدها. فقد جاء في غير رواية أن دحية بن خليفة الكلبيّ حضر خيبر وهو مع ذلك الذي ذهب برسالة هِرقل. سافر إليه وكان هرقل يومئذ عائداً يحفّ به النصر بعد أن تغلّب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذي أخذ من بيت المقدس، وآن له أن يتم نذوره وأن يحج إلى بيت المقدس ماشياً ليردّ الصليب الأعظم إلى مكانه، وكان قد بلغ من سياحته مدينة حمص حين حُمِل الخطاب إليه. هل حمله إليه جماعة من رجاله بعد أن أسلم دِحْية الخطاب إلى عامله على بصرى، أو أنه اطلع عليه بعد أن أدخل جماعة من البدو ودِحْية على رأسهم يقدّم إليه الكتاب بنفسه؟ هذا ما تضطرب الرواية كذلك حوله. وتلى الخطاب عليه وتُرْجِم له، فلم يغضب ولم تثر ثائرته، ولم يفكر في إرسال جيش يغزو بلاد العرب، بل ردّ على الرسالة ردّاً حسناً جعل بعض المؤرخين يزعمون خطأ أنه أسلم.

جواب هرقل

وفي الوقت نفسه بعث الحارث الغساني إلى هِرقل يخبره أن رسولاً جاءه من محمد بكتاب، رأى هرقل شبيهه بالكتاب الذي أرسل إليه يدعوه إلى الإسلام ويستأذن الحارث في أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة هذا المدَّعي النبوَّة. لكن هرقل رأى الخير في أن يكون الحارث ببيت المقدس حين زيارته إياه ليزيد في جلال الحفلات بردّ الصليب إليه، ولم يعبأ بهذا الداعي إلى دين جديد، ولم يدر بخلده أنه لن تمضي سنوات قليلة حتى يكون بيت المقدس وتكون الشام في ظل الراية الإسلامية، وأن العاصمة الإسلامية ستنتقل إلى دمشق، وأن النضال بين دول الإسلام والامبراطورية الرومية لن تهدأ ثائرته حتى يستولي الأتراك على القسطنطينية في سنة 1453، وحتى يحيلوا كنيستها الكبرى مسجداً يكتب فيه اسم هذا النبيّ الذي حاول هرقل أن

اسمه «يعفور» وبغلة مثله اسمها «الدلدل»، وحصان مدرب على القفز، مع جاريتين قبطيتين أختين إحداهما «ماري» أو «مارية»، والثانية «شيرين».

كانتا محل قبول من الرسول ﷺ خاصة وأن السراري ملك اليمين يمكن الدخول بهن في الإسلام، وحتى لا تثار غيرة زوجاته ﷺ لم يعلن علاقته الجنسية «بمارية» التي ظلت محظية عنده ﷺ(*).

يظهره مظهر من لا يحفل به أو يعنى بأمره، وأن تظل هذه الكنيسة مسجداً عدّة قرون حتى يحيلها المسلمون الاتراك متحفاً للفن البيزنطي.

(*) أعتقها ولدها كما ذكر: «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين»، وذكر أنه ﷺ حرمها على نفسه بعد أن وطئها في بيت «حفصة» «رضي الله عنها»، وقد تأثرت «حفصة رضي الله عنها» من ذلك تأثراً بالغاً، وعاتبت في ذلك رسول الله ﷺ، فأقسم إرضاء لها أن لا يأتي «مارية» أبداً، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: 1]. انظر محمد علي قطب، أمهات المؤمنين «ميمونة» مارية، وريحانة «رضي الله عنهن»، دار القلم بيروت 1988م، ص 83.

الباب السابع والعشرون

الفصل الأول

الحج إلى مكة

قرب وقت تنفيذ المعاهدة المعقودة مع قريش والتي تسمح بالحج هذا العام إلى مكة المكرمة للرسول ﷺ وأتباعه، ولكي يقضي ثلاثة أيام فيها يقيم شعائر الحج دون التعرض له وعلى هذا الأساس خرج من المدينة بعدد كبير من المسلمين المسلحين مع سبعين ذلولاً(*) للتضحية بها، وعندما اقترب من مكة غادرها أعداؤه بهدوء إلى الجبال المجاورة، وحسب المعاهدة كان على الحجاج المسلمين تنحية أسلحتهم قبل دخول المدينة المقدسة، وهكذا فعلوا عدا سيوفهم الشخصية التي حملوها وهي في أغمادها.

لقد كانت فرحتهم عارمة عندما ضمتهم مكة المكرمة بأسوارها وأبراجها مرة ثانية وهم يدخلونها بلباس الإحرام، بقلوب شاكرة مؤمنة، والرسول ﷺ يؤدي معهم كل شعائر الحج المعروفة منذ القدم بكل إخلاص، مما دفع بالكثير من القريشيين إلى الالتحاق بدينه، وبعد أن تحلل من إحرامه ﷺ انسحب إلى «سرف» التي تبعد «فرسخين» عن مكة خارج حرمها، وهناك احتفل الجميع، وتزوج الرسول ﷺ «بميمونة

قال هيكل:

تزوج محمد بميمونة وخروج المسلمين إلى المدينة

كانت أم الفضل، زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي، موكلة من أختها ميمونة في تزويجها، وكانت ميمونة في السادسة والعشرين من عمرها، وكانت خالة خالد بن الوليد. وأقامت أم الفضل زوجها العباس مُقامها في تزويج أختها. ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين في عُمرة القضاء هوت إلى الإسلام نفسها، فخاطب العباس ابن أخيه في أمرها

(*) إن إيرفينغ يخطئ دوماً بفهم كلمة: الهدي.

بنت الحارث الهلالية» التي أخر الدخول بها إلى ما بعد إتمامه ﷺ لمراسم الحج، وكانت «ميمونة» في نهاية الأربعينات من عمرها أرملة، لكنها ذات قرابة بخالد بن الوليد، ابن أختها المحارب الذي كاد أن يدمر الرسولﷺ في معركة أحد، والذي تحوّل إلى أن صار من أكبر أبطال الإسلام ونال من الرسول ﷺ لقب: «سيف الله».

كذلك تحول زميله «عمرو بن العاص» الشاعر الشاب الذي هجا الرسول ﷺ بلسانه الذرب، في بداية دعوته ﷺ، والذي عمل سفيراً لقريش عند ملك «الحبشة» لكي يعيد لهم المهاجرين المسلمين إليها. ومنذ تحوله للإسلام صار قَدَرَهُ أن يحمل هذا الدين بسيفه إلى أصقاع نائية من الأرض، وهو أول من عارضه؟!

وعرض عليه أن يتزوجها. وقبل محمد وأصدقها أربعمائة درهم. وكانت ثلاثة أيام التي نص عهد الحديبية عليها قد انقضت، لكن محمداً أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش. فلما جاءه سهيل بن عمرو وحُويطب بن عبد العُزّى من قِبل قريش يقولان لمحمد: «إنه انقضى أجلك فاخرج عنا»، قال لهما: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه»، قال محمد ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء في نفوس أهل مكة من أثر، كيف سحرتهم وسكّنت من خصومتهم، ويعلم أنهم إن قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدّث إليهم وتحدثوا إليه فتحت مكة أمامه أبوابها طائعةً. وهذا ما خشي سُهيل وحُويطب؛ لذلك كان جوابهما: «لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا». ولم يتردّد محمد في النزول على رأيهما تنفيذاً لعهده مع قومهما، فأذّن في المسلمين بالرحيل، وخرج والمسلمون من ورائه. وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة حتى أتاه بها بسَرِفَ(*) فبنى بها. وميمونة أم المؤمنين آخر أزواج النبي، عُمِّرت بعده خمسين سنة، ثم طلبت أن تُدفن حيث بنى بها رسول الله وحمل محمد أختي ميمونة: سلمى أرملة عمه حمزة، وعمارة البكر التي لم تتزوج.

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها، ومحمد لا يشك في عظم ما تركت عُمرة القضاء من أثر في نفوس قريش، وفي نفوس أهل مكة جميعاً، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة.

(*) سرف: موضع قريب من مكة، اختلف في تقدير ما بينهما بين ستة أميال واثني عشر ميلاً.

الفصل الثاني

قبر «ميمونة» رضي الله عنها

كانت «ميمونة» رضي الله عنها آخر زوجات الرسول ﷺ وأكبرهن عمراً[43]، ومع ذلك عاشت أكثر منهن جميعاً رضي الله عنهن، وماتت بعد الرسول ﷺ بمدة طويلة ودفنت في «سَرَف» كما أوصت بذلك بنفس المكان الذي بنى بها رسول الله ﷺ تخليداً لوفائها له ﷺ، ويذكر العبد الفقير إلى الله تعالى «الجنابي» كما سمى نفسه، أنه قد زار هذا المكان بطريق عودته من الحج عام 963هـ/ 1555م: فرأى قبة من الرخام الأسود منصوبة ذكرى لميمونة رضي الله عنها، بنفس المكان الذي بنى بها رضي الله عنها رسول

قال هيكل:

إسلام خالد بن الوليد

وصدّقت الأيام تقديره؛ فإنه ما كان يتحمّل راجعاً إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد، فارس قريش المعلم وبطل أحد يقول في جمع منها: «لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين. فحقّ على كل ذي لُبٍّ أن يتبعه». وقد فزع عكرمة بن أبي جهل لما سمع، فرد قائلاً: لقد صَبَوْت يا خالد. ودار بينهما الحديث الآتي:

ـ خالد: لم أصبؤ ولكني أسلمت.

ـ عكرمة: والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت.

ـ خالد: ولم؟

ـ عكرمة: لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جُرح، وقتل عمك وابن عمك ببدر. فوالله ما كنت لأسلم ولاتكلم بكلامك يا خالد. أما رايت قريشاً يريدون قتاله؟!

ـ خالد: هذا أمر الجاهلية وحميتها. لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق.

وبعث خالد إلى النبي بأفراسٍ وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعرفانه. وبلغ إسلام خالد أبا سفيان، فبعث في طلبه وسأله: أحق ما بلغه عنه؟ ولما أجابه خالد أنه حقٌّ، غضب وقال: «واللاّت والعُزّى لو أعلم أن الذي تقول حقٌّ لبدأت بك قبل محمد». قال خالد: «فوالله إنه لحقّ على رغم من رَغِم». فاندفع أبو سفيان في غضبه نحوه؛ فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال:

الله ﷺ، والله تعالى أعلم بسبب سواد هذا الرخام، والله أعلم بمن وضع هذا المحراب، وكيف يوجد فيه مكان وضوء، لكن البناء ككل قد تداعى اليوم.

«مهلاً يا أبا سفيان فوالله لقد خفت للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه. أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه وقريش كلها تبايعت عليه! والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم». وخرج خالد من مكة إلى المدينة، فانضم إلى صفوف المسلمين.

إسلام عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة. وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهل مكة واتبعوا دين الحق. وبذلك قويت شوكة الإسلام، وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمراً لا محل لريبة فيه.

الباب الثامن والعشرون

الفصل الأول
غزوة «مؤتة»

كان من ضمن بعوث الرسول ﷺ للدعوة إلى الإسلام خارج جزيرة العرب، بعوثه إلى جواره في الشام إلى أمير «بصرى» البوابة الرئيسية للبلاد السورية، تلك المدينة التي شهدت أول قدومه الشريف إلى الشام في صغره ﷺ مع قافلة عمه. وسورية التي كان يتناوب عليها الحكم الروماني والفارسي، كانت في زمن بعثته ﷺ تحت سلطة الامبراطور الروماني رغم حالة الاضطراب البادية والمسيطرة عليها، وتحركت بعثة الرسول ﷺ إلى «مؤتة»، المدينة التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام شرقاً من «القدس»، والذي تصدى لهذه البعثة كان عرب «غسان» المسيحيين بقيادة أميرهم شرحبيل حاكم «مؤتة» باسم «هرقل».

فحشد الرسول ﷺ في بعثته هذه ثلاثة آلاف مقاتل ليعطي الهيبة لقواته، ولتحترم

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: ثم مضى الناس، حتى إذا كانوا بتخوُم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف، ثم دنا العدوّ وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها، فتعبّى لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذْرة يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الانصار يقال له عباية بن مالك.

وقال:

قال ابن إسحاق: ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليه من لخم وجذام والقين وبهراء وبَلِيّ مائة ألف منهم عليهم رجل من بَلِيّ، ثم أحد إراشة يقال له مالك بن زافلة.

وفي رواية يونس عن ابن إسحاق: فبلغهم أن هرقل نزل بمآب في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة.

رسله الذين لقي أحدهم مصرعه عند عرب الشام. وكان هذا الحدث تاريخياً هاماً فهو أول لقاء بين جيوش الإسلام والامبراطورية الرومانية، والذي أطلقته قوة الرسول ﷺ المتزايدة وضعف هذه الامبراطورية، وحالة الفوضى في مقاطعاتها السورية. وكان «زيد بن حارثة» أمير المسلمين وهو ربيب رسول الله ﷺ الذي سبق وذكرنا شدة ولائه للرسول ﷺ، ومعه عدد من القواد المختارين أحدهم ابن عم الرسول ﷺ «جعفر بن أبي طالب» رضي الله عنه أخو «علي» رضي الله عنه، نفس هذا الرجل الذي دافع عن الإسلام أمام امبراطور «الحبشة» كما سبق وأشرنا وسفه رأي «عمرو بن العاص» سفير قريش إليها آن ذاك، وهو الآن في شرخ الصبا يشتهر بشجاعة فائقة ورجولة جميلة مكتملة، والثالث «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه الشاعر الذي تزينه فروسية وشعر، أما رابعهم فكان «خالد بن الوليد» رضي الله عنه الذي أسلم حديثاً وشارك في البعثات ليثبت حسن إسلامه، ويمحو زلته يوم «أحد».

[وقيل: كان الروم مائتي ألف ومن أعدائهم خمسون ألفاً. وأقل ما قيل: إن الروم كانوا مائة ألف ومن العرب خمسون ألفاً. حكاه السهيلي].

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدوّنا، فإما أن يُمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. قال: فشجّع الناس عبد الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة.

وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن قيس بن أبي حازم، قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد دقَّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانية.

وقال: «اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاث مرات. قال: فجاءت أمُّنا فذكرت له يُتْمنا وجعلت تُفرح له فقال: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟».

ورواه أبو داود ببعضه، والنسائي في السير بتمامه من حديث وهب بن جرير به.

وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام أرخص لهم في البكاء ثلاثة أيام ثم نهاهم عنه بعدها. ولعله معنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد من حديث الحكم بن عبد الله بن شداد، عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال لها لما أصيب جعفر: «تسلّبي ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت».

قال هيكل:

ويختلف الرواة في سبب غزوة مؤتة هذه؛ فيذهب بعضهم إلى أن قتل أصحابه في ذات

الفصل الثاني

الحزن

وكانت أوامر زيد رضي الله عنه بالتحرك بسرعة ليأخذ «مؤتة» على حين غرة ثم يدخل سكانها بالإسلام ويعاملهم برفق الدعوة المعهود، إذ لا يجوز له قتل النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ، ولا الرهبان والعميان ولا المعاقين بأي حال من الأحوال، ولا أن يهدم منزلاً ولا يقطع شجراً.

وعلى هذه الأسس الخلقية تحرك هذا الجيش الصغير من المدينة بكل ثقة بمباغتة العدو، لكنهم علموا أثناء تقدمهم أن قوات كبيرة من «الروم وعرب لخم وجذام والقين

الطَّلح كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين، ويذهب آخرون إلى أن النبي أرسل رسولاً من رسله إلى عامل هرقل على بُصْرى وأن أعرابياً من غُسَّان قتل هذا الرسول باسم هرقل، فبعث محمد الذين قاتلوا في مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره.

وكما كان عهد الحُديبية مقدمة عمرة القضاء ففتح مكة، كانت غزوة مؤتة مقدمة تبوك وما كان بعد وفاة النبي من فتح الشام. وسواء أكان السبب الذي أدّى إلى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبيّ إلى عامل بُصْرَى أم قتل رجاله الخمسة عشر في ذات الطلح، فإن عليه السلام دعا إليه، في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة 629م)، ثلاثة آلاف من خيرة رجاله، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس». وخرج هذا الجيش وخرج معه خالد بن الوليد متطوّعاً ليدلّ بحسن بلائه في الحرب على حسن إسلامه. وودع الناس أمراء الجيش والجيش، وسار محمد معهم حتى ظاهر المدينة، يوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار. ودعا عليه السلام ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلين: صَحِبكم الله ودفع عنكم وردّكم إلينا سالمين! وكان أمراء الجيش كلهم يفكرون في أخذ القوم من أهل الشام على غِرَّة منهم، على عادة النبي في سابق غزواته، فيسرع إليهم النصر ويعودون بالغنيمة. وسار القوم حتى بلغوا معان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم. لكن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم. فقام شُرَحْبيل عامل هرقل على الشام فجمع جموع القبائل ممن حوله، وأوفد من جعل هرقل يمدّه بجيوش من الإغريق ومن العرب. وتذهب بعض الروايات إلى أن هرقل نفسه تقدم بجيوشه حتى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس

وبهراء وبلى» تتحرك أيضاً للقائهم، فعقدوا مجلس حرب رأى بعضهم فيه أنه من الحكمة التوقف لأخذ أوامر جديدة من الرسول ﷺ على ضوء المستجدات، لكن «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه الشاعر كان مع التقدم بغض النظر عن كثرة العدو، قال: «يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيين إما ظهور وإما شهادة».

وهكذا أذكى بالجميع شرارة الإيمان، فحين لقوا العدو في مؤتة لقوهم بجرأة لا برصانة، فقتل «زيد» رضي الله عنه في غمار المعركة، وحين ترنح من يده عَلَمُ الرسول ﷺ وقبل أن يسقط التقطه «جعفر» رضي الله عنه، فدارت المعركة حوله لأن العلم كان هدف المتقاتلين دوماً، فدافع عنه بجرأة نادرة، فضربت يده التي يحمل فيها العلم، فحمله بالأخرى، وحين قطعت بدورها احتضنه بدمائه، فجاءته ضربة أطاحت ببيضة رأسه رضي الله عنه فسقط شهيداً في قلب ساحة المعركة، وهو متمسك بالراية حتى آخر لحظة، فالتقطها «عبدالله بن رواحة» رضي الله عنه ليسقط بدوره شهيداً، وحين رأى «خالد» القادة الثلاثة المسلمين يسقطون حول راية الإسلام التي تبناها حديثاً،

مائة ألف من الروم، كما انضم إليه مائة ألف أخرى من لَخْم وجُذَام والقَيْن وبَهْراء وبَلِيّ. ويقال إن تيودُور أخا هرقل هو الذي كان على رأس هذه الجيوش لا هرقل نفسه. وبلغ المسلمين وهم بمعان أمر هذه الجموع، فأقاموا بها ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذي لا قِبَل لهم به. قال قائلا منهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوّنا؛ فإما يمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. وكاد هذا الرأي يسود لولا أن تقدم عبد الله بن رواحة، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعراً، فقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحُسْنَيَيْنِ: إما ظهور وإما شهادة. وامتدت عدوى النخوة من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله؛ فقال الناس: فوالله صدق ابن رواحة! ومضوا، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مشارف. فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة أن رأوها خيراً من مشارف لتحصنهم بها. وفي مؤتة بدأت المعركة حامية الوطيس بين مائة أو مائتي ألف من جيوش هرقل وثلاثة آلاف من المسلمين.

بكاء محمد المستشهدين

لذلك ما كاد خالد والجيش معه يدنون من المدينة حتى تلقَّاهم محمد والمسلمون معه. وطلب محمد فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه. أما الناس فجعلوا يحثُّون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار، فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله: ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم

التقط هذه الراية التي ظلت خافقة بيده منذ تلك اللحظة، وراح بصوت جهوري يدعو المسلمين للتحلق حولها، ويفتح بزنده القوي الصفوف المعادية المتزاحمة عليه. ولأن أفعاله لا تحتاج إلى أي مبالغة لتقديرها، لذا يمكن الأخذ بقوله رضي الله عنه حين وصف المعركة بعد ذلك قال: «لقد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية». فإعصار سيفه رضي الله عنه وعصف حصانه باختراق الصفوف، أوصل المسلمين إلى إعادة تجمعهم حول رايتهم عبر هذا القتال المميت.

ثم فصل حلول الليل بين المتقاتلين، وبما أثبته جيشه من الصمود، استطاع بقيادته الحكيمة استغلال حلول الظلام، فأعاد تشكيلات قواته بتمركز ثم إعادة تمركز خدع العدو بعددهم، وجعلهم يظنون أن تعزيزات جديدة قد وصلت إليهم، لذلك تراجعوا بأول هجوم صباحي له، ثم أصبح تراجعهم هروباً فوضوياً أعمل سيف المسلمين في نحورهم، وعلى أثر ذلك عصف «خالد» بمخيمهم ووجد غنائم كثيرة. أما في ساحة المعركة فكانت جثة «جعفر» رضي الله عنه مثخنة بالجراح، لكن ولا جرح واحد إلا من أمامها، ولفضله وقرابته من الرسول ﷺ حمله «خالد» معه ليدفن مكرماً في المدينة(*).

ورغم أن الجيش قد عاد بغنائم كثيرة، فلم يدخل المدينة دخول المنتصرين بل سار

الكرّار إن شاء الله. ومع هذه التاسية من محمد للعائدين من مؤتة فقد ظل المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعودهم، حتى كان سلمة بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه: يا فرّار فررتم في سبيل الله. ولولا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة، ومن فعال خالد بنوع خاص، لظلّت مؤتة معتبرة بعض ما لطّخ به إخوانهم في الدين جبينهم من عار الفِرار.

وقد بلغ الألم من نفس محمد منذ علم بقتل زيد وجعفر، وحزّ الأسى في نفسه من اجلهما. لما أصيب جعفر ذهب محمد إلى منزله ودخل على زوجته أسماء بنت عُمَيس، وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم، فقال لها: ائتيني ببني جعفر. فلما أتته بهم تشمَّمهم وذرفت عيناه الدمع. قالت أسماء في لهف وقد أدركت ما أصابها: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم! وازدادت عيناه بالدمع تهتاناً. فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها. أما محمد فخرج إلى أهله فقال: لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم. ورأى ابنة

(*) لا يوجد لهذا الخبر أي مصدر عربي، وهو يخالف قوله تعالى: ﴿... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]. فلا نعتقد بخبر نقل «جعفر رضي الله عنه» ليدفن بالمدينة الذي يهدف منه «إيرفينغ» على ما أظن إضفاء الطابع القصصي على الحدث.

الجند خلف بعضهم بعزاء التشييع، وترافقهم آنات وبكاء النساء، وقد غلب الشعور بالنصر الشعور بخسارة أبطالهم المفضلين. فالكل متألم على مصير «جعفر» رضي الله عنه ينظر إلى جثته المسجاة التي تعود إلى المدينة بعد أن خرج منها منذ عهد قريب يتألق رجولة واعتزازاً. لقد ترك وراءه امرأة صبية جميلة وطفلاً، تأثر قلب الرسول ﷺ جداً لترملها، فحمل الطفل بين ذراعيه وهو يغسله بدموعه، وزاد من حزنه ﷺ عندما جاءت طفلة «زيد» حبيبه لتلتصق به، فحضنها ودموعه الشريفة تنساب على رقبتها.

وهذا الموقف الإنساني النبيل لا يتعارض مع كون المسلمين يعرفون ويثقون بأن الشهادة جواز دخول إلى الجنة[44]، إنها دموع الوفاء للأصدقاء والصحابة الخُلَّص.

وكانت جنازة «جعفر» رضي الله عنه في اليوم الثالث من قدوم الجيش «المدينة»، وقد هدأت خواطر الرسول ﷺ، فحدد للمسلمين حدود الحزن شرعاً بكل رفقته الإنسانية المعهودة ﷺ، لما في هذا الأمر من أهمية في مستقبل الجهاد الإسلامي، فعندما بلغه ﷺ: «أن النساء أعيننا وفَتَنَّنا، قال: إرجع إليهن فاسكتهن». كما قال ﷺ: «رأيت جعفر يطير في الجنة مع الملائكة» لذلك كان يقال لجعفر بعد قتله: «الطيار»[45] لدفاعه بكلتا يديه عن الإيمان الإسلامي، فقد عوضه الله تعالى عنهما بجناحين في الجنة حيث الفردوس والنعيم المقيم لكل المؤمنين وشهدائهم.

وبسبب قيادة «خالد» رضي الله عنه الحكيمة والشجاعة في هذه المعركة المشرفة، أعطاه الرسول ﷺ شرف لقب: «سيف الله» الذي عرف به بعد ذلك.

مولاه زيد قادمة فربّت على كتفيها وبكى. وأظهر بعضهم دهشة لبكاء الرسول على من استشهد؛ فقال ما معناه: إنما هي عبرات الصديق يفقد صديقه.

وفي رواية أن جثة جعفر حُمِلت إلى المدينة(*) ودُفنت بها بعد ثلاثة أيام من وصول خالد والجيش إليها. ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكفوا عن البكاء، فقد أبدل الله جعفر من يديه اللتين قُطعتا جناحين طار بهما إلى الجنة.

(*) نظن بأن «هيكل» قد نقل هذا الخبر عن «إيرڤينغ» بدون تمحيص.

الباب التاسع والعشرون

الفصل الأول

إذلال ورضوخ أبي سفيان

أخضع الرسول ﷺ بقوته وبحجته أو حتى بسلاحه عدداً كبيراً من القبائل حتى الآن، فأصبح لديه عدة آلاف من المحاربين تحت قيادته من أبناء الصحراء المعرضين دوماً إلى قلة مواردها وعطشها وجوعها وشمسها اللاهبة، والذين تربيهم الصحراء على أساس أن الحرب ضرب من الرياضة أكثر منها ورطة وشراكاً، فقد أصلح من توجهاتهم

قال هيكل:

نقض قريش عهد الحديبية

صلح الحديبية كان قد قضى أنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده فليدخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعهدهم فليدخل فيه. وكانت خُزاعة قد دخلت في عهد محمد، ودخلت بنو بكر في عهد قريش. وكانت بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحُديبية وانحياز كل من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين. فلما كانت مؤتة وخيل إلى قريش أن المسلمين قضي عليهم، خُيل إلى بني بُدَيل من بني بكر بن عبد مناة أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة، وحرَّضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش وأمدوهم بالسلاح. وبينما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوَتير إذ فاجاتهم بنو بكر فقتلوا منهم، ففرّت خزاعة إلى مكة ولجئوا إلى دار بُدَيْل بن ورقاء، وشكوا إليه نقض قريش ونقض بني بكر عهدهم مع رسول الله، وسارع عمرو بن سالم الخزاعيّ فغدا متوجهاً إلى المدينة حتى وقف بين يدي محمد وهو جالس في المسجد بين الناس، وجعل يقصّ ما حدث ويستنصره. قال رسول الله: «نُصِرتَ يا عمرو بن سالم». ثم خرج بُديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة، فاخبروا النبي بما أصابهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم. عند ذلك رأى النبي أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكة، وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين في أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء.

الحربية هذه، وأعطاهم النظام في غزواتهم، فأخضعها إلى قواعد أخلاقية ودينية، وعزز من هذا إنتصاراتهم المتتابعة مما أعطاهم ثقة بأنفسهم وبقيادتهم، فتبعوا علمه ﷺ بانضباطية وخضوع الجنود، وولائهم المطلق لصحابته ﷺ.

وعبر هذا انتشرت آراء الرسول ﷺ ففتحت أمامه آفاقاً كبيرة للمبادرة، ومكة مدينته ﷺ التي منها عائلته الراسخة منذ أجيال، ومربع طفولته لا زالت بأيدي مناهضيه، والكعبة قبلة كل أبناء «إسماعيل»، ورمز عباداتهم لا زالت خاضعة لشعائر الشرك بالله، تنتظر علم الإسلام ليرفع على أسوار مكة لإنقاذها من تعددية الآلهة وإعادتها إلى العبادة الروحية الحقة لإله واحد حق، لذلك صارت هدفاً أساسياً من أهدافه ﷺ التي يطمح إليها.

لكن المعاهدة التي أبرمها ﷺ مع قريش كانت تحظر أي عمل عسكري، إلا أن بعض التعديات والمعارك الصغيرة بين أتباع قريش والمسلمين، فتحت المجال لنقض هذه المعاهدة، إضافة إلى أن مشركي قريش قد تعلموا تقدير جرأة الرسول ﷺ وقوة الإسلام المتنامية، فصاروا على استعداد ورغبة بإنهاء الصراع وعزوه إلى بعض الرؤوس الفارغة من قياداتهم ولومهم على ذلك، حتى أنهم أرسلوا قائدهم «أبا سفيان» إلى المدينة كسفير لهم للمطالبة بالسلام، من منطلق إمكان أن يكون له بعض التأثير على الرسول ﷺ عبر ابنته «أم حبيب».

مخاوف حكماء قريش

أما حكماء قريش وذوو الرأي فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عكرمة ومن معه من الشبان من خطر. فهذا عهد الحُديبية قد نُقِض، وهذا سلطان محمد في شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة. ولئن فكر بعد الذي حدث في أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتتعرضنَّ المدينة المقدسة لأشدّ الخطر. فماذا تراهم يصنعون؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليثبت العقد وليزيد في المدة. ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشراً. وخرج أبو سفيان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة فلما بلغ من طريقه عُسْفَان. لقيه بُديل بن ورقاء وأصحابه، فخاف أن يكون قد جاء محمداً وأخبره بما حدث، فيزيد ذلك مهمته تعقيداً. وقد نفى بُديل مقابلته محمداً لكنه عرف من بعر راحلة بُديل أنه كان بالمدينة. لذلك آثر الا يكون محمد أول من يلقى، فيجعل وجهته بيت ابنته أم حَبِيبة زوج النبيّ.

أبو سفيان بالمدينة

ولعلها كانت قد عرفت عواطف النبي إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه في أمر مكة. ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعاً. فقد أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبي

وكان من الصعب على «أبي سفيان» أن يقوم بهذه المهمة مع الرجل الذي أنكره كل هذه المدة واعتبره خارجاً عن قومه، وعامله بكل تلك القسوة التي أشرنا إليها والعداء، ومن لعنة القدر على روحه الأبية القبول بتقشف محمد ﷺ وتواضعه، والحكم عبر هذا التواضع بضعفه وضعف حزبه، ولكونه قد عرف أنه أُخضِعَ حربياً، ذهب للاستعطاف دون أن يلقى أي جواب!!

فحمل على نفسه وذهب إلى «أبي بكر» رضي الله عنه ثم «عمر» رضي الله عنه ثم «علي» رضي الله عنه ليتوسطوا له، لكنهم جميعاً رفضوه أيضاً لكي لا يعارضوا رغبة الرسول ﷺ ولما أيس منهم ذهب إلى «فاطمة» رضي الله عنها ابنة الرسول ﷺ وزوجة «علي» رضي الله عنه يستعطفها طالباً منها أن تجعل «الحسن» رضي الله عنه طفلها ذا السنوات الست فقط شفيعاً وحامياً له، ليشد العقد ويزيد مدة العهد، فأجابته: «والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على النبي ﷺ». حتى ابنته «أم حبيب» حين دخل عليها، فلما «ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أو رغبت به عني؟ فقالت: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراشه»[46] فطفح كيل الإهانات التي تلقاها، فوبخ ابنته قائلاً: «يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر!!» لكنه تحامل وعاد إلى «علي» رضي الله عنه يطلب نصحه من هذه السفارة اليائسة له، قائلاً: «يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني. قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك... فأجر

فطوته أم حبيبة. فلما سألها أبوها: أطوته رغبة بأبيها عن الفراش، أم رغبة بالفراش عن أبيها؟ كان جوابها: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحبّ أن تجلس عليه. قال أبو سفيان: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر! وخرج مُغضباً. ثم كلّم محمداً في العهد وإطالة مدته، فلم يرد بشيء. فكلم أبا بكر ليكلم له النبيّ، فأبى. فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له في الرد وقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله! فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به. ودخل أبو سفيان على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة، فعرض عليه ما جاء فيه و استشفعه إلى الرسول؛ فأنبأه عليٌّ في رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمداً عن أمر إذا هو اعتزمه. واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنها الحسن بين الناس. فقالت: ما يُجير أحد على رسول الله. واشتدّت الأمور على أبي سفيان فاستنصح عليّاً؛ فقال له: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك شيئاً. لكنك سيِّد بني كِنَانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك؛ وما أظن ذلك مغنياً، ولكني لا أجد لك غيره. فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس. ثم ركب راحلته وانطلق ذاهباً إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقي من هوان على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة يرتجون منه نظرة عطف أو رضا.

بين الناس ثم الحق بأرضك... فقام «أبا سفيان» إلى المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس»[47] وعاد إلى مكة مهاناً فاقداً كبرياءه غير متمم لمهمته، وحين عرف القريشيون أن الرسول ﷺ لم يجز ذلك وقعوا بخيبة الأمل، وأدركوا فشل المهمة السلمية معه ﷺ، وأن لا شيء بعد الآن يمكنه أن يتم دون إرادة الرسول ﷺ.

عاد أبو سفيان إلى مكة؛ فقصَّ على قومه ما لقي بالمدينة وما أجار بين الناس في المسجد بمشورة عليّ، وأن محمداً لم يجز جواره. قال قومه: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. وعادوا فيما بينهم يتشاورون.

الباب الثلاثون

الفصل الأول

اعتقال أبي سفيان

على أثر كل هذا بدأ الرسول ﷺ بتهيئة الاستعدادات لأخذ «مكة المكرمة»، فجمع حلفاءه من أصقاع «المدينة» دون أن يحدد لهم هدف غزوته كما أنه ﷺ تجنب السير بكل الطرق المعروفة التي تؤدي إلى الوصول إلى مكة كي لا تنقل عيون قريش لهم تحركاته، ورغم كل هذه الاحتياطات كاد أن يُكْشَف سره ﷺ هذا من خلال أحد أتباعه: «حاطب بن أبي بلتعة» الذي كتب إلى أهل مكة يذكر أن رسول الله ﷺ أراد غزوهم، فَدُل رسول الله ﷺ على المرأة التي معها الكتاب، وكان اسمها «سارة» وهي من عبيد

قال ابن كثير:

وقام إليّ. فلما رأى - أي عمر «رضي الله عنه» - أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد.

وزعم عروة بن الزبير أن عمر وجأ في رقبة أبي سفيان وأراد قتله فمنعه منه العباس.

وهكذا ذكر موسى بن عقبة، عن الزهري، أن عيون رسول الله ﷺ أخذوهم بأزمة جمالهم فقالوا: من أنتم؟ قالوا: وفد رسول الله ﷺ. فلقيهم العباس فدخل بهم على رسول الله فحادثهم عامة الليل ثم دعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله فشهدوا، وأن محمداً رسول الله. فشهد حكيم وبُديل وقال أبو سفيان: ما أعلم ذلك ثم أسلم بعد الصبح. ثم سالوه أن يؤمِّن قريشاً فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن - وكانت بأعلى مكة - ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن - وكانت بأسفل مكة - ومن أغلق بابه فهو آمن» قال العباس: ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء.

قال: فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه؟ قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته. ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل.

«بني هاشم» فأرسل «علياً» رضي الله عنه إليها وهي في الطريق إلى مكة، فأخذ الكتاب من رأسها حيث أخفته، ثم أحضر الرسول ﷺ «حاطب» وقال له: «يا حاطب أفعلت»، قال: نعم. قال: أما إني لم أفعله غِشاً لرسول الله ﷺ ولا نفاقاً، قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم أمره، غير أني كنت غريباً بين ظهرانيهم، وكانت والدتي معهم، فأردت أن أتخذ يداً عندهم، فقال عمر: ألا أضرب رأس هذا؟ فقال: «أتقتل رجلاً من أهل بدر؟ وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم»(48).

في هذه اللحظات التاريخية اتكل الرسول ﷺ على الله تعالى، وتحرك بقوة قدرها عشرة آلاف مقاتل، وكان «عمر» رضي الله عنه مسؤولاً عن تنظيم الجند، وتسييرهم عبر شعاب الجبال مانعاً ضرب الطبول وأبواق القتال، أو أي ضجة تكشف هدف تحركهم، وأثناء هذا المسير التحق عم الرسول ﷺ العباس به قادماً بعائلته من مكة ليلحق بالإسلام، فتلقاه الرسول ﷺ بكل إكرام مع الإشارة إلى تأخره بالإيمان مشيراً إلى أنه كما هو ﷺ آخر الرسل، كذلك «العباس» رضي الله عنه آخر المهاجرين؟! فأرسل «العباس» رضي الله عنه أسرته إلى المدينة، والتحق بالجيش، وهكذا بلغ الجيش «مر

فلما اكثر عمر في شانه قال قلت: مهلاً يا عمر! فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطّاب لو أسلم! وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به».

* * *

قال: فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يان لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» فقال: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد!

قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يان لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً!

فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك؟

قال: فشهد شهادة الحق فأسلم.

قال العباس: فقلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً.

الظهران» قرب «مكة المكرمة» دون أن يُكْشَف، فخيم بهدوء مع حلول الظلام بها، وصدر الأمر لعمر رضي الله عنه بالسماح لهم بإيقاد نيرانهم الليلية لأول مرة منذ تحركهم.

ورغم أن العباس رضي الله عنه قد قبل بالإسلام ديناً، إلا أنه خاف على قريش من أن يدمرها ابن أخيه ﷺ بهذا العدد الضخم من الجند، وعلى جنح الظلام ركب بغلة الرسول ﷺ البيضاء واتجه صوب قريش، وبينما كان يخترق مخيم المسلمين سمع ضوضاء نجمت عن كشافة عادوا بأسيرين إلى المخيم، وعندما اقترب العباس رضي الله عنه وجد أن أحدهما «أبو سفيان» مع أحد قادته، وهما يقادان إلى مركز مراقبة «عمر» رضي الله عنه الذي عرف «أبا سفيان» فوراً بدوره، فقال: من هذا؟.... فلما رأى «أبو سفيان» على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم وجأ «أبو سفيان» بحربته في رقبته وأراد قتله، فمنعه منه العباس رضي الله عنه حتى يبت بأمره رسول الله ﷺ، فانطلق «عمر» رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ ليأخذ أمره فيه، لكن «العباس» رضي الله عنه أردف «أبا سفيان» على دابته وسبقه إلى خيمة الرسول ﷺ.

وهكذا وقع بيد الرسول ﷺ عدوه الذي أخرجه من بيته وأرضه، واضطهد

قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» زاد عروة: «ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن» وهكذا قال موسى بن عقبة عن الزهري «ومن اغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرَّ به جنود الله فيراها».

وذكر موسى بن عقبة عن الزهري أن أبا سفيان وبُديلاً وحكيم بن حزام كانوا وقوفاً مع العباس عند خطم الجبل، وذكر أن سعداً لما قال لابي سفيان:

اليومُ يوم المَلْحمة: اليوم تُستَحَلُّ الحُرمة

فشكا أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فعزله عن راية الانصار وأعطاها الزبير بن العوام فدخل بها من أعلى مكة وغرزها بالحجون، ودخل خالد من أسفل مكة فلقيه بنو بكر وهذيل، فقتل من بني بكر عشرين ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، وانهزموا فقُتلوا بالحزورة - سوق مكة - حتى بلغ قتلهم باب المسجد.

قال العباس: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن احبسه.

عائلته ﷺ وآل بيته وأصحابه، رغم أنه والد زوجته «أم حبيب» وهذا يمس سماحته ﷺ(*) لذلك أرجأ أمره إلى الصباح وتركه بعهدة العباس رضي الله عنه.

وعندما أحضر في الصباح للحضرة النبوية الشريفة قال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله»؟! فقال: بأبي أنت وأمي! ما أحلمَك وأكرمَك وأوصلَك!... قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»..... قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس مها حتى الآن شيئاً[49]! فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك؟

قال: فشهد.

وهكذا أثبت العباس رضي الله عنه صداقته الحقيقة «لأبي سفيان» الذي لا يمكن إقناع رأسه العنيد شأن كل رؤوس الشرك إلا بسيف الحق.

وبمجرد أن دخل «أبو سفيان» في الإسلام راح يعمل على إيصال قريش إلى أفضل الشروط الممكنة لإنقاذهم وإنقاذ سكان مكة إذا قبلوا مثله بالإسلام ديناً، فلم يخرج من عند الرسول ﷺ إلا بعهد لهم؟!

قال العباس: فقلت يا رسول الله: «إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً».

قال: ومرّت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: سُليم. فيقول: ما لي ولسليم: ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مُزينة. فيقول: ما لي ولمزينة. حتى نفدت القبائل ما تمرُّ به قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته قال: ما لي ولبني فلان. حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يُرَى منهم إلا الحدق من الحديد؟ فقال: سبحان الله يا عباس! من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقةٍ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!

قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن.

قال: قلت النَّجاء إلى قومك.

(*) وهذا أكبر دليل على أن «أبا سفيان» هو الذي أفاد من مصاهرة الرسول ﷺ لا العكس كما توهم كثيراً من المؤرخين.

قال: نعم... من دخل دار أبي سفيان فهو آمن... ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن(50).

ومر «أبو سفيان» بطريق عودته إلى مكة ليخبر سكانها بمدى قوة هذا الجيش الغازي، مر مع العباس بمضيق يستطيع رؤية الجيش منه، وبه القبائل العربية المختلفة بكامل عدتها وعتادها، حيث راح العباس رضي الله عنه يسميها له واحدة واحدة ـ لعلمه بالأنساب ـ ومن أين أتت، فأذهل أبا سفيان عددها وعدتها، وانضباطها، لأن المسلمين كانوا يتقدمون بسرعة في استعمال أحسن تجهيزات القتال وفنون الحرب، وعندما اقترب الرسول ﷺ من وسط هذه القوات المختارة بحرسه، والمسلحة بكل أصناف السلاح ورجالها يلمعون تحت زرد الحديد، كانت دهشة «أبي سفيان» فائقة، وعبر عن ذلك بقوله للعباس رضي الله عنه: «ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقةٍ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداةَ عظيماً»؟

قال: قلت: «يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن:

قال: قلت النجاء إلى قومك»(51).

وقال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: وقد كان رسول الله ﷺ عَهِد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، غير أنه أهدر دم نفر سمَّاهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان قد أسلم وكتب الوحيَ ثم ارتدَّ، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقد أهدر دمه فرَّ إلى عثمان وكان أخاه من الرِّضاعة، فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم».

فلما انصرف مع عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله» فقالوا: يا رسول الله هلاَّ أومأت إلينا؟ فقال: «إن النبي لا يقتل بالإشارة».

وفي رواية: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين».

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان.

وقال يونس بن بكير وغيره، عن هشام بن عروة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ أمر بلالاً عام الفتح فأذَّن على الكعبة ليغيظ به المشركين.

* * *

وقال محمد بن سعد، عن الواقدي، عن محمد بن حرب، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي إسحاق، أن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً فقال في نفسه: لو جمعتُ لمحمد

الفصل الثاني

الدخول إلى مكة المكرمة

وهكذا أسرع «أبو سفيان» إلى مكة ليحذرهم من استحالة مقاومة رسول الله ﷺ، وليخبرهم بالقوة الهائلة التي ستجتاحهم فيما لو استمروا على عنادهم، وبالشروط المفضلة التي استطاع أن يحصل عليها لهم إذا أعلنوا خضوعهم، وباستحالة أي دفاع أو مقاومة. ولأن «أبا سفيان» كان بحد ذاته أحد أهم محركي روح العداء والمقاومة للرسول ﷺ وأصحابه، كان لكلماته تأثير مباشر وفعال، وبدت البديل الوحيد للوضع الذي هم فيه، لذلك تهيأ أغلب سكان المدينة لاستقبال الفاتحين، دون أي مقاومة.

جمعاً؟ فإنه ليحدِّث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال: «إذاً يخزيك الله!» قال: فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال: ما أيقنت أنك نبيٌّ حتى الساعة.

قال البيهقي: وقد أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ـ إجازة ـ أنبأنا أبو حامد أحمد بن الحسن المقري، أنبأنا أحمد بن يوسف السُّلمي، حدثنا محمد بن يوسف الفِرْيابي، حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي السَّفَر، عن ابن عباس، قال: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطأون عقبيه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال؟

فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده في صدره فقال: «إذاً يخزيك الله».

فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوَّهت به.

فجلس لهم ـ فيما بلغني ـ على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

قال: فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة مُتنقِّبة متنكرة بحديثها لما كان من صنيعها بحمزة.

فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك، فلما دنين من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال: «بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً» فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال.

«ولا تسرقن» فقالت: والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان ـ وكان شاهداً لما تقول ـ: أما ما أصبت

لكن الرسول ﷺ لم يكن متأكداً من سلوكهم، لذلك وزع قواته ﷺ بحذر، وهو يتقدم نحو المدينة، فبينما تحرك وسط الجيش مباشرة نحوها، كانت الميمنة والميسرة القوية لهذا الجيش تدخل أطرافها، وقد حمل «علي» رضي الله عنه علم الرسول ﷺ المقدس وهو يدخل على رأس القوة الرئيسية لفرسان الجيش جبل «الحجون»، حيث ركز العلم هناك بانتظار قدوم الرسول ﷺ. كذلك تلقى كل القادة أوامر محددة بأن لا يبدؤا أي قتال، ويضبطوا أنفسهم، فتلك كانت رغبة الرسول ﷺ الصادقة بالفوز بمكة المكرمة سلماً وبهدوء، بدل العصف بها بالقوة والعنف، ورغم أن كل من قام بالمقاومة المسلحة قضي عليه، إلا أن المستسلمين بهدوء استثنوا من الهجوم، وحين عبر القائد «سعد بن عبادة» عن مخالفة ذلك بقوله: «اليوم يوم الملحمة. اليوم تستحل الحرمة». أمر الرسول ﷺ براية الأنصار أن تؤخذ منه، ودفعها إلى غيره.

وبذلك دخل معظم الجيش دون إراقة دماء، ودخل الرسول ﷺ مع قوات المؤخرة وعليه ﷺ عباءة بنفسجية، على ناقته المفضلة «القصواء»، يتحرك ببطء، محاطاً بصحابته

فيما مضى فأنت منه في حِلٍّ.

فقال رسول الله ﷺ: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

ثم قال: «ولا يزنين» فقالت: يا رسول الله وهل تزنى الحرة!

ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن» قالت: قد ربَّيناهم صغاراً أفنقتلهم كباراً؟ فأنت وهم أعلم! فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرق.

ثم قال: «ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن» فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل.

ثم قال: «ولا يعصينني» فقالت: في معروف. فقال رسول الله ﷺ لعمر: «بايعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم».

قال ابن إسحاق: فحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف، عن أبي جعفر محمد بن علي، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً. ومعه قبائل من العرب وسُلَيم بن منصور ومُدْلج بن مرة، فوطئوا بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أصحابنا من أهل العلم من بني جذيمة قال: لما أمرنا خالد أن نضع السلاح قال رجل منا يقال له جَحْدَم: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد! والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً.

المفضلين حتى وصل إلى «الحجون» حيث ركز «علي» رضي الله عنه علم الإسلام، ووضعت له ﷺ خيمة هناك، حيث نزع عباءته، واعتمر عمامة سوداء على رداء الحج الأبيض، والجيش الذي تلمع حرابه من كل صوب يرقبه وهو ينتشر على شعاب وهضاب مكة. أما «خالد» رضي الله عنه الذي كان يقود مسيرة الجند بمهارته العسكرية المعهودة ومعه قوات دخلت لتوها بالإسلام، قد سرها ظهور بعض المقاومة بالسهام من بعض القريشيين، فانطلق محاربوها الناريون نحوهم بالرماح والسيوف، لكن العدو فر من أمامهم ودخل بسرعة إلى أسوار المدينة، فاقتحموا هذه الأسوار خلف «خالد» رضي الله عنه، وكادت المدينة أن تشهد مذبحة لولا الأوامر السريعة التي وصلت من الرسول ﷺ بوقف القتال فوراً.

ولم تظهر أي مقاومة أخرى عقب إيقاف هذا القتال، فنزل «الرسول ﷺ» من جبل «الحجون» نحو بوابة المدينة، راكباً ناقته وعلى يمينه «أبو بكر» رضي الله عنه وخلفه «أسامة بن زيد»، وكانت الشمس تشرق حين ذلك مع دخوله ﷺ إلى بوابة مكة المكرمة

قال: فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جَحْدَم أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحربُ وآمن الناس.

فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم لقول خالد.

قال ابن إسحاق: فقال حكيم بن حكيم عن أبي جعفر قال: فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكُتِّفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم.

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد».

قال هيكل:

تجهيز المسلمين لفتح مكة

أما محمد فقد رأى ألا يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه. ولئن كان واثقاً من قوته ومن نصر الله إياه، ولقد كان يرجو أن يبغت القوم في غرة منهم، فلا يجدوا له دفعاً، فيُسلموا من غير أن تُراق الدماء. لذلك أمر الناس بالتجهز. فلما تجهزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ.

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً أعطاه امرأة من مكة مولاةً لبعض بني عبد المطلب تسمى سارة، وجعل لها جُعْلاً على أن تبلّغه قريشاً ليقفوا على ما أعد محمد لهم، وحاطب كان من كبار المسلمين، ولكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى في بعض الأحيان عليها، وتهوي بها إلى ما لا ترضاه هي لنفسها. وما لبث محمد أن أحيط بالأمر

مدينته التي كانت محرمة عليه، والآن يدخلها دخول الأبطال الفاتحين دون أي كبرياء، بل على العكس بتواضع الحاج إليها. دخلها وهو يردد آيات من القرآن الكريم، نزلت عليه في المدينة تنبئه بالفتح، وهكذا كان نصره نصر الإيمان لا نصر المحاربين. قال: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [سورة الفتح: 26].

ثم اتجه الرسول ﷺ براحلته إلى الكعبة مباشرة والبيت العتيق الذي عبد الله فيه كل الأنبياء الأقدمون، فطاف حولها ﷺ سبعة أشواط يلمس الحجر الأسود كل مرة بعصاه ﷺ. ولم يدخل الكعبة الشريفة لأن مفاتيحها كانت مع «عثمان بن طلحة» سادن مفاتيحها الشريفة فأحضرها له «علي» رضي الله عنه فوراً، لكن الرسول ﷺ أعادها له، كحق لأسرته التي أعطته ﷺ قلوبها بعد ذلك، فاعتنق «عثمان» الإسلام فوراً وفتح للرسول ﷺ أبواب الكعبة الشريفة بالحال(52).

خبراً. فسارع فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام فأدركا سارة فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً. فأنذرها عليّ إن لم تخرج الكتاب ليكشفنها. فلما رأت المرأة الجد منه قالت: أعرض. فحلت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب منها، فردَّاها إلى المدينة. ودعا محمد حاطباً يسأله ما حمله على ذلك؟ قال حاطب: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما غيرت ولا بدّلت، ولكني كنت أمرءاً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. قال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق. قال رسول الله: وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وكان حاطب من أصحاب بدر. وإذا ذاك نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1].

مسيرة جيش المسلمين

وتحرك جيش المسلمين من المدينة قاصداً مكة ليفتحها، وليضع يده على البيت الحرام الذي جعله الله مثابةً للناس وأمناً. تحرَّك هذا الجيش في عدد لا عهد للمدينة به فقد بعثت القبائل، من سُلَيم ومزينة وغطفان وغيرها من انضم إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم في يلب الحديد يسيلون في فسيح الصحراء، حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شيء. تحركوا وأغذّ هؤلاء الألوف سيرهم، وصاروا كلما تقدموا فيه انضم إليهم من سائر القبائل من زاد عددهم وزاد منعتهم، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله. وسار محمد على رأسهم وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام

الفصل الثالث

الشعائر الدينية

إثر ذلك اتجه الرسول ﷺ لتنفيذ الهدف الأساسي من نزول الوحي عليه ﷺ، وهو تطهير الرموز الدينية من الاشارات الوثنية المحتشدة فيها، فكل الأصنام التي كانت بالكعبة الشريفة وحولها، والتي كان عددها يزيد عن ثلاثمئة وستين صنماً حطمت، ومن جملتها صنم «هبل» الذي أحضر أساساً من «بلقاء سورية» ونسبت له الأساطير أن له قدرة على جلب الغيث وإنزال المطر، فكان مصدر عبادة رئيسية في الجاهلية بين سكان الصحراء، وبعد أن حطمه الرسول ﷺ أخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل ومريم عليهم

من غير أن يهرق قطرة دم واحدة. وبلغ الجيش مرَّ الظهران وقد كملت عدَّته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر، فهي في جدل مستمر ماذا تصنع لاتقاء عداوة محمد عليها.

خروج بني هاشم إلى النبي وإسلامهم

أما العباس بن عبد المطلب عم النبي فقد تركهم في جدلهم وخرج مع أهله حتى لقي محمداً بالجُحفة(*). ولعل طائفة من بني هاشم كانت بنبأ أو شبه نبأ من خروج النبي، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى. فقد خرج سوى العباس أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبي، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عمَّته، حتى اتصلا بجيش المسلمين بنيق العُقاب، واستأذنا على النبيّ، فرفض أن يأذن لهما، وقال لزوجه أم سلمة حين كلمته في أمرهما: لا حاجة لي بهما. أما ابن عمي فقد أصابني منه سوء. وأما ابن عمتي وصهري فقد قال بمكة ما قال. وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال: والله ليؤذننَّ لي أو لآخذن بيد بني هذا ثم لنذهبنَّ

(*) ويذهب بعض كتاب السير إلى أنه لقي الجيش برابغ. أما آخرون فيقولون إن العباس ذهب إلى المدينة قبل التصميم على فتح مكة وأسلم وسار مع جيش الفتح. ويدحض كثيرون هذه الرواية ويزعمونها وضعت إرضاء للعباسيين الذين كتبت السيرة أول ما كتبت في عهدهم. ويؤيدون رأيهم بأن العباس، على نصرته لابن أخيه مذ كان بمكة، لم يتابعه على دينه، لأن العباس كان تاجراً أو مرابياً، وكان يخشى ما يجره الإسلام على تجارته من مضرة. ويزيدون أنه لو كان العباس قد أسلم وهاجر، لكان في مقدمة من ذهب إليهم أبو سفيان للتحدث في إطالة مدة عهد الحديبية لقرب عهده بمكة.

السلام وفي أيدي إبراهيم وإسماعيل الأزلام، فقال ﷺ: «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قط»[53] وأزيلت هذه الصور كما أزيلت كل الصور داخل الكعبة الشريفة، وصور الملائكة على هيئة نساء، فقد أوضح ﷺ أن هذه ليست هيئة الملائكة فهم مخلوقات روحية بحتة لطيفة إلى درجة لم يجعل الله تعالى فيها أيّ شكل أو صورة جنس، حتى تمثال حمامة منحوت من الخشب كسره الرسول ﷺ بيديه الشريفتين وألقاه أرضاً لأنه يحمل معنىً وثنياً.

ومن الكعبة اتجه ﷺ إلى بئر «زمزم» المقدس، الذي أُوحي إلى «هاجر» عليها السلام «أم إسماعيل» عليه السلام بمكانه، فظل يُعْتَبَرُ بئراً مقدساً عند المسلمين، وعندما اقترب من البئر قدم له عمه العباس رضي الله عنه شربة ماء منه، فعين عمه ﷺ مسؤولاً عن السقاية، وهو مركز ذو أهمية واحترام لا زال نسله يتوارثونه إلى اليوم.

وعند الظهر أمر الرسول ﷺ «بلالاً» رضي الله عنه فأذن فوق الكعبة ليغيظ به المشركين[54]، ولتتردد صدى كلمة: «الله أكبر» فوق كل صوت أو حدث حدث بمكة المكرمة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فرقَّ محمد، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

ورأى العباس بن عبد المطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوته ما راعه وأزعجه. وهو إن كان أسلم فإن ذلك لم يُخْلِ قلبه من خشية ما يحل بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذي لا قِبَلَ لقوة في بلاد العرب به. أوليس قد ترك مكة منذ حين، وله بها من الأهل والخلاَّن والأصدقاء من لم يقطع الإسلام الذي دان به من وشائجهم! ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله؛ ماذا يصنع إذا ما طلبت قريش أمانه؟ ولعل ابن أخيه سُرَّ بمفاتحة العباس إياه في هذا، ورجا أن يتخذ منهم سفيراً يلقي في قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك دماً، وتظل مكة حراماً كماكانت وكما يجب أن تكون. وجلس العباس على بغلة النبي البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك، لعله يجد حطاباً أو صاحب لبن أو أي إنسان ذاهباً إلى مكة، يحمله إلى أهلها رسالة بقوة المسلمين وبأس جيوشهم، حتى يخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوةً. وكانت قريش قد بدأت، منذ نزل المسلمون مر الظهران، تشعر بأن خطراً يقترب منها؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب، وبُديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام قريب خديجة، يتنسطون الأخبار، ويستطلعون مبلغ الخطر الذي تحس قلوبها. وإن العباس ليسير على بغلة النبيّ البيضاء إذ سمع حديثاً بين أبي سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء كذلك يجري:

أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قطُّ ولا عسكراً.

بُديل: هذه والله خُزاعة حَمَشتها الحرب.

أبو سفيان: خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

الفصل الرابع

معاملة الخصوم

وبعد أن أتمّ الرسول ﷺ شعائر الإسلام في الكعبة جعل مركزه ﷺ في «الصفا» وراح كل سكان مكة رجالاً ونساء يمرون أمامه ليبايعوه بالإسلام وبرسالته ﷺ ويعلنوا تركهم للشرك بالله، وهذا ما تنبأ به القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سورة الفتح: 28]. ولم يأخذ منهم أي «جزية» أو يعاقبهم على فعالهم السابقة، وحين كلمه أحدهم فأخذته الرعدة قال له ﷺ: «هوِّنْ عليك فإنما أنا ابن امرأةٍ من قريش تأكل القديد ـ اللحم المجفّف ـ»[55].

وإذا لم تقابل سماحته ﷺ مع هؤلاء الناس إلا بمزيد من الخسّة ظلوا بعد أن أطلقهم على باب الكعبة بعد أن سألهم قائلاً: «يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعل

أبو سفيان في حضرة الرسول

وعرف العباس صوت أبي سفيان، فناداه بكنيته قائلاً: أبا حَنْظَلَة! وأجاب أبو سفيان بدوره: أبا الفضل. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان؟ هذا رسول الله في الناس. وا صباحَ قريش إذا دخل مكة عنوةً! قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ فأركبه العباس في عجز البغلة ورد صاحبيه إلى مكة وسار به. والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمر بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقي الرعب في قلب مكة وأهلها. فلما مرت بنار عمر بن الخطاب ورآها عرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يُجيره، فاسرع إلى خيمة النبي وطلب إليه أن يضرب عنقه. قال العباس: إني يا رسول الله قد أجرته. إزاء هذا الموقف في تلك الساعة من الليل، وبعد مناقشة لا تخلو من حدة بين العباس وعمر قال محمد: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فاتني به. فلما كان الصباح، وجيء بأبي سفيان في حضرة النبي ويمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار، جرى الحوار الآتي:

النبي: ويحك يا أبا سفيان ألم يان لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!

أبو سفيان: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد.

بكم»؟ قالوا: «أخ كريم وابن أخ كريم» قال: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء»[56]. لكن الطلقاء ظلوا يتحرشون بأصحابه ﷺ، فظهر على الفاتحين تململ منهم، لكنه ﷺ حرم مكة بكل حزم عن الدماء إلى يوم البعث، وترك هذا اليوم يومَ الفتح استثناءً ليعاقب عدد قليل من مجرمي قريش ممن فحش ضدّه وضدّ الإسلام، لكنه حددهم ﷺ بالاسم، ورغم ذلك كان يعفو عن الكثير منهم.

ومن بين نساء قريش التي جاءت لتبايع الرسول ﷺ على «الصفا» كانت المقيتة على قلبه ﷺ «هند»، زوجة «أبي سفيان» المرأة المتوحشة التي كانت إضافة إلى كونها المحرضة الرئيسية للمشركين في «أحد» لائكة قلب وكبد «حمزة» رضي الله عنه بعد أن غدره عبدها «وحشي» ثأراً لمصرع أبيها وأخوتها، وإذ تقدم اليوم للبيعة فهي لكي تتجنب الثأر منها، وعندما حدقها الرسول ﷺ بنظرة ألقت نفسها عند قدميه قائلة: أنا هند، العفو يا رسول الله؟ فلما عفا عنها وهدأت وجلست لتبايع مع النساء قال: «بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً. فقالت هند: والله أنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال؟!

ولا تسرقن! فقالت: والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان ـ وكان شاهداً لما تقول ـ أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه حل.

النبي: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!

أبو سفيان: بأبي وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما والله هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

فتدخل العباس موجهاً القول إلى أبي سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضْرَبَ عنقه. ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم. فتوجه العباس بالقول إلى النبي عليه السلام: يا رسول الله؛ إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال رسول الله: «نعم! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

هذه الوقائع وارد عليها اتفاق المؤرخين وكتاب السيرة جميعاً إلا أن بعضهم يُسائل: أهي قد حدثت كلها بمحض المصادفة؟ فخروج العباس إلى النبي كان قصده منه أن يذهب إلى المدينة فإذا هو يلقى جيوش المسلمين بالجحفة، وخروج بديل بن ورقاء مع أبي سفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع، مع أن بديلاً ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصّ على النبي ما لقيت خزاعة وعرف من النبي أنه ناصرها، وخروج أبي سفيان كان جهلاً منه بأن محمداً قد سار لغزو مكة! أم أن شيئاً من الاتفاق، قليلاً أو كثيراً، كان قد حدث قبل ذلك، وأن هذا الاتفاق هو

فقال رسول الله ﷺ: «وأنك «الهند بنت عتبة»؟ قالت: نعم فأعفُ عما سلف، عفا الله عنك.

ثم قال: ولا يزنين!! فقالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟ ثم قال: ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغاراً أفنقتلهم كباراً؟ وأنت بمن قتلهم ـ وهم ـ أعلم... ثم قال: ولا يعصينني، فقالت: في معروف. فقال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه: بايعهن واستغفر لهن، إن الله غفور رحيم»(57). وهكذا جعل الرسول ﷺ القداسة بالرحمة وكظم الغيظ.

الذي أخرج العباس للقاء محمد، وأن هذا الاتفاق هو الذي جمع بين العباس وأبي سفيان، وأن ابا سفيان كان قد وثق، منذ ذهب إلى المدينة ليمدّ في عهد الحديبية ورجع صفر اليدين، بأن لا سبيل لقريش إلى رد محمد، وأيقن أنه إذا مهد للفتح السبيل فستبقى له رياسته في مكة ومقامه الكبير فيها، وأن الذي ربما كان وقع عليه الاتفاق من ذلك لم يتعدّ محمداً والأشخاص الذين يعنيهم الأمر، بدليل ما همّ به عمر من قتل أبي سفيان؟ من المغامرة أن نحكم. لكنا نستطيع أن نقرر ـ مطمئنة نفوسنا ـ أنه سواء أكانت المصادفة هي التي ساقت ذلك كله أم أن شيئاً من الاتفاق قد وقع عليه، فالحالان تدلاّن على دقة محمد ومهارته في كسب أكبر موقعة في تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء.

عدة محمد لدخول مكة

لم يمنع إسلام أبي سفيان محمداً أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من أهبة وحذر. وإذا كان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، فإن الله لا يؤتي النصر إلا من أعدّ له كل عُدّته، واحتاط لكل دقيقة وجليلة قد تقف في سبيله. لذلك أمر أن يحبس أبو سفيان بمضيق الوادي عند مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمرّ به جنود المسلمين فيراها ليحدث قومه بها عن بينة، ولكي لا يكون في إسراعه إليهم خيفة مقاومة أياً كان نوعها. ومرت القبائل بأبي سفيان، فما راعه منها إلا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فلما عرف أبو سفيان أمرهم قال: يا عباس! ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وسار محمد في الجيش، حتى إذا انتهى إلى ذي طوى، ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتائبه، ووقف على راحلته، وانحنى لله شاكراً، أن فتح الله عليه مهبط الوحي ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين. وفيما هو كذلك طلب أبو قُحافة، ولم يكن قد أسلم كابنه، إلى حفيدة له أن تظهر به على أبي قُبَيْس، وكان قد كف بصره. فلما ارتفعت به الجبل سألها ما ترى؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. ثم قالت: قد والله انتشر

الفصل الخامس

رأفة الرسول ﷺ

وقد أمن رسول الله ﷺ الناس يوم فتح مكة إلا أربعة: «عبد العزي بن خطل»، و«مقيس بن صبابة»، و«عبد الله بن سعد بن أبي سرح»، و«أم سارة أو سارة».

كذلك كان بين الذين يجب معاقبتهم العبد «وحشي» الذي غدر «بحمزة» رضي الله عنه يوم أحد، لكنه كان قد هرب من مكة فور دخول الرسول ﷺ إليها، ثم عاد ليقف

السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكة، فاسرعي بي إلى بيتي. ولم يصل إلى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقّته قبل بلوغه إياه.

شكر محمد الله أن فتح عليه مكة، ولكنه ظل مع ذلك متخذاً حذره؛ فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق، وأمرها جميعاً ألا تقاتل وألا تسفك دماً إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت إليه اضطراراً. وجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربي. أما أبو عبيدة بن الجراح فجعله محمد على المهاجرين، وسار وإياهم ليدخلوا مكة من أعلاها في حذاء جبل هند، وفيما هم يتاهبون سمع بعضهم سعد بن عبادة يقول: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرْمة...». وفي ذلك من نقض أمر النبي ألاّ يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه. لذلك رأى النبي حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس، وكان رجلاً ضخماً، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصاباً.

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد، فقد كان يقيم في هذا الحيّ من أسفل مكة أشد قريش عداوة لمحمد، ومن اشتركوا مع بني بكر في نقض الحديبية بالغارة على خزاعة. هؤلاء لم يرضهم ما نادى به أبو سفيان. بل أعدوا عدتهم للقتال، وأعد آخرون عدتهم للفرار. وقام على رأسهم صفوان وسهيل وعكرمة بن أبي جهل. فلما دخلت فرقة خالد أمطروها نبالهم، لكن خالداً لم يلبث أن فرّقهم، ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلا طريقهما وانفصلا عنه. أما قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلاً في رواية، وثمانية وعشرين في رواية أخرى. ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن ولّوا الأدبار. تاركين وراءهم من حرّضوهم على المقاومة يصلون بأس خالد وبطش أبطاله معه. وبينما كان محمد

بين يدي الرسول ﷺ ولينطق بالشهادة قبل أن يُعرف، فسامحه الرسول ﷺ على أن لا يريه وجهه، وقد عاش حتى ولاية «عمر» رضي الله عنه وكان يُحَدُّ دوماً على إدمانه للخمر وسكره.

أما «عبد الله بن سعد» المهذار القريشي الشاب، والمحارب بسلاحه وقلمه للإسلام، إذ كان حين يكتب الوحي للرسول ﷺ يغير في كلام الله تعالى، ويقلب معاني النص المقدسة، ويحورها ليجعلها تافهة عديمة المعنى، بنفس طريقته في الهزء بكل الناس وبأصحابه، مدعياً أنه إذا كان القرآن قد جعل الرسول ﷺ رسولاً فبمقدوره أن يكون هو نصف رسول؟! وعندما كشفت ألاعيبه وتحويراته، هرب من غضب الرسول ﷺ عليه في المدينة وعاد إلى مكة مشركاً مرة ثانية. وعندما سقط الشرك من مكة المكرمة فر إلى «عثمان» رضي الله عنه أخيه في الرضاعة فأخفاه في بيته إلى أن هدأت الأحوال، ثم قاده إلى الرسول ﷺ ليطلب العفو ويعود إلى الإسلام، فكان هذا شاقاً على الرسول ﷺ الذي محضه ثقته فخانها، وهزأ بالوحي وحور القرآن، ضارباً في

على راس المهاجرين يرقى في مرتفع ينزل منه إلى مكة مطمئن النفس لفتحها في سكينة وسلم بَصُر بامّ القرى وبما فيها جميعاً، وبصر بتلماع السيوف في أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجموهم. هنالك أسف وصاح مُغضباً يذكر أمره الا يكون قتال. فلما علم بما كان، ذكر أن الخِيرة فيما اختاره الله.

ونزل النبي باعلى مكة قُبالة جبل هند، وهنالك ضُربت له قبة على مقربة من قبري أبي طالب وخديجة. وسئل: هل يريد أن يستريح في بيته؟ فاجاب: كلا! فما تركوا لي بمكة بيتاً. ودخل إلى القبة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله ان عاد عزيزاً منتصراً إلى البلد الذي آذاه وعذّبه وأخرجه من بين أهله ودياره، وأجال بصره في الوادي في الجبال المحيطة به، في هذه الجبال التي كان ياوي إلى شعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتد به قطيعتها، وفي هذه الجبال، ومن بينها حِراء حيث كان يتحنَّث حين نزل عليه الوحي أن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1 ـ 5].

اجال بصره في هذه الجبال وفي الوادي مبعثرة منازل مكة فيه يتوسطها البيت الحرام، فبلغ من خضوعه لله أن ترقرقت في عينه دمعة إسلام وشكر للحق لا حقَّ إلا هو، إليه يرجع الأمر كله. وشعر ساعتئذ أن مهمة القائد قد انتهت، فلم يُقم بالقبة طويلاً بل خرج وامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة، فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس في المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

ثم سالهم: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم!.

صميم الإيمان، فلما جاء ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم».

فلما انصرف مع «عثمان» قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «أما كان فيكم رجلٌ رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمتُ فيقتله؟ قالوا يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[58]. وقد حسن إسلامه بعد ذلك، وخدم في حروب الخلفاء، وكان واحداً من أفضل فرسان القبائل، ومات بعد ذلك وهو ساجد في صلاة الصبح مردداً لآيات القرآن الكريم نادماً عن تحويراته السابقة لها.

أما «عكرمة بن أبي جهل» الذي أظهر عداءً قاتلاً للرسول ﷺ ورثه عن أبيه، فقد ألقى بنفسه يوم دخول الرسول ﷺ بين كتائب الفرسان فاراً من البوابة التي حصل بها مقاومة للمسلمين، تاركاً وراءه زوجته الجميلة «أم حكيم» التي كان قد تزوجها حديثاً،

قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء». وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعاً.

العفو العام

ما أجمل العفو عند المقدرة! ما أعظم هذه النفس التي سمت كل السمّو، فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان! هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه، ومَنْ عذبوه وأصحابه من قبل ذلك، ومَنْ قاتلوه في بدر وفي أُحد، ومن حصروه في غزوة الخندق، ومن ألّبوا عليه العرب جميعاً. ومن ولو استطاعوا قتله وتمزيقه إرباً إرباً لما ونوا في ذلك لحظة! هؤلاء قريش في قبضة محمد وتحت قدميه، أمره نافذ في رقابهم، وحياتهم جميعاً معلقة بين شفتيه، وفي سلطانه هذه الألوف المدجَّجة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في رجع البصر! لكن محمداً! لكن النبي! لكن رسول الله ليس بالرجل الذي يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس. وليس هو بالجبّار ولا بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوّه، فقدر فعفا، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعاً مثلاً في البرّ والوفاء بالعهد، وفي سمّو النفس سُمُواً لا يبلغه أحد.

الصور في الكعبة

ودخل محمد الكعبة فرأى جدرانها صُوِّرت عليها الملائكة والنبيون، ورأى إبراهيم مصوّراً في يده الأزلام(*) يستقسم بها، ورأى بها تمثال حمامة من عِيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض، أما صورة إبراهيم فنظر محمد إليها مليّاً وقال: قاتلهم الله! جعلوا شيخاً يستقسم

(*) الأزلام (واحدها زلم بفتحتين وبضم ففتح) هي القداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي: افعل ولا تفعل، كان الرجل منهم يضعها في وعاء، فإذا أراد سفراً أو زواجاً أو أمراً مهماً أدخل يده في الوعاء بعد إجالتها وتحريكها فأخرج منها زلماً، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كف عما اعتزم ولم يفعله. والاستقسام بها معرفة قسم الإنسان، أي حظه ونصيبه.

فاعتنقت الإسلام، وعندما علمت أن زوجها قد أُرجع إلى الميناء وهو يحاول الهرب إلى «اليمن» من البحر، أسرعت إلى رسول الله ﷺ وألقت بنفسها على قدميه مستأمنة له، فأمنه رسول الله ﷺ، فذهبت في طلبه حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم، فأعطاه الرسول ﷺ قيادة قوة من «هوازن»، وأعطى العروسين هدية زواجهما، وشأنه شأن كل من ألف الإسلام قلوبهم أثبت «عكرمة» فروسية فائقة في سبيل الإسلام في عدة مناسبات حربية ومات شهيداً.

لقد كان هدف الرسول ﷺ من فتح مكة إذاً هدفاً دينياً لا حزبياً، فكانت الرأفة بسكان مدينته التي خضعت لمطلق قوته دليلاً من أدلة الرحمة في الإسلام، سار عليها خلفاؤه في فتح البلدان حيث كان الاتجاه راجحاً لكل مغفرة.

ولما شعر الأنصار أن فتح مكة سوف يحرمهم من الرسول ﷺ إذ قد عاد إلى بلده وأهله، ولاحظ الرسول ﷺ ذلك من أعينهم وهو يدعو على «الصفا» وقد أحدقوا به ﷺ وقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟

فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه! فقال: معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم(59).

ثم لم يكتف الرسول ﷺ بتطهير الكعبة من أصنام الشرك، بل أرسل قادته ﷺ بقوات متفرقة لتدمير أصنام القبائل المجاورة المقيمة في القرى والمحلات المجاورة، ولتحويلهم إلى مسلمين.

بالازلام! ما شأن إبراهيم والازلام! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. أما الملائكة الذين صُوّروا نساء ذات جمال، فقد أنكر محمد صورهم أن ليست الملائكة ذكوراً ولا إناثاً. ثم أمر بتلك الصور كلها فطُمست. وكانت حول الكعبة الاصنام التي كانت تعبدها قريش من دون الله، قد شُدّت إلى جُدُرها بالرصاص، كما كان هُبَل في داخل الكعبة؛ فجعل محمد يشير إلى هذه الاصنام جميعاً بقضيب في يده وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

الفصل السادس

حقائق تسطع لإيمان خالد بن الوليد «رضي الله عنه»

وقد كان «خالد» رضي الله عنه من أشد القادة المتحمسين في هذه المهمات، بسبب روحه الجهادية التي أطلقها إيمانه الجديد، فلما بعثه رسول الله ﷺ إلى البيت الذي تعظمه قريش وكنانة ومضر في وادي «نخلة» حيث كان فيه «العُزى»، وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان حلفاء هاشم، وهدم البيت ورجع إلى رسول الله ﷺ فقال له: ماذا رأيت؟! قال: لم أرَ شيئاً؟! فقال: ارجع فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع «خالد» رضي الله عنه فلما نظر إليه السدنة أمعنوا هرباً وهم يقولون: يا عزي خبلية، يا عزي عورية!!

تطهير الكعبة من الأصنام

وكُبَّتِ الأصنام على وجوهها وظهورها، وطُهر البيت الحرام بذلك منها. وأتمّ محمد بذلك في أول يوم لفتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة، وما حاربته مكة أشد الحرب فيه. أتمّ تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهد من قريش، ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد آباؤها، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرّاً.

مخاوف الأنصار وتبديدها

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله، ورأوا محمداً يقوم على الصفا ويدعو، فخيل إليهم أنه تارك المدينة إلى وطنه الأول وقد فتحه الله عليه، وقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ ولعلهم كانوا على حق في مخاوفهم. فهذا رسول الله. وبمكة البيت الحرام بيت الله، وبمكة المسجد الحرام. لكن محمداً ما لبث حين أتم دعاءه أن سألهم ما قالوا؟ فلما عرف بعد تردد منهم مخافتهم قال: «معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم». فضرب بذلك للناس مثلاً في البرّ بعهده في بيعة العقبة، وفي الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه برّاً ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهل ولا تُنسيهما مكة البلد الحرام.

ولما أن طهُرت الكعبة من أصنامها، أمر النبي بلالاً فأذّن فوقها، وصلى الناس بإمامة محمد. ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر، مدى أربعة عشر قرناً مضت لا تنقطع، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان، كل يوم خمس مرات من فوق مسجد مكة. ومدى أربعة عشر قرناً مضت من يومئذ يؤدّي المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله، متوجهين إلى

وإلا فموتي برغم. فإذا بامرأة عريانة سوداء ناشرةٍ شعرها تحثو التراب على رأسها ووجهها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: تلك العزي ولا تعبد أبداً[60].

وفي بعثة مشابهة «الخالد» رضي الله عنه كان تحت قيادته مائة وخمسون من بني «سُليم» وكان برفقته «عبد الله بن عمر» رضي الله عنه يتجهون إلى «تهامة» وكانت أوامره

الله بقلوبهم وعقولهم، مستقبلين هذا البيت الحرام الذي طهَّره محمد يوم الفتح من أوثانه وأصنامه.

وأذعنت قريش لما حلَّ بها، واطمأنت لعفو محمد عنها، وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله بعيون كلها دهش وإعجاب يمازجها الخوف والحذر. لكن طائفة منها عدَّتها سبعة عشر رجلاً، كان محمد قد استثناها من رحمته وأمر ساعة دخول مكة أن يُقْتَل رجالها ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، كان قد آثر بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار. ولم يكن قرار محمد قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم؛ فهو لم يكن يعرف الحقد، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها. فأحدهم عبد الله بن أبي السرّح كان قد أسلم وكان يكتب لمحمد الوحي، فارتدّ مشركاً إلى قريش زاعماً أنه كان يزيف الوحي حين يكتبه. وعبد الله بن خطل؟ كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتد مشركاً وأمر جاريتيه فرتنى وصاحبتها فكانتا تغنيان بهجاء محمد، فأمر بقتلهما معه. وعكرمة بن أبي جهل وكان من أشدّ الناس لدداً في خصومة محمد والمسلمين خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها.

العفو عمن أمر النبي بقتلهم

أمر محمد بعد دخول مكة ألا يُسفك بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة. لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرَّ منهم من فرَّ. فلما استقر الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا، طمع بعض أصحابه في أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يقتلوا. فقام عثمان بن عفان، وكان أخا ابن أبي السرح للرضاعة، حتى أتى به النبي فاستأمن له. فصمت محمد طويلاً، ثم قال: نعم، وأمَّنه. وأسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبي جهل الذي فرَّ إلى اليمن واستأمنت له محمداً فأمنه، فخرجت في طلبه وجاءت به، وعفا محمد كذلك عن صفوان بن أمية وكان قد صحب عكرمة في فراره إلى ناحية البحر يستقلاَّنه إلى اليمن، فجيء بهما والسفينة التي تحملهما على أهبة إقلاعها. وعفا محمد كذلك عن هند زوج أبي سفيان التي مضغت كبد حمزة عم الرسول بعد استشهاده في أُحد، كما عفا عن أكثر من أمر بقتلهم. ولم يقتل منهم إلا أربعة، منهم الحويرث الذي أغرى بزينب بنت النبي حين رجوعها من مكة إلى المدينة، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرَّا راجعين إلى مكة مرتدّين إلى الشرك، وإحدى قينتي بن خطل اللتين كانتا تؤذيان النبي بغنائهما، وفرّت الأخرى، ثم استؤمن لها.

من الرسول ﷺ هي نشر الإسلام بالسلام وبالموعظة الحسنة، وأن لا يلجأ إلى القتال إلا إذا قاتله الناس أولاً. وعلى مسيرة سفر يوم واحد من تهامة مر بأرض قبائل «جَذيمة» التي قتل أحد أتباعها «عماً» «لخالد» رضي الله عنه مع عددٍ من المهاجرين العائدين من البحر مع بعض بني «سُليم»، وخوفاً من ثأر «خالد» تسلح أهل «التهم»، فسألهم خالد أمسلمون أنتم أم لا فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، حسب لهجتهم، فأمرهم خالد بالنزول عن أفراسهم وإلقاء سلاحهم، ولما اعترض بعضهم قبض عليه، وفر البعض فلحقهم تقتيلاً ثم دفع إلى كل محارب من جيشه أسيراً وأمره أن يقتله، فعارضه «عبد الله بن عمر» رضي الله عنه مع عدد من الصحابة دون كبير جدوى.

تحريم مكة على الناس جميعاً

وفي غداة يوم الفتح عثرت خُزاعة على رجل من هُذيل وهو مشرك فقتلوه فغضب النبي وقام في الناس خطيباً فقال: «أيها الناس، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يَعضِد فيها شجراً، لم تُحلل لأحد كان قبلي ولا تحلّ لأحد يكون بعدي، ولم تُحْلَل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يُحْللها لكم يا معشر خُزاعة. ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع. لقد قتلتم قتيلاً لأدينَّه. فمن قُتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النَّظَرَين: إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله». ثم ودى بعد ذلك الرجل الذي قتلت خزاعة، وبهذا الخطاب وبتصرفه الذي زاد على السماحة والعفو أمس، كسب محمد قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدّرون، فاقبلوا على الإسلام، ونادى مناد منهم: «من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في داره صنماً إلا حطمه». ثم بعث جماعة من خُزاعة ليُصلحوا من العمد المحيطة بالبلد الحرام، مما دل أهل مكة على مالها في نفسه من التقديس وما زادهم له حبّاً. فلما أخبرهم أنهم خير أمة يحبّ، وأنه ما كان ليتركهم أو يعدل بهم ناساً لولا أنهم أخرجوه، بلغ تعلقهم به غاية حدوده. وجاء أبو بكر بأبيه، الذي ارتقى أبا قُبيس يوم الزحف، يقوده حتى وقف بين يدي النبي. فلما رآه محمد قال: هلاً تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتيه فيه! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت. فأجلس النبي الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له: أسلم فأسلم وحسن إسلامه. وكذلك أسرت أخلاق النبوّة السامية هذا الشعب الذي كان ثائراً على محمد أشدّ الثورة، والذي أصبح اليوم يُجِلّه ويقدّسه. وكذلك أسلمت قريش رجالاً ونساء وبايعت.

وأقام محمد بمكة خمسة عشرة يوماً ينظّم خلالها شؤون مكة ويفقه أهلها في الدين. وفي هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال، ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء. وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نخلة ليهدم العُزّى ـ وكانت لبني شيبان ـ فلما هدمها خرج

وحين بلغ ذلك رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين. وعندما عاد «خالد» وأراد أن يتنصل من فعلته بأن عزاها إلى الصحابي «عبد الرحمن بن عوف» أمام الرسول ﷺ، قال «عبد الرحمن»: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام فقال: إنما ثأرتُ بأبيك، فقال «عبد الرحمن»: كذبت لقد قتلتُ قاتل أبي، لكنك ثأرت لعمك «الفاكه بن المغيرة». فغضب الرسول ﷺ من كل هذا وأرسل «علياً» رضي الله عنه وقال له: يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك[61]، فدفع «علي» رضي الله عنه دية القتلى وأعطاهم زيادة عن ذلك حتى رضي أهل القتلى، وقد وافقت هذه المهمة طبيعة «علي» رضي الله عنه في السخاء والمسامحة، حتى أنه ذهب إلى ذوي كل فقيد يعزيه على حدة، ثم وزع باقي المال على القبائل المتضرّرة، فنال شكرهم وعرفانهم جميعاً.

إلى جذيمة، فلما رآه القوم أخذوا السلاح؛ فطلب إليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا، قال رجل من جذيمة لقومه: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد والله ما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق. قال له قومه: أتريد أن تسفك دماءنا! إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس وما زالوا به حتى وضع سلاحه. عند ذلك أمر بهم خالد فكُتّفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر إلى النبي رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ثم بعث إليهم عليّ بن أبي طالب وقال له: أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك. وخرج عليّ ومعه مال أعطاه النبي إياه. فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء وعما أصيب من الأموال، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه، أعطاهم بقية المال الذي بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم.

وفي الأسبوعين اللذين أقام محمد بمكة عفى على كل آثار الوثنية فيها. ولم ينتقل إلى الإسلام من مناصب البيت الحرام إلا سدانة الكعبة، اقرّها النبي في عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم، وسقاية الحاج من زمزم جعلها لعمه العباس.

وكذلك آمنت أم القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضّاء.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل الأول
معسكر الأعداء و«ممرّ حُنَيْن»

بينما كان أصحاب الرسول ﷺ ينشرون دعوته في القبائل المجاورة بالسهوب ـ كما ذكرنا ـ تشكل حلف «ثقيف» في الطائف من «هوازن الطائف» كلها و«جُشَم» و«السعديات» مع عدد من رجالات القبائل البدوية الجبلية المحاربة لهذه القوة التي تتجه نحو إخضاع كل العرب، و«السعديات» هي قبائل «بني سعد» وهي نفس «بني سعد» التي سبق وذكرنا أنهم حضنوا طفولة الرسول ﷺ، وبواديهم نزلت الملائكة وطهرت قلب الرسول ﷺ طفلاً أما «ثقيف» فهي قبائل «الطائف» رأس الحلف ضده ﷺ، وهي قبائل قوية بيدها مدينة الطائف المحصنة ونواحيها الخصبة، وكانوا شديدي الشرك وبيدهم

قال ابن كثير:

وقال الواقدي: خرج رسول الله ﷺ إلى هوزان لستّ خلون من شوال، فانتهى إلى حنين في عاشره. وقال أبو بكر الصديق: لن نُغْلَب اليوم من قلة! فانهزموا فكان أول من انهزم بنو سُليم، ثم أهل مكة ثم بقية الناس.

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة جمعها ملكها مالك بن عوف النصري، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها واجتمعت نصر وجُشَم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء. وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب، ولم يشهدها منهم أحد له اسم، وفي بني جُشَم دُرَيد بن الصِّمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرِّباً، وفي ثقيف سيدان لهم؛ وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود بن مُعتِّب، وفي بني مالك ذو الخِمَار سُبَيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث، وجِمَاع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري.

فلما أجمع المسير إلى رسول الله ﷺ أحضر مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دُريد بن الصِّمة في شِجَار ـ هودج ـ له يُقاد به، فلما

سدانة الصنم المؤنث المشهور «اللاّت». ويستطيع القارئ أن يتذكر ما سبق وذكرنا من معاملتهم السيئة للرسول ﷺ عندما طلب عونهم وبدأ بتبشيرهم في الطائف، وكيف رموه ﷺ بالحجارة في ساحة مدينتهم، ولاحقه عبيدهم وصبيانهم بها إلى خارج سور مدينتهم، ولعله بسبب خوفهم من ثأره ﷺ قاموا بتشكيل الحلف ضده، وصاروا فعالين جداً في مناوأته ﷺ.

وكان «مالك بن عوف النصري» سيد «هوازن» رئيس هذا الحلف، وقد جعل من وادي «أوطاس»، بين حنين والطائف مكان تجمع هذا الحلف، ولأنه كان يعرف طبيعة العرب في الغزو وفي ارتدادهم إلى أهلهم بعد حصول أي سلب أو مغنم، أمرهم بأن يصحبوا مضاربهم وأهلهم وحلالهم معهم، وهكذا حضروا من مختلف الجهات، وكان عدد مقاتليهم حوالى أربعة آلاف مقاتل، لكن معسكرهم كان كبيراً بسبب احتشاد المضارب والنساء والأطفال فيه، وهم يختلطون بأغنامهم ومواشيهم.

وقد عارض هذا الأمر المحارب القديم من «جُشَم» «دريد بن الصِّمة» الشيخ الذي لم يكن عنده ما يقدم لهذا الحلف إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، ولكبر سنه الذي

نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعْم مجال الخيل لا حزن ضِرْس ولا سهل دَهْس، مالي أسمع رُغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ قالوا: هذا مالك. ودُعي له.

قال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سُقت مع الناس أبناءهم وأموالهم. قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال: فانقضَّ - زجره - به، ثم قال: راعى ضأن والله! هل يرد المنهزم شيء؟! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم الناس تكلم رجال من جُفاة الأعراب بما في أنفسهم من الضِّغن فقال أبو سفيان صخر بن حرب - يعني وكان إسلامه بعد مدخولاً وكانت الازلام بعد معه يومئذ - قال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وصرخ كلدة جبلة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية - يعني لأمه - وهو مشرك، في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ: ألا بطل السحر اليوم؛ فقال له صفوان: اسكت فضَّ الله فاك، فوالله لأن يربِّني رجل من قريش أحب إلي من أن يربِّني رجل من هوازن.

وقال ابن إسحاق: وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار قلت: اليوم أدرك ثاري - وكان أبوه قد قتل يوم أحد - اليوم أقتل محمد. قال: فادرت برسول الله ﷺ لاقتله فاقبل شيء حتى تغشَّى فؤادي فلم أطق ذاك وعلمت أنه ممنوع مني.

كان حوالى المئة سنة فكان يبدو ككومة من العظام، ونصف أعمى، ضعيفاً إلى درجة أنهم كانوا يحملونه على جمله، وقد شدد هذا المحارب الصحراوي على ضرورة إرسال النساء والأطفال إلى مناطقهم، لكي يتخفف الجيش من كل عائق غير ضروري له، لكن لم يُعْمل برأيه، وظل «وادي أوطاس» يعج بهؤلاء وبالمحاربين وبحشودهم المتسرعة للقتال.

وعندما سمع الرسول ﷺ بهذا التجمع العاصف، تقدم لملاقاتهم، على رأس حوالى اثني عشر ألف محارب، بعضهم من المهاجرين، وبعضهم من الأنصار، ومعظمهم من قبائل الصحراء العربية التي دخلت حديثاً في الإسلام ولم يرسخ إيمانها بعد.

وبالاتجاه إلى ساحة المعركة كان الرسول يلبس درعاً وخوذة لامعين على متن راحلته المفضلة «دلدل»(*) وقليلاً ما كان يدخل بنفسه في المعمعة، وكانت الثقة بشهرته ﷺ وبانتصاراته الأخيرة وبتفوق عدد أتباعه تؤكد النصر السهل، لذلك دخل الجبل دون احتياط مسبق متجهاً بسرعة نحو مخيم الأعداء في «أوطاس»، وعندما صارت قواته ﷺ في عمق وادي «حنين» وهي تتحرك بدون تنظيم في شعابه الوعرة، كل منها يختار شعبة لتحركه، فوجئوا بسيل من الصخور والسهام تنهال عليهم، إلى حد

وقال محمد بن إسحاق: وحدثني والدي إسحاق بن يسار، عمن حدثه، عن جبير بن مطعم قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد ـ كيس من الصوف ـ الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة.

ورواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأصمّ، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بُكير، عن ابن إسحاق به.

وزاد فقال: خديج بن العرجاء النصري ـ يعني في ذلك ـ:

ولما دَنونا من حنين ومائه ... رأينا سَواداً منكرَ اللون أخْصفَا
بِمَلْمومةٍ شَهباء لو قذَفوا بها ... شماريخَ من عروى إذاً عادَ صَفْصفا
ولو أن قومي طاوعتْني سَراتهم ... إذاً ما لقينا العارضَ المتكشِّفَا
إذاً ما لقينا جندَ آلِ محمد ... ثمانين ألفاً واستمدُّوا بخندفا

(*) ليعود ﷺ فيركب بغلة أو فرساً أثناء المعركة.

سقوط عدة قتلى بالقرب من الرسول ﷺ وجرح عدد آخر، وكان «مالك النصري» مع قادته يقودون المعركة من المرتفعات عند عنق الممر، وكل منعطف جبلي عليه حراسة من أتباعهم الذين يرمون بأسهمهم كما أن بعضهم اندفع إلى النزول للمواجهة المباشرة مع خصومه.

هذه المفاجأة أثارت الذعر بقوات المسلمين، فانطلق كل واحد منهم يطلب سلامة نفسه، رغم نداء الرسول ﷺ لهم بالصمود إذ جعل يقول: «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله، واقتحم على فرسه ـ أو بغلته ـ. . . فحادت به فمال على السرج فقلت له: ارتفع رفعك الله. فقال: ناولني كفاً من تراب فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً. قال: أين المهاجرون والأنصار؟ قلت هم أولاء. قال: اهتف بهم. فهتفت فجاؤوا سيوفهم بإيمانهم كأنهم الشهب»[62].

هكذا بدا كأن كل شيء قد ضاع حتى أن بعض الذين لم يرسخ الإسلام بقلوبهم وخاصة «الطلقاء» حاولوا نهب متاع الرسول ﷺ، إلى حد أن «أبا سفيان» ـ وكان إسلامه بعدُ مدخولاً وكانت الأزلام بعدُ معه يومئذ ـ قال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ «كلدة بن جبلة بن الحنبل». . . ألا بطل السحرُ اليوم[63] وانقض آخر كان

وقال ابن كثير:

وكان سببها أن هوازن لما انهزمت ذهبت فرقة منهم فيهم الرئيس مالك بن عوف النصري فلجأوا إلى الطائف فتحصَّنوا بها، وسارت فرقة فعسكروا بمكان يقال له أوطاس، فبعث إليهم رسول الله ﷺ سريةً من أصحابه عليه أبو عامر الأشعري فقاتلوهم فغلبوهم، ثم سار رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة فحاصر أهل الطائف. كما سيأتي.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون يوم حنين أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك الثنايا.

قال: فأدرك ربيعة بن رفيع بن أهان السلمي ويعرف بابن الدُّغنة ـ وهي أمه ـ دريد ابن الصِّمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة وذلك أنه في شِجَار لهم، فإذا برجل، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا دُريد بن الصمة ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي. ثم ضربه بسيفه فلم يُغن شيئاً، قال: بئس ما سَلَّحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي في الشجار، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدِّماغ فإني كذلك كنت أضرب الرجال! ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة فربَّ والله يوم منعت فيه نساءك!

فزعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تكشف فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل

المسلمون قد قتلوا أباه يوم «أحد» على الرسول ﷺ ليقتله، ليرده عنه الصحابة رضي الله عنهم.

فلما رأى الرسول ﷺ ذلك وقد ركبت الإبل بعضها بعضاً نهز بغلته ﷺ ليشترك بالقتال بنفسه الشريفة والعباس رضي الله عنه آخذ بحنكي الدابة ـ بحَكْمَةِ ـ بغلته البيضاء وهو عليها قد شجرها ـ ضرب لجامها[64] ـ.

ولأن العباس رضي الله عنه كان جهوري الصوت، قال له الرسول ﷺ: أي عباس، نادِ أصحاب السّمرة، قال: فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها! فقالوا: يا لبيكاه يا لبيكاه[65] وأثناء ذلك كان العدو قد نزل من الجبل فصارت المواجهة أكثر دموية فقال الرسول ﷺ: الآن قد حمي الوطيس، وهو يرى برق السيوف ولمع الأسنة فيما بينهم، وهو ﷺ حين رماهم بالحصباء شاهت وجوههم، وبدأوا بالتراجع غير المنظم كما ذكر المؤرخون المسلمون، فصارت هزيمتهم رهناً بالتفوق العددي للمسلمين، وتراجع «مالك النصري» وثقيف إلى أسوار الطائف، وآخرون إلى وادي «أوطاس».

القراطيس من ركوب الخيل إعراء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان ـ هو الثوري ـ عن عثمان البتي، عن أبي الخليل، عن أبي سعيد الخدري، قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ قال: فاستحللنا بها فروجهن.

وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث عثمان البتي به. وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث شعبة، عن قتادة عن أبي الخليل، عن أبي سعيد الخدري. وقد رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث سعيد بن أبي عروبة.

قال محمد بن إسحاق: وكان مع رسول الله ﷺ امرأتان من نسائه، إحداهما أم سلمة فضرب لهما قبتين، فكان يصلي بينهما، فحاصرهم وقاتلهم قتالاً شديداً وتراموا بالنبل. قال ابن هشام: ورماهم بالمنجنيق.

فحدثني من أثق به أن النبي ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق، رمى به أهل الطائف.

وذكر ابن إسحاق أن نفراً من الصحابة دخلوا تحت دبابة ثم زحفوا ليحرقوا جدار أهل الطائف، فأُرسلت عليهم سكك الحديد مُحماة، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فحينئذ أمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون.

ويقي الرسول ﷺ في وادي «حنين» ليرسل «أبا عامر الأشعري» مع قوة كبيرة لمهاجمة معكسر «أوطاس»، فدافعت «هوازن» عن المعسكر دفاعاً شديداً، وقتل «أبو عامر» فأخذ مكانه ابن أخ له اسمه «أبو موسى الأشعري»(*) وحقق النصر المؤزر، بقتله عدداً كبيراً من العدو، وغنم الغنائم الكثيرة والسبايا، بسبب عدم حكمة «مالك» بإحضار العيال إلى المعركة مخالفاً رأي المحارب القديم المتمرس «دريد» الذي لاقى مصيره في هذه المعركة بطريقة تستأهل أن تذكر:

قال: وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فناديا ثقيفاً بالأمان حتى يكلّموهم فأمّنوهم فدعوا نساء من قريش وبني كنانة ليخرجن إليهم، وهما يخافان عليهن السِّباء لما مضت خمس عشرة من حصار الطائف استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الدّيلي فقال: «يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟» قال: يا رسول الله ثعلبٌ في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرّك.

قال ابن إسحاق: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وهو محاصر ثقيفاً: «يا أبا بكر، إني رأيت أني أُهديت لي قعبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فهراق ما فيها» فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أرى ذلك».

قال: ثم إن خولة بنت حكيم السلمية، وهي امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك حُليَّ بادية بنت غيلان بن سلمة أو حلي الفارعة بنت عقيل ـ وكانت من أحلى نساء ثقيف ـ فذكر أن رسول الله ﷺ قال لها: «وإن كان لم يؤذن في ثقيف يا خويلة؟».

فخرجت خولة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما حديث حدّثتنيه خولة، زعمت أنك قلته؟ قال: «قد قلته» قال: أو ما أذن فيهم؟ قال: لا. قال: أفلا أوذّن بالرحيل؟ قال: بلى.

(*) صاحب التحكيم بعد ذلك زمن «علي رضي الله عنه» في «صفين».

الفصل الثاني

أخت الرسول ﷺ بالرضاعة

بينما كانت القوات الإسلامية تغنم الغنائم من معسكر «أوطاس»، وتتبع خيل الرسول ﷺ من سلك الثنايا، أدرك «ربيعة بن رفيع السلمي ويعرف بابن الدغنة ـ وهي أمه ـ» دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة وذلك في شجار لهم، فإذا برجل، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا دريد بن الصمة ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي. ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئاً، قال: بئس ما سلحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخرة رحلي في الشجار، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أضرب

قال ابن كثير:

فأذّن عمر بالرحيل، فلما استقبل الناس نادى سعيد بن أسيد بن أبي عمرو بن علاج: ألا إن الحيَّ مقيم. قال: يقول عيينة بن حصن: أجل، والله مجدة كراماً. فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟ فقال: إني والله ما جئت لاقاتل ثقيفاً معكم، ولكن اردت أن يفتح محمد الطائف فاصيب من ثقيف جارية اطؤها لعلها تلد لي رجلاً، فإن ثقيفاً مناكير ـ دهاة ـ

* * *

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من المسلمين ومعه من هوازن سبي كثير، وقد قال له رجل من اصحابه يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله ادع عليهم. فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم».

قال: ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة، وكان مع رسول الله ﷺ من سَبْي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عِدَّته.

قال ابن إسحاق: فحدثني عمرو بن شعيب، وفي رواية يونس بن بكير عنه قال عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين، فلما أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أهل

الرجال! ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب والله يوم منعت فيه نساءك!

قال لما ضربته فوقع تكشف فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل القراطيس من ركوب الخيل أعراء.

فلما رجع إلى أمه أخبرها بقتله إياها فقالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً(66).

وعاد «أبو موسى الأشعري» بالنصر للرسول ﷺ وبغنائم «أوطاس» وسبيه، وفيهم النساء والأطفال، فألقت إحدى النساء نفسها على قدمي الرسول ﷺ طالبة الرحمة ومُعَرّفة بنفسها على أنها «الشيماء»(67) أخت الرسول ﷺ بالرضاعة، وابنة «حليمة السعدية» مرضعته ﷺ في وادي «بني سعد»، ولما تفرسها الرسول ﷺ ليتذكرها لأنها لم تعد طفلة كما كانت وتغيرت ملامحها، ألقت رداءها عن ظهرها وأرته أثر عضة عضها إياها في ظهرها عندما كانت تحمله طفلاً، فلم يشك بأنها هي، فعاملها برفق وخيرها بين أن تظل معه ﷺ أو تلحق بأهلها الذين عفا عنهم.

وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا مَنَّ الله عليك.

وقام خطيبهم زهير بن صُرَد أبو صرد فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين. ثم أنشأ يقول:

امنُنْ علينا رسولَ الله في كرمٍ ... فإنك المرءُ نرجوه وننتظرُ

والله إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي وفي رجلي نعل غليظة إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعه، فقرع قدمي بالسوط وقال: «أوجعتني فتأخَّر عني» فانصرفت فلما كان الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني قال: قلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله ﷺ بالأمس. قال: فجئته وأنا أتوقع، فقال: «إنك أصبت رجلي بالأمس فأوجعتني فقرعت قدمك بالسوط فدعوتك لأعوِّضك منها» فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني.

والمقصود من هذا أن رسول الله ﷺ رد إلى هوازن سبيهم بعد القسمة كما دل عليه السياق وغيره.

وظاهر سياق حديث عمرو بن شعيب الذي أورده محمد بن إسحاق عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ ردَّ إلى هوازن سبيهم قبل القسمة، ولهذا لما رد السبي وركب علقت الأعراب

أما الخلاف فظهر بين المنتصرين على سبي النساء، قال: أصبنا نساءً من سبي أوطاس ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ قال: فاستحللنا بها فروجهن(68) رغم وجود أوزاجهن أحياء؟! وهذا ما لم يقبله الرسول ﷺ ـ فقاعدة ملك اليمين ليست في هذا السياق ـ لأنه كان يعرف ﷺ بإسلامهم القريب وبالتالي رد غنائمهم لهم.

برسول الله ﷺ يقولون له: اقسم علينا فيئنا حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فقال: «ردوا عليّ ردائي أيها الناس، فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عدد هذه العضاة نعماً لقسمته فيكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً».

كما رواه البخاري عن جبير بن مطعم بنحوه.

وكأنهم خشوا أن يرد إلى هوازن أموالهم كما رد إليهم نساءهم وأطفالهم، فسألوه قسمة ذلك فقسمها عليه الصلاة والسلام بالجعرانة كما أمره الله عز وجل، وآثر أناساً في القسمة وتألّف أقواماً من رؤساء القبائل وأمرائهم، فعتب عليه أناس من الأنصار حتى خطبهم وبيّن لهم وجه الحكمة فيما فعله تطبيباً لقلوبهم.

ثم رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عوف، عن هشام بن زيد، عن جده أنس بن مالك، قال: لما كان يوم حنين التقى هوازن ومع النبي ﷺ عشرة آلاف والطُلقاء فأدبروا، فقال: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله وسعديك لبيك نحن بين يديك. فنزل رسول الله ﷺ فقال: «أنا عبد الله ورسوله» فانهزم المشركون فأعطى الطلقاء والمهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً، فقالوا، فدعاهم فأدخلهم في قبته فقال: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ؟» فقال رسول الله ﷺ «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار».

الفصل الثالث

مرضعة الرسول ﷺ، والغنائم

أمن الرسول ﷺ الأسرى والغنائم وتركهم بمكان أمين محروس جيداً ليبت بأمرهم لاحقاً، ثم تقدم نحو ثقيف المعتصمة بالطائف، مسرح الأحداث التي خذلته في أول دعوته ﷺ وأدت إلى جرحه وإهانته، فوصل إلى بابها الذي منه قد أخرج في السابق، وكانت أسوارها منيعة على الاقتحام وعليها قلعة تحمي هذه الأسوار، وكان معه ﷺ -

---

قال هيكل:

أقام المسلمون بمكة بعد فتحهم إياها فرحين بنصر الله إياهم، مغتبطين أن لم يُسْفَك في هذا النصر العظيم إلا الدم القليل، مسارعين إلى البيت الحرام كلما أذّن بلال بالصلاة، متدافعين حول رسول الله حيث أقام وحيث ذهب. يغشى المهاجرون منهم دورهم ويتصلون بأهليهم الذي هدى الله بعد الفتح، ونفوسهم جميعاً مطمئنة إلى أن الأمر قد استقرّ للإسلام، وأن الجانب الأكبر من الجهاد قد كلل بالفوز والظفر. وإنهم لكذلك بعد خمسة عشر يوماً من مُقامهم بأم القرى إذ ترامت إليهم أنباء أيقظت استنامتهم للغبطة! تلك أن هوازن كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقي في جبال هناك، فلما علمت بما تم للمسلمين من فتح مكة ومن تحطيم أصنامها. خشيت أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها، ففكرت فيما تصنع لاتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع ولصدّ محمد والكفّ من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمها كلها في وحدة يُظلها الإسلام، لذلك جمع مالك بن عوف النصري هوازن وثقيفاً، كما اجتمعت نصر وجُشم، ولم يتخلف عن الاجتماع من هوازن إلا كعب وكلاب. وكان في جُشم دُريد بن الصمة. وكان يومئذ شيخاً كبيراً لا نفع منه في الحرب، ولكنما كان الانتفاع برأيه بعد الذي عركه على السنين في وقائعها. اجتمعت هذه القبائل كلها ومعها أموالها ونساؤها وأبناؤها، وتم جمعها حين نزلت سهل أوطاس. فلما سمع دُريد رُغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثُغاء الشاء، سأل مالك بن عوف: لم ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم؟ فلما أجابه مالك بأنه إنما أراد أن يشجع بها المحاربين، قال دُريد: وهل يردّ المنهزم شيء! إنها إن كانت لك لم ينفعك لا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك. واختلف هو ومالك. وتبع الناس مالكاً، وكان

رأس الكبش ـ الذي تضرب به الأسوار وهو غير معروف في حروب العرب ودبابة، وقد هيأها وأشرف على صنعهما «سلمان الفارسي» رضي الله عنه الذي يعرف هذه الأساليب الحربية من حروب الفرس، لأنه واحد منهم.

ورغم ذلك رَدّ المحاصرون كل هجوم بالحجارة والأسهم، ويرمي المعادن الذائبة ـ الحديد ـ على دروع ودرق المهاجمين الذين كانوا يحتمون «بدبابة» عندما يقتربون من السور[69]، وعسكر الرسول ﷺ في الحقول الخصبة المجاورة ليعلن: أن كل عبد يهرب من المدينة هو حر، وظل الأمر على هذا الحال مدة عشرين يوماً دون جدوى، والرسول ﷺ يصلي بين قبتي «أم سلمى» رضي الله عنها و«زينب» رضي الله عنها، زوجتيه ﷺ، اللتين رافقتاه بالقرعة في غزوته ﷺ هذه، ولما خَفَتَ الأمل بالفتح خاصة بعد رؤية رآها ﷺ فسرها «أبو بكر» رضي الله عنه بشكل غير مشجع، وبعد هجوم أخير

شاباً في الثلاثين من عمره قويّ الإرادة ماضي العزيمة، وتابعهم دُريد ما يردّ لهم، على رغم سابقته في الحرب، رأياً. وأمر مالك الناس أن ينحازوا إلى قِمَم حُنين وعند مضيق الوادي؛ فإذا نزل المسلمون واديه فليشدُّوا عليهم شدة رجل واحد تضعضع صفوفهم، فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب بعضهم بعضاً، وتدور عليهم الهزيمة، ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة، ويبقى لقبائل حنين في بلاد العرب جميعاً فخار النصر على هذه القوة التي تريد أن تُظِلَّ بسلطانها بلاد العرب جميعاً. وامتثلت القبائل أمر مالك وتحصّنت بمضيق الوادي.

مسيرة المسلمين إلى حنين

أما المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مقامهم بمكة وعلى رأسهم محمد في عُدَّة وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهد قط. ساروا في اثني عشر ألفاً من المقاتلين، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها، والفان ممن أسلم من قريش، وبينهم أبو سفيان بن حرب، وكلهم تلمع دروعهم، وفي مقدّمتهم الفرسان والإبل تحمل الميرة والذخيرة. سار المسلمون في هذا الجيش الذي لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله، يتقدّم كل قبيلة علمها وتمتلئ النفوس كلها إعجاباً بهذه الكثرة، وبأن لا غالب اليوم لها؛ حتى لقد تحدّث بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون: لن نُغْلَب اليوم لكثرتنا. وبلغوا حُنيناً والمساء يقبل، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتى بُكرة الفجر. هناك تحرّك الجيش، وركب محمد بغلته البيضاء في مؤخرته، على حين سار خالد بن الوليد على رأس بني سُلَيم في المقدمة، وانحدروا من مضيق حُنين في واد من أودية تهامة. وإنهم لكذلك منحطون إلى الوادي إذ شدت عليهم القبائل بإمرة مالك بن عوف شدة رجل واحد وأصلوهم وابلاً من النبال وهم جميعاً ما يزالون في عماية الفجر. إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفزع منهم كل مأخذ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح، وحتى قال أبو سفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لفشل

غير مجدٍ على أحد أبواب المدينة فقد فيه «أبو سفيان» إحدى عينيه، وَرُدَّ المسلمون بعد معركة دموية شديدة.

على إثر ذلك فك الرسول ﷺ خيام معسكره، واعداً أتباعه ﷺ بحصار آخر في يوم آخر، وعاد إلى المكان الذي احتجز فيه غنائم «حنين»، والتي قدرها أحد المؤرخين العرب بأربعة وعشرين ألف جمل، وأربعين ألف رأس غنم، وأربعة آلاف أونصة فضية، وستة آلاف أسير، ليجد أن «الهوازن» قد أعلنوا إسلام قبيلتهم كما توقع ﷺ وبالتالي يرجون استعادة عائلاتهم ومتاعهم، وقد جاءت معهم «حليمة السعدية» مرضعة الرسول ﷺ التي بلغت من العمر عتياً، فأعادت بحضورها أمام ناظريه وقلبه طفولته ﷺ، وقام خطيبهم «زهير بن صرد» وقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك!!

أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أُدرك ثاري من محمد، وكان أبوه قد قتل في غزوة أحد. وقال كلدة بن حنبل: ألا بطل السحر اليوم! فرد عليه أخوه صفوان: اسكت فض الله فاك! فوالله لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربُّني رجل من هوازن. تقع هذه الأحاديث والجيش يختلط حابله بنابله والنبي في المؤخرة تمر عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مهزومةً لا تلوي على شيء.

رجوع المسلمين واستماتتهم

وبدأت الطمانينة تعاود محمداً حين رآهم يعودون؛ فقد انحدرت هوازن من مكامنها وأصبحت وجهاً لوجه مع المسلمين في الوادي. وقد أضاء النهار وطغى النور على عماية الفجر. واجتمع حول رسول الله بضع مئات استقبلوا القبائل وصبروا لهم، وقد أخذ يزداد عددهم وتشتد بعودتهم عزائم من خارت من قبل عزائمهم وجعل الانصار يتصايحون يا للأنصار! ثم تنادوا: يا للخزرج ومحمد ينظر إلى تناحر القوم؛ حتى إذا رأى الصدام اشتدّ ورأى رجاله تسمو نفوسهم ويُطيحون بخصومهم، نادى: الآن حمي الوطيس، إن الله لا يُخلف رسوله وعده. ثم طلب إلى العباس فناوله حفنةً من الحصى ألقى بها في وجوه العدو: قائلاً: شاهت الوجوه. واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله، مؤمنين بأن النصر لا محالة آت، وأن من استشهد منهم فله من النصر أكبر من نصيب من بقي. وكان البلاء شديداً؛ حتى أن هوازن وثقيفاً ومن معهم ما لبثوا، حين رأوا كل مقاومة غير مجدية وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم؛ أن فروا منهزمين لا يلوون على شيء، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين الذين أحصوها يومئذ اثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة. أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين إلى وادي الجعرانة حيث أَوَوا إلى أن يعود المسلمون من مطاردة عدوّهم ومن حصار ثقيف بالطائف.

فقال رسول الله ﷺ: نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟!

فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟

بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا. فقال ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا وقولوا. . . فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم(70).

وهكذا حصل، فرد الرسول ﷺ حصته وحصة بني عبد المطلب، وتبعه في ذلك الجميع ما عدا «تميماً وفزارة»، فوعدهم الرسول ﷺ بسدس الغنائم التي سيغنمها المسلمون بغزوة لاحقة، وهكذا أثمر توسط «حليمة» عتق كل أسرى قبيلتها، وتظهر السيرة النبوية تواضع الرسول ﷺ في معاملته لحواضنه ﷺ بأخلاقية نادرة، فحين كان الرسول ﷺ جالساً يوماً، فجاءه أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه بالرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم جاءه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه، وقد تقدم أن هوازن كلها كانت متوالية برضاعته ﷺ(71).

حصار الطائف

أمر محمد أصحابه إذاً أن يسيروا إلى الطائف ليحاصروا بها ثقيفاً وعلى رأسها مالك بن عوف. وكانت الطائف مدينة محصنة لها أبواب تغلق عليها كاكثر مدن العرب في ذلك العصر. وكان أهلها ذوي دراية بحرب الحصار، وذوي ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون. وقد سار المسلمون إليها فمرّوا في مسيرتهم بلية حيث يقوم حصن خاص لمالك بن عوف فهدموه، كما خرّبوا أثناء مسيرتهم كذلك حائطاً لرجل من ثقيف. وبلغ المسلمون الطائف، فأمر النبي عسكره فنزل على مقربة منها، وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون. لكن ثقيفاً ما لبثت حين رأتهم من أعلى حصونها أن نالتهم بالنبل وقتلت جماعة منهم.

قطع الكروم وتحريقها

ماذا عساهم بعد ذلك يصنعون؟ فكر محمد في هذا وفكر طويلاً. ولكن ألم ينتصر على بني النضير ويجلها عن ديارها بإحراق نخيلها؟ وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بني النضير، فهي كروم لها من ذيوع الاسم في بلاد العرب جمعاء ما تباهى به الطائف أخصب بلاد العرب، وما جعل الطائف واحة كأنها الجنة وسط هذه الصحاري. وأمر محمد فبدأ المسلمون ينفّذون، يقطعون ويحرقون الكروم التي ما يزال لها حتى اليوم مثل ما كان لها من شهرة وذيوع صوت. ورأى الثقفيون هذا وأيقنوا أن محمداً جادٌّ فيه، فبعثوا إليه يأخذه لنفسه

وبعد ذلك أرسل الرسول ﷺ رسولاً إلى «مالك بن عوف النصري» الذي بقي محصوراً بأسوار الطائف، عارضاً عليه إعادة السبي والغنائم التي غنمها المسلمون منه «بحنين»، وأهداه مئة جمل إذا تألف قلبه للإسلام، وهكذا عاد هذا المهزوم إلى جادة الحق مع عدد من أحلافه ليقبلوا بهذا العطاء السخي، وانضموا إلى راية الإسلام، فعينه الرسول ﷺ رئيساً لقبيلته، ليثبت بعد ذلك شجاعة نادرة في نشر الدين مع الجماعات التي تحالفت معه من ثقيف ـ وخاصة في القادسية وفتح دمشق بعد ذلك ـ وصار صحابياً مشهوراً «رضي الله عنه».

لكن القبائل التي كانت حديثة عهد في الإسلام ومع الرسول ﷺ في هذه الأحداث، شعرت بخسارة غنائمها من هذه المعارك الأخيرة، فتحلق بعضهم حول الرسول ﷺ مطالبين بالنهب إلى حد أن الأعراب علقت برسول الله ﷺ يقولون له: اقسم علينا فيئنا حتى اضطروه إلى سمرة فخطِفت رداؤه فقال: ردّوا علي ردائي أيها الناس، فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عدد هذه العضاة نعماً لقسمته فيكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً[72].

إن شاء وأن يدعه لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة. استمهل محمد رجاله. ثم نادى في ثقيف إنه مُعتِق من جاء إليه من الطائف. ففرَّ إليه قرابة عشرين من أهلها. عرف منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكفي أمداً طويلاً. هنالك رأى أن الحصار سيطول أمده، وأن جيوشه تود الرجوع لاقتسام الفيء الذي كسبوا، وأنه إن أصرَّ على البقاء فقد ينفد صبرهم. هذا وكانت الأشهر الحرم قد آذنت ولا يجوز فيها قتال. لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه. وكان ذو القعدة قد هلَّ فرجع بجيشه معتمراً، وذكر أنه متجهِّز إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم.

وفد هوازن يستردون السبايا

وانصرف محمد والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكة حتى نزلوا الجِعْرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم. وهنالك نزلوا يقتسمون. وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزع ما بقي على أصحابه. وإنهم بالجِعْرانة إذ جاء وفدٌ من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، بعد أن طال عنهم غيابهم، وبعد أن ذاقوا مرارة ما حلَّ بهم. ولقي الوفد محمداً، وخاطبه أحدهم قائلاً: يا رسول الله، إنما في الحظائر عمَّاتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كن يكفلنك. ولو أنا مَلَحْنا للحارث بن أبي شِمْر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منّا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا؛ وأنت خير المكفولين. ولم يخطئ هؤلاء في تذكير محمد بصلته بهم وقرابته منهم؛ فقد كانت بين السبايا امرأة تخطَّت الكهولة عنف عليها الجند المسلمون؛ فقالت لهم: تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة. فلم يصدّقوها وجاؤوا بها

ثم اقتسم الرسول ﷺ غنائم من لم يسلم من الأحلاف، وقسم خمسه ﷺ لتأليف القلوب، وخاصة قلوب قريش الذين سمع شماتتهم لحظة تضعضع صفوفه ﷺ في المعركة، فأعطى العطايا إلى «أبي سفيان» مئة جمل وأربعين أوقية من الفضة تعويضاً عن عينه التي فقدها حين الهجوم على باب الطائف، أما «عكرمة بن أبي جهل» وأمثاله فقد أعطاهم من خُمسهِ أيضاً.

وكان من بين أشد المعترضين على إعادة السبي والغنائم وإعطاء الطلقاء الشاعر «عباس بن مرداس» الذي أخذ دون المئة جمل فلم يبلغ مبلغ أولئك فقال:

فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرعِ
ومن تضع اليوم لا يُرفعِ

فلما سمع بذلك رسول الله ﷺ قال: اقطعوا عني لسانه!! فخشي بعض الناس أن يكون أراد المثلة به، وإنما أراد النبي العطية[73]. وهكذا أخرج «ابن مرداس» من عند الرسول ﷺ إلى الساحة العامة وهو يرتجف، ليعرض عليه قطيع حلال ليختار منه ما يريد!!

ماذا؟! قال الشاعر بعد أن تحرر من مخاوفه، أبهذه الطريقة يقطع لساني؟! والله لن آخذ شيئاً!! لكن الرسول ﷺ أرسل له ستين جملاً، فلم يعد يقول شعراً إلا في مدح الرسول ﷺ.

محمداً، فعرفها فإذا هي الشَّيْماء بنت الحارث بن عبد العُزَّى. وأدناها محمد منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيَّرها إن أحبَّت أبقاها وإن أحبَّت متَّعها، ورجعها إلى قومها، فاختارت الرجوع إلى قومها.

طبيعي وتلك صلة محمد بهؤلاء الرجال الذين أقبلوا عليه من هوازن مسلمين، أن يعطف عليهم وأن يجيبهم إلى مطلبهم؛ فقد كان ذلك دائماً شأنه مع كل من أسدى إليه يوماً من الدهر يداً. كان عرفان الجميل بعض شأنه، والبر بكليم القلب في جبلته. فلما سمع مقالتهم سألهم: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: يا رسول الله خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا! بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحبّ إلينا. فقال عليه السلام: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم. ونفَّذت هوازن قول النبي، فأجابهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. قال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وكذلك قال الأنصار. أما الأقرع بن حابس عن تميم وعُيينة بن حصن فرفضا، ورفض العباس بن مِرْداس عن بني سليم؛ لكن بني سليم لم يُقِرّوا العباس على رفضه. هنالك

أما الأنصار من المدينة فقد وجدوا بعد أن أفاء الله على الرسول ﷺ فقسم في الناس من المؤلفة قلوبهم ولم يعطهم شيئاً، وجدوا في أنفسهم إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه!! فمشى «سعد بن عبادة» إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم. فقال: فيم؟! قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء. فقال رسول الله ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فإذا اجتمعوا فأعلمني. فخرج «سعد» فصرخ فيهم فجمعهم، فجاء رجل من المهاجرين فأذن له بالدخول... حتى لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له... فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال: يا معشر الأنصار ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى. قال: ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟ قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المن لله ولرسوله. قال:

قال النبي: أما مَنْ تمسّك منكم بحقّه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أوّل سبي أصيبه. وكذلك رُدّت نساء هوازن وأبناؤها إليها بعد أن أعلنت إسلامها.

وسأل محمد وفد هوازن عن مالك بن عوف النصري. فلما علم أنه ما يزال بالطائف مع ثقيف، طلب إليه أن يبلغوه: أنه إن أتاه مسلماً رد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل. ولم يبطئ مالك حين علم بوعد الرسول أن أسرج فرسه في سرّ من ثقيف، وأن نجا بها حتى لحق بالرسول، فأعلن إسلامه فأخذ أهله وماله ومائة من الإبل. وأوجس الناس خيفة إن أفشى محمد هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من الفيء، فألحوا في أن يأخذ كل فيأه وتهامسوا بذلك. فلما بلغ الهمس النبي وقف إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال: «أيها الناس، والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم». وطلب إلى كل أن يردّ ما غنم حتى تكون القسمة العدل، «فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة».

أيها الناس. فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثم إنه خمس الغنيمة وأعطى من خمسه الذين كانوا إلى أيام أشد الناس عداوة له نصيباً على نصيبهم، فأعطى مائة من الإبل كلاً من أبي سفيان وابنه معاوية والحارث بن كلدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العُزّى والأشراف ورؤساء العشائر ممن تألف بعد فتح مكة؛ وأعطى خمسين من الإبل من كانوا دون هؤلاء شأناً ومكانة. وقد بلغ عدد الذين أعطاهم عشرات. وبدا محمد يومئذ غايةً من السماحة والكرم مما جعل أعداء الأمس تنطلق ألسنتهم بجميل الثناء عليه. ولم يدع لأحد من هؤلاء المؤلفة قلوبهم حاجةً إلا قضاها. أعطى عباس بن مرداس عدداً من الإبل لم يُرضِه وعاتبه على أن فضّل عليه عيينة

والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فآمناك ومخذولاً فنصرناك. قالوا: المن لله ولرسوله. قال: أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله رباً ورسوله قَسْماً[74].

ثم عاد الرسول ﷺ إلى مكة بعد أن قسمت الغنائم، بدون دق طبول أي نصر واستعراض قوة، بل بلباس الأحرام ليعتمر عمرة في ذي القعدة بعد غزوة الطائف وقسمة غنائم «حنين»، سميت بعمرة «الجعرانة» التي خرج إليها من ليلته بمكة، وبات فيها ﷺ ثم جاء طريق «المدينة»، وخلف على مكة الصحابي «معاذ بن جبل» رضي الله

والاقرع وغيرهما. فقال النبي اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه. فأعطوه حتى رضي وكان ذلك قطع لسانه.

الأنصار وعطاء المؤلفة قلوبهم

على أن هذا الذي تألّف به النبي قلوب من كانوا إلى أمس أعداءه، قد جعل الأنصار يتحدّث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول ويقول بعضهم لبعض: «لقي والله رسول الله قومه». ورأى سعد بن عبادة أن يُبلغ النبي مقالة الانصار ويؤيدهم فيها، فقال له النبي: اجمع لي قومك في هذه الحظيرة فجمعهم سعد وأتاهم النبي، فدار الحوار الآتي:

محمد: يا معشر الانصار، ما قالة بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في انفسكم؟! الم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم.

الأنصار: بلى! الله ورسوله أمن وأفضل.

محمد: الا تجيبونني يا معشر الانصار؟!

الأنصار: بماذا نجيبك يا رسول الله ولرسوله المَنّ والفضل.

محمد: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم، اتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فاويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشر الانصار في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! الا ترضون يا معشر الانصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذي نفس محمد بيده لولا العزة لكنت أمرأً من الانصار. ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الانصار شعباً لسلكت شعب الانصار. اللهم ارحم

عنه ليفقه الناس بالدين ويعلمهم القرآن، ومعه «عتاب بن أسيد» حاكماً على مكة المكرمة، وكان عمره رضي الله عنه ثماني عشرة سنة.

وهكذا ترك الرسول ﷺ مدينته التي ولد بها ومرعى صباه ﷺ، واتجه بقواته إلى «المدينة المنورة».

وحين وصل إلى «الأبواء» حيث مدفن والدته ﷺ، مالت نفسه الشريفة لزيارة قبرها، ولكنه لم يفعل لأنها لم تمت على الإسلام، فدعا الله تعالى أن يسمح له بهذه الزيارة التي كان متيقناً حقاً من استحالتها بدون أمر إلهي، وعندما جاءه ﷺ الوحي بالسماح له بالزيارة فقط، طلب من الله تعالى أن يسمح له بالصلاة والدعاء لها، لكنه منع من ذلك.

الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

قال النبي هذه العبارات وكله تأثر، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزّوه، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار وقالوا: رضينا برسول الله قِسْماً وحظّاً.

وكذلك أظهر النبي رغبة عن هذا المال الذي غنم في حُنين والذي بلغ ما لم يبلغه فيء من قبل. أظهر رغبته عنه، وجعله وسيلة تأتلف بها قلوب الذين كانوا، إلى أسابيع قليلة، مشركين ليروا في الدين الجديد سعادة الدنيا والآخرة. وإذا كان محمد قد عنّاه أمر هذا المال في قسمته حتى لقد كاد المسلمون يتهمونه، وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بما أعطى المؤلّفة قلوبهم، فإنه قد أظهر من العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة ما مكّنه من أن يعود بهذه الألوف من العرب وكلهم راضية نفسه، مطمئن قلبه، مستعد لأن يهب حياته في سبيل الله.

الباب الثاني والثلاثون

الفصل الأول

النزاع مع الشعر

تأثر الرسول ﷺ من وفاة ابنته «زينب» رضي الله عنها بعد قدومه بقليل إلى المدينة، وهي التي أحضرها من مكة ليبادلها بزوجها الذي أسره، «أبو العاص» المشرك في معركة «بدر»، كما سبق وذكرنا، وكانت هذه الأحداث المحلية تؤثر على الرسول ﷺ كثيراً وتشعره بالثكل، لكنه شعر بالعوض بولادة طفل ذكر له ﷺ من «مارية القبطية» رضي الله عنها، فسماه «إبراهيم»، فهو أمله في كهولته ﷺ باستمرار نسله ﷺ لأنه الذكر الوحيد الحي الباقي له.

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: ولما قَدِم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سُلْمى إلى أخيه لأبويه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش: ابن الزبعرَى وهُبيرة بن أبي وهب هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطِرْ إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض. وكان كعب قد قال:

ألاَ بلِّغا عني بُجَيراً رسالةً ... فويحك فيما قلتَ ويحك هل لَكَا

فبيِّن لنا إنْ كنتَ لست بفاعلٍ ... على أيِّ شيءٍ غير ذلك دَلَّكَا

على خُلُق لم أُلْفِ يوماً أباً له ... عليه وما تُلْفِي عليه أباً لكا

فإن أنت لم تَفْعَل فلستُ بآسف ... ولا قائلٍ إمّا عَثَرْتَ لَعاً لكا

سقاك بها المأمُون كاساً رَويةً ... فأنْهَلَك المأمونُ منها وَعلَّكا

قال ابن هشام: وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر:

مَنْ مُبْلغٌ عني بُجَيراً رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ بالخَيْفِ هل لَكَا

شربتَ مع المأمون كاساً رَوِيَّةً ... فأنْهَلَك المأمونُ منها وعَلَّكا

والآن وقد وصلت شهرته ﷺ إلى كل أصقاع بلاد العرب، فجاءت وفود كل القبائل من كل حدب وصوب إلى المدينة لتعلنه رسولاً لله وتسلم، أو لتخضع له وتدفع الجزية، وكان لقاؤه ﷺ معهم يبرز للناس مواهبه الفذة في كل مجال، وخاصة بتنظيم دولته المتسعة وباهتمامه بالتفاصيل إلى حد مذهل، فالزكاة كانت على المسلمين بالأعشار على الزرع المسقى، وعشر العشر على البعل، وعلى كل عشرة جمال غنمتان، وعلى كل أربعين رأس ماشية، بقرة واحدة، وعلى كل أربعين ضأن، واحدة، وكل من يدفع أكثر من هذا كان صدقة تقبل وتؤكد إخلاصه ورفعته بعين الله تعالى.

أما الجزية فكانت على الذين أخضعهم السيف وظلوا على عدم إيمانهم، وهي تقتضي دفع دينار على كل بالغ سنوياً، حراً كان أم عبداً.

وقد ظهرت صعوبات في تحصيل الجزية من بعض القبائل التي كانت تجد كل وجودها بالإباء العربي، مثل قبائل «تميم» التي طردت الجباة، فجاءتها قوات من العرب وأسرت بعض نسائهم وأطفالهم، فجاءت وفود من «تميم» لإعادة الأسرى معلنين

وخالفتَ أسباب الهُدَى واتَّبَعْتَه ... على أي شيء وَيْب غَيرِك دَلَّكَا
على خُلُق لم تُلْفِ امّاً ولا اباً ... عليه ولم تُدرِك عليه اخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسف ... ولا قائل إمَّا عَثرتَ لَعَاً لَكا

قال ابن إسحاق: وبعث بها إلى بُجير، فلما اتت بُجَيراً كره ان يكتمها رسول الله ﷺ فانشده إيَاها، فقال رسول الله ﷺ لما سمع: «سقاك بها المامون»: «صَدق وإنه لكذوب، انا المامون» ولما سمع: «على خلق لم تُلْفِ اما ولا أبا عليه» قال: «اجل لم يُلْف عليه اباه ولا امّه».

قال: ثم كتب بجير إلى كعب يقول له:

مَنْ مُبْلِغٌ كَعْباً فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلاً وهي أَحْزَمُ
إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحدَه ... فتنجو إذا كان النَّجاءُ وتَسْلَمُ
لدَى يومِ لا يَنْجُو وليس بمُفْلتٍ ... من الناس إلا طاهرُ القلب مُسْلِمُ
فدِينُ زُهَيرٍ وهو لا شيءَ دينُه ... ودِينُ أبي سُلْمَى عليّ مُحَرَّمُ

قال: فلما بلغ كعباً الكتابُ ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وارجف به من كان في حاضره من عدوِّه، وقالوا: هو مقتول. فلما لم يجد من شيء بدّاً قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوّه، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهينة كما ذُكر لي، فغدا به إلى رسول الله ﷺ في صلاة الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه.

أنفسهم كأدباء وشعراء، وهم بدل التواضع في حضرة الرسول ﷺ ذهبوا في غي الكلمة والشعر وراحوا يتحدون المسلمين بمضاهاة شعرية، وكأن كل المسألة بنظرهم مسألة قول شعري بليغ، فكان لا بد من أن يؤكد لهم الرسول ﷺ ما أكده القرآن الكريم بأن الرسول ﷺ ليس بشاعر، فقرأ لهم الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: 69].

ومع ذلك، أصروا على ما هم عليه فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: قد أذنت(75).

فقام «عطارد بن حاجب» خطيباً، ثم قام «الزبرقان بن بدر» شاعراً، ومن شعره:

نحن الكرام فلا، حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تُنصب البيعُ
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمعُ

فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستامن منك تائباً مُسلماً، فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: إذاً أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدوّ الله أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك، فإنه جاء تائباً نازعاً».

قال: فغضب كعب بن زهير على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير. فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ:

بانَتْ سعادُ فَقَلْبِي اليومَ مَتْبولُ ... مُتَيَّمٌ عندها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سعادُ غداةَ البَيْنِ إذ رحلوا ... إلا أَغَنُّ غضيضُ الطَّرْفِ مَكْحولُ
[هيفاءُ مُقْبلةٌ عَجْزاءُ مُدْبِرةٌ ... لا يُشْتَكى قِصرٌ منها ولا طُولُ]
تَجْلو عوارضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت ... كأنه مُنْهَلٌ بالراحِ مَعْلولُ
شُجَّتْ بذي شَبَمٍ من ماءِ مَحْنِيَةٍ ... صافٍ بأبطحَ أَضْحَى وهو مَشْمولُ
تَنْفِي الرياحُ القَذَى عنه وأَفْرَطَه ... مِنْ صَوْبِ غاديةٍ بيضٌ يعاليلُ
فيا لها خُلّةٌ لو أنها صَدَقَتْ ... بوَعْدِها أو لو أن النصحَ مَقبولُ

قال هيكل:

عاد محمد إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره في حُنين وحصاره الطائف، وقد ثبت في نفوس العرب جميعاً أن لم يبق لأحد قِبَلٌ به في شبه الجزيرة كلها، وأن لم يبق للسان ينطق بإيذائه أو الطعن عليه. وعاد الأنصار والمهاجرون معه كلهم مغتبط بفتح الله على نبي بلد

فلما فرغ قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال[76] ومما قاله حسان:

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبعُ
سجية تلك منهم غير محدثةٍ	إن الخلائق - فاعلم - شرها البدعُ
اعفة ذُكرتْ في الوحي عفتهم	لا يطمعون ولا يُرديهمُ طمعُ
ولا يفخرون إذا نالوا عدوهم	وإن أصيبوا فلا خور ولا هلعُ
أكرم بقومٍ رسول الله شيعتهم	إذا تفاوتت الأهواء والشيعُ[77]

فلما فرغ «حسان»، قال «الأقرع بن حابس» - زعيمهم -: وأبي إن هذا لمؤتى له!! لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا[78]. وعبر منطقهم هذا في فهم الأمور أسلموا، فجوز لهم رسول الله ﷺ وأحسن جوائزهم لإقرارهم الصريح بما في نواياهم، وأرجع لهم أسراهم.

وفي مناسبة أخرى ظهر مدى تذوقه ﷺ للشعر رغم عدم إقراره به لخطره، بقصة

المسجد الحرام، وبما هدى أهل مكة إليه من الإسلام، وبما دان له العرب على اختلاف قبائلهم من الطاعة والإذعان. عادوا جميعاً إلى المدينة ليطمئنوا إلى شيء من سكينة الحياة، بعد أن ترك محمد وراءه عتاب بن أسيد على أم القرى ومعاذ بن جبل ليفقه الناس دينهم وليعلمهم القرآن. وقد ترك هذا النصر، الذي لم يعرف له في تاريخ العرب وفي رواياتهم نظير، أثراً بالغاً في نفوس العرب جميعاً: ترك أثراً في نفوس العظماء والسادة الذين كانوا لا يتوهمون مجيء يوم يدينون فيه لمحمد بطاعة، أو يرتضون دينه لأنفسهم ديناً؛ وفي نفوس الشعراء الذين ينطقون بلسان هؤلاء السادة مقابل ما يلقون من عطفهم وتأييدهم، أو مقابل ما يلقون من تأييد القبائل ومؤازرتها؛ وفي نفس تلك القبائل البادية التي لم تكن تعدل بحريتها شيئاً، ولا كان يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص أو تموت دون ذلك في حرب وطعان تفنى خلالها فناء تاماً. وماذا يجدي على الشعراء شعرهم، وعلى السادة سيادتهم، وعلى القبائل احتفاظها بذاتيتها، أمام هذه القوة الخارقة للطبيعة، لا تقف قوة أمامها ولا يجرؤ سلطان على اعتراضها!

حديث كعب بن زهير

وقد بلغ الأثر في نفوس العرب أن كتب بُجير بن زهير إلى أخيه كعب بعد منصرف النبي عن الطائف يخبره أن محمداً قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وأن من بقي من هؤلاء الشعراء قد هربوا في كل وجه، وينصح إليه أن يطير إلى النبي بالمدينة؛ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض. وإنما قصَّ بجير حقاً، فلم

سجلها التاريخ «الكعب بن زهير» الذي هجا الرسول ﷺ، فطلبه الرسول ﷺ فكان طريداً لم يجد له ملجأ سوى القدوم إلى الرسول ﷺ والاعتذار له وإعلان إسلامه، فدخل مسجد الرسول ﷺ في المدينة ليمدحه بقصيدة تعد من أمهات القصائد في اللغة العربية[79]، وسميت بقصيدة «البردة» والتي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم عندها لم يُفدَ مكبولُ

إلى أن قال:

حتى وضعت يميني ما أنازعها ... في كف ذي نقماتٍ قوله القِيلُ
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلولُ[80]

ولذوق الرسول ﷺ المرهف بالكلمة، وأثرها الاجتماعي على الناس والعرب بصورة خاصة، استحسن الرسول كلمات الشاعر فلم يصفح عنه فقط، بل خلع عباءته ﷺ التي كان يرتديها وألقاها على كتفي «كعب»، فاحتفظ «كعب» بهذه العباءة ـ البردة ـ وعرفت قصيدته بها، وبعد وفاة الرسول ﷺ رفض «كعب» كل الذهب الذي قدمه الخلفاء له ثمناً لهذه «البردة»، إلى أن اشتراها «معاوية» من ورثة «كعب» بعشرة آلاف دراخماً ـ دينار ـ ثم صارت رمز لباس للخلفاء حين تنصيبهم حتى الخليفة السادس والثلاثين المستعصم بالله العباسي حيث مزقها على ظهره «هولاكو» الفاتح المغولي التتري، ويقال إنها رتقت وظلت بأيدي الخلفاء العثمانيين وحتى اليوم هي في متاحف تركيا، أو في قول آخر أحرقها التتار ـ والله أعلم ـ.

يقتل بمكة أحد بأمر محمد خلا أربعة، منهم شاعر آذى النبي هجاؤه، ومنهم اثنان آذوا زينب ابنته حين أرادت بإذن زوجها أن تهاجر من مكة لتلحق أباها. وأيقن كعب صدق أخيه، وإنه إن لم يأت محمداً ظل حياته طريداً مشرداً؛ لذلك أسرع إلى المدينة ونزل عند صديق له قديم. فلما أصبح غدا إلى المسجد واستأمن النبي وأنشده قصيدة:

بانت سُعادُ فقلبي اليوم متبولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ

فعفا النبي عنه وحسن من بعد ذلك إسلامه.

وفود القبائل على النبي

وكان من هذا الأثر كذلك أن بدأت القبائل تقبل على النبي تقدم الطاعة بين يديه: قدِم وفد من طيء وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيل، فلما انتهوا إليه أحسن استقبالهم، وتحدّث إليه زيد؛ فقال النبي له: ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه. ودعاه «زيد الخير» بديلاً من «زيد الخيل». وأسلمت طيِّئ وزيدٌ على رأسها.

الفصل الثاني

تحطيم صنم اللات

وفي الوقت الذي راحت فيه الحصون والقلاع والمناطق العربية تبايع الرسول ﷺ على الإسلام بالتتابع ظلت ثقيف معتصمة بالطائف تعبد «اللات» فيها، تعصمهم جبالهم وحصن مدينتهم القوي، ورغم كونهم بذلك قد أمنو الفتح وجدوا أنفسهم مع الوقت في عزلة، فهم لا يقدرون النزول ولا حتى الخروج من وراء أسوارهم دون أن يتعرضوا للهجمات، وبسبب هذا التهديد المستمر أرسلوا سفراءهم لمحمد ﷺ من أجل المهادنة!!

قال هيكل:

وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانياً، وكان من أشد العرب كراهية لمحمد. فلما رأى أمره وأمر المسلمين في شبه الجزيرة، تحمَّل في إبله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصارى بالشام، وإنما فرَّ عدي حين أوفد النبي عليَّ بن أبي طالب ليهدم صنم طيئ، وهدم عليٌّ الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنة حاتم أخت عدي التي حبست في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها. ومرّ بها النبي فقامت إليه وقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الرافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك. وأعرض عنها النبي حين علم أن رافدها عدي بن حاتم الفار من الله ورسوله.. لكنها راجعته، وذكر هو ما كان لأبيها في الجاهلية من كرم أعلى به ذكر العرب، فأمر بتسريحها وكساها كسوة حسنة وأعطاها نفقتها وحملها مع أوّل ركب قاصد إلى الشام. فلما لقيت أخاها وذكرت له ما أكرمها به محمد عاد إليه فألقى بنفسه إلى صفوف المسلمين.

وكذلك جعل السادة وجعلت القبائل تفد إلى محمد، بعد فتح مكة وبعد انتصار حُنين وحصار الطائف، تدين له بالرسالة وبالإسلام، وهو في مُقامه ذاك بالمدينة مطمئن إلى نصر الله وإلى شيء من سكينة الحياة.

موت زينب بنت النبي

لكن سكينة حياته لم تكن يومئذ صفواً؛ فقد كانت زينب ابنته إذ ذاك مريضة مرضاً خُشي منه عليها وهي منذ آذاها الحويرث وهبَّار حين خروجها من مكة أذىً أفزعها فأجهضها، قد ظلّت مهدَّمة العافية، وانتهى المرض بوفاتها. وبموتها لم يبق لمحمد من عقبه إلا فاطمة، بعد

فأظهر الرسول ﷺ معارضة قوية لهؤلاء المتعنتين من ذوي الرؤوس المتحجرة، أصحاب أكثر المدن وثنية في جزيرة العرب، ممن خذلوه في أول دعوته وردوه عن أسوار مدينتهم في قمتها، وكان شرطه ﷺ الوحيد أن يعلنوا إسلامهم وتحولهم عن الوثنية، فقبل سفراؤهم اعتناق الإسلام مما أذهل سكان الطائف من الاتجاه إلى إلغاء عقيدة آبائهم، فعادوا يطلبون من وفدهم المناورة بطلب السماح لهم بأن يعبدوا أصنامهم مدة ثلاث سنوات أخر، فرفض طلبهم فوراً، فسألوا أن يتركوا على دينهم حتى ولو شهراً واحداً لتهيئة الرأي العام عندهم، ورفض سؤالهم أيضاً، فساوموا على السماح لهم بعدم إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، وأن لا يكسروا أصنامهم بأيديهم فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك. وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه». فاشترطوا على رسول الله ﷺ ألا يحشروا ـ ينتدبوا للمغازي ـ ولا يعشروا ـ يؤخذ منهم العشر ـ ولا يجبوا ـ يطهروا ـ ولا يستعمل عليهم غيرهم فقال رسول الله ﷺ: «لكم ألا تحشروا ولا تُعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم، ولا خير في دين لا ركوع فيه»، وسمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»(81).

وكانت أحلافهم قد نزلت في المدينة عند «المغيرة بن شعبة»، فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث الرسول ﷺ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم صنمهم الطاغي عليهم «اللات» الذي كان مصنوعاً من الحجر، لكن «أبا سفيان» لم يدخل الطائف لينأى بنفسه عن ملابسات الهدم، فدخل المغيرة مستخفاً بالأمر وقال

أن ماتت أم كلثوم كما ماتت رُقية قبل زينب، وحزن محمد لفقدها وذكر لها رقة شمائلها وجميل وفائها لزوجها أبي العاص بن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره ببدر، وتفتديه مع ما كان من إسلامها وشركه، ومع ما كان من محاربته أباها حرباً لو انتصرت قريش فيها لما أبقت لمحمد على حياة. ذكر محمد رقة شمائلها وجميل وفائها، وذكر ما لاقت من ألم المرض طوال أيامها منذ عادت من مكة إلى حين وفاتها. وكان محمد يشارك كل ذي ألم في ألمه، وكل ذي مصاب في مصابه، وكان يذهب إلى أطراف المدينة وإلى ضواحيها يعود المريض، ويواسي البائس، ويأسو جراح الكليم. فإذا أصابه المقدار في ابنته بعدما أصابه من قبل في أختيها وكما أصابه قبل رسالته في أخويها، فلا جرم أن يحزن ويشتدُّ به جوى الحزن، وإن وجد من برِّ الله ورفقه به ما يعزِّيه كيما يسلو.

مولد إبراهيم

ولم يطل انتظاره؛ فقد رزقه الله من مارية القبطية غلاماً دعاه إبراهيم تيمُّناً باسم إبراهيم

لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف؟! فضرب الصنم ثم تساقط على الأرض وقام يركض؟؟ فارتج على أهل الطائف وفرحوا وقالوا: أبعد الله المغيرة قتلته الربة؟!... فقال المغيرة...: «إنما هي لكاع حجارة ومدر... وهدمها حجراً حجراً حتى سواها بالأرض[82] وهكذا هزئ المغيرة بكل هذا الإشكال المضخم، فلما هدمها «المغيرة» وحفر أساسها وأخذ مالها وحليها وأرسله إلى أبي سفيان[83] تاركاً لكاعها وحجارتها لنساء الطائف يندبنها وهن يقلن: لنبكين التي كانت تدافع عنا، والتي جعلها اللئيم مسلمة ولم يحسن هو وجماعته ضربها، وحسب عباراتهن القديمة:

لنبكين دُفَاعْ

أسْلَمها الرّضَاعْ

لم يحسنوا المِصَاعْ[84].

جدّ الأنبياء الحنيف المسلم. وكانت مارية إلى يومئذ ومنذ أهداها المقوقس إلى النبي في مرتبة السراري؛ فلم يكن لها من أجل ذلك منزل بجوار المسجد كما كان لأزواج النبي أمهات المؤمنين، بل أنزلها محمد بالعالية من ضواحي المدينة، في المحلّ الذي يقال له الآن مشربة أم إبراهيم، بمنزل تحيط به كروم؛ وكان يختلف إليها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه. وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس إليه مع أختها سيرين، وجعل سيرين لحسان بن ثابت. ولم يكن محمد يرجو أن يعقب بعد أن ظلت أزواجه جميعاً من بعد وفاة خديجة ومنهن الفتاة الفتية، ومنهن النصف التي أعقبت من قبلُ لم تبشّر إحداهن بخصب عشرة أعوام متتابعة. فلما حملت مارية ثم ولدت إبراهيم، وقد تخطى هو إلى الستين. فاضت بالمسرّة نفسه، وامتلأ هذا القلب الإنساني الكبير أنساً وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادتها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قرباً.

ومن حسن صنيع القدر أن كانت الطائف ـ التي قاومت النبي في أثناء حصارها ما قاومت حتى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها ـ هي أوّل من أسرع إلى إعلان الطاعة بعد تبوك، وإن تردّدت طويلاً في إعلان هذه الطاعة. فقد كان عروة بن مسعود، أحد سادة ثقيف المقيمين بالطائف، غائباً باليمن في أثناء غزوة النبي بلاده بعد موقعة حُنين. فلما عاد إلى موطنه ورأى النبي انتصر في تبوك وعاد إلى المدينة، أسرع إليه يعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه للدخول في دين الله. ولم يكن عروة ليجهل محمداً وعظم أمره، وقد كان أحد الذين فاوضوه عن قريش في صلح الحديبية. وعرف النبي بعد إسلام عروة اعتزامه الذهاب إلى قومه يدعوهم إلى الدين الذي دخل فيه، وكان النبي يعرف من تعصب ثقيف لصنمها اللات ومن نخوتها وشدتها ما جعله يحذر عروة ويقول له: إنهم قاتلوك، لكن عروة اعتز بمكانه من قومه فقال: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبصارهم. وذهب عروة فدعا قومه إلى الإسلام؛ فتشاوروا فيما بينهم ولم يبدوا له رأياً. فلما كان الصباح قام على عِلّية له ينادي إلى الصلاة.

الفصل الثالث

مقابلات مع الرسول ﷺ

ومن بين الذين كانوا يقاومون قوة الرسول ﷺ، زعيم قبيلة بني عامر البدوية «عامر بن الطفيل» وكان يشتهر بجماله وخيلائه ومظاهر الإمارة والإباء، لكنه كان ذا نفس لئيمة، وهو في أسواق «عكاظ» بين «الطائف ونخلة» حيث كان يجتمع التجار والشعراء والحجاج من كل بلاد العرب، كان ينصب الولائم للشهرة والمجد، ويحمي ويجير الجاني والطريد.

قال هيكل:

هنالك صدقت فراسة الرسول، فلم يطق قومه صبراً، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم قاتل. واضطرب من حول عروة أهله، فقال وهو يسلم الروح: «كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم». ثم طلب أن يدفن مع الشهداء فدفنه أهله معهم.

ولم يذهب دم عروة هدراً، فإن القبائل التي تحيط بالطائف كانت قد أسلمت كلها، ولذلك رأت فيما صنعت ثقيف بسيد من سادتها إثماً ونكراً. ورأت ثقيف من أثر ذلك أنهم صاروا لا يأمن لهم سربٌ، ولا يخرج منهم رجل إلا اقتطع، وأيقنوا أنهم إن لم يجدوا سبيلاً إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فمصيرهم لا ريب إلى الفناء. وأتمر القوم فيما بينهم، وتحدثوا إلى كبير منهم (عبد يا ليل)، كي يذهب إلى النبي يعرض عليه صلح ثقيف معه. وخشي عبد يا ليل أن يصيبه من قومه ما أصاب عروة بن مسعود، فلم يقبل أن يخرج إلى محمد حتى أوفدوا معه خمسة آخرين، اطمأنّ إلى أنه إذا خرج معهم ثم عادوا شغل كل رجل منهم رهطة. ولقي المغيرة بن شعبة القوم حين دنوا من المدينة، فأسرع يريد أن يخبر النبي خبرهم. ولقيه أبو بكر يشتد في السير؛ فلما عرف منه ما جاء فيه طلب إليه أن يدع له هذه البشرى يزفّها إلى رسول الله ودخل أبو بكر فأخبر النبي بقدوم وفد ثقيف.

طلب الوفد صنمهم ورفض النبي ذلك

وكان هذا الوفد ما يزال يعتزّ بقومه، وما يزال يذكر حصار النبي للطائف وانصرافه عنها. فمع ما علمهم المغيرة كيف يحيون النبي بتحية الإسلام لم يرضوا حين قابلوه إلا أن يحيوه بتحية الجاهلية، ثم إنهم ضُربت لهم قبة خاصة في ناحية من المسجد أقاموا بها يصرون على

وهكذا أدهش «عامر» الجميع بأريحية تخفي طموحه من وراء هذه الشهرة، ولهذا حرك نجاح الرسول ﷺ وتزايد قوته ﷺ الغيرة فيه، لذلك عندما نصحوه بالتفاوض معه ﷺ قال بِكبرٍ: «لقد أقسمت، أن لا أرتاح حتى أخضع كل بلاد العرب لي، وأضع الجزية على هذا القريشي»؟!

لكن فتوحات الرسول ﷺ الأخيرة دفعته إلى إعطاء إذنه لمن نصحه من أصدقائه بضرورة مهادنة الرسول ﷺ، فذهب إلى «المدينة» ودخل على الرسول ﷺ، فقال: يا محمد خالني ـ اتخذني مستشاراً وخليلاً ـ قال ﷺ: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده»[85]، وكررها ثلاثاً فجاءه نفس الجواب فقال: «أما والله لأملأنّها عليك خيلاً ورجالاً، أو أُسْلم، على أن لي الوبر ولك المدر»، قال ﷺ: «لا». فولى مهدداً بخيل جرد ورجال مرد وليربط بكل نخلة من نخلات المدينة فرساً.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامراً واهدِ قومه»[86]. فركب فمات بعد عدة

الحذر من المسلمين وعدم الطمأنينة إليهم. وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله في مفاوضتهم إياه؛ فكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند النبي حتى يأكل منه خالد. وقام هذا بالسفارة، فأبلغ محمداً أنهم مع استعدادهم للإسلام، يطلبون إليه أن يدع لهم صنمهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها، وأن يعفيهم من الصلاة. وأبى محمد عليهم ما طلبوا من ذلك أشدَّ إباء. ولقد نزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين، ثم أن يدعها سنة، ثم أن يدعها شهراً واحداً بعد انصرافهم إلى قومهم، ولكن إباءه ذلك كان حاسماً لا تردد فيه ولا هوادة. وكيف تريد من نبيّ، يدعو إلى دين الله الواحد القهار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقية، أن يتهاون في أمر صنم منها، وإن كان لقومه من المنعة ما كان لثقيف بالطائف! فالإنسان إما أن يؤمن، وإما ألا يؤمن، وليس بين الطرفين إلا الارتياب والشك. والشكّ والإيمان لا يجتمعان في قلب كما لا يجتمع الإيمان والكفر. وبقاء اللات طاغية ثقيف علم على أنهم لا يزالون يداولون عبادتهم بينها وبين الله جل شأنه. وهذا إشراك بالله، والله لا يغفر أن يُشرك به.

وطلبت ثقيف إعفاءها من الصلاة؛ فرفض محمد قائلاً: إنه لا خير في دين لا صلاة فيه. ونزل الثقفيون عن بقاء اللات وقبلوا الإسلام وإقامة الصلاة. لكنهم طلبوا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم. إنهم حديثو عهد بإيمان، وقومهم ما يزالون في انتظارهم ليروا ما صنعوا، فليجنبهم محمد تحطيم ما كانوا يعبدون وما كان يعبد آباؤهم. ولم ير محمد أن يشتد في هذه، فسيّان أن يكسر الثقفيون الصنم وأن يكسره غيرهم؛ فهو سيهدم، وستقوم في ثقيف عبادة الله وحده. قال عليه السلام: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، ثم أمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سناً. أمره عليهم على حداثة سنه؛ لأنه كان أحرصهم على الفقه في الإسلام وتعلم القرآن، بشهادة أبي بكر والسابقين إلى الإسلام. وأقام القوم مع محمد ما بقي من رمضان،

أيام في بيت امرأة من بني «سليم»، وقومه يسألونه ما وراءك فأجابهم: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء؟! ـ وهو لو ـ لوددت لو أنه عندي الآن، فأرميه بالنبل حتى أقتله الآن(87).

أما البدوي المعاند الآخر فكان «ابن حاتم الطائي» «عدي»، وكانت شهرة والده بالكرم والحرب تعم أصقاع العرب، لدرجة يضرب فيها المثل، أما ابنه «عدي» فكان نصرانياً اشتهر كأبيه بالكرم لكنه كان جباناً، إذ قال لغلام عربي من غلمانه: أعدد لي إبلي . . . فاحتسبها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد ـ نجد ـ فآذني(88) وحين فعل أخذ عائلته وأولاده ولحق بأهل دينه في الشام، تاركاً أخته «سفانة» سبية لجيش «علي» رضي الله عنه الذي غزا «نجداً» بعلمين أبيض وأسود، وأحضرها إلى المدينة، وأشار عليها أن تكلم رسول الله ﷺ بأمرها وأمر سبايا «طيء» وكانت امرأة جذلة ـ أي عاقلة ـ فقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن علي، من الله عليك(89).

فسألها رسول الله ﷺ بحمى من أنت؟! ـ من وافدك ـ؟!

قالت: بحمى «عدي» ابن حاتم طيء.

قال: الفار من الله ورسوله؟! ثم انصرف ﷺ.

وصاموا وإياه وهو يبعث لهم بفطورهم وسحورهم. فلما آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى محمد عثمان بن أبي العاص قائلاً: «تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة».

هدم اللات

وعاد القوم إلى بلادهم، فوجّه النبي معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعبة، وكانت لهما بثقيف مودّة وحرمة، ليقوما بهدم اللات. وقدم أبو سفيان والمغيرة لهدم الصنم، فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حُسَّراً يبكين، ولا يجرؤ أحد أن يقترب منه بعد الذي كان من اتفاق وفد ثقيف والنبي على هدمه. وأخذ المغيرة مال اللات وحليها فقضى منه، بأمر الرسول وبالاتفاق مع أبي سفيان، ديناً كان على عروة والأسود. وبهدم اللات وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلها قد أسلمت، وكانت سطوة محمد قد امتدت من بلاد الروم في الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب. وكانت هذه البلاد الباقية في جنوب شبه الجزيرة تتهيأ كلها لتنضمَّ إلى الدين الجديد، ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كل قوّتها. وكانت وفودها تسير لذلك من جهات مختلفة، قاصدة كلها إلى المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالإسلام.

بينما كانت الوفود تُقبل تترى إلى المدينة، كانت الأشهر يتلو أحدها الآخر حتى اقترب موعد الحج، ولم يكن النبي عليه السلام أدى الفريضة على تمامها يومئذ كما يؤديها المسلمون اليوم، أفتراه يخرج في عامه هذا شكراً لله على ما نصره على الروم، وما أدخل الطائف في

وفي اليوم التالي قالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن علي، من الله عليك.

فقال ﷺ: قد فعلت، ولم يطلقها فقط بل زودها بزاد وراحلة، فذهبت مع أول قافلة إلى الشام.

وحين التقت بأخيها وبخته على هربه، فاعترف بخطئه، ثم حثته على اللحاق برسول الله ﷺ، قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تَذِلَ في عز وأنت أنت. قال: فقلت: والله إن هذا الرأي.

قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عَدِي بن حاتم.

فقام رسول الله ﷺ، وانطلق بي إلى بيته... إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجاتها. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك!

ثم مضى بي حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفاً، فقذفها إلي فقال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت فاجلس عليها. قال: بل أنت.

فجلست وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال: إيه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسياً ـ دين بين النصارى والصابئة ـ قال قلت بلى. قال: أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قلت بلى. قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك. قلت: أجل والله. وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يُجهل.

قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه إنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، قال: فأسلمتُ.

حظيرة الإسلام، وما جعل الوفود تجيء إليه من كل فج عميق؟ إن شبه الجزيرة ما يزال بها من لم يؤمن بالله ورسوله، ما يزال بها الكفّار وما يزال بها اليهود والنصارى. والكفار على عهدهم في الجاهلية ما يزالون يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم. والكفار نجس فليبق إذاً بالمدينة حتى يتم الله كلمته وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته، وليخرج أبو بكر في الناس حاجّاً.

الباب الثالث والثلاثون

الفصل الأول

حملة سورية

بعد أن أجبر الرسول ﷺ عرب الجزيرة أن يسمعوا قوله بإخضاعه لرؤوس الجهل فيهم، وجدوا في هذا القول معتصماً لهم، فتحولوا عن عقائدهم التافهة ونزاعاتهم القبلية العقيمة، بين قبائلهم المتفرقة، وصاروا مسلمين، وبذلك أدركوا فوراً أن تفرقهم قد جعل منهم أمة هامشية ضعيفة بالنسبة لبقية أمم العالم، فصار الإسلام عامل توحد لهم بأمة واحدة، يؤهلهم لحمله للآخرين بالفتح. والنبوة التي أعطت الرسول ﷺ قدرة ضبط هائلة لهذه القوة المتنامية للعرب التي نبعت من الصحراء، هي التي سمحت بقيادتهم لنشر الإيمان في العالم، وبالتالي امتداد قوة الإسلام هذه من العرب إلى الأمم الأخرى.

وكان لانتصارات الرسول ﷺ، ولنماء قوته وخاصة امتداده ﷺ إلى «مؤتة» داعٍ للفت انتباه الامبراطور «هرقل» الذي بدأ بتشكيل جيش يهدف دخول بلاد العرب لضربِ هذا العدو الجديد، فما كان من الرسول ﷺ للرد على هذا العداء إلا المبادرة بنقل علم الإيمان إلى قلب سورية.

وكعادته ﷺ لم يعلن عن الهدف من تجميع قواته إلا لخاصة قليلة من قادته من الصحابة الموثوقين، ولكن لسبق تشكيلات العدو الخطرة التي قد تفاجئه كان من الضروري بطبيعة الحال أن تكون تهيئة الجيش هذه المرة، مختلفة عن تهيئة قوات الغزو للقبائل العربية لإخضاعها، والتي كانت مختصرة وسريعة، فالمسألة تحتاج إلى

قال ابن كثير:

وكان رسول الله ﷺ قلَّ ما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيَّنها للناس لبُعد الشُّقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد إليه ليتاهب الناس لذلك أهبته، فأمرهم بالجهاز وأخبرهم انه يريد الروم.

استعدادات كبيرة لأنه ﷺ سيكون بمواجهة قوات ضخمة عبر مسيرة طويلة وشاقة لهذه الكتائب التي سوف تغيب عن بلادها زمناً طويلاً، وبسبب طول مدة هذا التحضير كان لا بد له ﷺ من أن يعلن هدف مشروعه بصورة عامة.

وإزاء هذا لم يظهرِ الناس استعدادهم المعهود منهم تحت لوائه ﷺ، فكثير منهم يذكر النتيجة المأساوية لمعركة «مؤتة»، فهم حذرون من الصدام مرة ثانية مع الكتائب الرومانية ذات الانضباط القتالي الفائق، كذلك كان وقت التوجه لهذه المعركة غير ملائم لهم في الصيف، للسير كل هذه المسافات الطويلة في الصحراء لتحقيق هدف الحملة، فالأرض جافة وكذلك الينابيع على الطريق، عدا عن أن موسم جني البلح قد أزف، حيث يعمل الرجال على قطفه، فيجب أن يكونوا متواجدين في بيوتهم بدل أن يكونوا بعيدين عنها في حملة عسكرية.

عدا عن أن «عبد اللّه بن أبى» الذي ضخم هذه الأمور بعين «الخزرج» كان لا يزال على عدائه للرسول ﷺ ونفاقه له، ولذلك تراه يلتقط كل فرصة لمعارضة خطط الرسول ﷺ ومحاولة إفشالها، فكان يحدث بعض أصحابه: أن رسول الله ﷺ أمر بالتهيؤ لغزو الروم في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم، فهل يظن محمد ﷺ؟ أن حرب بني الأصفر مثل غزو العرب بالعرب، إنه سيجد الأمر مختلفاً؟! فكان يقول: وبحق الله إني لأراكم جميعاً من الآن بالأصفاد؟! وبمثل هذه العبارات والاقتراحات المحبطة كان المنافقون يجتمعون ـ ويتداولون ـ في بيت سويلم اليهودي[90] وينشرون أقوالهم بين «الخزرج»، وعلى مثل هذا الموقف نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ الآية[91].

أما المؤمنون من أولي العزم فقد كانت فرصة لهم كي يعبروا عن إيمانهم، فقد قدمت النساء منهم حليها، وتبرع أمثال «عمر» رضي الله عنه و«العباس» رضي الله عنه بمبالغَ كبيرةٍ من المال لتجهيز الجند، أما «عثمان» رضي الله عنه فقد تبرّع بألف دينار وقال بعض المؤرخين: «بعشرة آلاف دينار كتبت في الزكاة المتقبلة»، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم»[92]. أما «أبو بكر» رضي الله عنه فقد قدم

فقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه ذلك للجد بن قيس أحد بني سلمة: «يا جد هل لك العام في جِلادَ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتنّي، فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر.

كل ماله لتجهيز جيش العسرة هذا، وقُدر بحوالى أربعة آلاف «دراخما» أو «دينار» ولم يبق لأسرته إلا أمر الله ورسوله فيهم.

ومن هذه الأمثلة المثالية ظهر تأثير قوي على الناس، رغم شعورهم باستحالة هذه البعثة عسكرياً، لذلك سموها بجيش العسرة، فعدد الجيش عشرة آلاف راكب وعشرون ألف راجل، يتحركون في قيظ الصيف لملاقاة أعظم جيوش العالم؟!

وخَلَفَ رسول الله ﷺ «علياً» رضي الله عنه على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له، وتخففاً منه، فقال رسول الله ﷺ: كذبوا. . . أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟! إلا أنه لا نبي بعدي[93] وحين تمت كل التجهيزات تحرك الرسول ﷺ بكل هذه القوات من «المدينة» مسجلاً حدثاً تاريخياً فريداً في تاريخ الحروب.

وكان جزء من جيشه ﷺ من أحلافه من الخزرج بقيادة المنافق «عبد الله بن أبى»، فلما خرج ﷺ يوم الخميس ضرب عسكره على ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً من الناس، وضرب «عبد الله بن أبى» عدو الله عسكره أسفل منه وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه «عبد الله بن أبى» في طائفة من المنافقين وأهل الريب[94].

هذا وقد استنتج الكثير من المؤرخين أن قول الرسول ﷺ «العلي» رضي الله عنه: «ولكني خلفتك لما تركت ورائي»[95]. ولأنه بمنزلة «هارون من موسى» عليه السلام في هذا الوضع الحاسم والعصيب، دلالة من أدلة أن الرسول ﷺ قد عهد بالخلافة من بعده «العلي» رضي الله عنه[96].

فاعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففي الجد أنزل الله هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر زهادةً في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً بالرسول ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

الفصل الثاني

الأرض الملعونة

ومنذ أول مسير الجيش الذي رافق الرسول ﷺ واجه هذا الجيش صعوبات اجتياز الصحراء بهذا الفصل القائظ، فرجع الكثير منهم في اليوم الثاني للمسير، وآخرون في اليوم الثالث، وآخرون في اليوم الرابع، وهكذا فيقول الناس للرسول ﷺ: يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: دعوه إن يك فيه خيرٌ فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه(97) لكن معنويات البعض خارت أثناء المسير، في الوقت الذي شعر بالذنب من تخلف من رفاقهم بالمدينة ـ ممن لم يكونوا منافقين ـ أمثال «أبي خَيثمة» الذي رجع مع الراجعين بعدما سار رسول الله ﷺ أياماً، فوصل إلى المدينة في يوم حار، فوجد امرأتين له، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه ماء، وهيأت له طعاماً، فقال: رسول الله في الضح ـ الشمس ـ والريح والحر، و«أبو خيثمة» في ظل

قال ابن كثير:

فلما سار رسول الله ﷺ تخلَّف عنه عبد الله بن أبيّ في طائفة من المنافقين وأهل الرِّيب.

قال ابن هشام: واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الانصاري قال: «وذكر الدَّاروَرْدي أنه استخلف عليها عام تبوك سِبَاع بن عُرْفطة.

قال ابن إسحاق: وخلَّف رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فارجف به المنافقون وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه.

فلما قالوا ذلك أخذ عليٌ سلاحه ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرف فأخبره بما قالوا، فقال: «كذبوا ولكني خلَّفتك لما تركتُ ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. افلا ترضى يا عليّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي».

فرجع عليٌ ومضى رسول الله ﷺ في سفره.

ثم قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن رُكانة، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه سعد، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لعليّ هذه المقالة.

وقد روى البخاري ومسلم هذا الحديث من طريق شعبة، عن سعد بن إبراهيم، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه به.

بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء. . . والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ. . . ثم خرج. . . حتى أدركه حين نزل «تبوك». ومعه فار آخر وجده عائداً في الطريق هو «عمير بن وهب الجهمي».

وقبل هذا وبعد مسيرة سبعة أيام للجيش، دخلت القوات الإسلامية المنطقة الجبلية منطقة «الحِجْر» التي كانت تسكنها العرب البائدة من أهل «ثمود» وهي منطقة ملعونة، تحدثنا في السابق عن التقاليد العربية التي تذكر سبب لعنها من الله تعالى!! لكن الجيش الزاحف لم يكن في معظمة يعرفون هذه التقاليد، خاصة وأن العطش والتعب قد أخذ بهذه القوات، وما أن رأوا هذه الكهوف الخاوية الباردة المنتشرة على جانبي الوادي، التي كانت مساكن «ثمود» حتى دخلوها للراحة وللشرب من ينابيعها، وتهيئة طعامهم والاستحمام على أمل إمضاء ليلة مريحة في هذه الكهوف الباردة.

ولما كان الرسول ﷺ في مؤخرة الجيش لمساعدة الضعفاء فيه، فقد وصل متأخراً للمكان الذي توقف فيه الجيش، فعرف أنه أرض «ثمود» التي تخبر عنها التقاليد العربية

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ حين مرّ بالحجر نزلها واستسقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مياهها شيئاً ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً».

هكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعمر بن بشر، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا معمر عن الزهري، أخبرني سالم بن عبد الله عن أبيه، أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالحِجْر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم» وتقنَّع بردائه وهو على الرَّحْل.

ورواه البخاري من حديث عبد الله بن المبارك وعبد الرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه.

قال: فخرج حتى قدم تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومن فيها رجل، فمن كان له بعير فليوثق عقاله».

قال أبو حميد: فعقلناها، فلما كان من الليل هبَّت علينا ريح شديدة، فقام فيها رجل فالقته في جبل طيئ.

ثم جاء رسول الله مَلِك أيلة فاهدى لرسول الله بغلة بيضاء، وكساه رسول الله بُرداً وكتب له يجيرهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرنا عبد الله بن محمد بن عقيل في

منذ «إبراهيم» عليه السلام وهو الأدرى بها، خاصة وأنه ﷺ كان قد مر بنفس هذا المكان صغيراً، وخوفاً من أن يصيبه من شؤم هذا الجوار مصيبة، وعن «ابن عمر» قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك «الحِجْر» عند بيوت «ثمود»، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها «ثمود» فعجنوا ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا فقال: إني أخشى أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم(98).

ثم تلثم بعمامته ﷺ وانطلق براحلته ليغادر هذا المكان اللعين، وتبعه كل الجيش كما لو كانوا بحال هزيمة من عدو.

وهذا ما جعل الليلة التالية ليلة معاناة كبيرة لكل هذه القوات التي خيمت بدون ماء، خاصة وأن حرارة الجو كانت لا تطاق ويزيدها اختناقاً ريح الصحراء المحمل بالغبار، فاشتد العطش بالعسكر كما لو أن لعنة «ثمود» لا زالت تلاحقهم؟! لكن أعقبها لرحمة من الله غيمة ماطرة في الصباح أعادت على كل حال للناس ولمطاياهم النشاط، فتابع الجيش مسيره بالنظام من جديد، ليصل دون مزيد من المعاناة إلى «تبوك» وهي آخر المدن الرومانية الصغيرة في سورية على حدود الصحراء، وتقع في منتصف الطريق بين «المدينة المنورة» و«دمشق»، يمكن الوصول إليها آن ذاك بمسيرة حوالي عشرة أيام على الراحلة من كلتا المدينتين.

ونزل الرسول ﷺ تبوك وحط بين حقول مروية وقرب نبعة شبه ناضبة كما تؤكد السير لدرجة أنه حين أملِئَتْ له جرة صغيرة من مائها ﷺ كاد النبع أن ينضب، فشرب

قوله: «الذين اتَّبعوه في ساعة العُسرة». قال: خرجوا في غزوة تبوك، الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حر شديد فأصابهم في يوم عطشٌ حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها، فكان ذلك عسرة في الماء وعسرة في النفقة وعسرة في الظُّهر.

قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جبير، عن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدّثنا عن شأن ساعة العسرة. فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرَّحل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا. فقال: «أوتحب ذلك؟» قال: نعم. قال: فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأطلّت ثم سكبت

منها الرسول ﷺ وتوضأ ليلقي بفضلة وضوئه ﷺ ثانية في النبع، وبعد ثوانٍ تدفق النبع بقوة كافية لإرواء كل الجيش ومطاياه.

ومن هذا المعسكر في «تبوك» أرسل الرسول ﷺ قواده ورسله للدعوة إلى الإسلام في الجوار، أو لفرض الجزية، وكذلك أرسل الأمراء الهاربون سفراءهم له، إما لإعلان إسلامهم أو للخضوع له موقتاً. ومن بين هؤلاء ملك «أيلة» يُحنَّةَ بن رؤبة ـ أو يحيى بن رؤبة ـ الذي أهدى الرسول ﷺ بغلة بيضاء، فكساه رسول الله ﷺ «برْدَه» مع كتابة أمان له قال: فاشتراها بعد ذلك أبو العباس بن محمد بثلاثمئة دينار[99]، و«أيلة» المدينة المسيحية في عصر الرسول ﷺ قرب البحر الأحمر، هي نفس المدينة التي تذكر التقاليد العربية أن أصحابها كانوا في السابق البائد من اليهود الذين عدوا في السبت فقلبت شيوخهم قردة وشبانهم خنازير، وهي قصة يتفرد بها القرآن الكريم بين الكتب المقدسة.

فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

إسناده جيد ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وقد ذكر ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، أن هذه القصة كانت وهم بالحِجْر وأنهم قالوا لرجل معهم منافق: ويحك هل بعد هذا من شيء؟! فقال: سحابة مارّة!

وقال ابن كثير:

فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمن تخلّف عنه من بني غِفَار فأخبره به. فقال وهو يسألني: «ما فعل النَّفر الحمر الطِّوال الثُّطاط الذين لا شعر في وجوههم؟» فحدثته بتخلفهم.

قال: «فما فعل النفر السُّود الجِعَد القِصَار؟» قال: قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: «بلى الذين لهم نَعمٌ بشبكة شَدَخ» فتذكرتهم في بني غِفار فلم اذكرهم، حتى ذكرت أنهم رَهْط مِن اسلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله أولئك رهط مِن أسلم حلفاء فينا. فقال رسول الله ﷺ: «ما منع أحد أولئك حين تخلّف أن يحمل على بعير من إبله امرأً نشيطاً في سبيل الله؟ إن أعز أهلي عليّ أن يتخلف عني المهاجرون والأنصار وغِفَارٌ وأسلم».

* * *

الفصل الثالث

القبض على «أكَيدر»

أما من الأمراء العرب المسيحيين الذين رفضوا دفع الجزية، ورفضوا الإسلام أيضاً في تلك المنطقة، فقد كان «أكَيْدر بن عبد الملك» من بني «كندة»، وكان له قلعة على سفح جبل وراءها في وسط منطقته «بمنظر العين» ذهب «خالد» رضي الله عنه بفرقة من الفرسان لإخضاعها، وهو حين وجد أن دفاعات الحصن لا يمكن العصف بها بسرعة، لجأ إلى استراتيجية تتعلق بشغف «أكيدر» بالصيد، فعند حلول الظلام في ليلة مقمرة راح أتباعه رضي الله عنه يحكون قرون البقر على باب القلعة، فظن «أكيدر» أنها بقر وحشي نزل من الجبل، وما أن سمع ذلك وهو يتمشى مع زوجته على سور القلعة، حتى أمر برمحه ونزل هو وأخوه «حسان» مع بعض الأتباع لصيدها، ولما لم يجدوا الصيد حاولوا العودة ففوجئوا بكمين «خالد» رضي الله عنه، ولم يكن سلاحهم الخفيف يسمح لهم بالمقاومة الطويلة، فسقط «حسان» صريعاً وأسر «أكيدر»، وفر الباقون وعلى أثر ذلك قبل هذا الأمير بدفع الجزية مقابل إطلاقه، وتم كل هذا من توجيه الرسول ﷺ «لخالد» رضي الله عنه بقوله: «إنك ستجده يصيد البقر»[100]، وكان عليه ساعة أسره قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه «خالد» فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه...

قال ابن كثير:

وقال ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير قال: لما قفل رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة همَّ جماعة من المنافقين بالفتك به وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق، فأخبر بخبرهم، فأمر الناس بالمسير من الوادي وصعد هو العقبة، وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثَّموا، وأمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار آخذٌ بزمام الناقة وحذيفة يسوقها.

فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم. فغضب رسول الله وأبصر حذيفة غضبه فرجع إليهم ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنة، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم، فأسرعوا حتى خالطوا الناس.

فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا لمناديلُ سعدِ بن معاذَ في الجنّة أحسن من هذا[101]. و«سعد بن معاذ» رضي الله عنه هو الذي حكم بإعدام سبعمئة يهودي في ساحة «المدينة» كما سبق وذكرنا.

وهكذا بعد أن أخضع الرسول ﷺ منطقة «تبوك» وجوارها له، ودفع الجزية مخالفوه منهم، قرر الرسول ﷺ تحقيق هدف الحملة فاندفع بقواته إلى قلب سورية.

وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس، ثم قال رسول الله ﷺ لحذيفة: «هل عرفت هؤلاء القوم؟» قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم. ثم قال: «علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟» قالا: لا. فأخبرهما بما كانوا تمالأوا عليه وسمّاهم لهما واستكتمهما ذلك.

فقالا: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال: «أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة إلا أنه ذكر أن النبي ﷺ إنما أعلم بأسمائهم حذيفة بن اليمان وحده. وهذا هو الأشبه والله أعلم.

ويشهد له قول أبي الدرداء لعلقمة صاحب ابن مسعود: أليس فيكم ـ يعني أهل الكوفة ـ صاحب السِّواد والوِساد. يعني ابن مسعود. أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره. يعني حذيفة. أليس فيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان محمد. يعني عماراً.

وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لحذيفة: أقسمتُ عليك بالله أأنا منهم؟ قال: لا ولا أبرئ بعدك أحداً. يعني حتى لايكون مُفشياً سرَّ النبي ﷺ.

قلت: وقد كانوا أربعة عشر رجلاً، وقيل: كانوا اثني عشر رجلاً، وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث إليهم حذيفة بن اليمان فجمعهم له، فأخبرهم رسول الله ﷺ بما كان من أمرهم وبما تمالأوا عليه.

الفصل الرابع

العودة إلى «المدينة»

لكن الروح المعنوية للجيش رغم استراحته الطويلة قد أضعفها تغلغل مخبرين للعدو بين القوات المسلمة على الحدود السورية، وعندما لاحظ الرسول ﷺ أثر ذلك بتخلف قواته وأنه لم يبق منها سوى النصف قال: إن أعزُ أهلي على أن يتخلف عني المهاجرون والأنصار وغفار وأسلم[102]، لذلك جمع مجلس شورى حربياً، وكان رأي بعض الصحابة فيه الاكتفاء بما حققت الحملة إلى حد الآن، وعدم المخاطرة بالتقدم في وجه قوات الروم التي تفوقهم عدداً، ولما نزل عند رأيهم وقفل راجعاً من تبوك إلى المدينة «هم جماعة منهم بالفتك به ـ وهم ملثمون ـ وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق»[103] وكان «عمار» و«حذيفة» يسوقان ناقته ﷺ، فرجع إليهم «حذيفة»: «ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم، فأسرعوا حتى خالطوا الناس... فأخبرهما ـ الرسول ﷺ ـ بما كانوا تمالؤا عليه وسماهم لهما واستكتمهما»[104] ولذلك سمي «حذيفة» بصاحب السر، وعلى أثر ذلك قال رسول الله ﷺ: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً منهم ثمانية لا

وقال ابن كثير:

ولكن حذيفة أخبرني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يَلِج الجمل في سم الخياط».

وفي رواية من وجه آخر عن قتادة: «إن في أمتي اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة حتى يَلِج الجمل في سَمّ الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة، سراج من النار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم».

قال الحافظ البيهقي: وروينا عن حذيفة أنهم كانوا أربعة عشر ـ أو خمسة عشر ـ وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاث أنهم قالوا: ما سمعنا المنادي ولا علمنا بما أراد.

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا يزيد ـ هو ابن هارون ـ أخبرنا

يدخلون الجنة حتى يلج الجملُ في سم الخياط»[105]. وروينا عن أمير المؤمنين «عمر» رضي الله عنه أنه قال لحذيفة: أقسمت عليك بالله آأنا منهم؟!

قال: لا، ولا أبرئ بعدك أحداً[106].

هذه وغيرها مما ذكرنا، في هذه الحملة، دفعت الرسول ﷺ إلى الغضب على المتخلفين والمنافقين والمتآمرين من صحابته، وإن كان نزل على رأي أغلبهم بالعودة بعد إقامة حوالي عشرين يوماً في تبوك، إلا أنه عاد ليتركهم إلى توبيخه لهم وإلى ضمائرهم.

الوليد بن عبد الله بن جميع، عن أبي الطفيل، قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إن رسول الله آخذ بالعقبة فلا يأخذها أحد.

فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمّار إذ أقبل رهط متلثمون على الرَّواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد قد».

حتى هبط رسول الله ﷺ من الوادي، فلما هبط ورجع عمار قال: «يا عمار هل عرفت القوم؟» قال: قد عرفت عامة الرَّواحل والقوم متلثّمون. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه».

الباب الرابع والثلاثون

الفصل الأول

الذين خذلوا الرسول ﷺ[107]

عاد الرسول ﷺ ليدخل المدينة بدون أي إعلان نصر أو استعراض قوات، كما كان يفعل بغزواته السابقة ﷺ. وعندما اقترب من المدينة وخرج أهل بيته ﷺ للقائه، توقف لتحيتهم فقط ثم حمل أطفال آل البيت على مطيته ﷺ خلفه، ودخل المدينة بهذه الطريقة البسيطة بعد هذه الحملة الشاقة.

قال ابن كثير:

مرض عبد الله بن أبيّ ومات ـ هلك ـ وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول الله يعوده فيها.

فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه فقال: «قد نهيتك عن حب يهود» فقال: قد أبغضهم أسعد بن زُرارة فما نفعه؟

ثم قال: يا رسول الله ليس هذا بحين عِتَاب هو الموت، فاحضر غسلي وأعطني قميصك الذي يلي جلدك فكفّني فيه وصلّ عليّ واستغفر لي. ففعل ذلك به رسول الله ﷺ.

وروى البيهقي من حديث سالم بن عجلان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس نحواً مما ذكره الواقدي. فالله أعلم.

وقد قال إسحاق بن راهوية: قلت لأبي أسامة: أحدثكم عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبيّ بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه.

فقام رسول الله ﷺ يصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه فقال: يا رسول الله، تصلّي عليه وقد نهاك الله عنه؟ فقال رسول الله: إن ربي خيّرني فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم». وسأزيد على السبعين».

فقال: إنه منافق أتصلي عليه؟ فانزل الله عز وجل: ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ فاقرّ به أبو أسامة وقال: نعم.

لكن الجيش كان محملاً بالغنائم التي يؤتى بها لأول مرة من أقصى امتدادات الإسلام آن ذاك، وهذا حدث مهم يمر دون إعلان أي نصر بين الناس، والعائق كما يبدو هو حزن الرسول ﷺ وغضبه على الذين ظهر خذلانهم له، فهذه مسألة تحتاج أن تكون في سلم أوليات الأمور التي يجب معالجتها، لذلك أمر الرسول ﷺ بمقاطعة المتخلفين كافة من غير عذر، لكنه بسماحته المعهودة ﷺ راح يقبل الأعذار منهم واحداً واحداً، حتى بقي سبعة فقط، تاركاً الكاذبين بأيمانهم إلى حساب ضمائرهم واليوم الآخر، أما هؤلاء السبعة المقرون بذنوبهم، فقصاصهم في الحياة الدنيا بالمقاطعة، لذلك منع الرسول ﷺ كل أتباعه من أي تعاطٍ معهم مهما كان نوعه، فوجدوا أنفسهم بعزلة تامة عن المجتمع وعن معارفهم، فوقعوا بيأس مدقع، فربطوا أنفسهم في أعمدة المسجد وقد أقسموا أن يظلوا كذلك حتى يأتيهم الصفح والغفران، فما كان من الرسول ﷺ إلا أن أقسم كذلك بتركهم على هذه الحال حتى يبت الله تعالى بأمرهم، حتى إذا كملت لهم خمسون ليلة على هذا الحال، أذن الرسول ﷺ بتوبة الله عليهم بآيات من القرآن الكريم، فأراد أحدهم أن ينخلع من ماله كله صدقة، فاكتفى الرسول ﷺ بالثلث من أموالهم لتنفق في خدمة الإسلام.

ومن بين من ضربت عليهم المقاطعة: «كعب بن مالك»، و«معمر بن ربيعة»، و«هلال بن أمية»، وهم الذين كانوا من أشد الناس غيرة على الإسلام، لذلك كان

وأخرجاه في الصحيحين من حديث أبي أسامة.

وقال ابن كثير:

وقال الواقدي: حدثنا يعقوب بن محمد بن أبي صعصعة، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: كان رسول الله ﷺ يُعجب بمارية القبطية وكانت بيضاء جعدة جميلة، فانزلها وأختها على أم سليم بنت ملحان، فدخل عليهما رسول الله ﷺ فأسلمتا هناك، فوطئ مارية بالملك، وحوَّلها إلى مال له بالعالية كان من أموال بني النضير، فكانت فيه في الصيف، وفي خُرافة النخل. فكان ياتيها هناك، وكانت حسنة الدِّين، ووهب أختها شيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن.

وولدت مارية لرسول الله ﷺ غلاماً سماه إبراهيم، وعقَّ عنه بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه وتصدَّق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض، وسماه إبراهيم، وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله ﷺ، فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته بأنها قد ولدت غلاماً، فجاء أبو رافع إلى رسول الله ﷺ فبشَّره فوهب له عِقداً، وغار نساء رسول الله ﷺ واشتدَّ عليهن حين رُزق منها الولد.

تخلفهم أشد على الرسول ﷺ عشر مرات من تخلف سواهم من الذين لم يرسخ الإيمان في قلوبهم بعد، لذلك ظلوا بالمقاطعة أربعين يوماً، وامتد أمر المقاطعة إلى زوجاتهم اللوات امتنعن عنهم بدورهن.

ولعل وصف «كعب بن مالك» لحال المقاطعة هذا، يدل دلالة قاطعة على مدى قوة سلطة الرسول ﷺ على أتباعه، فقد صور «كعب» كيف صار مرفوضاً من الجميع، وكيف أصبحوا ينظرون إليه باحتقار، أما صاحباه اللذان كانا مثله، فلم يبرحا بيتهما، أما هو فقد تشرد من مكان لآخر، ولم يعد أي إنسان يكلمه، وهو حين ذهب إلى المسجد

قال هيكل:

غيرة أزواج النبي

كان طبيعياً أن يدسّ ذلك في نفوس سائر أزواجه غيرة تزايدت أضعافاً بأنها أم إبراهيم وبأنهن جميعاً لا ولد لهن. ولم تكن نظرة النبي إلى هذا الطفل إلا تزيد هذه الغيرة كل يوم في نفوسهن اشتعالاً. فهو قد أكرم سلمى زوج أبي رافع قابلة مارية أيّما إكرام. وهو قد تصدق يوم ولد بوزن شعره وَرِقاً على كل واحد من المساكين. وهو قد دفعه لترضعه أم سيف وجعل في حيازتها سبعاً من الماعز ترضعه لبنها. وهو كان يمر كل يوم بدار مارية ليراه وليزداد أنساً بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة، ومسرة بنموه وجماله. أي شيء أشد من هذا كله إثارة للغيرة في نفوس أزواج لم يلدن؟ وإلى أي حد تدفع الغيرة أولئك الأزواج؟

حمل النبي إبراهيم يوماً بين ذراعيه إلى عائشة وهو فياض بالبشر، ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه. فنظرت عائشة إلى الطفل وقالت إنها لا ترى بينهما شبهاً. ولما رأت النبي فرحاً بنموّ الطفل لاحظت في غضب أن كل طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيراً منه نموّاً. وكذلك كان مولد إبراهيم سبباً أثار في زوجات النبي امتعاضاً لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافية بل تعدّاها إلى أكثر منها. وترك في تاريخ محمد وفي تاريخ الإسلام من الأثر ما نزل به الوحي وقدّسه كتاب الله الكريم.

النبي ونساؤه

وكان طبيعياً أن يحدث هذا الأثر؛ فقد جعل محمد لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفاً قط عند العرب. قال عمر بن الخطاب في حديث له: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم. فبينما أنا في أمر أتمره إذ قالت لي امرأتي: لو صنعت كذا وكذا! فقلت لها: ومالك أنت ولما هاهنا، وما تكلّفك في أمر أريده! فقالت لي: عجباً لك يابن الخطاب؟ ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. قال عمر: فآخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة فقلت لها: يا بُنيَّة،

وجلس قرب الرسول ﷺ وحياه، لم يتلق أي رد على تحيته، وفي اليوم الواحد والأربعين على هذا الوضع جاءه الأمر بأن لا يقرب زوجته، فترك المدينة ليجلس بخيمة على هضبة بخارجها؛ «فضاقت عليه الأرض بما رحبت» حسب قوله، فأتاه رسول أخبره في اليوم الواحد والخمسين بالعفو، فخر على الأرض ساجداً ثم أسرع بالعودة إلى المدينة ليدخل على مسجد الرسول ﷺ فوراً، فقال له رسول الله ﷺ: وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنانعرف ذلك منه(108).

إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله. يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها. ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها؛ فقالت لي أم سلمة: عجباً لك يابن الخطاب! لقد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه! قال عمر: فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها». وروى مسلم في صحيحه أن أبا بكر استأذن على النبي ودخل بعد أن أذن له، ثم استأذن عمر ودخل بعد الإذن، فوجد النبي جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكناً. فقال عمر: «لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ. ثم قال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة(*). سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله وقال: هنَّ حولي يسألنني النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده! فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ أبداً شيئاً ليس عنده».

وإنما دخل أبو بكر وعمر على النبي لأنه عليه السلام لم يخرج للصلاة: فتساءل المسلمون بعدها عما منعه. وفي حديث أبي بكر وعمر مع عائشة وحفصة نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 28 - 29].

نساء النبي يأتمرن

ثم إن نساء النبي كن يأتمرن به. فقد كان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن. فدخل على حفصة في رواية، وعلى زينب بنت جحش في رواية فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس. فأحدث ذلك الغيرة في نفوس سائر نسائه. وقالت عائشة: «فتواطأت أنا وحفصة أن

(*) كذا في مسلم. وليس في الطبري، وقد سرد من زوجات عمر، من تسمى بابنة خارجة. وفي روح المعاني: لو رأيت ابنة زيد... إلخ».

أما المنافق «عبد الله بن أبي» فقد سقط مريضاً بعد عودة الجيش إلى المدينة بفترة وجيزة، ورغم معرفة الرسول ﷺ بكل خبايا هذا الرجل وبالسلاح السري للنفاق الذي كان يستعمله ضده، كان يعوده في مرضه، وكان ﷺ معه في ساعات موته، وسار وراء جثمانه إلى القبر، وصلى عليه.

وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها، وفي اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه فقال: قد نهيتك عن حب اليهود، فقال... ليس هذا بحين عتاب: هو الموت، فاحضر غسلي واعطني قميصك الذي به جلدك فكفني فيه وصل علي واستغفر لي، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ... فقام «عمر» رضي الله عنه فأخذ بثوبه فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك الله عنه؟ فقال رسول الله: إن ربي خيرني فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم». وسأزيد عن السبعين(109).

لكن هذه الصلاة ألفت قلوب أتباع «عبد الله» من الخزرج حتماً، فصار معظم أتباعه أتباعاً مخلصين للرسول ﷺ من بعده، رغم نزول آية أخرى تنهى عن الاستغفار والصلاة على المنافقين.

أيّتنا ما دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد ريح مغافير. أكلت مغافير» (والمغافير شيء حلوٌ له ريح كريهة؛ وكان النبي لا يحب الرائحة الكريهة) فدخل على إحداهما فقالت له ذلك. فقال: بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له. وروت سودة، وكانت تواطأت على مثل ذلك مع عائشة، أن النبي لما دنا منها قالت له: أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت: فما هذه الريح؟ قال: سقتني حفصة شربة من عسل. قالت: جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُط. ودخل على عائشة فقالت له ما قالت سودة، ثم دخل على صفية فقالت له مثل قولهما، فحرّمه على نفسه. فلما فعل قالت سودة سبحان الله! والله لقد حرمناه. فنظرت إليها عائشة نظرة ذات مغزى وقالت لها: اسكتي.

طبيعي وقد جعل النبي لأزواجه هذه المكانة، بعد أن كنّ كغيرهن من نساء العرب لا رأي لهن، أن يتغالين في الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها عهد، وأن تبلغ إحداهن من مراجعة النبي أن يظل يومه غضبان. وكم أعرض عنهن وكم هجر بعضهن فحتى لا يدفعهن رفقه بهن إلى مزيد من غلوهن؛ وأن تخرج بإحداهن الغيرة إلى غير لائق بالسداد. فلما ولدت مارية إبراهيم خرجت الغيرة بأزواج النبي عما أُدّبهن به، حتى كان هذا الحديث بينه وبين عائشة إذ تُنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه، ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبي براءتها منه.

الفصل الثاني

فتنة الحريم

هكذا أظهرنا أثر الهيبة النبوية التي تجلت كحقيقة ساطعة لعيان كل مؤرخ للرسول ﷺ على أتباعه وعلى المجتمع بشكل عام، لكن سماحته ﷺ مع حريمه وآل بيته لإضفاء السكينة على زوجاته بصورة عامة، قوبلت منهن بعكس ذلك، فقد كان ﷺ يحاول العدل بينهن بكل أمور المعيشة، فلكل واحدة منهن بيتها الخاص، لها إدارة شؤونه بشكل كامل، وكان ﷺ يقسم يومه بينهن بشكل متساوٍ، ولكن حصل أنه في يوم «حفصة» رضي الله عنها - أو وقت قدومه عليها - في أحد الأيام كانت بزيارة لوالدها، وحين عادت بشكل غير متوقع فاجأت الرسول ﷺ وهو مع جاريته «مارية القبطية» رضي الله عنها أم «إبراهيم» رضي الله عنه ابنه الوحيد في بيتها، مما أثار غيرتها بغير مبرر،

قال هيكل:

ثورة نساء النبي

وحدث أن كانت حفصة يوماً قد ذهبت إلى أبيها فتحدثت عنده. وجاءت مارية إلى النبي وهو في دار حفصة وأقامت بها زمناً معه. وعادت حفصة فوجدتها في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وهي أشد ما تكون غيرة، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة. فلما خرجت مارية ودخلت حفصة على النبي، قالت له: «لقد رأيت من كان عندك. والله لقد سببتني. وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك». وأدرك محمد أن الغيرة تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرام إذا هي لم تذكر مما رأت شيئاً. ووعدته حفصة أن تفعل. لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به، فأسرته إلى عائشة. وأومأت هذه إلى النبي بما رأى منه أن حفصة لم تصن سِرّه. ولعل الأمر لم يقف عند حفصة وعائشة من أزواج النبي. ولعلهن جميعاً وقد رأين ما رفع النبي من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبي على أثر قصة مارية هذه، وإن تكن لذاتها قصة لا شيء فيها أكثر مما يقع بين رجل وزوجه، أو بين رجل وما ملكت يمينه، مما هو حل له ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التي أثارتها ابنتا أبي بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لذاتيهما من ميل النبي لمارية. وقد رأينا أن شيئاً من الجفوة وقع بين النبي وأزواجه في أوقات مختلفة بسبب النفقة، أو بسبب عسل زينب، أو لغير ذلك من الأسباب التي

ومع ذلك حاول الرسول ﷺ تهدئتها، لكنها هددته بإثارة هذا الأمر مع كل حريمه ﷺ، على أساس أنه ليس من العدل إدخال ضرتها على بيتها، إلا إذا عاهدها بعدم لمس «مارية» رضي الله عنها بعد ذلك، وعلى هذا الأساس ستبقي الأمر سراً ولن تطلع باقي حريمه ﷺ عليه وترضى؟!

ومع ذلك أفشت السر وأخبرت «عائشة» رضي الله عنها بهذا الأمر الذي هو بالأساس معروف، فقط للغط النسائي بمعنى الأمانة الزوجية كما كن يفهمنها، ثم فشت

تدل على أن أزواج النبي كن يجدن عليه أن يكون لعائشة أحب، أو أن يكون لمارية أهوى.

بين بنت جحش وعائشة

وبلغ من أمرهن أن أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بين نسائه، وأنه لحبه لعائشة يظلمهن. ألم يجعل لكل امرأة يوماً وليلة! ثم رأت سودة انصراف النبي عنها وعدم بشاشته لها، فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاء للرسول. ولم تقف زينب من سفارتها عند الكلام في ميل النبي عن العدل بين نسائه؛ بل نالت من عائشة وهي جالسة بما جعل عائشة تتحفّز للرد عليها لولا إشارات من النبي كانت تهدئ من حدتها. غير أن زينب اندفعت ولج بها الاندفاع وبالغت في النيل من عائشة، حتى لم يبق للنبي بدٌّ من أن يدع لحميراته أن تدافع عن نفسها. وتكلمت عائشة بما أفحم زينب وسر النبي ودعاه إلى الإعجاب بابنة أبي بكر.

منازعات أمهات المؤمنين

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين في بعض الأحايين، بسبب إيثاره بعضهن بالمحبة على بعض، حداً همَّ النبي معه أن يطلق بعضهن لولا أنهن جعلنه في حل أن يؤثر من يشاء منهن على من يشاء. فلما ولدت مارية إبراهيم لجَّت بهن الغيرة أعظم لجاج، وكانت بعائشة ألج. ومدَّ لهن في لجاج الغيرة بهن هذا الرفق الذي كان محمد يعاملهن به، وهذه المكانة التي رفعهنَّ إليها. ومحمد ليس خلياً فيشغل وقته بهذا اللّجاج ويدع نفسه لعبث نسائه، فلا بدَّ من درس فيه حزم وفيه صرامة يرد الأمور بين أزواجه إلى نصابها، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه من الدعوة إلى رسالته، وليكن هذا الدرس هجرهن والتهديد بفراقهن، فإن ثبن إلى رشادهن فذاك، وإلا متعهن وسرحهن سراحاً جميلاً.

هجر النبي نساءه

وانقطع النبي عن نسائه شهراً كاملاً لا يكلم أحداً في شأنهن، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه في حديثهن. وفي خلال هذا الشهر اتجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الإسلام، ولمد سلطانه إلى ما وراء شبه الجزيرة. على أن أبا بكر وعمر وأصهار النبي جميعاً

القصة كلها بين كل حريمه ﷺ اللواتي ضخمن الأمر واتحدن بالاعتصام ضده ﷺ، فطفح كيل الرسول ﷺ منهن بعد أن اعترفت «حفصة» رضي الله عنها بما حرضت وأفشت، فقاطعهن جميعاً، واعتزلهن لمدة شهر في غرفة خاصة جانب المسجد، فنزلت عليه ﷺ سورة «التحريم» وأولها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ * قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ * وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ... الآية﴾ [سورة التحريم: 1 ـ 3]. فأحلت هذه الآية

كانوا في قلق أشدّ القلق على ما قُدِّر مصيراً لأمهات المؤمنين، وما يتعرضن له من غضب رسول الله، وما يجر إليه غضب رسول من غضب الله وغضب ملائكته، بل لقد قيل: إن النبي طلق حفصة بنت عمر، بعد الذي كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه. وقد سرى الهمس بين المسلمين أن النبي مطلق أزواجه. وأزواجه خلال ذلك مضطربات نادمات، أن دفعتهن الغيرة إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهنّ، هو منهن الأخ والأب والابن وكل ما في الحياة وما وراء الحياة. وجعل محمد يقضي أكثر وقته في خزانة له ذات مشربة، يجلس غلامه رباح على أسكفتها ما أقام هو بالخزانة، ويرقّى هو إليها على جذع من نخل هو الخشونة كل الخشونة.

عمر يسترضي النبي

وإنه لفي خزانته يوم أوفى الشهر الذي نذر فيه هجر نسائه على التمام، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكتون الحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، ويأسون لذلك أسى يبدو على وجوههم واضحاً عميقاً، إذ قام عمر من بينهم فقصد إلى مقام النبي بخزانته، ونادى غلامه رباحاً كي يستأذن له على رسول الله. ونظر إلى رباح يروم الجواب، فإذا رباح لا يقول شيئاً علامة أن النبي لم يأذن. فكرر عمر النداء؛ ولم يجب رباح مرة أخرى. فرفع عمر صوته قائلاً: «يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ فإني أظنه ظن أني جئت من أجل حفصة. والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها». وأذن النبي، فدخل عمر فجلس ثم أجال بصره فيما حوله وبكى. قال محمد: ما يبكيك يابن الخطاب؟ وكان الذي أبكاه هذا الحصير الذي رأى النبي مضطجعاً عليه وقد أثّر في جنبه، والخزانة لا شيء فيها إلا قبضة من شعير ومثلها من قرظ وأفيق معلّق. فلما ذكر عمر ما يبكيه علّمه محمد من وجوب الإعراض عن الدنيا ما ردّ إليه طمأنينته، ثم قال عمر: يا رسول الله، ما يشقّ عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. ثم انعكف يحدث النبي حتى تحسر الغضب عن وجهه وحتى ضحك فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه، فلما ذكر النبي أنه لم يطلقهن استأذنه في أن يُفضي بالأمر إلى أولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون. ونزل إلى المسجد، فنادى بأعلى صوته: لم يطلّق رسول الله ﷺ نساءه. وفي هذه القصة نزلت الآيات الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ

الكريمة الرسول ﷺ من قسمه بأن لا يأتي «مارية» رضي الله عنها، فصارت تدخل عليه وحدها من بين كل نسائه[110].

وهذا ما أعاد بقية نسائه ﷺ إلى صوابهن، فعادت إليه «حفصة» رضي الله عنها تائبة وأعقبتها «عائشة» ثم تبن جميعاً وعاد إليهن، لكنه ظل ﷺ يجتبي «مارية» رضي الله عنها لأنها أم ابنه الوحيد ولفضلها في هذا الأمر ككل.

تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 1 ـ 5].

وبذلك انتهى الحادث، وثاب إلى نساء النبي رشادهن، ورجع هو إليهن تائبات عابدات مؤمنات، وعادت إلى حياته البيتية السكينة التي يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فرض عليه أداؤه.

الباب الخامس والثلاثون

الفصل الأول

وحي هام

عندما اقترب شهر الحج في السنة التاسعة للهجرة، كان الرسول ﷺ مشغولاً بالتشريع وبأمور المدينة التي لم يكن يستطيع تركها، لذلك انتدب «أبا بكر» رضي الله عنه أميراً على الحج من المدينة إلى مكة المكرمة، فخرج «أبو بكر» رضي الله عنه على رأس ثلاثمئة حاج معهم عشرون بعير أضحية. وما كاد يبرح «أبو بكر» رضي الله عنه حتى أرسل الرسول ﷺ في إثره «علياً» رضي الله عنه على ناقته السريعة «العَضْباء» يأمره بالإسراع ليلقى الناس في الحج ويبلغهم بسورة هامة نزلت في القرآن الكريم: سورة «التوبة»: تبلغ للناس يوم النحر إذا اجتمعوا «بِمنىٰ».

بها كمال الدعوة الإسلامية «بالبراءة» من كل شرك يُمارَسُ بالحج حتى مع ما بين المسلمين والمشركين من عهد: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ الآية...﴾ يؤديها عنه ﷺ «علي» رضي الله عنه في الناس

قال ابن كثير:

قال ابن إسحاق: حدثني حكيم بن حكيم بن عبَّاد بن حُنيف، عن أبي جعفر محمد بن علي، أنه قال: لما نزلت «براءةٌ» على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدِّي عني إلا رجل من أهل بيتي».

ثم دعا عليَّ بن أبي طالب فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: ألا إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته».

فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ العضباء. حتى أدرك أبا بكر الصديق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور.

فقيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر* قال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي». وعلى أن لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته(111).

وهكذا وصل «علي» رضي الله عنه مع «أبي بكر» رضي الله عنه إلى وادي «مِنى» فوقف على «العقبة» ليعلن للناس رسالة الرسول ﷺ بآخر سورة نزلت حتى الآن سورة «التوبة»، وبعدها يعلن الحرب على كل الشرك، فهي تحل الرسول من كل هدنة خلال مدة أربعة أشهر كإنذار للمشركين، خلالها هم آمنون في الأرض، لكن بانتهاء المدة يجب أن تتوقف كل شعائر الشرك بالله في كل جزيرة العرب، وإلا فالحرب بكل الطرق وبكل الأوقات عليهم، حتى في الأشهر الحرم، فلا بديل لهم إلا باعتناق الإسلام أو دفع الجزية، لكن الشهر الحرام ـ شهر الحج ـ محرم عليهم دخول مكة فيه، وهي ـ أي مكة المكرمة ـ لا تحميهم بجوار حرمها المعهود، ولا حماية لهم خارجها بعد هذه المدة المحددة بأربعة أشهر، فإذا انتهت: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: 5]. كذلك تقطع هذه الآية كل علاقة مع

ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية.

حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذّن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة، إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته.

فلم يحجَّ بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ.

وهذا مرسل من هذا الوجه.

قال هيكل:

حج أبي بكر بالناس ومنع المشركين من الحج

وخرج أبو بكر في ثلثمائة مسلم قاصداً إلى مكة. ولكن العام قد يتلو العام والمشركون ما يزالون يحجون بيت الله الحرام. أليس بين محمد وبين الناس عهد عام ألا يصدَّ عن البيت أحد جاءه، ولا يُخاف أحد في الأشهر الحرم؟! أليست بينه وبين قبائل من العرب عهود إلى آجال مسماة؟! فما دامت هذه العهود فسيظل بيت الله يحج إليه من يُشرك بالله ومن يعبد غير الله، وسيظل المسلمون يرون عبادة الجاهلية تؤدى بأعينهم حول الكعبة وهم بحكم هذه العهود الخاصة وهذا العهد العام لا قبل لهم بصدِّ أحد عن حجِّه وعبادته. وإذا كانت الأصنام التي يعبد

المشرك من صلة رحم وسواها، حتى ولو كانوا أقرب الناس إلى المؤمنين نسباً، أو أعزهم صداقة ووداً إذا هم أصروا على شركهم، وبعد هذا لا يسمح لأي مشرك أن يدخل حدود «مكة المكرمة» ولا يدخل بيت الله فيها، منعاً ظل فعالاً منذ ذاك اليوم إلى يومنا الحاضر(*).

وربما استغرب «أبو بكر» رضي الله عنه عندما عاد إلى المدينة عدم إعطائه شرف إعلان هذا الوحي الهامّ بين الناس، إلاّ أنّه سرعان ما أوضح الرسول ﷺ أن إعلان سور القرآن الكريم الحديثة النزول، يجب أن لا يتم إلا من فمه الشريف، أو بتكليفٍ منه شخصياً ﷺ لأحد من آل بيته فقط، حيث قال ﷺ كما أشرنا: «لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي» قولاً فصلاً لا تأويل فيه[112].

العرب قد حطم الكثير منها وحطم منها كل ما كان في الكعبة أو حولها، فإن هذا الاجتماع في بيت الله المقدّس، اجتماعاً يضم الثائرين على الشرك وعلى الوثنية والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنية، تناقض غير مفهوم. وإذا استطاع أحد أن يفهم حج اليهود والنصارى جميعاً إلى بيت المقدس على أنه أرض المعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى، فلن يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين حول بيت تُحَطَّم فيه الأصنام وتعبد فيه الأصنام التي حُطِّمت. لذلك كان طبيعياً أن يحال بين المشركين وبين الاقتراب من البيت الذي طُهر من الشرك ومحيت منه كل معالم الوثنية. وفي هذا نزلت الآيات من سورة براءة. لكن موسم الحج بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كل فج يقضي مناسك حجه، فليكن هذا الاجتماع أوان تبليغهم أمر الله بنقض كل عهد بين الشرك والإيمان إلا من عهد عُقِدَ لأجل فإنه يبقى إلى أجله.

ولهذه الغاية أوفد النبي علي بن أبي طالب كي يلحق بأبي بكر. وكي يخطب الناس حين الحج يوم عرفة بما أمر الله ورسوله. وحضر عليّ، في أثر أبي بكر والمسلمين الذين برزوا إلى الحج معه، كي يؤدي رسالته. فلما رآه أبو بكر قال له: أمير أم مأمور! قال عليٌّ بل مأمور. وأخبره بما جاء فيه، وأن النبي إنما بعثه في الناس لأنه من أهل بيته. فلما اجتمع الناس بمنى يؤدون مناسك الحج، وقف عليُّ بن أبي طالب وإلى جانبه أبو هريرة، فنادى عليّ في الناس يتلو قوله تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ...﴾ [التوبة: 1 ـ 36].

(*) ومهما بحث مؤرخو السيرة في الغرب عن أسباب هذا الأمر الصادر من السماء إلى الرسول ﷺ وأرجعوه إلى عدم ثقته ﷺ باليهود والمتآمرين على الدين الإسلامي، ففي تاريخ الإنسانية لا يوجد أمر صدر عن أي سلطة، وظل منفذاً مدة حوالى ألف وخمسئة سنة، فقد أعيا «إيرڤينغ» قلمه بالبحث عن الأسباب المادية من هذا الأمر بإرجاعه إلى تجربة الرسول ﷺ مع اليهود ومع «عبد الله بن أبيّ» محالاً.

البَابُ السَّادِسُ وَالثَّلاثُونَ

الفصل الأول

مهمة «علي» رضي الله عنه إلى اليمن

كان للإعلان القرآني السابق ذكره في مكة المكرمة وقت الحج، في نهاية السنة التاسعة للهجرة، أثره في خضوع أو تحول باقي القبائل العربية في جزيرة العرب وخارجها إلى الإسلام، ومع بداية السنة العاشرة للهجرة امتلأت أبواب المدينة بالوفود العربية الداخلة أفواجاً بالإسلام، من كل القبائل العربية البعيدة مع أمرائها، وهكذا اتجهت وفود العرب إلى الرسول ﷺ من كل وَجْه، بعد أن عرفوا أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ. ومن بين هؤلاء «فروة بن مُسيك المرادي» الذي قدم إلى رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك «كندة» ومباعداً لهم، وترى المراجع الغربية أنه كان من نواب «هرقل» في سورية، وأنه كان حاكماً على «عمون» العاصمة القديمة للعمونيين - المذكورة بالتوراة - وكان إسلامه ضد إرادة الامبراطور، فوضعه بالسجن لما عاد، وتقول المصادر العربية أن الرسول ﷺ استعمله على: مراد وزبيد ومذحج كلها(113) والله أعلم.

هكذا أصبح الرسول ﷺ قادراً على تعيين الولاة خارج إطار الحجاز، فاتسعت

قال ابن كثير:

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي المختري، عن علي، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن.

قال: فقلت: تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لي بالقضاء؟ قال: «إن الله سيهدي لسانك ويثبت قلبك» قال: فما شككت في قضاء بين اثنين.

ورواه ابن ماجة من حديث الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك، عن سِمَاك، عن حنش، عن علي، قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن. قال فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسنُّ مني وأنا حدث لا أُبصر القضاء؟

سلطته ﷺ إلى كل الناطقين باللغة العربية في ذاك الوقت على اختلاف لهجاتها، وصار يرسل قادته في بعثات حربية أبعد بكثير من المعهود، حاملة دوماً هدفاً واحداً هو: تدمير الأصنام فقط، وإخضاع الشرك إلى الإسلام، وبهذا حصل التناغم بين قوته الأرضية وأهدافه الدينية ﷺ، فهو مثلاً قد عين حاكمين على اليمن، لكن هذه المنطقة كانت متقلبة الولاء، لذلك أرسل ﷺ «علياً» رضي الله عنه على رأس ثلاثمئة فارس لكي يخضعها ويعيدها إلى رشدها.

وكان هذا القائد الشاب يواجه مهمة صعبة وتحت إمرته رجال أكبر منه سناً قد عركتهم تجارب الحياة، لذلك قال للرسول ﷺ: تبعثني إلى قوم يكون بينهم أحداث، ولا علم لي بالقضاء؟ قال: إن الله سيهدي لسانك ويثبت قلبك. قال: فما شككت في قضاء بين اثنين(114). ثم وضع الرسول ﷺ «لعلي» رضي الله عنه قاعدة احدة ليسلك عليها في القضاء قال: فوضع يده على صدري وقال: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه، يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضي بينهما حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الأول، فإنك إن فعلت ذلك تبين لك»(115) ثم عقد له الراية وألبسه العمامة والبيضة وودعه.

وعندما وصلت البعثة العسكرية إلى منطقة الهراطقة في اليمن، بدأت قواته تغزو وتدمر على الطريقة العربية، لولا أن «علياً» رضي الله عنه وجَّهَهم إلى اعتقال الفارين من

قال محمد بن إسحاق ـ في سياق حجة الوداع ـ حدثني يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن رُكانة، قال: لما أقبل علي من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة، تعجَّل إلى رسول الله واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسا كلَّ رجل من القوم حلة من البز الذي كان مع عليّ.

فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل، قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجمَّلوا به إذا قدموا في الناس. قال: ويلك! انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله ﷺ. قال: فانتزع الحلل من الناس فردها في البزّ، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عُجرة، عن عمته زينب بنت كعب ـ وكانت عند أبي سعيد الخدري ـ عن أبي سعيد، قال: اشتكى الناس علياً، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، فسمعته يقول: «أيها الناس لا تشكو علياً، فوالله أنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله [من أن يشكى]».

ورواه الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق به وقال: إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله.

وجههم من السكان لشرح الإسلام لهم، ولأن لسانه استمد هديه من دعاء الرسول ﷺ له انطلق بالدعوة لهم بالبينة، لكن معظمهم أجابه بالرمح والسيف، مما اضطره إلى إعمال السيف بهم حتى يعطوا آذاناً صاغية، وكان «علي» رضي الله عنه بارعاً بهذا الأمر براعته بتأكيد القول الفصل، وقد بدأ بقتل عشرين من المعارضين، تبعه بمثل هذا المنهج حتى استطاع أن يخضع أسماعهم إلى ما سوف يقول، وبذلك تسمع كلمة الحق إزاء عناد الإنسان، وبذلك فقط يتمكن الإيمان من الوصول إلى الأسماع، وهذا هو نهج الإسلام بالسيف في نشر العقيدة؟!

وقال الإمام احمد: حدثنا الفضل بن دُكين، حدثنا ابن أبي غنية، عن الحكم عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن بريدة قال: غزوت مع علي اليمن فرايت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرتُ علياً فتنقَّصته فرايت وجه رسول الله يتغيَّر، فقال: «يا بريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه».

وكذا رواه النسائي عن أبي داود الحرّاني، عن أبي نُعيم الفضل بن دُكين عن عبد الملك بن ابي غنية بإسناده نحوه.

وهذا إسناد جيد قوي، رجاله كلهم ثقات.

وقد روى النسائي في سننه، عن محمد بن المثنى، عن يحيى بن حماد، عن أبي معاوية عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم، قال لما رجع رسول الله من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن ثم قال «كأني قد دعيت فاجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يُردّا على الحوض». ثم قال: «الله مولاي وأنا وليُّ كل مؤمن» ثم أخذ بيد عليّ فقال: «من كنت مولاه فهذا وليُّه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

فقلت لزيد: سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: ما كان في الدَّوحات أحد إلا رآه بعينيه وسمعه بأذنيه.

تفرد به النسائي من هذا الوجه.

قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: وهذا حديث صحيح.

الفصل الثاني

محمد ﷺ في قبر ابنه «رضي الله عنه»

مع ابتهاج الرسول ﷺ بامتداد نجاحاته في كل الأقطار، جاءته طعنة في الصميم في محل إقامته، فابنه «إبراهيم» رضي الله عنه من سريته «مارية» المفضلة لديه، ولم يبلغ السنة والنصف[116] بعد، والذي علق عليه أمله، سقط صريع مرض قاتل، ليموت رحمه الله على يديه ﷺ لافظاً أنفاسه أمام عينيه، فلم يتمالك الرسول ﷺ مشاعر الأبوة وهو ينحني على غصنه الرطيب الضائع من بين يديه والحامل لكل آماله من بعده، ومع ذلك

قال ابن كثير:

وقال ابن ماجة: حدثنا علي بن محمد، اخبرنا ابو الحسين، انبانا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن عَدِي بن ثابت، عن البراء بن عازب، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع التي حج، فنزل في الطريق، فأمر الصلاة جامعة. فأخذ بيد عليّ فقال: «ألستُ بأولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قالوا: بلى. قال: ألست بأولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فهذا وليُّ من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه».

وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن علي بن زيد بن جدعان، عن عدي عن البراء.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي والحسن بن سفيان: حدثنا هُدبة، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد وأبي هارون، عن عدي بن ثابت، عن البراء، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فلما أتينا على غدير خُمّ كُسِح رسول الله ﷺ تحت شجرتين، ونودي في الناس الصلاة جامعة، ودعا رسول الله ﷺ علياً وأخذ بيده فاقامه عن يمينه فقال: «ألست أولى بكل امرئ من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا مولى من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه».

فلقيه عمر بن الخطاب فقال: هنيئاً لك! أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة!

ورواه ابن جرير، عن أبي زرعة، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، وأبي هارون العبدي ـ وكلاهما ضعيف ـ عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب به.

وروى ابن جرير هذا الحديث من حديث موسى بن عثمان الحضرمي ـ وهو ضعيف جداً ـ عن أبي إسحاق السَّبِيعي، عن البراء وزيد بن أرقم. فالله أعلم.

* * *

وفي هذه اللحظات التي يطفح فيها الألم الإنساني ظل ﷺ مستسلماً مسلماً لإرادة الله تعالى التي هي صلب الإيمان الإسلامي، ومع ذلك لما مات إبراهيم قال رسول الله ﷺ: لا تدرجوه في أكفانه حتى أنظر إليه، فجاء فانكب عليه، وبكى حتى اضطرب لحياه وجنباه ﷺ(117)، فقال أبو بكر وعمر: أنت أحق من عَلِم لله حقه.

فقال: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، لولا أنه وعدٌ صادق، وموعود جامع، وأن الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً أشد مما وجدنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون(118). فالرسول ﷺ لم يمنع البكاء على الميت بالعبرات، ولكنه ﷺ منع الندب وشق الجيوب، فالعبرات رحمة تستقطر لرحمتهم، ولحق الرسول ﷺ ابنه إلى القبر ولقنه الشهادة فيه وهيأه لمقابلة ملكي الموت فيه حسب الشريعة الإسلامية، ودلالة على أن عناصر الدين الذي بشر به ﷺ ظلت دائماً يقيناً حاضراً في نفسه تُسير كل سلوكه ﷺ. «فحمله «علي» رضي الله عنه في سفط ـ قفة ـ وجعله بين يديه على الفرس، ثم جاء به إلى الرسول ﷺ وخرج به، وخرج الناس معه،

وقال ابن كثير:

قال جابر: ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قِدْر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها.

وسنتكلم على هذا الحديث.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن حُميد الأعرج، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن عبد الرحمن بن معاذ، عن رجل من أصحاب النبي.

ذكر جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ أشرك عليَّ بن أبي طالب في الهدى، وأن جماعة الهدى الذي قدم به عليٌّ من اليمن والذي جاء به رسول الله ﷺ مائة من الإبل، وأن رسول الله ﷺ نحر بيده الكريمة ثلاثاً وستين بدنة.

قال ابن حبان وغيره: وذلك مناسب لعمره عليه السلام، فإنه كان ثلاثاً وستين سنة!

وقال ابن كثير:

ذكر ما نزل على رسول الله من الوحي المنيف في هذا الموقف الشريف

قال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية هي؟ قال: قوله

فدفنه في الزقاق الذي يلي دار محمد بن زيد، فدخل في قبره حتى سوى عليه ودفنه، ثم خرج ورش على قبره، وأدخل رسول الله يده في قبره وبكى رسول الله ﷺ وبكى المسلمون حوله حتى ارتفع الصوت، ثم قال: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يغضب الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون، ثم إن الشمس كسفت يوم موته، الثلاثاء لعشر ليالٍ خلون من ربيع الأول سنة عشر للهجرة وهو ابن ثمانية عشر شهراً. . . فقال الناس: كسفت لموت إبراهيم. فخطب الرسول ﷺ فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[119]. وهكذا رفض الرسول ﷺ غيبيات التفاسير التي تطلق بدون علم ولا وحي.

ورغم هذا ظل موت «إبراهيم» رضي الله عنه صدمة عاطفية لمشاعرالرسول ﷺ، تلك المشاعر التي استطاع أن ينقلها لأتباعه بكل صنوف الحماس الفكري الذي يؤججه

تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».

فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة.

ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح، عن جعفر بن عون. وأخرجه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي من طرق عن قيس بن مسلم به.

قال هيكل:

تجهز النبي للحج

بينما كان علي يتأهب للعودة إلى مكة كان النبي يتجهز للحج ويأمر الناس بالتجهز له. ذلك أن أشهر السنة استدارت وأقبل ذو القعدة وأوشك أن يولي ولم يكن النبي قد حج الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين. وللحج مناسك يجب أن يكون عليه السلام قدوة المسلمين فيها. وما كاد الناس يعرفون ما صحّ عليه عزم النبي ودعوته إياهم للحج معه حتى انتشرت الدعوة في كل ناحية من شبه الجزيرة. وحتى أقبل الناس على المدينة ألوفاً ألوفاً من كل فج وحدب: من المدائن والبوادي، من الجبال والصحاري، من كل بقعة في هذه البلاد العربية المترامية الأطراف، التي استنارت كلها بنور الله ونور نبيه الكريم. وحول المدينة ضُربت الخيام لمائة ألف أو يزيدون جاؤوا تلبية لدعوة نبيهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. جاؤوا إخوة متعارفين تجمع بينهم المودة الصادقة والأخوة الإسلامية، وكانوا إلى سنوات قبل ذلك أعداء متنافرين. وجعلت هذه الإلوف المؤلفة تجوس خلال المدينة، وكل باسم الثغر، وضّاح الطلعة، مشرق الجبين، يصف اجتماعهم انتصار الحق وانتشار نور الله انتشاراً ربط بينهم وجعلهم جميعاً كالبنيان المرصوص.

الإسلام بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، وزاد على هذه الصدمة المحن الجسدية التي تعرض لها ﷺ منذ أن تسمم في خيبر ليضعف نبع تجدد الحياة عنده ﷺ، فصار عرضة لنوبات متزايدة من الألم الجسدي التي سببت ظهور علائم الكبر السريع عليه ﷺ، فكان هذا إنذاراً لنفسه المرهفة بدنو الأجل، لذلك استجمع قواه لحجة أخيرة إلى مكة المكرمة.

وبينما المسلمون في حجهم أقبل عليٌ عائداً من غزوته باليمن وقد أُحرم للحج لما علم أن رسول الله حج بالناس. ودخل على فاطمة فوجدها قد حلت إحرامها. فسألها فذكرت له أن النبي أمرهم أن يحلوا بعمرة. فذهب إلى النبي فقصَّ عليه أخبار سفرته باليمن. فلما أتم حديثه، قال له النبي: انطلق فطُف بالبيت وحل كما حلَّ أصحابك. قال علي: يا رسول الله، إنني أهللت كما أهللت. قال النبي: ارجع فاحلل كما حلَّ أصحابك. قال علي: يا رسول الله إني قلت حين أحرمت: اللهم إني أهل بما أهلَّ به نبيك وعبدك ورسولك محمد. فسأله النبي: أمعه هدي؟ فلما نفى عليٌ أشركه محمد في هديه(*)، وثبت عليٌ على إحرامه وأدى مناسك الحج الأكبر.

(*) قرر ابن كثير أن عليٌ (رضي الله عنه) كان معه هدية.

الفصل الثالث

حجة الوداع

ولكل هذه الأسباب العيانية ـ ولأنه نبي ـ سمى حجته الأخيرة هذه إلى مكة المكرمة: بحجة الوداع، التي قصد منها أن تكون نموذجاً تحتذى فيه شعائر الإسلام.

وكان لإعلانه لهذه الحجة صداه بلفت انتباه المؤمنين به إلى هذا الحج من كل الأصقاع العربية، ليتبعوه في هذا الحج، فاحتشدت طرقات المدينة بمختلف القبائل من البادية والمدن، ومن أعالي الجبال وأبعد الأصقاع الصحراوية، فامتلأت الوديان المحيطة بالمدينة بخيامهم. فشكل منظرهم هذا صورة مدهشة لانتصار الإيمان، بين هؤلاء الذين كانوا أعداء منذ الأمس القريب، فألف الإسلام بين قلوبهم، وكانوا كذلك منذ عهد قريب برابرة حرب، ليتحولوا بزمن قياسي إلى أخوة رحماء، تحركهم مشاعر واحدة بعد أن كانت أهواؤهم متفرقة.

ورافق الرسول ﷺ في هذه الحجة كل زوجاته التسع، كل على هودجها، فتحرك

قال هيكل:

أداء مناسك الحج

وفي الثامن من ذي الحجة يوم التروية ذهب محمد إلى منى، فأقام بخيامه فيها وصلى فروض يومه بها وقضى الليل حتى مطلع الفجر من يوم الحج، فصلى الفجر وركب ناقته القصواء حين بزغت الشمس ويمم بها جبل عرفات والناس من ورائه. فلما ارتقى الجبل أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته، ومنهم الملبِّي ومنهم المكبر، وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء. وضُربت للنبي قبة بنمرة، (قرية بشرق عرفات)، وكان ذلك بعض ما أمر به. فلما زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرُحلت، ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عُرنة، وهناك نادى في الناس وما يزال على ناقته بصوت جَهْوَرِيّ كان يردِّده مع ذلك من بعده ربيعة بن أمية بن خلف وهو يقف بين عبارة وأخرى قائلاً بعد أن حمِد الله وأثنى عليه.

خطبة الرسول الجامعة

«أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

الرسول ﷺ على رأس كل هذا الحشد الذي شكل خطاً مستقيماً في الصحراء، بقافلة قدرها البعض بخمسة وخمسين ألفاً وآخرون بمئة وأربعة عشر ألف حاج، مصحوبين بعدد كبير من جِمال الأضاحي التي زينت بالزهور والزينات.

وكان أول توقف لهذه القافلة للراحة ليلاً بعيداً عدة أميال فقط عن المدينة في «الحُلَيفة» وادي العقيق، وهو نفس المكان الذي نحى فيه أتباعه في السابق سلاحهم ولبسوا لباس الإحرام حين أرادوا دخول مكة سلماً، ومع فجر اليوم التالي بعد الصلاة، ركب الرسول ﷺ ناقته «القصواء» فلما علا شرف البيداء أَهَلَّ، وتبعه الناس في التلبية.

والتلبية حسب الشريعة الإسلامية هي الدعاء الذي دعاه «إبراهيم عليه السلام» على رأس جبل «أبي قبيس» قرب مكة المكرمة، والذي به بشر بالإيمان الحقيقي لكل الجنس البشري، وقد سمعه ـ تناقله ـ كل الناس من قول «إبراهيم عليه السلام» عن الله تعالى بما هو أهل له تعالى، لدرجة أن كل مولود يلد بولادته يلبي أمر الله: لبيك اللهم لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك...

وعبر صدى خشوع أصوات التلبية تحرك الحجيج بقافلتهم التي تسمع من أميال بعيدة، جاعلة من الصحراء تطفح في ذاك الوقت بوحدة دينية وبصلاة واحدة موحدة لله تعالى، فلم يعد في هذه الصحراء خطر أي جيش معاد، ولا حتى أي قاطع طريق، فقد

«أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا.

«وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت.

«فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

«وإن كل رباً موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون.

«قضى الله أنه لا رِبا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله.

«وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب...

«أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبَد بأرضكم هذه أبداً. ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

«أيها الناس، إن النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرّموا ما أحل الله.

امتدالإسلام وظلل بكل صدق كل جزيرة العرب، وهكذا اقترب الرسول ﷺ من مكة المكرمة بعدد مشابه للذي به أخضعها، ودخلها من باب «بني شيبة» الذي ظل يحمل معنى التبجيل والقداسة.

وبعد وصول الرسول ﷺ إلى مكة بعدة أيام، لحقه «علي» رضي الله عنه قادماً من اليمن ومعه الأضاحي من الجمال(*).

ولأن هذه الحجة ـ حجة الوداع ـ قصد منها أن تكون نموذجاً تتبع سنة الرسول ﷺ فيه، حدد الرسول ﷺ كل الشعائر فيها، وأوضح كيفية استعمالاتها القديمة من كل أنبياء الإسلام السابقين، الذين جاء الرسول ﷺ ليتابع هديهم، وليتمم رسالاتهم ﷺ، ولأنه كان ﷺ قد بدأ يشعر بالوهن والضعف الجسدي، لم يحج سيراً على الأقدام بل على ناقته ﷺ، وعليها طاف حول الكعبة الشريفة، وسعى بين «الصفا والمروة».

لكنه ظل قادراً على الذبح ﷺ لذلك ضحى بيديه الشريفتين ثلاثة وستين هدي، بمعول هدي لكل سنة من سني عمره ﷺ، وحسب هذه السنة ضحى «علي» رضي الله عنه أيضاً سبعة وثلاثين أضحية بدوره.

ثم حلق الرسول ﷺ رأسه بدءاً من الجهة اليمنى إلى الجهة اليسرى، وتقاسم الناس والصحابة شعر رأسه الشريف واحتفظوا به كذكرى مقدسة، فقد كان «خالد بن الوليد» رضي الله عنه يضع شعرة من شعرات الرسول ﷺ في عمامته للبركة، مؤكداً أنها

«وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذي بين جمادي وشعبان.

«أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبيِّنة. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عَوَان لا يملكن لأنفسهن شيئاً. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

«فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلَّغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً: كتاب الله وسنَّة رسوله.

«أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه. تعلمنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة

(*) هناك قولان تاريخيان عما إذا كان مع «علي رضي الله عنه» هدياً أم لم يكن.

كانت تعطيه قوة خارقة في القتال.

ولأنه ﷺ كان يعرف بدنو أجله، عمل في هذا الوداع ـ حجة الوداع ـ لمدينته المقدسة على تعميق الإسلام في عقل وقلوب أتباعه، لذلك كان يعظ دوماً من محراب الكعبة الشريفة، أو من على ظهر راحلته ﷺ في الهواء الطلق، ومن الأمور التي كان ﷺ يؤكد عليها في عظاته مثل قوله: «التأخذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا»[120].

ولأجل هذا كان الرسول ﷺ لا يضع قواعد الدين الإسلامي فقط، بل جعل جزءاً أساسياً منها ما يمس سلوك الإنسان اليومي، العام والخاص، وقد كان لهذه المفاهيم تأييد واسع، وتأثير أشد على الأخلاق الإنسانية الجيدة، والتصرف والعادات التي تشكلت في معظم العالم الإسلامي.

ومما لا شك فيه بنظر من لاحظوا قرب نهايته ﷺ، وحُدَتُهُ وتوديعه لأصحابه وأقاربه وأصدقائه، وأنه كان يقرب «علياً» رضي الله عنه ورغم عدم رضاه عن نتائج حملته في اليمن، وكان ﷺ يحض أتباعه على مولاته.

وفي كتب السيرة أن الرسول ﷺ أتى غدير «خم» كما أكد «أبو هريرة» رضي الله عنه بعد أن نزلت عليه سورة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ واعتبر آخرون أن السورة نزلت يوم عرفة[121].

وعلى أي حال تقول السيرة أن الرسول ﷺ حين أتى غدير «خم» دعا «عليا» رضي الله عنه وقال: ألست أولى بكل امريء من نفسه؟! قالوا بلى. قال: فإن هذا مولى من أنا مولاه، اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه. فلقيه «عمر» رضي الله عنه فقال هنيئاً لك! أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة[122] كما يذكر «أبو الفدا».

كذلك لما رجع الرسول ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير «خُمّ» أمر بدوحات فقممن ـ كُنِسن ـ ثم قال: كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين: كتاب

فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه، فلا تظلمنَّ أنفسكم.

«اللهم هل بلغت!».

كان النبي يقول هذا وربيعة يردّده من بعده مقطعاً مقطعاً، ويسأل الناس أثناء ذلك ليحتفظ بيقظة أذهانهم. فكان النبي يكلفه أن يسألهم مثلاً: إن رسول الله يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟ فيقولون: يوم الحج الأكبر. فيقول النبي: قل لهم إن الله قد حرَّم حرمه وقال: اللهم هل

الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يَرِدا على الحوض(123).

وعلى كل حال فإن الآية الثالثة من سورة المائدة التي يقول الله تعالى فيها: ﴿... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: 3]. التي نزلت على الرسول ﷺ وهو على ناقته «القصواء» فأناخت بها حتى لصقت بالأرض، كانت خاتمة الدين الإسلامي والوحي.

وهكذا أكمل الرسول ﷺ سنن تعاليم دينه والحج ووضع كل تعاليم الإسلام والإيمان به، فودع مدينته «مكة المكرمة» وهو عائد على رأس جيش الحجيج إلى المدينة.

وعندما شارف عليها كبر وهلل ﷺ ثم دعا المسلمين إلى العودة إلى ديارهم لعبادة الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، والتضرع له وحده سبحانه وتعالى بدون أي شريك، وبحجته هذه التي سميت بحجة الوداع أنهى الرسول ﷺ آخر أعماله في هذه الدنيا.

بلَّغت، أجاب الناس من كل صوب. نعم. فقال: «اللهم اشهَدْ».

اليوم أكملت لكم دينكم

ولما أتم النبي خطابه نزل عن ناقته القصواء، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ثم ركبها حتى الصَّخَرات، وهناك تلا عليه السلام على الناس قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

فلما سمعها أبو بكر بكى أن أحس أن النبي وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذي يلقى فيه ربه.

وترك النبي عرفات وقضى ليله بالمزدلفة، ثم قام في الصباح فنزل بالمشعر الحرام؛ ثم ذهب إلى منىً وألقى في طريقه إليها الجَمرات، حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثاً وستين ناقة، واحدة عن كل سنة من سني حياته، ونحر عليٌّ ما بقي من الهَدْيَ المائة التي ساق النبي منذ خروجه من المدينة، ثم حلق النبي رأسه وأتم حجه. أتم هذا الحج الذي يسميه بعضهم حجَّة الوداع، وآخرون حِجَّة البلاغ، وغيرهم حِجَّة الإسلام. وهي في الحق ذلك كله؛ فقد كانت حجة الوداع، رأى فيها محمد مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة. وكانت حجة الإسلام، أكمل الله فيها للناس دينه وأتم عليهم نعمته. وكانت حجة البلاغ، أتم النبي فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه. وما محمد إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون.

الباب السابع والثلاثون

الفصل الأول

مدّعو النبوة

بعد عودته ﷺ إلى المدينة زاد تراجع صحته، لكن الإسلام كان في تقدم فقد وضع الرسول ﷺ خططه لمده إلى الامبراطوريات المجاورة، نحو سورية وفلسطين أولاً، وبينما كان ﷺ يتأهب لهذا الفتح الخارجي، ظهر اثنان من مدعي النبوة في جزيرة العرب ليعيقا مشاريعه في الفتح، أحدهما «الأسود العنسي» في اليمن والثاني «مسيلمة الكذاب» في اليمامة ـ نجد ـ فسماهما المؤمنون بالكاذِبَيْن.

وكان «الأسود العنسي» رجلاً أسود سريع البديهة، ذا موهبة بإقناع من أمامه بالقول المزخرف، عابد أصنام في أساسه، ثم تحول إلى الإسلام، تحول من يريد أن يقلد هذا الدين ليدعي النبوة، وليؤسس ديناً خاصاً به، إلا أن تقلبه وتردده في القضايا الدينية جعله يتجه بكل الاتجاهات، ولكي يقلد الرسول ﷺ ادعى أن وحياً ينزل عليه من السماء عبر ملاكين. ولأنه بارع بالسحر والنراجيل التي كان يستخدمها أمام جمهوره حاز على إعجابهم بخدعه هذه التي كان يدعي أنها معجزات تتحقق على يديه، إلى درجة أن بعض المؤرخين المسلمين ظنوا أنه فعلاً مؤيد بجني شرير أو بالشيطان نفسه، لأن دعوته قد توجت لوقت محدد بنجاحات وقتية كبيرة. وهذا ما يُظهر كيف أن العرب في ذاك الوقت لم يكونوا مستقرين في فهمهم للأمور الدينية، وخاصة «السبأيين» أو أهل اليمن ممن وقعوا بخرافات التأليه لآل البيت بعد ذلك، والذين سموا بجماعات «ابن سبأ» فمع «العنسي» ظهر إمكان مدى الضلال في اتباع أي إيمان جديد.

وفي السنة التي ظهر فيها «الأسود» مات «بدهان» حاكم اليمن الفارسي الذي أقره الرسول ﷺ عليها، فصار «الأسود» على رأس طائفة قوية، استطاعت قتل ابن الحاكم وخليفته، فتزوج الأسود من أرملة ابن حاكم اليمن وقتل أباها وبعد قتله له استولى على الحكم، كما أن أهل «نجران» دعوه إلى مدينتهم التي تعد بوابة اليمن وأهم عواصمها،

وتبع ذلك كل مدن اليمن، وبذلك خضع له كل اليمن السعيد ببرهة وجيزة.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الرسول ﷺ كان إضافة إلى تحضيره لفتح الشام، يعاني من ازدياد مرضه الخطير. وقد ظهر له ﷺ جلياً أن كل هذا الأمر متعلق بشخص «الأسود» وحده، فأصدر أوامره لمن ظل على ولائه للإسلام من المقربين من «الأسود» بالقضاء عليه بكل الطرق الممكنة خدمة للإيمان والحق، ومن المنطلق الذي أوضحته السور التي أعلنها «علي» رضي الله عنه في مكة المكرمة بضرورة القضاء على كل أعداء الدين، والتي سبق وذكرناها، أخذ المهمة شخصان بدافع ديني بحت، أحدهما «فيروز الديلمي» ابن عم أرملة ابن حاكم اليمن التي اغتصبها الأسود لنفسه، فقررا معها القيام بهذا الواجب الإسلامي، ومن منطلق ضرورة ثأرها من قاتل زوجها وعمها كما تقضي التقاليد العربية بالثأر، وبعد صعوبات تمكنا وبمساعدتها من دخول القصر والوصول إلى غرفة «الأسود» على جنح الظلام حيث كان نائماً، فطعنه «فيروز» برقبته طعنة لم تكن كافية لقتله، فشخر ونخر وطلب عون الحرس بصوت متقطع، فذهبت زوجته إلى الحرس وهدأتهم قائلة: أن النبي ـ لعنه الله ـ ينزل عليه الوحي. مما مكن مغتاليه من الإجهاز عليه وقطع رأسه فسكن صوته إلى غير رجعة. وعندما طلع الفجر رأى الناس علم الرسول ﷺ خفاقاً مرة ثانية على أسوار المدينة، ومع تكبيرات الفجر أذن بموت الطاغية الدعي الكاذب، وهكذا ظهر «الأسود» وأفل نجمه في مدة لا تزيد عن أربعة أشهر، وعاد الناس إلى الإسلام بسهولة تعادل سهولة ارتدادهم عنه، لعدم تمكن الإيمان من قلوبهم بعد.

أما الكاذب الآخر فكان عربياً من قبيلة بني حنيفة اسمه «مسيلمة»، وكان حاكماً على «اليمامة»، وكان قد قدم على الرسول ﷺ مع وفود أهل «نجد» في السنة التاسعة للهجرة الشريفة، وأعلن إسلامه أمام الرسول ﷺ، لكنه ادعى حين عودته أن الرسول ﷺ أشركه في أمر الوحي بأمر إلهي، والقصة على حقيقتها أن: وفد بني حنيفة حين أتوا رسول الله ﷺ خلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركائبنا يحفظها لنا. قال: فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: «أما إنه ليس بشركم مكاناً»(124). فلما جاؤوا مسيلمة بما أعطاه الرسول ﷺ من أعطيات المؤلفة قلوبهم لفق الأمر وكذب وتنبأ لهم، وقال: «إني قد أُشركت في الأمر معه»(125). ثم جعل يسجع لهم السجعات فيقول لهم فيما بزعمه يضاهي القرآن الكريم: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى» وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع هذا يشهد

لرسول الله ﷺ بأنه نبي[126].

ثم ما لبث أن بنى بيتاً يأتيه إليه الأتباع الذين كانوا يأتون له بالسابق بسبب سلطته، ثم بلغت به القحة أن قدم على رسول الله ﷺ ثانية فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعتُه. وقدم في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي رأيت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني، ثم انصرف عنه[127]، ورؤيا الرسول ﷺ أنهما كذابان يخرجان من بعده ﷺ.

ثم عاد لعنه الله وكتب إلى الرسول ﷺ يقول:

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشاً قوماً يعتدون... فكتب إليه رسول الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[128].

وبسبب مشاغل الرسول ﷺ بأمور أهم، ترك أمر عقابه إلى يوم آخر.

الباب الثامن والثلاثون

الفصل الأول

مرض الرسول ﷺ الأخير

في مطلع السنة الحادية عشر للهجرة جهز الرسول ﷺ جيشاً قوياً لفتح الشام، ووضع على رأسه «أسامة بن زيد» الشاب في العشرين من عمره، وقد قدّمه على كل قواده المجربين دلالة على أهمية الشباب في الإسلام - فادعى أعداء الله أن هذه فلتة من فلتات المرض - والواقع أن «زيداً» رضي الله عنه عتيق رسول الله ﷺ الذي أثبت حتى آخر لحظة من حياته وفاءً نادراً للرسول ﷺ في كل المناسبات، فكان صحابياً جديراً حتى الرمق الأخير حين سقط في «مؤتة»، فكرمه الرسول ﷺ بابنه في قيادة الجيش العائد لفتح الشام ثانية.

ولأن الرسول ﷺ كان يريد من تقديم «أسامة» رضي الله عنه دروساً أخرى للمسلمين عن معاني الإسلام في الرق وفي النبوة وأحلية زواج زوجة المتبني وفي الوفاء

قال ابن كثير:

واشتد به وجعه. قال: هَرِيقوا عليّ من سبع قِرَب لم تُحْلل أوكيتهن، لعلي أعهد في الناس. فاجلسناه في مِخْضَب لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طَفِقنا نصب عليه من تلك القِرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن.

وقال:

قال البيهقي: أنبانا الحاكم، أنبانا الاصم، عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بُكير، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن أيوب بن بشير، أن رسول الله قال في مرضه: أفيضوا عليّ من سبع قِرَب من سبع آبار شتى حتى أخرج فاعهد إلى الناس.

ففعلوا، فخرج فجلس على المنبر، فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه ذكر أصحاب أحد، فاستغفر لهم ودعا لهم، ثم قال: يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم عيبتي التي أويت إليها، فاكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

وفي الصحبة، ولمعرفته ﷺ بعدم فهم البعض لهذا التقديم، جمع الجيش وأخذ منه الولاء لأسامة، مذكراً بفضل أبيه «زيد» رضي الله عنه في افتتاح فتوح الشام، والذي سقط بنفس المكان الذي سيصول ويجول فيه ابنه وعلى يديه بإذن الله سيكون الفتح. ثم عقد الراية لهذا الشاب بيديه الشريفتين، داعياً له بالقتال قتال المؤمن لا قتال الجبابرة، ضد كل من يقف أمام اسم اللهالواحد الأحد، وعلى هذا الأساس من الوفاء والوفادة والرسالة لكل أمم الأرض، تحرك الجيش في نفس اليوم ليخيم في الجرف البعيد عدة أميال عن «المدينة المنورة»، إلا أن إرادة الله تعالى حالت دون إتمام مسيرة هذا الجيش؟!

ففي نفس تلك الليلة اشتد ألم الرأس على الرسول ﷺ الذي كان يعاوده منذ أكله شاة خيبر، والذي اعتبره البعض عرضاً جانبياً من أعراض تناول السم آن ذاك، وأعقبه دوار وحمى ارتفعت بها درجة حرارته ﷺ بنوبة اختلطت بها كل أوجاعه السابقة ﷺ، وقد بدأت في منتصف الليل حيث أفاق ﷺ من حلم مزعج، وقال الخادم الذي كان يتعهد خدمته في تلك الليلة: «ابتدئ رسول الله ﷺ بشكواه من المرض الذي قبضه الله

ثم قال عليه السلام: أيها الناس إن عبداً من عباد الله قد خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله.

ففهمها أبو بكر رضي الله عنه من بين الناس فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا.

وقال ابن كثير:

وقال البخاري: حدثنا إسحاق، أخبرنا بشر بن شعيب بن أبي حمزة، حدثني أبي، عن الزهري، قال أخبرني عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري، وكان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذي تيب عليهم، أن عبد الله بن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا! وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا.

فقال عليّ: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطينها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

انفرد به البخاري.

فيه... فكان أول ما ابتدئ به... من ذلك فيما ذكر لي، أنه خرج إلى بقيع الغَرْقَد من جوف الليل فاستغفر لهم... قال: بعثني رسول الله من جوف الليل فقال: يا «أبا مويهبة» إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الأخرة شر من الأولى، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا مويهبة إني قد أتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة.

قال: قلت: بأبي أنت وأمي!! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

قال: لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة.

ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدئ برسول الله وجعه الذي قبضه الله فيه»(129).

وحين زادت آلامه ﷺ وهو ينتقل بين بيوت زوجاته رضي الله عنهن من يوم إلى آخر كما كان يفعل دائماً ﷺ، وحين كان في بيت «ميمونة» رضي الله عنها زادت حدة

وقال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن سليمان الأحول، عن سعيد بن جبير، قال: قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس! اشتد برسول الله ﷺ وجعه. فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً.

فتنازعوا - ولا ينبغي عند نبي تنازع - فقالوا: ما شأنه أهجر(*)؟ استفهموه، فذهبوا يردون عنه، فقال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه. فأوصاهم بثلاث قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحوما كنت أجيزهم. وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها.

ورواه البخاري في موضع آخر، ومسلم من حديث سفيان بن عُيينة.

ثم قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، قال: لما حُضِر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فقال النبي ﷺ: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً. فقال بعضهم: إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

(*) هجر: اختلف كلامه بسبب المرض، على سبيل الاستفهام، أي هل تغير كلامه واختلط لأجل ما به من المرض. النهاية 4/ 255. وفي الأصل: يهجر، وما أثبته عن صحيح البخاري 2/ 279.

مرضه بشكل كبير، وأدرك ﷺ بقرب الأجل فحن قلبه إلى «عائشة» رضي الله عنها زوجته المفضلة لتقوم على رعايته في لحظاته الأخيرة، فانتقل إلى منزلها مدعوماً «بعلي» رضي الله عنه و«العباس» رضي الله عنه وابنه «الفضل» بن العباس رضي الله عنه، معصوب الرأس من شدة الصداع، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له، فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض[130]. ولما دخل بيتها واشتد به وجعه قال: إهريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس[131] فقد كان ﷺ يريد أن يترك عهداً بين الناس لكنه لم يقدر أن يفعل وقتها؟!

وهو ﷺ قبل هذا حين رجع من البقيع عن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول وارأساه. فقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه. قالت: ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ قالت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك! قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ونام به وجعه - أي سكن وجعه - وهو يدور على

فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده. ومنهم من يقول غير ذلك. فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا.

قال عبيد الله: قال ابن عباس: إن الرَّزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم.

ورواه مسلم عن محمد بن رافع، وعبد بن حُميد، كلاهما عن عبد الرزاق بنحوه. وقد أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه من حديث معمر ويونس عن الزهري به.

* * *

وقال:

وقال البخاري: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم قال الأسود: كنا عند عائشة فذكرنا المواظبة على الصلاة والمواظبة لها. قالت: لما مرض النبي ﷺ مرضه الذي مات فيه فحضرت الصلاة فأذَّن بلال، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقيل له:إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فعادوا له فأعاد الثالثة: فقال: إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فخرج أبو بكر، فوجد النبي ﷺ في نفسه خِفَّة فخرج يُهَادي بين رجلين كأني أنظر إلى رجليه تخطَّان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك. ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه.

نسائه حتى استقر في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذن أن يمرض في بيتي فأذن له[132].

ثم أسرعت «فاطمة» رضي الله عنها لعيادته في بيت «عائشة» رضي الله عنها ومشاركتها في تمريضه مع باقي نسائه ﷺ، وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «اجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده لم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها، فقال: مرحباً يا بنيتي. فأقعدها على يمينه أو شماله، ثم سارها بشيء فبكت، ثم سارها فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين!

فلما أن قامت قلت: أخبريني ما سارك، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ. فلما توفي ﷺ قلت لها: أسألك لمالي عليك من الحق لما أخبرتني. قالت: أما الآن فنعم. قالت: سارني في الأولى قال لي: إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وقد عارضني هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري فنعم السلف أنا لك. فبكيت. ثم سارني فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟ فضحكت[133]. كذلك أخبرها الرسول ﷺ أنها أول أهل بيته لحوقاً به فسرها ذلك وخفف من حزنها.

قيل للأعمش: فكان النبي ﷺ يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته والناس يصلون بصلاة أبي بكر؟ فقال برأسه: نعم.

ثم قال البخاري: رواه أبو داود عن شعبة بعضه. وزاد أبو معاوية عن الأعمش جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائماً.

وقال ابن كثير:

وقال الحافظ البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن ملحان، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، أخبرني أبو سلمة، عن عبد الرحمن، أن عائشة أخبرته: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنُح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمَّم رسول الله ﷺ وهو مسجًى ببرد حِبرة، فكشف عن وجهه ثم أكبَّ عليه فقبَّله، ثم بكى. ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! والله لا يجمع الله عليك موتتين أبداً، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مِتَّها.

قال الزهري: وحدثني أبو سلمة، عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس. فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس. فقال: اجلس يا عمر. فأبى عمر أن يجلس. فتشهَّد أبو بكر فأقبل الناس إليه، فقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾ الآية.

الفصل الثاني

رعاية المسجد والقيام به

وفي اليوم التالي ارتفعت درجة حرارة الرسول ﷺ بشكل عالٍ لم تخفضه قرب الماء المسكوبة عليه ﷺ فقال كما ذكرت «عائشة» رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»[134].

لكنه في الفترات التي كانت تنخفض حرارته ﷺ وتخف آلامه كان ينتقل إلى المسجد الملاصق لبيت «عائشة» رضي الله عنها متكئاً على أصحابه الذين يجلسونه على المنبر «أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: أفيضوا على من سبع قرب من سبع آبار شتى حتى أخرج فأعهد للناس ففعلوا، فخرج فجلس على المنبر، فكان أول ما ذكر بعد حمد

قال ابن كثير:

قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم فما سُمِعَ بشر من الناس إلا يتلوها.

قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيِّب، أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق فعقرت حتى ما تُقِلُّني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات.

فتكلم أبو بكر فحمد الله واثنى عليه ثم قال: إن الله يقول: ﴿إنك مَيِّت وإنهم ميتون﴾ حتى فرغ من الآية ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عَقبيه﴾ حتى فرغ من الآية.

ثم قال: فمن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.

فقال عمر: أو إنها في كتاب الله؟ ما شعرت أنها في كتاب الله. ثم قال عمر: يا أيها الناس هذا أبو بكر وهو ذو شيبة المسلمين، فبايعوه. فبايعوه.

وقد روى أبو داود والترمذي في الشمائل من حديث مرحوم بن عبد العزيز العطار، عن أبي عمران الجوني به ببعضه.

الله والثناء عليه، ذكر أصحاب أحد فاستغفر لهم ودعا لهم، ثم قال: يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد، وأنها عيبتي التي آويت إليها، فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم. ثم قال عليه السلام: أيها الناس إن عبداً من عبادالله قد خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله[135].

ثم أعطى ثلاثة أوامر أو وصايا رئيسية:

أولها: أن «اخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

والثانية: أن «أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»[136].

والثالثة: التمسك بالصلاة، والرفق بملك اليمين والوصية بهم»[137].

وبعد أن كان ﷺ ينهي وصاياه كان يعود إلى بيت «عائشة» رضي الله عنها متكئاً على أصحابه ولا يصل إلى البيت إلا منهكاً، وعلى هذا النحو كان مرضه يزداد من يوم إلى آخر، وقد أبدله الله تعالى عن هلوسات ارتفاع الحرارة برؤية جبريل الذي كان يعوده أيضاً ليخيره بين الدنيا وبين آلام تركها للآخرة: «فلما كان مرض الرسول ﷺ الذي مات فيه عرضت له بُحَة، فسمعته يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً»[138]. وعبر إجاباته المختلفة لجبريل في كل

قال: وأقبل أبو بكر رضي الله عنه من السُنح على دابته حتى نزل بباب المسجد، وأقبل مكروباً حزيناً، فاستأذن في بيت ابنته عائشة فأذنت له، فدخل ورسول الله ﷺ قد توفي على الفراش والنسوة حوله فخمَّرن وجوههن واستترن من أبي بكر، إلا ما كان من عائشة، فكشف عن رسول الله ﷺ فجثا عليه يقبله ويبكي ويقول: ليس ما يقوله ابن الخطاب شيئاً، توفي رسول الله والذي نفسي بيده! رحمة الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً! ثم غشّاه بالثوب.

ثم خرج سريعاً إلى المسجد يتخطى رقاب الناس حتى أتى المنبر، وجلس عمر حين رأى أبا بكر مقبلاً إليه، وقام أبو بكر إلى جانب المنبر ونادى الناس، فجلسوا وأنصتوا، فتشهد أبو بكر بما علمه من التشهد، وقال: إن الله عز وجل نعى نبيه إلى نفسه وهو حيٌّ بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم، وهو الموت حتى لا يبقى منكم أحد إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُسل﴾ الآية.

فقال عمر: هذه الآية في القرآن؟ والله ما علمت أن هذه الآية أُنزلت قبل اليوم وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30] وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26 ـ 27] وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 185].

مرة كان يعوده بها ليخيره كان ﷺ يختار لقاء وجه ربه، مما يعني أن عليه في نزاعه الأخير ﷺ أن يحمل آلاماً شبيهة بآلام الأنبياء والصديقين السابقين والشهداء والصالحين كلهم، وهذا ما لاحظه «ابن مسعود» الذي قال للرسول ﷺ «فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: أجل، إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم. قلت: إن لك أجرين. قال: نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها»[139]. إلى حد أن «عائشة» رضي الله عنها كانت تقول: «فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي ﷺ وفي الحديث الآخر...» قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه في البلاء»[140].

لهذا كان جبريل يمنع ملك الموت من الدخول على الرسول ﷺ قبل تخييره في سكرات الموت، وهذا ما خص به الرسول ﷺ برؤية جبريل بدل خطرفات ارتفاع الحرارة ووجع المرض عند الناس ـ الصالحين ـ حين الموت على قدر منزلتهم.

وقال: إن الله عمّر محمداً ﷺ وأبقاه حتى أقام دين الله وأظهر أمر الله وبلغ رسالة الله وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك وقد ترككم على الطريقة، فلن يهلك هالك إلا من بعد البينة والشفاء، فمن كان الله ربَّه فإن الله حيٌ لا يموت، ومن كان يعبد محمداً وينزله إلهاً فقد هلك إلهه. فاتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم وإن كلمة الله تامة وإن الله ناصرٌ من نصره ومعزٌ دينه، وإن كتاب الله بين أظهرنا وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً ﷺ، وفيه حلال الله وحرامه والله لا نُبَالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ، فلا يبغين أحدٌ إلا على نفسه.

ثم انصرف معه المهاجرون إلى رسول الله ﷺ. فذكر الحديث في غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه.

قلت: كما سنذكره مفصلاً بدلائله وشواهده إن شاء الله تعالى.

وذكر الواقدي عن شيوخه: قالوا: ولما شك في موت النبي ﷺ. فقال بعضهم: مات. وقال بعضهم: لم يمت، وضعت أسماء بنت عُمَيس يدها بين كتفي رسول الله ﷺ. فقالت: قد توفى رسول الله ﷺ وقد رُفع الخاتم من بين كتفيه. فكان هذا الذي قد عُرف به موته.

هكذا أورده الحافظ البيهقي في كتابه دلائل النبوة من طريق الواقدي، وهو ضعيف وشيوخه لم يسمّون ثم هو منقطع بكل حال ومخالف لما صح وفيه غرابة شديدة وهو رفع الخاتم فالله أعلم بالصواب.

وقد ذكر الواقدي وغيره في الوفاة أخباراً كثيرة فيها نكارات وغرابة شديدة، أضربنا عن

الفصل الثالث

الظهور العلني الأخير

وكما خير الرسول ﷺ كذلك أوصى وترك عهوداً وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أتيه بطبق يكتب فيه ما لا تضل أمته من بعده. قال: فخشيت أن تفوتني نفسه. قال. قلت: إني احفظ وأعي. قال: أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم»[141].

إلا أن حادثة مشابهة تركت اختلافاً وكثيراً من التأويلات، منها ما يتعلق بالخوف من تهوين الشرع، ومنها الخوف من ترك اسم وصي محدد بعد الرسول ﷺ من الذين لا

اكثرها صفحاً لضعف أسانيدها ونكارة متونها، ولا سيما ما يورده كثير من القُصّاص المتأخرين وغيرهم فكثير منه موضوع لا محالة.

وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة المروية في الكتب المشهورة غُنْيَة عن الأكاذيب وما لا يعرف سنده. والله أعلم.

وقال ابن كثير:

فلما اجتمعوا لغسله نادى من وراء الناس أوس بن خولى الانصاري، أحد بني عوف بن الخزرج ـ وكان بدرياً ـ عليّ بن أبي طالب، فقال: يا علي ننشدك الله وحظّنا من رسول الله ﷺ. فقال له علي: ادخل. فدخل فحضر غسل رسول الله ﷺ ولم يَلِ من غسله شيئاً.

فاسنده عليّ إلى صدره وعليه قميصه، وكان العباس وفضل وقُثَم يقلّبونه مع عليّ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاه هما يصبان الماء، وجعل عليّ يغسله ولم يرَ من رسول الله ﷺ شيئاً مما يُرَى من الميت، وهو يقول: بأبي وأمي! ما أطيبك حياً وميتاً.

حتى إذا فرغوا من غسل رسول الله، ـ وكان يُغسل بالماء والسِّدر ـ جَفَّفوه ثم صُنع به ما يُصنع بالميت، ثم أُدْرج في ثلاث أثواب: ثوبين أبيضين وبرد حِبرَة.

قال هيكل:

مدعو النبوة طليحة والأسود ومسيلمة

لذلك لم يُثِر قيام الذين قاموا إذ ذاك يدَّعون النبوة عناية محمد ولا اهتمامه. صحيح أن

يجوز أن يبلغ عنه سواهم من آل بيته ﷺ كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. فوصف «ابن كثير»: «هذا الحدث مما قد توهم به بعض الأغبياء من أهل البدع... وكل مدع إنه كان يريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمون إليه من مقالاتهم، وهذا هو التمسك بالمتشابه وترك المحكم»[142]. والقصة كما رواها «ابن عباس» رضي الله عنه قال: «يوم الخميس وما يوم الخميس! اشتد برسول الله ﷺ وجعه. فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً. فتنازعوا - ولا ينبغي عند نبي تنازع - فقالوا: ما شأنه أَهَجَرَ - أي هل اختلف كلامه بسبب المرض واختلط؟! - استفهموه، فذهبوا يردون عنه، فقال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه»[143].

وإن ابن عباس أخبر أن «علي» بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟

فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

بعض القبائل القاصية عن مكة كانت تسرع، بعد الذي عرفت عن محمد ونجاح دعوته، إلى الاستماع لمدّعي النبوة من أهل قبيلتهم، وتودُّ لو يكون لها من الحظ ما أوتيت قريش، وأن هذه القبائل كانت لبعدها عن مقر الدين الجديد لا تعرف كل أمره. لكن الدعوة الحق إلى الله كانت قد تأصلت في بلاد العرب، فلم تكن مقاومتها أمراً يسيراً. وما لاقى محمد في سبيل هذه الدعوة كان قد انتشر في الآفاق خبره، ولم يكن مستطاعاً لغير ابن عبد الله احتماله. وكل ادعاء أساسه البهتان لا مفرّ أن ينكشف سريعاً بهتانه. فكل ادعاء للنبوة لم يكن مقدَّراً له أي نجاح ذي بال. قام طليحة، زعيم بني أسد وأحد أشاوس العرب في الحرب ومن ذوي السلطان بنجد، وزعم أنه نبي ورسول، وأيَّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء في يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم. لكنه بقي خائفاً من الانتقاض على محمد طوال حياة محمد، ولم يعلن الثورة إلا بعد أن قبض الله إليه رسوله. وهزم ابن الوليد طليحة في ثورته هذه، فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه. ولم يكن مُسيلمة ولا كان الأسود العنسي خيراً مكاناً من طليحة طيلة حياة النبي. بعث مسيلمة إلى النبي عليه السلام يقول: إنه نبي مثله، «وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون». فلما تلا الخطاب نظر النبي لرسولي مسيلمة وأبدى لهما انه كان يأمر بقتلهما لولا أن الرسل في أمن، ثم أجاب مسيلمة بانه سمع إلى كتابه وما فيه من كذب، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين، والسلام على من اتبع الهدى.

وأما الأسود العَنسيّ، صاحب اليمن بعد موت بدهان، فقد جعل يدَّعي السحر ويدعو الناس إليه خفية، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرد عمال محمد على اليمن، وتقدم إلى نجران وقتل فيها ابن بدهان ووارث عرشه، وبنى بزوجه، ونشر في تلك الأصقاع سلطانه. ولم

فأخذ بيده «عباس بن عبد المطلب» رضي الله عنه فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا!! وأني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا!! إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر؟!

إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا!!؟

فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ(144).

وفي اليوم التالي يوم الجمعة حيث صلاة الجمعة التي تهيأ لحضورها رسول الله ﷺ رغم مرضه بعد أن صب عليه الماء ثانية من القرب لتخفيف حرارته وإنعاشه ﷺ، ورغم ذلك لم يقدر على الخروج وأغمي عليه ﷺ، ولما أفاق طلب من «أبي بكر» رضي الله عنه أن يؤم المصلين من منطلق أن الله تعالى قد خول الرسول ﷺ حق من ينوب عنه في المناسبات، ففسرها البعض بعد ذلك بأنها إشارة إلى استخلافه من بعده، خاصة وأن إحدى النساء جاءت رسول الله ﷺ «فأمرها أن ترجع إليه ـ بعد ذلك في وقت آخر ـ فقالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تقول الموت، قال: إن لم تجديني فآت أبا

يثر استفحال أمره عناية محمد، ولا استدعى من اهتمامه أكثر من أن بعث إلى عمّاله باليمن كي يحيطوا بالأسود أو يقتلوه. ونجح المسلمون في تأليب اليمن من جديد على الأسود، وقتله زوجه انتقاماً منه لقتله زوجها الأول ابن بدهان.

التفكير في غزو الروم

كان تفكير محمد وكانت عنايته متجهين إذاً إلى الشمال بعد عوده من حجة الوداع، وكان من ناحية الجنوب آمناً مطمئناً. والحق أنه منذ غزوة مؤتة، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالإياب، مكتفين بما أبدى خالد بن الوليد من مهارة في الانسحاب، كان محمد يحسب لناحية الروم حسابها، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جلوا عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوئون أهلها. ولهذا جهَّز الجيش العَرِم الذي جهز حين بلغه تفكير الروم في مهاجمته، وسار هو على رأسه حتى بلغ تبوك، فالفى الروم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيبته. لكنه مع هذا ظل يقدر لناحية الشمال أن تثور الذكريات بحماة المسيحية وأصحاب الغلب في ذلك العصر من أهل الامبراطورية الرومية، فيعلنوا الحرب على من أجلوا النصرانية عن نجران وغير نجران من أنحاء بلاد العرب. لذلك لم يطل بالمسلمين المقام بالمدينة بعد عودهم من حجة الوداع بمكة حتى أمر النبي بتجهيز جيش عرم إلى الشام، جعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر، وأمر على الجيش أسامة بن زيد بن حارثة.

بكر»[145]. ورغم ذلك لم يسأل «أبو بكر» رضي الله عنه الرسول ﷺ عن الخلافة لنفسه أو غيره أيضاً.

ثم علم الرسول ﷺ أن ظهور «أبي بكر» رضي الله عنه في إمامة الناس بالصلاة قد سبب لغطاً، إذ سرت شائعات بموته ﷺ، لذلك استجمع ﷺ قواه واتكأ على كتفي علي رضي الله عنه والعباس رضي الله عنه ودخل المسجد «ورجلاه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك ثم أتى حتى جلس إلى جنبه... فكان النبي ﷺ يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته والناس يصلون بصلاة أبي بكر»[146]. وأن الرسول ﷺ كان «عاصباً رأسه بعصابة دمساء - يضرب لونها إلى الأسود - ملتحفاً بملحفة على منكبية، فجلس على المنبر فذكر الخطبة وذكر فيها الوصاية بالأنصار إلى أن قال: فكان آخر مجلس جلس فيه رسول الله ﷺ حتى قبض، يعني آخر خطبة خطبها عليه السلام»[147].

ثم عاد بين «علي والعباس» رضي الله عنهما إلى منزل «عائشة» رضي الله عنها.

وصية النبي لأسامة

وكان أسامة بن زيد يومئذٍ حدثاً لا يكاد يعدو العشرين من سنّه؛ فكان لإمارته على المتقدمين الأولين من المهاجرين ومن كبار الصحابة ما أثار دهشة النفوس لولا إيمانها الصادق برسول الله. والنبي إنما أراد بتعيين أسامة بن زيد أن يقيمه مقام أبيه الذي استشهد في موقعة مؤتة، وأن يجعل له من فخار النصر ما يجري به ذلك الاستشهاد، وما يبعث إلى جانب ذلك في نفس الشباب الهمة والحميّة، ويعوّدهم الاضطلاع بأعباء أجسم التبعات. وأمر محمد أسامة أن يوطئ الخيل تُخوم البلقاء أرض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قُتل أبوه، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عماية الصبح، وأن يُمعن فيهم قتلاً، وأن يُحرقهم بالنار، وأن يتم ذلك دِرَاكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه. فإذا أتم الله النصر لم يُطل بقاءه بينهم، وعاد غانماً مظفراً.

وخرج أسامة والجيش معه إلى الجُرْف (على مقربة من المدينة) يتجهّزون للسفر إلى فلسطين. وإنهم لفي جهازهم إذ حال مرض رسول الله، ثم اشتداد المرض به، دون مسيرهم. وقد يسأل إنسان: كيف يحول مرض رسول الله دون مسيرة جيش أمر بجهازه وسفره؟ لكن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحاري أياماً طويلة ليست بالأمر الهين ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبي أحبّ إليهم من أنفسهم، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض. ثم إنهم لم يعرفوا قط من قبل أنه شكا مرضاً ذا بال، فهو لم يُصَبْ من المرض بأكثر من فقد الشهية في السنة السادسة من الهجرة حين قيل كذباً إن اليهود سحروه، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة في السنة

الفصل الرابع

وفاته ﷺ

وفي اليوم التالي بدت عليه ﷺ علائم تحسن مؤقت كما في فواصل النزع الأخير، فبدا للصحابة متعافياً، فتركه من يلازمه منهم «كعلي وأبي بكر وعمر» رضي الله عنهم ليقوموا بأمورهم، وبقيت معه ﷺ «عائشة» رضي الله عنها وحدها، ولأن هذه الفاصلة كانت وقتية، عاوده الألم مضاعفاً فعلم ﷺ بقدوم أجله، فأعتق كل عبيده، ووزع كل أمواله الموجودة عنده ـ على قلتها ـ على الفقراء، ثم راح يتضرع إلى الله تعالى أن يعينه

السابعة من الهجرة. ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتَّبعها عن المرض. فهذا الزُّهد في الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطة في الملبس والعيش، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبها محمد ويحرص عليها، حتى ليقول: إنه لولا خيفته أن يشق على قومه لفرض عليهم السِّواك في اليوم خمس مرات، وهذا النشاط الدائم؛ نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى. وهذا القصد في كل شيء، وفي الملذات قبل كل شيء. وهذا السموّ عن عبث الأهواء، وهذه الرفعة النفسية لا تُدانيها رفعة، وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون في خير صور الحياة وأدق أسرار الكون، هذا كله يجنب صاحبه المرض ويجعل الصحة بعض حظه. فإذا كان سليم التكوين، قوي الخلق، كما كان محمد، جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلاً. فإذا مرض كان طبيعياً أن يخاف محبوه وأصحابه، وكان طبيعياً أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه مَن مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتابعة. فهو منذ بدأ يجهر بدعوته في مكة منادياً الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وبترك الأصنام مما كان يعبد آباؤهم»، قد لقى من العنت ما تنوء به النفوس مما شتت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشة، وما اضطرَّه للاحتماء بشعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته. وهو حين هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة قد هاجر في أدق الأحوال وأشدها تعرُّضاً للخطر، وهاجر وهو لا يعرف ما قدر له بالمدينة. وقد كان بها في الفترة الأولى من مقامه موضع دسّ اليهود وعبثهم. فلما نصره الله وأذن أن يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيرة في دين الله أفواجاً، ازداد عمله وتضاعف مجهوده وظل تعهد ذلك كله يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبة أولى القوة، وإن له ـ عليه الصلاة والسلام ـ في بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان. وأي موقف أشد هولاً من موقفه يوم أحد حين ولى المسلمون، وسار وهو يصعد في الجبل ورجال

على سكرات الموت، فأسرعت «عائشة» رضي الله عنها بإرسال من يستدعي والدها، وطلبت «حفصة» رضي الله عنها على عجل، وبقيت وحيدة مع الرسول ﷺ في نزعه الأخير، قالت: «رأيت رسول الله ﷺ وهو يموت وعنده قدح فيه ماء، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: اللهم أعني على سكرات الموت»[148]. فوضعت رأسه ﷺ على حجرها بحنان لتخفف آلام الموت عنه ﷺ وهي تقرأ عليه المعوذتين قالت: «وتوفي بين سحري ونحري، وكان جبريل يعوذه بدعاء إذا مرض، فذهبت أعوذه فرفع بصره إلى السماء وقال: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى»[149]. وهكذا عرفت أنه ﷺ يؤكد اختياره إلى آخر لحظة، وبعد لحظات بردت أطرافه ﷺ وخرجت

قريش يشتدُّون في تتبعه، ويرمونه حتى كسرت رباعيته! وأي موقف أشد هولاً من موقفه يوم حنين حين ارتد المسلمون في عماية الصبح مولّين الادبار، حتى قال أبو سفيان: إن البحر وحده هو الذي يردّهم، ومحمد واقف لا يرتد ولا يتراجع وينادي في المسلمين: إلى أين، إلى أين! إليّ، إليّ، حتى عادوا وحتى انتصروا! والرسالة! والوحي! وهذا المجهود الروحي المضني في اتصاله بسرّ الكون وبالملأ الأعلى، هذا المجهود الذي رُوي بسببه عن النبي أنه قال: شيبتني هودٌ وأخواتها! رأى أصحاب محمد هذا كله، ورأوه يحمل العبء صُلباً قوياً لا يعرف المرض إليه طريقاً. فإذا مرض من بعد ذلك، فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهّلوا في السير في معسكرهم بالجُرْف إلى الشام، حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله في نبيه ورسوله.

خطاب النبي أهل المقابر

وحادث وقع جعلهم أشد خوفاً؛ فقد أرِق محمد ليلةً أول ما بدأ يشكو وطال أرقه، وحدّثته نفسه أن يخرج في ليل تلك الأيام، أيام الصيف الرقيقة النسيم، فيما حول المدينة، وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلا مولاه، أبا مُوَيْهبة. أفتدري أين ذهب؟ ذهب إلى بقيع الغَرْقَد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة. فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفِتَن. كقِطَع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلَها، الآخرة شرٌّ من الأولى». حدّث أبو مُوَيْهبة أن النبي قال له أول ما بلغنا بقيع الغَرْقَد: «إني أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي». فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب، أقبل على أبي مُوَيْهبة فقال له: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». قال أبو مُوَيهبة: بأبي أنت وأمي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال محمد: «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنّة».

تحدّث أبو مويهبة مما رأى وما سمع: لأن النبي بدأ يشكو المرض غداة تلك الليلة التي

منه الحياة، وبرفق وضعت «عائشة» رضي الله عنها رأسه على وسادة وراحت تنحب، فجلب صوتها زوجاته ﷺ ثم شاع الخبر في كل المدينة فذهل الناس وكأن على رأسهم الطير، فتوقفت جميع الأعمال وأجلت، كما أن الجيش الذي كان بصدد التقدم إلى الشام توقف، و«أسامة» رضي الله عنه الذي وصله الخبر ورجله في الركاب أدار وجه حصانه إلى أبواب المدينة، وعاد ليشك علمه على باب منزل الرسول ﷺ.

واحتشد الناس هناك للتشييع باضطراب وفوضى، ظهرا حتى في منزله ﷺ، إلى حد أن البعض كاد يفقد صوابه، وكانت «عائشة» رضي الله عنها «تلتدم ـ تلطم ـ مع النساء»[150] وتضرب وجهها، قالت: «فلما خرجت نَفْسه لم أجد ريحاً قط أطيب منها»[151]. وأنكر البعض إمكان أن يصيبه ﷺ الموت وقالوا إنه رفع إلى السماء كما رفع «المسيح عليه السلام» على أشد تقدير، وما أن علم «عمر» رضي الله عنه بكل هذا حتى أتى مسرعاً وسيفه مشرعٌ بيده يجتاز حشود الناس مهدداً بضرب كل من يقول إن رسول الله ﷺ قد مات، ثم «قام يخطب الناس ويتوعد من قال مات؟ بالقتل والقطع ويقول: إن رسول الله ﷺ في غشية لو قد قام قتل وقطع... والناس في المسجد يبكون

زار فيها البقيع، فاشتد خوفُ الناس ولم يتحرك جيش أسامة. صحيح أن هذا الحديث الذي يروى عن أبي مويهبة يلقاه بعض المؤرخين بشيء من الشك، ويذكرون أن مرض محمد لم يكن وحده هو الذي حال دون تحرّك الجيش إلى فلسطين، وأن تذمُّر الكثيرين من تعيين حدث كأسامة على رأس الجيش يضم جلَّة المهاجرين الأولين والأنصار، كان أكبر من مرض محمد في عدم تحرك الجيش أثراً. وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون في تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارئ في هذا الفصل. وإذا كنا لا نناقش أصحاب هذا الرأي رأيهم في تفاصيل هذا الذي روى أبو مويهبة، فإننا لا نرى مسوّغاً لإنكار الحادث من أساسه، وإنكار ذهاب النبي إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنيه ودقة إدراكه اقتراب ساعته، ساعة الدنو من جوار الله. فالعلم لاينكر في عصرنا الحاضر مناجاة الأرواح على أنها بعض المظاهر النفسية (Psychique). ودقَّة الإدراك لدنو الأجل بين الأحياء والموتى، وهذه الوحدة بين الماضي والمستقبل، وحدة لا يحدُّها زمان ولا مكان، قد أصبحت مقررة اليوم وإن كنا بطبيعة تكويننا نقصر عن استجلاء صورتها. فإذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقرّه العلم، فلا محل لإنكار هذا الحادث الذي روى أبو مويهبة من أساسه، ولا محل لهذا الإنكار بعد الذي ثبت من اتصال محمد النفسي والروحي بعوالم الكون اتصالاً يجعله يدرك من أمره أضعاف ما يدرك الموهوبون في هذه الناحية.

يداعب عائشة على رغم مرضه:

واصبح محمد في الغداة ومر بعائشة، فوجدها تشكو صُداعاً في رأسها وتقول: وا رأساه.

ويموجون لا يسمعون»[152].

وأقبل «أبو بكر» رضي الله عنه من منطقة «السُنح» البعيدة عن بيت الرسول ﷺ في المدينة، على دابته حتى نزل بباب المسجد، مكروباً حزيناً، فاستأذن في بيت ابنته «عائشة» رضي الله عنها فأذنت له، فدخل ورسول الله ﷺ قد توفي على الفراش والنسوة حوله، فخمرن وجوههن واستترن من أبي بكر إلا ابنته «عائشة» رضي الله عنها، فكشف عن رسول الله ﷺ فجثا عليه يقبله ويبكي ويقول: ليس ما يقول ابن الخطاب شيئاً، توفي رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده!! رحمة الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً!! ثم غشاه بالثوب.

ثم خرج سريعاً إلى المسجد يتخطى رقاب الناس حتى أتى المنبر، وجلس «عمر» رضي الله عنه حين رأى «أبا بكر» رضي الله عنه مقبلاً إليه، وقام أبو بكر إلى جانب المنبر ونادى الناس، فجلسوا وأنصتوا، فتشهد أبو بكر بما علمه من التشهد وقال: إن الله عز وجل نعى نبيه إلى نفسه وهو حيٌّ بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم، وهو الموت

فقال لها وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة وا رأساه. لكن شكوه لم يكن قد اشتد إلى الحدّ الذي يلزمه الفراش، أو يحول بينه وبين ما عوّد أهله وأزواجه من تلطف ومفاكهة. وكررت عائشة الشكوى من صُداعها حين سمعته يشكو؛ فقال لها وما ضرّك لو مُتّ قبلي فقمتُ عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك! وأثارت هذه الدعابة غيرة الأنوثة في نفس عائشة الشابة كما أثارت عندها حب الحياة والحرص عليها، فأجابت: «ليكن ذلك حظ غيري. والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك». وتبسم النبي وإن لم يمكّنه الألم من متابعة الدعابة، فلما سكن عن الألم بعض الشيء قام يطوف بأزواجه كما عوّدهن. لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدّته. حتى إذا كان في بيت ميمونة لم يطق مغالبته، ورأى نفسه في حاجة إلى التمريض. هناك دعا نساءه إليه في بيت ميمونة واستأذنهنّ، بعد أن رأين حاله، أن يمرض في بيت عائشة، وأذن له أزواجه في الانتقال؛ فخرج عاصباً رأسه، يعتمد في مسيرته على عليٍّ بن أبي طالب وعلى عمه العباس، وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت عائشة.

اشتداد الحمى وخروجه إلى المسجد

وزادت به الحمى في الأيام الأولى من مرضه، حتى لكان يشعر كان به منها لهباً. لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل الحمى من أن يمشي إلى المسجد ليصلي بالناس. وظلّ على هذا عدّة أيام، لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه ولا خطابهم، وإن لم يحل ذلك دون أن يصل الهمس إلى أذنه بما يقول الناس إنه أمر غلاماً حدثاً على جلّة المهاجرين والأنصار لغزو الشام. ومع أنه كان يزداد وجعه كل يوم شدة، لقد شعر من هذا الهمس

حتى لا يبقى منكم أحد إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾. . . الآية.

فقال عمر: هذه آية في القرآن؟ والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم. . . وقال ـ يعني أبو بكر ـ: إن الله عمّر محمداً ﷺ وأبقاه حتى أقام دين الله وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك، . . . . فمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً وينزله إلهاً فقد هلك إلهه، فاتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة، وأن الله ناصر من نصره ومعز دينه، وأن كتاب الله بين أظهرنا وهو النور والشفاء، وبه هدى

بضرورة التحدّث إلى الناس حتى يعهد إليهم؛ فقال لأزواجه وأهله: «هريقوا عليَّ سبع قِرَب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم». وجيء بالماء من آبار مختلفة، وأقعده أزواجه في مِخْضَب لحفصة، وصببن عليه ماء القرب السبع حتى طفِق يقول: حسبكم حسبكم. ولبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم، ثم قال: «أيها الناس انفذوا بعث أسامة. فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله. وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها». وسكت محمد هنيهة خيَّم الصمت على الناس أثناءها. ثم عاد إلى الحديث فقال: «إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله». وسكت محمد من جديد والناس كأنما على رؤوسهم الطير. لكن أبا بكر أدرك أن النبي إنما يعني بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لرقة وجدانه وعظيم صداقته للنبي أن يمسك عن البكاء، فأجهش وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا! وخشي محمد أن تمتد عدوى التأثر من أبي بكر إلى الناس، فأشار إليه قائلاً: على رسلك يا أبا بكر. ثم أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبي بكر فلما أقفلت قال: «إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يداً منه. وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً لكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده». ونزل محمد عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة، على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال:

إيصاؤه المهاجرين بالأنصار

«يا معشر المهاجرين استوصوا خيراً؛ فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد. وإنهم كانوا عَيْبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

ودخل محمد بيت عائشة. لكن المجهود الذي أنفقه يومئذ وهو في مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأة المرض شدّة. أي مجهود بالنسبة لمريض تساوره الحمى يخرج بعد أن تصبّ عليه سبع قرب من الماء، ويخرج تثقله أكبر الشواغل: جيش أسامة، ومصير الأنصار من بعده، ومصير هذه الأمة العربية التي ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها.

الله محمداً ﷺ، وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نبالي من أجلب علينا من خلق الله، أن سيوف الله لمسلولة ما وضعناه بعد، ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبغين أحد إلا على نفسه[153].

وهكذا سمع الناس إلى «أبي بكر» رضي الله عنه والدمع في عيونهم، وهم يواجهون الأمر الواقع، وحتى «عمر» رضي الله عنه الذي اقتنع لم تعد تحمله قدماه، فبقي جالساً في حزن عميق على فراق حبيبه وصاحبه وسيده بمرارة وحزن لا يوصف.

لذلك حاول أن يقوم في غده ليصلي بالناس كما عوّدهم، فإذا هو لا يقدر. إذ ذاك قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. وكانت عائشة تحرص على أن يؤدي النبي الصلاة لما في ذلك من مظهر الصحة، فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال محمد: مروه فليصل بالناس، فكررت عائشة قولها. فصاح محمد بها والمرض يهزّه: إنّكن صواحب يوسف! مروه فليصلّ بالناس. وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي. وإنه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلي بالناس مكان أبي بكر. وكان عمر جهير الصوت؛ فلما كبّر في المسجد سمعه محمد من بيت عائشة فقال: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون». ومن هنا ظن بعضهم أن النبي استخلف أبا بكر من بعده أن كانت الصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله.

ابنته فاطمة وحديثه لها

وبلغت به شدة المرض حدّاً آلمه. ذلك أن الحمّى زادت به حتى لقد كانت عليه قطيفة، فإذا وضع أزواجه وعوّاده أيديهم من فوقها شعروا بحرّ هذه الحمّى المضنية. وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم، وكان يحبها ذلك الحب الذي يمتلئ به وجود الرجل للابنة الواحدة الباقية له من كل عقبه. لذلك كانت إذا دخلت على النبيّ قام إليها وقبّلها وأجلسها إلى جانبه وأسرّ إليها حديثاً فبكت، ثم أسرّ إليها حديثاً آخر فضحكت. فسألتها عائشة في ذلك؛ فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله ﷺ. فلما مات ذكرت أنه أسرّ إليها أنه سيُقْبَض في مرضه هذا فبكت، ثم أسرّ أنها أول أهله يلحقه، فضحكت. وكانوا لاشتداد الحمّى به يضعون إلى جواره إناء به ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه. وكانت الحمى تصل به حتى يُغشى عليه أحياناً ثم يفيق وهو يعاني منها أشد الكرب؛ حتى قالت فاطمة يوماً وقد حزّ الألم في نفسها لشدة ألم أبيها: واكرب أبتاهُ! فقال: لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم. يريد أنه سينتقل من هذا العالم عالم الأسى والألم.

أراد أن يكتب لهم كتاباً فاختلفوا

وحاول أصحابه يوماً تهوين الألم عن نفسه، فذكروا له نصائحه ألا يشكو المريض.

الفصل الخامس

التهيئة للدفن

ويخبرنا المؤرخون المسلمون أمثال «أبي الفدا والجنابي» أن وفاة الرسول ﷺ كانت في يوم مولده بعد أن أكمل عامه الثالث والستين، في السنة الحادية عشرة للهجرة الموافقة لعام 632م.

أما جسده الطاهر فقد أعد له الحنوط والغسل عدد من أقاربه وصحابته، وفي شهادة أحدهم: «وضعت يدي على صدر رسول الله ﷺ يوم مات، فمرت جُمَع أكل وأتوضأ وما يذهب ريح المسك من يدي»(154)، وحسب عبارات «علي» رضي الله عنه

قال هيكل:

فأجابهم: إن ما به أكثر مما يكون في مثل هذه الحال برجلين منهم. وفيما هو في هذه الشدّة وفي البيت رجال قال: «إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تَضِلُّوا بعده أبداً». قال بعض الحاضرين: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله. ويذكرون أن عمر هو الذي قال هذه المقالة. واختلف الحضور، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده. ومنهم من يأبى ذلك مكتفياً بكتاب الله، فلما رأى محمد خصومتهم قال: قوموا! ما ينبغي أن يكون بين يدي النبيّ خلاف. وما فتئ ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أراد النبي إملاءه. أما عمر فظلّ ورأيه، أن قال الله في كتابه الكريم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبي، حتى هبط أسامة وهبط الناس معه الجُرف إلى المدينة. ودخل أسامة على النبي في بيت عائشة، فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم. فلما بصر بأسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة دعاء له.

غضبه لمعالجة أهله إياه

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسْعِفوه بعلاج، فأعدّت أسماء قريبة ميمونة شراباً كانت عرفت أثناء مقامها بالحبشة كيف تُعِدّه، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمّى فصبُّوه فيه. فلما أفاق قال: مَنْ صنع هذا؟ ولم فعلتموه؟!. قال عمه العباس: خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب. قال: ذلك داء ما كان الله عزّ وجلّ ليقذفني به!. ثم أمر بمن في الدار، خلا عمّه العباس، أن يتناولوا هذا الدواء لم تُسْتَثْن منهم ميمونة على رغم صيامها.

الذي قام على غسله ﷺ وكفنه، أن الرسول ﷺ كان طيباً حياً وميتاً. ثم كفن الجسد الطاهر بعد غسله بثلاثة أكفان، اثنان بيضاوان وحبرة يمانية وعطر بالمسك وبالأعشاب الذكية ثم أخرج للصلاة عليه ﷺ ليصلى عليه.

وأُخِرَ دفنه ﷺ لكي لا يكون من شك بوفاته ﷺ وللتوصل إلى رأي حول مكان الدفن، فظل من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء، وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «ما علمنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي في جوف ليلة الأربعاء»[155]. وكان هذا بسبب الخلاف حول مكان دفنه ﷺ، فالمهاجرون قبلوا من الرسول ﷺ أن تكون المدينة مكان إقامته النهائي، وفخر الأنصار أن يكون مكان دفنه ﷺ في مدينتهم التي كانت ملاذه خلال السنوات العشر الماضية، لكن فريقاً ثالثاً اقترح بنقل رفاته ﷺ إلى

وكان عند محمد أول ما اشتد به المرض سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده، فأمر أهله أن يتصدَّقوا بها. لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام في خدمته واطِّراد المرض في شدّته أنساهم تنفيذ أمره. فلما أفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته من إغمائه سألهم: ما فعلوا بها؟ فأجابت عائشة إنها ما تزال عندها. فطلب إليها أن تُحضرها، ووضعها في كفه ثم قال: «ما ظنُّ محمد بربه لو لقي الله عنده هذه». ثم تصدق بها جميعاً على فقراء المسلمين.

وقضى محمد ليله هادئاً مطمئناً نزلت عنه الحمى، حتى لكأن الدواء الذي سقاه أهله قد فعل فعله وقضى على المرض عنده. وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصباً رأسه معتمداً على عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس. وكان أبو بكر ساعتئذٍ يصلي بالناس. فلما رأى المسلمون النبيّ وهم في صلاتهم قد خرج إليهم كادوا يُفْتَنون فرحاً به وتفرّجوا، فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم. وسُرَّ محمد بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة. وأحس أبو بكر بما صنع الناس، وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله، فنكص عن مصلاّه يريد أن يتخلّى لمحمد عن مكانه. فدفعه محمد في ظهره وقال: صلّ بالناس؛ وجلس هو إلى جنب أبي بكر فصلى قاعداً عن يمينه. فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال: «أيها الناس؛ سعرت النار وأقبلت الفتن كقِطَع الليل المظلم، وإني والله ما تمسّكون عليّ بشيء. إني والله لم أحِلّ إلا ما أحلّ القرآن ولا أُحَرِّم إلا ما حرّم القرآن. لعن الله قوماً اتخذوا قبورهم مساجد».

غبطة المسلمين بظاهرة إبلاله

ولقد عظُم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التقدم في صحة النبي، حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذنه في مسيرة الجيش إلى الشام، وحتى مَثَلَ بين يديه أبو بكر قائلاً: يا نبيّ الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحبُّ، واليوم يوم خارجة، أفآتيها؟ فأذن النبيّ له في ذلك، وانطلق أبو بكر إلى السنح بأطراف المدينة حيث تقيم زوجه. وانصرف عمر

«القدس» كمكان لكل الأنبياء والرسل، لكن الكلمة النهائية والمسموعة جاءت من «أبي بكر» رضي الله عنه إذ قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: لم يقبر نبي إلا حيث يموت.

وعليّ لشؤونهما. وتفرّق المسلمون وكلهم سعيد مستبشر، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتّصل بهم من أخبار النبيّ ومرضه واشتداد الحمّى به وإغمائه. وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه، وإن كان يحس جسمه ضعيفاً غاية الضعف، وعائشة تنظر إلى هذا الرجل الذي يمتلئ قلبها تقديساً لجلال عظمته، وقد ملكها الإشفاق عليه لضعفه ومرضه، فهي تودّ لو تبذل له حشاشة نفسها لتردّ إليه القوّة والحياة.

الصحو الذي يسبق الموت

لكن خروج النبي إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذي يسبق الموت. فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت في كل لحظة ضعفاً، وكان يرى الموت يدنو، ولم يبق لديه ريب في أنه لم يبق له في الحياة إلا سُوَيعات. ترى ماذا عساه كان يشهد في هذه السويعات الباقية له على فراق الحياة؟ أفكان يستذكر حياته منذ بعثه الله هادياً ونبيّاً، وما لاقى فيها، وما أتم الله عليه من نعمته، وما شرح به صدره من فتح قلوب العرب لدين الحق؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربه متوجِّهاً إليه بكل روحه على نحو ما كان يفعل كل حياته؟ أم كان يعاني هذه الساعات الأخيرة من آلام النزع ما لم يُبق لديه قوّة الاستذكار؟ تختلف الروايات في ذلك اختلافاً كبيراً وأكثرها على أنه دعا في هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة، 8 يونيو سنة 632م، بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه؟ وأن رجلاً من آل أبي بكر دخل على عائشة وفي يده سواك، فنظر إليه محمد نظراً دل على أنه يريده، فأخذته عائشة من قريبها ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستن به؛ وأنه وقد شق عليه النزع، توجّه إلى الله يدعوه: اللهم أعني على سكرات الموت. قالت عائشة، وكان رأس النبي في هذه الساعة في حجرها: «وجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شَخِصَ وهو يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة». قلت: خُيرت فاخترت والذي بعثك بالحق. وقُبض رسول الله بين سحري ونَحْري ودولتي ولم أظلم فيه أحداً. فمن سفهي وحداثة سني أنه ﷺ قُبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي».

أمات محمد حقاً؟ ذلك ما اختلف العرب يومئذ فيه اختلافاً كاد يثير بينهم الفتنة، وما تؤدي الفتنة إليه من حرب أهلية، لولا أن أراد الله بهم وبدينهم الحق الحنيف خيراً.

وقال هيكل:

ذهول المسلمين لخبر الوفاة وعمر يكذب الخبر

اختار النبي عليه السلام الرفيق الأعلى في بيت عائشة ورأسه في حجرها، فوضعت رأسه على وسادة وقامت تلتدم وتضرب وجهها مع النساء اللاتي أسرعن إليها لأول ما بلغهن الخبر.

فأخروا فراشه وحفروا تحت فراشه ﷺ»[156]. وهكذا تم حفر قبر الرسول ﷺ في بيت «عائشة» رضي الله عنها ثم أدخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالاً، الرجال حتى إذا فرغ منهم، أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء، أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد.

وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجة؛ لأنهم رأوا النبي في الصباح وكل شيء يدل على أنه عوفي، مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه بنت خارجة بالسنح. لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبي وهو لا يصدّق أنه مات. ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به: فحسبه في غيبوبة لا بدّ أن يُفيق منها. وعبثاً حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة الأليمة؛ فقد ظل مؤمناً بأن محمداً لم يمت فلما ألحَّ المغيرة قال له: كذبت. وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ تُوفي؛ وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. والله ليرجعنَّ رسول الله كما رجع موسى، فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات». واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم في حال أشبه شيء بالذهول، ألا إن كان محمد قد مات حقاً فواحر قلباه؟ وياللهمّ الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له، وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحق، همّ يذهل القلب ويذهب باللبِّ. وإن كان محمد قد ذهب إلى ربه، كما يقول عمر، فذلك أدعى للذهول؛ وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى أشدّ إمعاناً في العجب. لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله لم يمت. وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون إلى صوته الجهوري وإلى دعائه واستغفاره!. وكيف يموت وهو خليل الله الذي اصطفى لتبليغ رسالته، وقد دانت له العرب كلها، وبقي أن يدين له كِسْرى وأن يدين له هِرَقْل بالإسلام!. وكيف يموت وهو هذه القوة التي هزَّت العالم مدى عشرين سنة متوالية، وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ! لكن النساء هناك ما زلن يلتدمن ويضربن وجوههنّ علامة أنه مات. ولكن «عمر» ها هنا في المسجد ما فتئ ينادي بأنه لم يمت، وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون؛ هؤلاء المنافقون الذين سيضرب محمد أيديهم وأعناقهم بعد رجعته. أي الأمرين يصدّق المسلمون؟ لقد أخذهم الفزع أول الأمر، ثم ما زالت بهم أقوال عمر تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبي حتى كادوا يصدّقون أمانيهم، ويصوّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

مجيء أبي بكر من السنح

وإنهم لكذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من السنح وقد بلغه الخبر الفادح. وبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم، فلم يقف طويلاً ولم يلتفت إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل، فقيل له: لا حاجة لأحد اليوم بإذن. فدخل فألفى النبي مسجًى في ناحية من البيت عليه بُرد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حيّاً وما أطيبك ميتاً!

هكذا صار بيت «عائشة» رضي الله عنها قبراً للرسول ﷺ بجانب المسجد وليس فيه. وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه يقول: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت ولولا ذلك

ثم إنه أخذ رأس النبي بين يديه وحدَّق في معارف وجهه التي بقيت لم يُنكرها عُدوان الموت عليها، وقال: بأبي أنت وأمي! أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً. ثم أعاد الرأس إلى الوسادة وردَّ البرد على وجهه وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويقنعهم بأن محمداً لم يمت. وفسح الناس لأبي بكر طريقاً. فلما دنا من عمر ناداه: على رسلك يا عمر! أنصت! لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم. فاقبل ابو بكر على الناس وأشار إليهم بانه يكلمهم. ومَنْ كابي بكر في هذا المقام؟! أليس هو الصديق صفيُّ النبيِّ ومن لو اتخذ خليلاً لاتخذه خليلاً؟! لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر. فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبي بكر؛ فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خرّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه موقناً أن رسول الله قد مات. وأما الناس فقد أخذوا من قبل باقوال عمر، حتى لقد ألفوا انفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر وكانهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت. وكذلك زايل القلوب كل شك في أن محمداً قد اختار جوار الرفيق الأعلى، وأن الله قد ضمَّه إليه.

افكان عمر غالياً حين اقتنع بأن محمداً لم يمت، وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟ كلا! وإن العلماء ليحدِّثوننا اليوم بأن الشمس ستظل تتناثر على حقب الدهور حتى يجيء يوم تفنى فيه. افيصدق أحد هذا الكلام من غير أن تساوره الشكوك في إمكانه؟ هذه الشمس التي ترسل من ضيائها ومن حرارتها ما يحيا العالم به، كيف تفنى وكيف تنطفئ ثم يبقى العالم بعدها يوماً؟ ومحمد لم يكن أقلَّ من الشمس ضياء، ولا حرارة، ولا قوة. وكما أن الشمس محسنة، فقد كان محمد محسناً. وكما أن الشمس تتصل بالكائنات كلها، فقد كان روح محمد يتصل بالكائنات جميعاً، وما زال ذكره ﷺ يعطِّر الكون كله. فلا عجب إذا اقتنع عمر بأن محمداً لا يمكن أن يموت. وهو حقاً لم يمت ولن يموت.

رجوع الجيش إلى المدينة

وكان أسامة بن زيد قد رأى النبي صباح ذلك اليوم حين خرج إلى المسجد وظن كما ظن المسلمون جميعاً أنه تعافى، فذهب ومن كان قد عاد إلى المدينة من الجيش المسافر إلى الشام ولحق بالمعسكر بالجُرف، وأمر الجيش بالتجهز للمسير. وإنه لكذلك إذ لحق به الناعي نذيراً

لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً»[157]. وقد جعل في قبر النبي ﷺ قطيفة حمراء كان أصابها يوم حنين، قال الحسن: جعلها لأن المدينة أرض سبخة. . . قال، قال رسول الله ﷺ: «افرشوا لي قطيفة في لحدي فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء»[158].

بوفاة النبي، فعاد أدراجه وأمر الجيش فرجع كله إلى المدينة؛ ثم ذهب هو فركز علمه عند باب عائشة، وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد.

وفي الحقّ أن المسلمين كانوا من أمرهم في حيرة. فهم لم يلبثوا حين سمعوا أبا بكر وحين أيقنوا أن محمداً قد مات، أن تفرّقوا، فانحاز حيٌّ من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز المهاجرون ومعهم أسد بن حُضير في بني عبد الأشهل إلى أبي بكر. وإن أبا بكر وعمر لكذلك إذ أتى آت ينبئهما بنبأ الأنصار الذين انحازوا إلى سعد بن عبادة، ثم يُردف النبأ بقوله: فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله ﷺ في بيته لم يُفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر موجهاً حديثه إلى أبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه. وإنهم لفي طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان، فذكرا للمهاجرين ما تمالأ عليه القوم وسألاهم: أين يريدون؟ فلما علما أنهم يريدون الأنصار قالا؛ لا عليكم ألا تقربوهم؛ يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم. قال عمر: والله لنأتينَّهم. وانطلقوا حتى نزلوا بهم في سقيفة بني ساعدة فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمَّل. قال عمر بن الخطاب: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، به وجع. فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفَّت دافَّة من قومكم وإذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر.

مقالة أبي بكر للأنصار

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبي. لذلك لم يكد عمر يسمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه: فأمسك به أبو بكر مخافة شدّته وقال: على رسلك يا عمر! ثم قال موجهاً كلامه للأنصار: «أيها الناس! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رَحِماً برسول الله: أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: 100].

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار؛ إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدوّ. وأما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً. فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش. فمنَّا الأمراء ومنكم الوزراء». هناك

ولم يلحق قبر الرسول ﷺ بالمسجد النبوي وظل متواضعاً كما كان منزلاً «لعائشة» رضي الله عنها مبنياً من اللبن والطين وسقفه من سعف النخيل الذي تحمله وتدعمه

استشاط أحد الأنصار غضباً وقام فقال: «أنا جُذَيْلُها المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب. منَّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش». قال أبو بكر: بل منا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بينهما. هنالك كثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف؛ فنادى عمر بصوته الجهوري: ابسط يدك يا أبا بكر. فبسط أبو بكر يده فبايعه وهو يقول: «ألم يأمرك النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين! فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً». ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبِّرة حقاً عما ظهر من إرادة النبي حتى هذا اليوم الأخير الذي رآه الناس فيه؛ فقضى ذلك على ما بينهم من خلاف، وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار.

وإذ كان الغد من ذلك اليوم، جلس أبو بكر على المنبر، وتقدّم ابن الخطاب فتكلَّم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبِّر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا. وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى رسوله. فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له. وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه». فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

خطاب أول الخلفاء الراشدين

وقام أبو بكر بعد أن تمَّت البيعة فألقى في الناس هذا الخطاب الذي يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب. قال رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد، أيها الناس، قد وليتُ عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

أين يدفن جثمان الرسول؟

وبينما المسلمون يختلفون ثم يتفقون على بيعة أبي بكر بيعة السقيفة ثم البيعة العامة، كان جثمان النبي حيث كان على سرير موته يحيط به الأقربون من أهله. فلما تمَّت البيعة لأبي بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله كي يدفنوه. وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن. قال جماعة من المهاجرين: يدفن في مكة مسقط رأسه وبين أهله. وقال غيرهم: بل يدفن في بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله. وما أدري كيف قال أصحاب هذا الرأي، وبيت المقدس كان ما يزال

جذوع الشجر، وسدت كل المداخل عن مسجد الرسول ﷺ الذي بقي منفصلاً عن البيوت الملحقة فيه، بما فيه مدفنه ﷺ، الذي دفن فيه بعد ذلك صاحباه رضي الله عنهما أبو بكر وعمر على التتابع، ولم تدخل الحجرة النبوية بالمسجد إلا في زمن الوليد بن عبد الملك الذي حين ولي «سنة ستة وثمانين هجرية قد شرع في بناء جامع دمشق

بأيدي الروم. وكان بين الروم والمسلمين عداوة منذ مؤتة وتبوك حتى جهز رسول الله جيش أسامة للثأر. ولم يرض المسلمون هذا الرأي ولا هم رضوا أن يدفن النبيّ بمكة، ورأوا أن يدفن بالمدينة التي آوته ونصرته والتي استظلت قبل غيرها بلواء الإسلام. وتحدثوا أين يدفن؟ قال فريق منهم: يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلي بهم؛ ورأى هؤلاء أن يدفن حيث يقوم المنبر أو إلى جانبه. لكن هذا الرأي لم يلبث أن رُفِضَ؛ لما روي عن عائشة أن النبي كان عليه رداء أسود حين اشتدّ به وجعه، فكان يضعه مرة على وجهه ويكشفه عنه مرة وهو يقول: قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد! ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قُبض نبيٌ إلا دفن حيث يُقْبَض. ثم تقرر أن يُحْفَرَ له مكان الفراش الذي قُبض فوقه.

غسل النبي ووداع الجثمان الطاهر

وتولى غسل النبي أهله الاقربون، وفي مقدمتهم عليٌ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقُثَم وأسامة بن زيد. وكان أسامة بن زيد وشُقْران مولى النبي هما اللذان يصبّان الماء عليه وعليٌ يغسله وعليه قميصه؛ فقد أبوا أن ينزعوا عنه القميص. وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيباً حتى كان عليٌ يقول: بأبي أنت وأمي! ما أطيبك حيّاً وميتاً! ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الذكية ترجع إلى ما اعتاد النبي طوال حياته من التطيُّب حتى كان يرى الطيب بعض ما حبِّب إليه من هذه الحياة الدنيا. فلما فرغوا من غسله وعليه قميصه كفن في ثلاث أثواب: ثوبين صحاريين وبُرد حبرة أدرج فيه إدراجاً. ولما تم الجهاز على هذا النحو تُرِك الجثمان حيث كان، وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون، يُلقون على نبيهم نظرة الوداع، ويصلُّون على النبيّ، ثم يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم إلى قرار سحيق.

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر يصليان مع المسلمين لا يؤمهم في صلاتهم هذه أحد. فلما استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلَّغ رسالة ربِّه وجاهد في سبيله حتى أتمَّ الله النصر لدينه، وأنه وفى بوعده، وأمر ألاّ نعبد إلا الله وحده لا شريك له. وكان المسلمون يجيبون عند كل جملة من كلام أبي بكر في هيبة وخشوع: آمين فلما فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أدخل النساء، ثم أدخل الصبيان من بعدهم، وهؤلاء وأولائك جميعاً كل واجف قلبه محزون فؤاده يفرى الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين، وتساوره على دين الله أشد

وكتب إلى نائبه بالمدينة ابن عمه «عمر بن عبد العزيز» أن يوسع في مسجد المدينة، فوسعه حتى من ناحية الشرق، فدخلت الحجرة النبوية فيه»[159]. ومر مسجد الرسول ﷺ بتغيرات كثيرة وصلت في بعض الأحيان إلى حد قريب من خرابه، فصلاح الدين الأيوبي عمل على إعماره في عصره بعد توسعة الوليد الأول بزمن طويل ثم صانه

الخشية من بعده.

من ساعات التاريخ الرهيبة

وإني لأستعيد الساعة، بعد أكثر من ألف وثلثمائة سنة من ذلك اليوم، صورة هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلئ نفسي هيبة وخشوعاً ورهبة: هذا الجثمان المسجَّى في ناحية من الحجرة التي ستصبح غداً قبراً والتي كانت إلى أمس بساكنها حياة ورحمة ونوراً؛ وهذا الجثمان الطاهر لذلك الذي دعا الناس إلى الهدى والحق، وكان لهم المثل الأعلى في البر والرحمة والإقدام والإباء وإنصاف المظلوم والانتصاف من كل رجل وكل امرأة وكل صبيّ يذكر في هذا الرجل الذي اختار جوار ربه أباه وأخاه وصاحبه ووفيه ونبيّ الله ورسوله! أي شعور تمتلئ به تلك القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقاً مما يخبئ الغد بعد موت الرسول - أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب، فأراني شاخصاً له مأخوذاً به ممتلئ القلب من جلال هيبته، أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً.

تبلبل عقائد المستضعفين

وكان من حق المسلمين أن تساورهم الخشية. فمنذ ذاع النبأ بموت النبي في المدينة وترامى إلى قبائل العرب المحيطة بها، اشرأبّت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وتبلبلت عقائد المستضعفين من العرب. وهمّ أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك، حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل النبي على أم القرى فتوارى منهم. ولولا أن قام سهيل بن عمرو بينهم، فقال بعد أن ذكر وفاة النبي: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه؛ ثم قال: يا أهل مكة، كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتدّ، والله ليتمِّنَّ الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، لما رجعوا عن ردتهم؟

دفن النبي

وقد كان للعرب في حفر قبورهم طريقتان: إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مسطَّح القاع، والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوَّساً. وكان أبو عبيدة بن الجرّاح يضرح كحفر أهل مكة، وأبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة. وحار أهل النبي أي الطريقتين يسلكون في حفر قبره. فبعث عمه العباس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة. فأما المبعوث إلى أبي عبيدة فلم يعد به وجاء المبعوث إلى أبي طلحة به، فلحَّد لرسول الله على طريقة أهل المدينة فلما كان المساء وبعد أن مرَّ المسلمون بالجثمان الطاهر وودّعوه الوداع

العثمانيون وكاد أن يدمر في أواخر عهدهم بسبب اعتقاد البعض بضرورة حرمة اتخاذ المساجد قبوراً[160] ممن غزوا المدينة.

والجدير بالذكر أن حظر المدينة ومكة عن غير المسلمين لا يعني عدم إمكان دخولها من المغامرين الأجانب، الذين يمكن لهم أن يدعوا الإسلام بأي وقت - وإثمُهُم على أنفسهم من الله - أمثال «بركهارد Burckharedt»[*] وأمثاله ممن عادوا وكتبوا الكثير من الأساطير عن الإسلام.

الاخير، اعتزم أهل النبي دفنه، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل، وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبي يلبسه، ثم انزله الذين تولّوا غسله إلى المقر الأخير لرفاته، وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر. قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل، وقالت فاطمة مثل هذا القول. وكان دفنه ليلة الاربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول، أي بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى.

عائشة وحجرة القبر

وظلّت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلها في الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم. ولما مات أبو بكر دفن إلى جوار النبي، كما دفن عمر إلى جواره من بعد. ويروى أن عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة إلى أن دفن عمر بها إذ لم يكن بها يومئذ غير ابيها وزوجها. فلما دُفِن عمر كانت لا تدخل إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها.

ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ودفنه حتى أمر أبو بكر أن ينفذ جيش أسامة لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله به. وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيام مرض النبيّ. وانضم عمر إلى المعترضين ورأى ألا يُشتَّت المسلمون، وأن يحتفظ بهم في المدينة مخافة أمر قد يدعو إليهم. لكن أبا بكر لم يتردّد لحظة في تنفيذ أمر الرسول. ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسنّ من أسامة وأكثر منه في الحرب دُرْبة. وتجهّز الجيش عند الجرف وأسامة على رأسه، وخرج أبو بكر يودّعه. هنالك طلب إلى أسامة أن يُعفى ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبي بكر. ولم تمض عشرون يوماً على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البلقاء، وحتى انتقم أسامة للمسلمين ولأبيه الذي قُتِل بمؤتة أشدّ انتقام. وقد كانت صيحة الحرب في تلك الأيام المظفّرة: «يا منصور أمِت». وكذلك نفّذ أبو بكر ونفّذ أسامة أمر النبي، وعاد الجيش إلى المدينة ممتطياً الجواد الذي قُتل أبوه بمؤتة عليه، يتقدمه اللواء الذي عقده رسول الله بيده.

(*) كان جاسوساً انكليزياً رافق حملة «محمد علي باشا» على «الحجاز ونجد» في القرن التاسع عشر، مدعياً أنه مسلم سني أفغاني؟!

الباب التاسع والثلاثون

الفصل الأول

شخصية الرسول ﷺ والقرآن الكريم

وصف معاصرو الرسول شكله ﷺ وصفاً دقيقاً(*) فقد كان بصورة عامة قوياً شديد البنية، مربوع القامة، يميل إلى الطول لا القصر، ضخم الأكتاف، شديد العصب، ذا أطراف ـ يدين وقدمين ـ ضخمة، ثم صار يميل إلى زيادة الوزن في أواخر حياته ﷺ، ذا رأس واسع بشكل متناسق جميل وموضوع بدقة على رقبته ﷺ الطويلة نسبياً والمنسجمة بصورة عامة في موضعها مع الصدر والرأس، وكان للرسول ﷺ جبهة عالية متسعة بين الأصداغ يمر فيها عرق حتى الحواجب، وينتفخ هذا العرق إذا غضب ﷺ أو أثير، أما وجهه فكان بيضوياً تحدده علامات واضحة، به أنف جميل أقنى بعض الشيء، وعينان واسعتان دعجاوان، فوقهما حاجبان قوسيان يكادان ينقفلان معاً، وفم واسع ليس فيه انثناء، يدل على الرشاقة والبلاغة، وأسنان بيضاء منتظمة بها بعض التباعد من الأمام، وشعره ﷺ كان أسود ينسرح على رأسه بدون تجعد، ولحية مليئة كثة وطويلة.

أما تصرفاته فكانت هادئة ومتوازنة، وكان يمزح أحياناً نادرة لكنه كان يميل إلى الوقار في كل الأحيان، وله ابتسامة عذبة أخاذة، أما حمرة وجهه الأبيض ﷺ فهي غير شائعة في وجوه العرب، ويحمر وجهه في لحظات الحماس والتأثر بشكل رأى فيه أتباعه إشراقاً يعكس نور النبوة.

أما قدراته العقلية ﷺ فقد كانت بدون أي شك من صديق أو عدو فائقة غير عادية وفريدة من نوعها، فقد كان ذا فهم سريع وثاقب، وذا ذاكرة نادرة، وتصور حي، وعبقرية مبدعة، وكل هذا لا يدين به إلى أي تعليم أو معلم، فدقة ملاحظته ﷺ هي أساس معلوماته ـ قبل النبوة ـ، والتي خزنتها ذاكرته الفائقة بمعلومات متنوعة حول

(*) ذكرنا بعضه في صفحات الكتاب الأولى.

الوجود والأشياء والتقاليد القديمة، وحديثه اليومي كان واقعياً إلى أبعد الحدود يملؤه بالعظات التي لم يأتِ مثلها عند العرب، وكان لفظه ﷺ أنيقاً واضحاً دون تأنق أو تشدق مفتعل، تدعمه نبرة صوت عذبة عميقة ـ تصبح بحة حين المرض ـ تسمى صحلاً.

لقد كان الرسول ﷺ ذا قدرة عالية على الضبط الذاتي والتعفف، وخاصة في طعامه وشرابه، وصارماً في مراعاة الصيام، ولم يكن يهتم بظواهر الأشياء، وخاصة بالمظاهر والتباهي التي يقع بها ضعاف العقول، ولم يكن لباسه البسيط ﷺ ليقلل من احترام الناس له، ونتيجة ذلك كله كان زهده بكل المظاهر التي يمكن أن تميزه ﷺ عن عامة الناس وبالتالي تبعده عنهم، وكان ثوبه إما من الصوف أو القطن اليماني ـ الذي كان يسمى بالحبرة اليمانية ـ وكان ﷺ يخيطه كلما اهترأ، كذلك كان يعتم بالعمائم على اختلاف ألوانها ويؤكد أنها كناية عن تيجان الملائكة والعرب، وكان يسدل طرف عمامته على كتفيه ﷺ مؤكداً أن هذه هي الطريقة المثلى للتعمم بها كما تفعل الملائكة، وقد حرم نهائياً لبس الحرير سامحاً بالنسيج الذي يخالط خيطه الحرير فقط، كما كره اللون الأحمر في الألبسة ومنع أتباعه من وضع الخواتم الذهبية في أصابعهم، لكنه لبس خاتماً من الفضة عليه ختمه ﷺ بارماً الختم إلى جهة الأصابع قرب راحة اليد، وعلى خاتمه نقش العبارات التالية بالتتابع «الله، رسول، محمد» لتقرأ من الأسفل إلى الأعلى «محمد رسول الله»، كذلك كان متشدداً بالنظافة الذاتية، والوضوء فرض على المسلمين خمس مرات في النهار على الأكثر، كما نهى الرسول ﷺ عن التبتل مؤكداً أنه لا يُقَرِب العبد إلى ربه إنكار ومعارضة غرائز الإنسان، بل يبعد العبد عن الله تعالى الكذب والالتواء فيها، فسنته ﷺ بالزواج المتعدد، لقد أحب الرسول ﷺ الطيب والنساء والطيبات، وقرت عينه ﷺ في الصلاة، وكره الخبائث في هذه الأمور بالإغواء والنفاق والتظاهر بالصلاة والصلاح كذباً، لذلك كان من سنته ﷺ الإكثار من الطيب في ثيابه النظيفة دوماً ودهون الرأس العبق، وكان إذا خطب امرأة أحسن من هندامه وضبط حاجبيه بحركة دائبة، وقد توفي الرسول ﷺ عن تسع نساء، وحصر «أبو الفدا» زوجات الرسول ﷺ خلال حياته ﷺ بست عشرة امرأة، رغم أن مؤرخين آخرين عدوهن بخمسٍ وعشرين. وكان ﷺ يطوف على نسائه جميعاً في اليوم الواحد، ولكل منهن منزلها ـ سكنها ـ المنفصل عن الأخرى، ورغم ذلك لم يسمح لأتباعه بالزواج بأكثر من أربع، وترك ملك اليمين بلا حد، حسب القدرة، ومن بين كل أولاده ﷺ لم يبق عقبه ﷺ إلا في «فاطمة» رضي الله عنها زوجة «علي» رضي الله عنه التي كانت أول أسرته لحوقاً به ﷺ بالوفاة كما تنبأ لها بذلك، ومن عقبها لم يجلس على كرسي الخلافة إلا ابنها «الحسن» رضي

الله عنه الذي كان يشبه الرسول ﷺ بالشكل إلى حد قريب.

والرسول ﷺ كان عادلاً يحب العدل، فقد كان يعامل الصاحب والغريب، والفقير والغني، والقوي والضعيف بالتساوي، وكان محبوباً من الناس بسبب التفاته إلى الكل وسماعه من الجميع، وعدله المطلق بينهم.

وبسبب إرهافه ﷺ بكل مجال كان حاد الذكاء والطبع، قادراً على ضبط كليهما، لذلك كان في كل معاملاته اليومية الخاصة والعامة لطيفاً ومحبوباً، فخادمه الذي خدمه منذ أن كان عبداً عنده في عامه الثامن «أنس»، لم يذكر أنه ﷺ قد أنبه على أي خطأ ارتكبه أو أهانه.

والواقع: أن هناك الكثير الكثير مما وضع على الرسول ﷺ في الأحاديث والسير عند المشارقة، أما الغرب المسيحي فقد اعتبر كل رؤاه ووحيه باطلاً وغير حقيقي أو وهمياً على أحسن تقدير؟ ونحن حين ننظر بكل هذه الملابسات نستطيع أن نؤكد أن الكثير مما نسب إلى الرسول ﷺ مزيف ومدخول ومدسوس عليه، سواء بالمبالغات التي نسبت إليه ﷺ أو بما اتهم فيه وقيل باسمه. فهو ﷺ لم يدع أي معجزة سوى القرآن الكريم، فالمعجزات المنسوبة له مختلقة من المسلمين الغيورين بغير تبصر - بين الخارقة والمعجزة - لأنه ﷺ أكد في غير مناسبة نفيه لأي معجزة سوى القرآن الكريم، الذي يعتبر من أعجز وأفضل ما قدم إلى البشرية من نص مكتوب، لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال مقارنته بسواه من النصوص، والطريقة التي فيها أنزل عليه ﷺ القرآن الكريم - بصيغة ضمير الغائب - جعلت من سبب النزول حادثة تبرر صلاح النص القرآني لكل زمان ومكان، حتى بغض النظر عن تلك الحادثة، وبحالة عدم الإلمام بها أو معرفتها، وتلك هي المعجزة الكبرى من معجزات القرآن الكريم، إضافة إلى أن - دكاترة - فقهاء الدين الناطقين بالعربية يجدون في البلاغة القرآنية أكبر دليل على أنها ليست من قول أي بشر. وعدم وجود أي ترتيب منهجي كما نفهم نحن المنهج العلمي في إيراد النصوص، في النص القرآني لا يمنع من لا يفهم إلا بالطرق المنهجية من إعادته ترتيبها سواء بطريقة معجمية، أو بطريقة فقهية حسب حاجات التشريع، وهذا ما قام به فقهاء - دكاترة - الإسلام على مر العصور، أما التكرار في بعض النصوص القرآنية وخاصة تلك التي تخالف الكتاب المقدس، فقد نزلت أصلاً لإظهار هذا الخلاف وتأكيده. وكحقيقة تاريخية نجد أن القرآن الكريم قد نزل بمناسبات مختلفة وحفظه أو كتبه أناس مختلفون في أوقات مختلفة، إما على ألواح العظم أو على جلود الرق - الغزال أو الغنم -

ووضعت هذه المواد فوق بعضها البعض في صناديق، ولم يجمع القرآن في حياة الرسول ﷺ، وظل متفرقاً إلى يوم وفاته، حيث عمل «أبو بكر» رضي الله عنه على جمع هذه المواد التي كُتِبَ عليها القرآن الكريم لأول مرة بعد وفاة الرسول ﷺ، وكُلف «زيد بن ثابت» رضي الله عنه الذي كان يكتب للرسول ﷺ بهذه المهمة، خاصة وأن «زيد» رضي الله عنه كان من الحفاظ ومن كتبة الوحي الذين كانوا يكتبون بتوجيه مباشر من الرسول ﷺ، فقارن ما حفظ مع ما جمعه من متفرقات الكتاب العزيز من أيدي الصحابة، وما جعل الحفاظ أمثاله يستعيدونه أمامه، لكن ما جمعه «زيد» رضي الله عنه لم يكتب على كاغد، بل ظل على شكله السابق مؤلفا من مواد متفرقة دون أي فهرسة أو أي جمع منهجي كما نعرف نحن في الجمع والتحقيق، وعن هذا نقل الصحابة مصاحفهم مع بعض الاختلافات في القراءة التي شاعت ونقلت إلى الأمصار. وكاد هذا الاختلاف في القراءات أن يؤدي إلى اختلاف بين المسلمين، تلافاه «عثمان بن عفان» رضي الله عنه في وقت خلافته، باعتماد نسخة واحدة فقط وأمر بالباقي فأحرقت.

لكن بعض المستشرقين الذين لا يريدون أن يقروا إلا بفهمهم الخاص للمنهجية العلمية، رأوا في التكررات والتشابه في بعض الآيات دليلاً على أنها نتيجة سماعها وحفظها وكتابتها بين أناس مختلفين وهي تتناول موضوعاً واحداً، أعاده أناس مختلفون في أوقات مختلفة وبعبارات مختلفة، ولم توضع أصلاً لتأكيد أي خلاف مع الكتاب المقدس، رغم أن هذا الخلاف يمكن أن يؤكده نص واحد من نصوص الآيات المتشابهة، ولا حاجة للتكرار، فكثير من الآيات التي نزلت بلسان الرسول ﷺ تحكي عن ألسنة أنبياء قبله في أزمان سابقة بعيدة، فهل هذه الأقوال التي لم توجد في العهد القديم هي صياغة جديدة لمعانٍ سابقة؟!

الفصل الثاني

تساؤلات حول سلوك الرسول ﷺ

ومن المصاحف المليئة بالأخطاء والإفساد المتعمد الذي أدخله الآخرون والتي أمر «عثمان» رضي الله عنه بتدميرها، النسخة التي تجرأ «عبد الله بن سعد» على إشاعتها وإشاعة قراءتها بين الناس.

ومن كل هذه الملابسات يبدو من الصعب متابعة السيرة النبوية وما أحاط بها من ظروف غير عادية للمؤرخ المنصف، لكن الخط العام الذي تتحرك به السيرة قسمه المؤرخون إلى قسمين: القسم المكي والقسم المدني، والأول لا نرى فيه الظروف الحياتية التي فرضت على الرسول قبل زواجه بخديجة إلا بصورة تخلو من الكثير من التفاصيل الضرورية لفهم شخصيته ﷺ، لكننا نستطيع أن نؤكد أنه كان بنظر كل الناس في تلك الفترة رجلاً كريماً بكل معنى الكلمة، ثم أصبح غنياً بزواجه من «خديجة» رضي الله عنها كما كان ينحدر من قبيلة ذات نسب مرموق، ومن أكرم فروعها القريشية، فهو لم يكن لا بحاجة إلى المال ولا إلى السلطة والقوة، كما أنه ﷺ من فرع سدان الكعبة فلا تنقصه السلطة الدينية أيضاً، لأن تلك السلطة كانت هي الحاكم الفعلي لمكة المكرمة، ورغم ذلك كانت محاولته لإدخال دين جديد كناية عن الضرب بالعمق لصلب كل هذه الامتيازات، فجلب على نفسه عداء مواطنيه وحتى أقربائه، والخوف من كل العرب على مركز عقائدهم المتوارث والذي تجسده عباداتهم في الكعبة.

فما الذي كان سيناله لنفسه من كل هذا الأمر الذي قام به ومن كل هذه التضحيات التي قدمها؟! والتي لم يظهر منها أي نجاح لأعوام مليئة طويلة بالاضطهاد له ولأتباعه والهزء والسخرية مما يقول، والتي انتهت بطرده بعد تهديد حياته من بلده، فلماذا أصر كل هذه السنين على التضحية بكل ما يملك من امتيازات دنيوية؟! في الوقت الذي كان يعرف أن عمره قد تقدم لبناء أي امتيازات جديدة أو حتى التمتع بها.

لا يوجد إذاً أي دافع دنيوي لما قام به الرسول ﷺ ولا أي فائدة مادية، مما يدفع المؤرخ العنيد إلى البحث عن أسباب أخرى غير مادية لسلوك الرسول ﷺ، وهذا ما

أظهرناه في بداية هذا الكتاب وأكدنا فيه على صحة رؤى الرسول ﷺ التي كان يراها، نتيجة عزلته المتدرجة، وتحنثه وصيامه وصلاته في خلوته، وتأملاته التي حركتها قواه الجسدية نحو المطلق، فاتصل بالوحي، أو أن الوحي هيأه إلى مثل هذا الاتصال، وقد كان يؤمن بشكل مطلق بحقيقة هذه الرؤى بعد أن شك بها أول ما جاءته وأكدتها له خديجة المحبة رضي الله عنها، و«ورقة بن نوفل».

وحين اقتنع هو قبل سواه بمهمته الإلهية ذهب للتبشير بها مهما كانت التضحيات، لأنه شعر بأنه نبي مرسل يتعرض للناموس الأكبر الذي ينزل على الأنبياء والرسل بجهد يصيب الجسد وقول ثقيل يخرج منه، ليشكل رسالة نبوية.

وهكذا كان الرسول ﷺ من يوم نزول الوحي عليه في مكة إلى يوم مغادرته لها، لا يتصرف على هدي المنطق الإنساني، بل بناء على ما تمليه عليه تعليمات هذا الوحي حتى وإن كانت غير واضحة النتائج القريبة، وهذا لا يبرره إلا عمق اقتناعه بصحة ما يراه من الوحي، قبل إقناع الآخرين بذلك، وإذا قال بعض المؤرخين إن ما كان يتعرض له هو أحلام يقظة نتيجة مرض جسدي بحثوا عنه في كل الاتهامات الممكنة، فالجواب لماذا لا ينتج نفس هذا المرض أو ذاك عند كل الناس الذين أصيبوا به قبل وبعد الرسول ﷺ قرآناً؟! ونحن نراه عبر التاريخ يتعرض بكل لحظة إلى أشد المعاناة في كل لحظة من لحظات حياته ﷺ ليعطي هذه الثمرة - الذكية - القرآن الكريم للناس!!

فإذا قيل إنه ﷺ كان يتصرف حتى لحظة مغادرته لمكة تحت تأثير وهم أصابه، فإن القناعة المطلقة بهذا الوهم لديه لم تكن عديمة الثمرات عبثية النتائج، حتى ولو بدت تراجيدية عليه وعلى مسيرة حياته الشخصية، فإصلاحه الديني لانحراف الناس عن ملة «إبراهيم عليه السلام» لا يمكن أن تحركه روح وثابة فقط تضمن يقين النجاح في النهاية، قبل وجودأي قبس يدل على مثل هذا النجاح، إزاء تقاليد وثنية وحشية وعنيفة وكل ما فيها لا يسمح بزعزعتها عن ضلالاتها، فتنقية العبادة للاتجاه بالناس نحو فهم معنى الإله الواحد على بساطة هذا المطلب ظاهرياً، من أصعب ما يمكن أن يواجه به أي إنسان عناد التقاليد الراسخة بالشرك، الأقرب إلى الفهم الإنساني المشخص للألوهية، والمدعوم بكل عتو التقاليد التي ترسخه، فمن السهل دوماً على الناس الانحراف نحو الشرك حتى بعد «محمد ﷺ»، ومن الصعب كل الصعب فهم معنى الإله الواحد، وتحقيق أي صلة غير ملموسة معه في تعاليه، والذي أراد الرسول ﷺ إيصال الناس له.

وهذا دليل على أن «الرسول ﷺ» قد شرب بعمق من نفس النبع الذي شرب منه «المسيح بن مريم عليه السلام»، وتجاوزه بالرد على عناد الشرك بنفس المنطق الذي يفهم به هذا العناد، منطق القوة، التي وجدها في نفسه ﷺ وفي أتباعه، ولم يجدها «المسيح عليه السلام» في أتباعه، ولم يساعده قصر باع حياته على تحقيقها بنفسه.

هكذا يمكن فهم الرسول ﷺ في لحظات اضطهاده في مكة، وما أتبعها من تغيرات في مسار دعوته الثاني حين وصل بشكل إعجازي إلى المدينة، حيث كانت ملاذاً له في بادئ الأمر ثم وجد فيها قوة دنيوية قادرة على الحوار بمنطق الأمر الواقع والقوة الذي تفهم به العرب، فلم يعد في أعينهم مجرد نبي يدلهم على معنى الألوهية الصحيح هناك، بل زعيماً من أقوى زعماء العرب وذا قوة متنامية، تسمح للدوافع الأرضية أن تخدم أهداف السماء، بمعزل عن الحماس الشخصي لأي إلهام.

تعقيب

الجانب الجهادي في شخصية الرسول ﷺ

على الإلمام التاريخي الدقيق تبنى الأحكام حول شخصية الرسول ﷺ، والذين يدّعون أن الجانب الحربي في شخصيته ﷺ كان مكبوتاً في مكة، لتلده فقط ظروف القوة التي حصل عليها في المدينة، يريدون أن يؤكدوا أن الدين الإسلامي وليد الصدف لا التخطيط الإلهي المسبق المحكم، وأمثال هؤلاء يمكننا أن نعيدهم إلى الباب العاشر من هذا الكتاب حول حادثة إسلام «عمر» رضي الله عنه: «حين دخل الرسول ﷺ إلى الحرم وعلى يمينه «حمزة» رضي الله عنه وعلى يساره «عمر» رضي الله عنه يحميانه وخلفهم أربعون من الصحابة... ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم أو التعدي على «الرسول ﷺ»... و«حمزة وعمر» رضي الله عنهما محيطان بالرسول كأسدين متوثبين فقدا شبلهما». فقد كان بالإمكان أن تكون هذه الحادثة أول معركة في الإسلام لو لم يظهر من قريش الخوف والتخاذل أمام بروز قوته ﷺ، فأربعون محارباً في ذاك العهد كان كناية عن كتيبة عسكرية يمكنها أن تحدث معركة.

كذلك كل أحاديثه الشريفة في أول دعوته ﷺ كانت تؤكد أن لو أطاعته قريش لخضعت لها كل العرب، وبهم تخضع طواغيت كل الدنيا وتسلم لله لا للجبروت والطغيان والقوة، وهو ﷺ في دعوته لبني «عبد المطلب» في أول دعوته أشار كما ذكرنا في «الباب السابع الفصل الأول» إليهم أنهم لو يؤازرونه لحصلوا على خير الدنيا والآخرة، وحتى لو يؤازره واحد منهم: «يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم»، أكبر دليل على أنه ﷺ يريد من دعوته الامتداد بالقوة لقهر قوى؟! ويريد لخلفائه الاستمرار في حمل رسالته لكل أمم الأرض، والشواهد لا تحصى على شخصية الرسول ﷺ الجهادية، وهي شخصية لا تسعى إلى الحرب للحرب وإراقة الدماء، بل لا تجد في الواقع القائم أي ملاذ لتجنب القوة إزاء القوة، وهذا الموقف الواقعي لم يستطع مؤرخو الغرب إلا وزنه بميزان الطوباوية القائمة على إدارة الخد الأيسر للصفعة على الأيمن، والتي لم يحصل التقيد بها إلا في سجون محاكم التفتيش، لذلك ادعوا أن شخصية الرسول ﷺ الحربية في المدينة من صنع الظروف لا التخطيط

المسبق، وإلا لأقروا بعظمة النبوءة بالفتح عبر فرض الجهاد الإسلامي قبل تحققه، وأن تقرير هذا الأمر قبل حصوله من الرسول ﷺ لم يحصل ولا يمكنه أن يحصل في تاريخ البشرية إلا مع محمد ﷺ.

ولدعم رأيهم المبتور هذا ذهبوا إلى الافتراء على الرسول ﷺ بأنه أصبح في المدينة أسير توسع عواطفه ورغباته الدنيوية، وعلى هذا النحو صار الوحي أداة يستخدمها للتغلب على الصعوبات التي تواجهه، مما يدفع إلى الشك بصدق هذا الوحي، وبالتالي فما قد نطق به على أنه كلام الله في المدينة هو كلامه الذي يعبر عن رغباته الخاصة في تسيير هذا الحدث أو ذاك لصالحه.

فمن عدم الإلمام بالتاريخ النبوي، أو إغفاله، ومن الخلفية الدوغمائية الطوباوية الثابتة في النظر إلى معنى الدين بمفهومه المسيحي فقط، إلى عدم الرغبة بالإقرار بنبوءته النبوية، وصل بعض المؤرخين الغربيين إلى أن الرسول ﷺ ـ وحاشاه ـ هو أول من زيف القرآن؟! وفي هذا أغرب أنواع الدس؟! التي تفتق عنها دعاة الفكر المنهجي في البحث في التاريخ.

فمن مقدمات زائفة انطلقوا منها في فهم السيرة النبوية، إلى نتائج أزيف تغرف حتماً من زيف هذه المقدمات لتزيد بالتدليس والإبلاس!! نعم لم يكن عند الرسول ﷺ بعد ثلاث عشر سنة من الاضطهاد في مكة من ملجأ سوى الذي أراده الله تعالى له في المدينة وكأول مسلم يستعيد جذوة الإسلام الأساسية في الأديان المنزلة السابقة، والتي ما نزلت تلك الأديان إلا من أجلها، أسلم أمره إلى الله تعالى وهاجر، دون أن يطلعه الله تعالى على غيبه وما رتبه له من قدر، إلا بالثقة بقدر الله تعالى بشكل مطلق، فبدا بعين المؤرخ المدعي الموضوعية أنه قد خسر كل شيء، من ثروةٍ ومركز اجتماعي وحماية اجتماعية من أهله في موطنه، كما بدا حين وصل إلى المدينة أنه لا يعرف القوى الدنيوية التي ستتجاذبه، والإعجاز كل الإعجاز ثقته المطلقة بالله تعالى التي تحققت بأن كل هذه القوى لم تعمل إلا لصالحه، حتى تلك التي ناوأته تحت اسم ما عرف بالمنافقين أمثال «ابن أبي»، عبر كل المصالح القبلية المتضاربة، والتي كان نتاج تضاربها في كل حصيلته الأخيرة لمصلحة الرسول ﷺ والمسلمين، وأكثر من ذلك وجه هذه القوى التي كانت تفتك ببعضها نحو الأخوة الإسلامية في إيمان واحد، وجعلها أهلاً لأن تحمل رسالة الإسلام إلى كل أمم الأرض، لا لهدف حربي توسعي يهدف إلى التوسع والسيطرة العمياء، بل لهدف جهادي يهدف إلى توعية شعوب الأرض بمعنى

المطلق الله الواحد، ليرتفع بالفكر الإنساني إلى مصاف «الوعي» الجديرة بإنسانية الإنسان، وهذا ما يميز الرسول ﷺ كمجاهد أول يرتفع عن مجرد كونه مجرد عبقرية حربية كغيره من الفاتحين، الذين صاروا بعين التاريخ المنصف في نهاية كل مطاف مجرد سفاكي دماء، فالحماس الجهادي بتلك الروح المتوقدة التي أضاءها الرسول ﷺ في أتباعه طغت على كل ما يمكن أن يتصوره أي تخطيط حربي لأشهر الفاتحين، أساسها الإيمان العميق بالقضاء والقدر لتحريك كل القوى في الإنسان لهدف الجهاد والامتناع عن حساب مدى الربح والخسارة بعد هذا التحريك، لا الاتكالية التي حادت بالتصور الإسلامي للقضاء والقدر عن الإسلام كما بدأ، نحو خنوع عدم المبادرة عند المسلمين في لحظات انحطاطهم التاريخي، فالقضاء والقدر كما فهمه المسلمون الأوائل هو عكس القدرية عند خلفهم من الخانعين، والفارق الهام بينهما هو تحقيق أقصى قدرات الإنسان على المبادرة، على عكس عجز الاستكانة قبل أي فعل، مما أنتج نتائج لا يمكن لأي حسابات عسكرية توقعها، وما «علي وعمر وخالد» رضي الله عنهم وسواهم من ذوي الروح الوثابة النارية في الاتجاه نحو الجهاد إلا من نتاج روح الإسلام هذه التي بثها الرسول ﷺ بهم بالثقة بالقدر، كما فعل هو لحظة هجرته عبر تحقيق أقصى قدرات وإمكانات جهد الجهاد، مما أطلق تلك القوى الهائلة نحو مشارق الأرض ومغاربها لرفع الفكر الإنساني من حدود مجرد القدرة على الالتفاف ـ الفكر ـ إلى لا حدود التعرف على المطلق ـ الوعي ـ وهذا التعرف هو أول خطوة نحو إدراك الإله الواحد المتعالي الذي ليس كمثله شيء، إدراكاً يرتفع بالإنسان نحو أهم صفة تميزه عن باقي المخلوقات ألا وهي صفة الوعي!!

ثمرة الجهاد هو: إيصال الناس إلى وعي الواحدية المطلقة لله تعالى عن كل شيء، وبهذا الوعي يرتفع الإنسان عن كل الرغبات عدا رغبة الوصول إلى الحضرة الإلهية حيث هذا هو نعيم النعيم في كل خلد، لذلك لم يحرك النصر العسكري المذهل للرسول ﷺ ولا لأتباعه من بعده ممن صدقوا عهد الجهاد، أي فخار فيهم ولا أي استعلاء كما لو كانوا يعملون لأي هدف أناني، ففي أوقات انتصاراته الكبرى ﷺ ظل على عهده في بساطة سلوكه ومظهره كما كان في أيام اضطهاده في مكة، وكأن شيئاً لم يتغير، وبعيداً عن كل مظاهر الرئاسة كان الرسول ﷺ يغضب إذا دخل غرفة وقام الناس تعظيماً له، أو يعظمون بعضهم بعضاً كما تفعل الأعاجم، لأنه إذا كان يريد أي سيطرة على الناس فالسيطرة الوحيدة التي يريد أن يراها عليهم هي سيطرة الإيمان، أما السلطة الأرضية التي صارت طوع إرادته، فقد استخدمها لأجل الدين فقط ولم يأخذ منها لنفسه

شيئاً، وهو حين مات ﷺ لم يترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمه، كذلك ثبت أنه ﷺ رفض أن يورث هذه السلطة حتى لآل بيته وأسرته.

وكل الأموال التي كانت تتدفق عليه من الجزية والزكاة ومغانم الحرب، كان ينفقها في سبيل مزيد من نشر الدعوة، وعلى المساكين وأبناء السبيل، إلى درجة أن خزينته كانت كثيراً ما تنضب من كل مال يدخلها على كثرته، وعن «عمر بن الحارث» أخي «جويرية بنت الحارث» زوجة الرسول ﷺ وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء»[161] نعم لم يوصِ بشيء لأنه أنكر ذاته، ولم ير في أي ذات أخرى ما لا يستحق الإنكار، وتلك هي معالم الشخصية النبوية الصادقة مع نفسها قبل صدقها مع الآخرين، وهذا من أوضح دلائل الصدق في نقل ما هو متحقق من يقينه للناس في ذاته أولاً ﷺ.

النتيجة

وصف المؤرخون العرب بعبارات مختلفة هذا الإنكار المطلق للذات عند الرسول ﷺ: بأن الله أعطى الرسول ﷺ أو عرض عليه مفاتيح خزائن الأرض، لكنه رفضها مقابل لقاء ربه، وبناء على شعوره العميق بهذه التقوى الذاتية تحرك الرسول ﷺ عبر قَدَرِهِ في الظروف المختلفة التي تعرض لها عبر هذا القَدَر، وعلى ضوء هذا يمكن للمؤرخ أن يقدر بدقة وعدل شخصية «محمد ﷺ»، فيفسر لماذا رفض كل مظاهر التبجيل الأرضي والفوائد الشخصية بعد أن صارت كل قوى ومصادر المادة تحت تصرفه وبين يديه، فظلت روح الإلهام الإلهي التي تحلت بها روحه بعد الوحي منذ أول تعرضه له، فعّالة فيه بصورة مستمرة، لتعاوده دوماً وترفعه فوق كل المطالب المادية الأرضية، وفي الفترات التي تفصل نزول الوحي كانت الصلاة التي تعتبر أهم واجب في الإسلام، هي المعين على استمرارية تطهير الذات لديه ولدى أتباعه من المؤمنين لا المسلمين فقط لهذا الدين، فالثقة بالله وطلب العون منه وحده تعالى حين التعرض للمحن كان معينه الوحيد على جهله وجهل كل إنسان بالأقدار التي يتعرض لها، فهو ﷺ لم يدعِ معرفة الغيب، ولا أُذِنَت هذه المعرفة لسواه، فعلى رحمة الله تعالى فقط أوقف كل آماله بالسعادة السماوية والأرضية، وقد أكد هذا «العائشة» رضي الله عنها إذ سألت الرسول ﷺ في إحدى المناسبات متلهفة مستقصية عما إذا كان لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة من الله تعالى فقط وكان جوابه لها: أبداً لن يدخل الجنة أحد بدون رحمة من الله؟! فتساءلت بدورها ولا حتى رسول الله؟! فجاءها الجواب القاطع منه ﷺ بأنه لن يدخل الجنة إلا إذا غمره الله تعالى برحمته. فالثقة بالله والتوكل عليه قانون مارسه الرسول ﷺ في كل سلوك حياته، حتى أنه عندما أشرف على فراش موت طفله «إبراهيم» رضي الله عنه أسلم لإرادة الله تعالى كلية واضعاً هذا الإسلام فوق كل عواطفه الأبوية، على أمل الثقة المطلقة باللقاء الحتمي مع ابنه في جنة الخلد، فكان هذا عزاءهُ الوحيد في هذه الفاجعة، وحين نزل معه إلى القبر ليتفحص قبره بيديه الشريفتين، ظل على ثباته على هذا الأساس من أسس إيمانه الصريح الحق مؤكداً وحدانية الله تعالى

والتوكل عليه في كل المصائب، ومن خلال هذا التأكيد العملي يظهر لنا تأكيد آخر صريح بمهمته كرسول لله، وحتى في لحظات موته ﷺ حيث لا يعود للإنسان أي مكان لأي مطلب مادي أرضي، ظل يعبر عن هذه القناعات نفسها التي تؤكد هذا الإيمان الصارخ المتين بمهمته النبوية، ألم تكن آخر كلماته كما سبق وأشرنا رافعاً بصره إلى السماء: «فرفع بصره إلى السماء وقال: في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى»[162]، وقبلها بقليل كان يؤكد لمن حوله ضرورة أن «لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى»[163]، فقد كان ﷺ متأكداً من أنه سيلحق بالأنبياء والرسل وسيحشر معهم.

وأخيراً نجد أنه من الصعب حتى على المنكرين لرسالته ﷺ أن ينكروا عليه ﷺ صدق شعوره الذاتي فيها، ولا أن ينكروا سمو وصدق توجه القرآن الكريم وما يتضمنه من حكمة وشمولية كلية لكل زمان ومكان تأسر قارئه، ولا يمكنها أن تكون موجهة لغرض أو أغراض أرضية وأهداف نفعية فقط.

الهوامش:

(1) أبي الفدا إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت عام 1971، جـ 1، ما بعد ص 3.

(2) محمد حسين هيكل، حياة محمد، دار النشر؟ القاهرة عام؟، طـ 5، ما بعد ص 56. أما الطبعة 13 فكانت عام 1968، بمطبعة السنة المحمدية بالقاهرة، بدون دار نشر ورديئة ومليئة بالأخطاء.

(3) ابن كثير، المرجع السابق، جـ 2، حيث سنتابع أقول ابن كثير منه إلى أن ننبه إلى الجزء الذي يليه، وهكذا.

(4) الجزء الثاني من المرجع السابق.

(5) ابن هشام: حتى عازوا قرشياً. أي غلبوهم.

(6) Hani Y. Nasri, The Rahmanic Verses, Dar Al-Asalah, Beirtut, 1995.

(7) انظر السيرة النبوية لابن كثير، مرجع سابق، ص 399 ـ 400.

(8) انظر المرجع السابق، ص 401.

(9) المرجع السابق، ص 403، وفيه قد تحدث الرسول ﷺ قائلاً: لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتى المعراج، ولم أر شيئاً قط أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضر، فأصعدني صاحبي فيه.

(10) المرجع السابق، ص 398. كذلك انظر: عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص 148. حيث خبر ارتداد «المطعم بن عدي» الذي أجار الرسول ﷺ بسبب قصة الإسراء.

(11) ابن كثير، مرجع سابق، ص 399.

(12) صحيح البخاري، مرجع سابق، جـ 4، ص 17.

(13) المرجع السابق، ص 27.

(14) المرجع السابق، ص 65.

(15) السيرة ابن هشام، مرجع سابق، ص 604.

(16) ممن اعتادوا النظر إلى الدين نظرة موقف سلبي يتلقى الطعنات فقط، وهي نظرة طوباوية مسيحية، لم تتقيد حتى المسيحية بها بعد المسيح، ولم يتقيد بها الإسلام في حياة الرسول والمسلمين الذين يتقيدون بها اليوم لا يخرجون عن السنة فقط، بل يجعلون من أنفسهم الأذل بين أمم الأرض.

(17) سيرة ابن كثير، مرجع سابق، ص 361.

(18) المرجع السابق، ص 300.

(19) أورد ابن كثير، مرجع سابق، جـ 3، قصة مشابهة مع اختلاف اسم المعتدي من «دعثور المحاربي» إلى «غورث بن الحارث» ص 161 ـ 164. وانظر قول ابن كثير المرفق.

(20) تغيرت القبلة على رأس ثمانية عشر شهراً من قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة، وأول صلاة صلاها ﷺ إلى الكعبة بالمدينة العصر وقال تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول﴾ [البقرة: 143]: انظر ابن كثير، السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 373 ـ 376.

(21) انظر السيرة النبوية لأبي الفدا، مرجع سابق، جـ 3، ص 32.

(22) مختصر سيرة الرسول ﷺ، مرجع سابق، ص 252.

(23) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، المكتبة العلمية، مرجع سابق، جـ 3، ص 143 ـ 144، شعر «عمرو بن العاص» في يوم أحد.

(24) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، بيروت، عام؟ جـ 2، ص 35، قوله ﷺ: «لأمثلن بثلاثين رجلٍ منهم».

(25) ابن كثير، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 3، ص 278.

(26) لثابت بن قيس بن شماس، ولابن عم له، انظر أبي الفدا، السيرة النبوية لابن كثير، مرجع سابق، جـ 3، ص 302.

(27) انظر أبي الفدا، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 3، ص 310 ـ 311.

(28) ابن كثير، السيرة النبوية، مرجع سابق، ص 304 ـ 305.

(29) ابن كثير، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 3، ص 202.

(30) هي ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة، يهودية امتنعت ثم أسلمت وظلت ملك يمين الرسول ﷺ سرية لا زوجة: انظر المرجع السابق، ص 242 ـ 243.

(31) المرجع السابق، ص 317.

(32) المرجع السابق، ص 317 أيضاً.

(33) وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، لكنه بايعنا على أن لا نفر، انظر المرجع السابق جـ 3، ص 319.

(34) المرجع السابق، ص 320 ـ 321.

(35) ابن كثير، مرجع سابق، جـ 3، ص 347 ـ 348.

(36) ابن كثير مرجع سابق، جـ 3، ص 359.

(37) هي ابنة أخت مرحب: زينب بنت الحارث اليهودية، يقال إنها أسلمت فلم تقتل واختلف المؤرخون بقتلها أو تركها، انظر المرجع السابق ص 398.

(38) المرجع السابق، ص 399.

(39) المرجع السابق، ص 371.

(40) المرجع السابق، جـ 3، ص 273. وحكى بعضهم أنه تزوجها بعد إسلام أبيها انظر ص 276.

(41) كذلك كان (هرقل حريصاً كل الحرص على أن لا يستميل قلوب أقباط مصر) انظر ألفرد ج. بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبلولي، القاهرة 1990، ص 88.

(42) انظر ابن كثير، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 3، ص 513.

(43) وأختها «أم الفضل» زوجة «العباس رضي الله عنه» وأول امرأة آمنت بعد «خديجة» «رضي الله

عنها» وهي التي شجت «أبا لهب» فمات بعد سبع ليالٍ، فهي - ميمونة «رضي الله عنها» - ثاني اثنتين آمنتا بالله ورسوله، زوجها «أبو رحم» الذي مات عنها، فوهبت نفسها لرسول الله ﷺ فزواجه منها ﷺ لم يكن لقربها من «خالد» أو زواجاً سياسياً كما ظن المؤلف. انظر المرجع السابق، ص 27.

(44) وجيء «بأسامة بن زيد» وأوقف بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عينا الرسول ﷺ فأخر، ثم عاد من الغد فوقف بين يديه فقال: «ألاقي منك اليوم ما لقيت منك أمس»، انظر السيرة النبوية لابن كثير، مرجع سابق، ص 482، و469.

(45) المرجع السابق، ص 484 - 485.

(46) المرجع السابق، ص 530 - 531.

(47) المرجع السابق.

(48) المرجع السابق، ص 538.

(49) المرجع السابق، ص 549.

(50) المرجع السابق، ص 548 - 549.

(51) المرجع السابق، ص 550.

(52) قال ﷺ بهذه المناسبة: «ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية ودم ودعوى ومال تحت قدمي هاتين، إلا ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت فإنهما أمضيتهما لأهلهما على ما كانت» المرجع السابق، ص 570.

(53) المرجع السابق، ص 573.

(54) المرجع السابق، ص 576.

(55) المرجع السابق، ص 556.

(56) المرجع السابق، ص 570.

(57) المرجع السابق، ص 603.

(58) المرجع السابق، ص 563.

(59) المرجع السابق، ص 581.

(60) المرجع السابق، ص 597 - 598.

(61) المرجع السابق، ص 592.

(62) المرجع السابق، ص 629 - 630.

(63) المرجع السابق، ص 619.

(64) المرجع السابق، ص 618.

(65) المرجع السابق، ص 627.

(66) المرجع السابق، ص 641.

(67) المرجع السابق، ص 689، «الشيماء بنت الحارث بن عبد العزي».

(68) المرجع السابق، ص 643.

(69) المرجع السابق، ص 658.

(70) المرجع السابق، ص 668.

(71) المرجع السابق، ص 690.

(72) المرجع السابق، ص 672.

(73) المرجع السابق، ص 681.
(74) المرجع السابق، ص 678 ـ 679.
(75) المرجع السابق، جـ 4، ص 79.
(76) المرجع السابق، ص 81.
(77) المرجع السابق، ص 82.
(78) المرجع السابق، ص 83.
(79) ترجم المترجم هذه القصيدة إلى اللغة الانكليزية بكتابه:

Hani Y. Nasri, The Rahmanic Verses, Op. Cit., pp. 136-150.

(80) انظر السيرة النبوية لابن كثير، مرجع سابق، جـ 3، ص 704. وانظر: ابن هشام السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 4، ص 501 ـ 514.
(81) المرجع السابق، جـ 4، ص 56.
(82) المرجع السابق، ص 63.
(83) المرجع السابق، ص 61.
(84) المرجع السابق، ص 61 أيضاً.
(85) المرجع السابق، ص 109.
(86) المرجع السابق، ص 110.
(87) المرجع السابق، ص 112.
(88) المرجع السابق، ص 123.
(89) المرجع السابق، ص 124.
(90) أبو الفدا، المرجع السابق، جـ 4، ص 5.
(91) المرجع السابق، ص 8.
(92) المرجع السابق، ص 6.
(93) المرجع السابق، ص 12.
(94) المرجع السابق، ص 12.
(95) المرجع السابق، ص 12 أيضاً.
(96) طبعاً هذا رأي إيرڤينغ الذي قد لا يوافقه عليه بعض المسلمين، ويوافقه البعض الآخر، وهو موضوع خلاف أساسي بين السنة والشيعة بكل فرقهما.
(97) المرجع السابق، ص 14 ـ 15.
(98) المرجع السابق، ص 19.
(99) المرجع السابق، ص 30.
(100) المرجع السابق، ص 30.
(101) المرجع السابق، ص 31.
(102) المرجع السابق، ص 34.
(103) المرجع السابق، ص 34 أيضاً.
(104) المرجع السابق، ص 34 ـ 35.
(105) المرجع السابق، ص 37.
(106) المرجع السابق، ص 35.

(107) وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 4، ص 522 وحديث ابن الصلت.
(108) المرجع السابق، ص 46 ـ 47.
(109) المرجع السابق، ص 65.
(110) ارجع إلى ما نقلناه عن «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» حين ترجمة نهاية الفصل الأول من الباب السادس والعشرين، في هذا الكتاب.
(111) المرجع السابق، ص 69.
(112) المرجع السابق، ص 69.
(113) المرجع السابق، ص 137.
(114) المرجع السابق، ص 207.
(115) المرجع السابق، ص 208.
(116) ابن ستة عشر شهراً، انظر المرجع السابق، ص 613، ونقل «إيرڤينغ» أنه توفي ابن خمسة عشر شهراً.
(117) المرجع السابق، ص 613.
(118) المرجع السابق، ص 614.
(119) المرجع السابق، ص 614 ـ 615.
(120) ابن كثير، المرجع السابق، ص 442.
(121) المرجع السابق، ص 425.
(122) المرجع السابق، ص 417.
(123) المرجع السابق، ص 416.
(124) ابن كثير، المرجع السابق، ص 96.
(125) المرجع السابق، ص 96.
(126) المرجع السابق، ص 97.
(127) المرجع السابق، ص 94.
(128) المرجع السابق، ص 98. وانظر أيضاً ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 4، ص 600 ـ 601.
(129) ابن كثير، المرجع السابق، ص 443 ـ 444.
(130) المرجع السابق، ص 446.
(131) المرجع السابق، ص 447.
(132) المرجع السابق، ص 445.
(133) المرجع السابق، ص 448.
(134) المرجع السابق، ص 449.
(135) المرجع السابق، ص 453.
(136) المرجع السابق، ص 450.
(137) المرجع السابق، ص 472.
(138) المرجع السابق، ص 476.
(139) المرجع السابق، ص 470.
(140) المرجع السابق، ص 471.

(141) المرجع السابق، ص 473.
(142) المرجع السابق، ص 451.
(143) المرجع السابق، ص 450.
(144) المرجع السابق، ص 450.
(145) المرجع السابق، ص 452.
(146) المرجع السابق، ص 460.
(147) المرجع السابق، ص 456.
(148) المرجع السابق، ص 474.
(149) المرجع السابق، ص 474 أيضاً.
(150) المرجع السابق، ص 477.
(151) المرجع السابق، ص 478.
(152) المرجع السابق، ص 481.
(153) المرجع السابق، ص 482 ـ 483.
(154) المرجع السابق، ص 478.
(155) المرجع السابق، ص 538.
(156) المرجع السابق، ص 529.
(157) المرجع السابق، ص 533.
(158) المرجع السابق، ص 535.
(159) المرجع السابق، ص 542.
(160) لكن منطق الوعي الإسلامي عاد ليفرض نفسه، مما جعل من التوسعة الأخيرة للمسجد النبوي آية عمرانية رائعة من الفن الإسلامي المعاصر.
(161) المرجع السابق، ص 560.
(162) ابن كثير، المرجع السابق، ص 474. وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، جـ 4، ص 651.
(163) المرجع السابق، ص 472.

فهرس المراجع

1 - Washington Irving, Mohomet and his Successors, Hadson Edition, GP. Pantham and son, 1868, N.Y.

2 - عبد الله بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، المطبعة السلفية، القاهرة 1396هـ.

3 - ابن هشام، السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، ط 2، عام 1955.

4 - ابن قيم الجوزي، زاد المعاد، دار الكتاب العربي، بيروت عام ؟

5 - صحيح مسلم، دار المعرفة، بيروت، عام ؟

6 - Friedrich Nietzsche, Twilight of the Idols, Penguin Books, N.Y. 1990.

7 - Friedrich Nietzsche, The Birth of Tragedy, Penguin Books, N.Y. 1993.

8 - Friedrich Neitzsche Ecce Homo, Penguin Books, N.Y. 1992.

9 - بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت 1977.

10 - Bertrand Russell, Philosophical Essays, Routledge, N.Y. and London, 1994.

10 - هاني يحيى نصري، الفكر والوعي، مجد، بيروت 1998م.

11 - Vincent Potter, On Understanding Understanding, Fordham Univ. Press, N.Y. 1994.

12 - علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، نهج البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، عام؟

13 - عبد العزيز مسلم الكناني، الحِيدة، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت عام 1983.

14 - عباس العقاد، أبو الشهداء الحسين بن علي، دار الهلال بمصر، عام ؟

15 - أبو حيان التوحيدي، مثالب الوزيرين، دار؟، دمشق 1965.

16 - الحسن البصري، رسائل التوحيد، دار الهلال بمصر، عام 1971.

17 ـ علي الجرجاني، التعريفات، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحمْية، عام 1306هـ.
18 ـ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982.
19 ـ يوسف كرم، المعجم الفلسفي، مطابع كوستا ـ ماكا وشركاه، القاهرة 1966.
20 ـ أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، دار المعارف بمصر، عام 1958.
21 ـ David Hume, Of Miracles, Open Court, U.S.A. 1985.
22 ـ عباس العقاد، عبقرية محمد، المكتبة العصرية بيروت، عام ؟
23 ـ Potter and Nasri, Text In Sociology level 4, Dar Al-Bayan, Jeddah 1982.
24 ـ صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، عام؟.
25 ـ واشنطن إيرڤينغ، الحمراء، ترجمة ناصيف ونصري، مركز الإنماء الحضاري، حلب 1996.
26 ـ أبي الفدا إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1971.
27 ـ محمد حسين هيكل، دار النشر؟، القاهرة عام؟، ط 5.
28 ـ محمد حسين هيكل، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة دار النشر؟، ط 13، عام 1968.
29 ـ الطبري، تاريخ الطبري، المطبعة المحسنية، عام؟.
30 ـ السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، عام؟
31 ـ Hani Nasri, the Rahmanic Verses, Dar Al-Asalah, Beirut 1995.
32 ـ ابن هشام، السيرة النبوية، المكتبة العلمية، بيروت، عام؟.
33 ـ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، صفات الصفوة، دار المعرفة، بيروت 1986.
34 ـ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم، دار القلم، بيروت، عام؟
35 ـ محمد علي قطب، أمهات المؤمنين، دار القلم، بيروت 1988.
36 ـ الفرد. ج، بتلر، فتح العرب لمصر، مكتبة مدبولي، القاهرة 1990.

السيرة الذاتية الأكاديمية للباحث

الدكتور هاني يحيى خليل نصري.

تاريخ الميلاد: 1366هـ ـ 1946م.

المؤهلات العلمية:

1 ـ ليسانس ـ بكالوريوس في الفلسفة وعلم الاجتماع ـ جامعة دمشق، 1970.

2 ـ دبلوم الدراسات العليا في التربية، كلية التربية، جامعة دمشق، 1971.

3 ـ دبلوم الإنسانية في الدراسات الشرقية والاجتماعية، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1973.

4 ـ شهادة الماجستير بدرجة امتياز الشرف الأولى ببحثه حول مفهوم «العصبية» عند ابن خلدون، 1974، الجامعة اللبنانية.

5 ـ شهادة الدكتوراه في الفلسفة الاجتماعية بدرجة امتياز، جامعة فوردهام في نيويورك، 1978.

6 ـ أستاذ علم الاجتماع المساعد في جامعة الملك عبد العزيز بكلية الآداب، 1978.

7 ـ عضو نادي الرئاسة في جامعة فوردهام في نيويورك كمستشار.

President's Club at Fordham University, New York.

8 ـ شهادة شكر وتقدير من جامعة الملك عبد العزيز لإنجازاته عن عام 1401/1402هـ.

9 ـ عضو هيئة تحرير مؤسس لمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، عام 1401هـ.

10 ـ انتخب رئيساً لقسم الاجتماع في جامعة الملك عبد العزيز عام 1403هـ.

11 ـ أستاذ مشارك في جامعة فوردهام في نيويورك، وتفرغ بعد عام 1990 للإشراف على رسائل الدكتوراه.

12 ـ عضو اتحاد الكتاب العرب 1997.

(الدراسات والبحوث)

المؤلفات المنشورة:

- المسيحان والعصبية في الإسلام، والصهيونية، مطابع الكريم الحديثة، لبنان، 1973.
- Ibn Abd Al-Wahhab's Philosophy of Society: An Alternative to the Tribal Mentality, Fordham University Library, N. Y., 1978.
- في سبيل علم اجتماع إسلامي، دار المجمع العلمي، جدة، 1399هـ/1979م.
- شارك في ترجمة كتاب: «Urbanization in the Middle East» التمدين في الشرق الأوسط، دار القلم، بيروت، 1980م.
- Text in Sociology (Level 3), Dar Al-Bayan Al-Arabi, Jeddah, 1402/1982.
- Text in Sociology (Level 4), Dar Al-Bayan Al-Arabi, Jeddah, 1402/1982.
- عصبية لا طائفية، دار القلم، بيروت 1982م.
- فلسفة التصوف: طاقات وقدرات، دار مجلة الثقافة، دمشق، 1990.
- بين الإرادة والإنجاب، دار مجلة الثقافة، دمشق، 1992.
- The Rahmanic Verses, A Commentary on Atheism in Islam, Dar Al-Asalah, Beirut, 1994.
- ترجمة بحث واشنطن إيرڤينغ حول الحضارة الإسلامية في الأندلس «الحمراء»، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1995.
- الوجود والموت والخلود، دار القلم، بيروت، 1996..
- The History of the Prophet Muhammad, Dar Al-Arkam, Beirut, 1997.
- الميتافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، بيروت 1998م.
- الفكر والوعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ مجد ـ بيروت 1998م.
- الحب والفاجعة، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت 1999.
- ذهنية الإلغاء، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت 1998.

فهرس الموضوعات

واشنطن ايرفينغ

محمد ﷺ

هذا العمل الذي أقدّمه للقرّاء، لا أدّعي فيه أي جديد في الحقائق المعروفة أو في طرق البحث، وهو يحمل طابع بناء قصة متتابعة، يمكن إدراكها بسهولة، تراعي الحقائق حول الرسول ﷺ، ولا تحيد عنها، مع عرض الأساطير التي اكتنفت هذه الحقائق والتنويه بها وبالتقاليد التي رسّختها عبر نظم الأدب الشرقي ككل.

ايرفنغ

أقدّم السيرة النبويّة من المصادر الغربية التي جمعها «واشنطن ايرفنغ» بأسلوبه الأدبي الرفيع، وعقله الموضوعي المستنير، لأظهر للقارئ عظمة هذا الرمز في عيون الآخرين.

إنني أقرأ ايرفنغ بحسن نية، وهي واضحة في تضاعيف نصّه الذي يحمل بلاغة أدبية نادرة، ولكنني إذ أفعل ذلك، لا أقف حيث يتركني ايرفنغ الذي يقع في مطبّات ناتجة عن تأثره بأفكار استشراقية لم تفهم الإسلام، لذلك لجأت إلى مقارنات، استخدمت فيها نصوصاً أساسية للسيرة.

توضعت بشكل أساسي نص ابن كثير واستعنت بنصوص أخرى بينها هيكل وابن هشام والطبري وغيرهم.

هاني يحيى نصري

46.00

المركز الثقافي العربي
ص.ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب